

رُوّادُ الفِكرِ السُّوداني

تأليف

محجوب عُمَر باشَري

دار الجيل

بيروت

رُوَّادُ الفِكرِ السُّودانيّ

تأليف

مَحجُوب عُمَر بَاشِرِي

دَار الجِيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م



مقدمة

ليس هذا كتاباً في التاريخ، كما أنه ليس صحائف في أدب السيرة، فأنا لست مؤرخاً ولا كاتب سيرة بل هذه خطوط عامة وإشارات ولا أتولى توجيهات لمن يريد أن يدرس التاريخ الفكري ومعالم الثقافة السودانية في القرن العشرين. فأنا قد كنت شاهد عصر لبعض الشخوص الذين تحدثت عنهم، وكنت كذلك على اتصال بما كتبه بعض الذين تحدثت عنهم ولم أشهدهم، وتراني لست ناقداً لأن النقد لا يتعلم في مثل هذه الصحائف لأنني أرى الوجود ولا أبحث عن الماهية. فقد قيّمت الكتّاب والشعراء في مضمونهم ومنطلقهم ولم أمسهم باستخدام المقاييس الفكرية والأدبية، فهؤلاء قوم عاشوا في فترة لم تنفتح فيها أمامهم منافذ الفكر العالمي، فمن الخطأ أن أخضعهم لمقاييس عالمية، وأنا إنسان دارس للآداب والفلسفات مطل على الثقافة الإنكليزية والفرنسية وقارئ لليونانية القديمة وعاشق للأدب الإسباني وقد عملت طوال حياتي بتدريس اللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي فهل أطلب منهم ما ليس عندهم؟.

تفتحت عيناي منذ السابعة من عمري على قراءة اللغة العربية، إلا أن ثقافتي وتعليمي كانا بالإنكليزية. فقرأت اللغة العربية قبل أن أكتبها. ولم أكتبها إلا وأنا في العشرين من عمري لذلك اختزنت ذاكرتي الكثير من المعلومات وحفلت مكتبتي بالصحف والمجلات القديمة وكتب الشعر التي أخرجها الشعراء السودانيون وكل ما كتبه السودانيون في أيام طفولتي. ونمت عندي هذه العادة، ولم أنصرف عنها وقد شجعني الأستاذ عبد الله رجب عام ١٩٥٤ عندما أرسلت له مقالاً عن معاوية محمد نور فأبى أن ينشره إلا أن يعلن عنه ليصدره في عدده الشهري.

وفي عـام ١٩٥٩ اختصني الأستاذ بشـير محمـد سعيـد بـالإشراف عـلى صفحـة الأدب في جريدة الأيام فكتبت بعض الصور والذكريات عن بعض الشخصيات. ولما أسست جريدة الثورة خططت فيما كنت أكتبه أن أذيع على القـراء حديثـاً عن علم من أعلام السودان، وأتاح لي السيد اللواء محمد طلعت فريـد والسيد أحمـد خير والمـرحوم الأستاذ محمد عامر بشير الاطلاع على الوثـائق والملفات، وكـان ذلك في عـام ١٩٦١. ومثل هذه الخـطوة كانت عنـاية من الله فـانكببت على الـدراسة حتى إذا جـاء يوم ١٥ أكتوبر ١٩٦٢ كنت قـد درست وكتبت عن مائتي شخصيـة سودانيـة.. وتوقفت بعـد ذلـك ولكنني لم أنصرف، وحتى إذا ما حـل عام ١٩٧٨ ألـح عليّ الأستـاذ محمـود أبـو العزائم أن أقدم بعض الشخصيات السودانية للإذاعة السودانية فاستعدت ما كنت قد تخليت عنه، ورجعت إلى أضابيري وملفاتي فـالعمر قصـير، وأنا لا أبحث عن أبـطال ولكنني لا أقـول كما قـال صمـويـل بكيت (لا أحـد يـأتي لا أحـد ينصرف لا شيء لا يحـدث)، لقد أتى آحـاد وانصرف آحاد وحـدثت أشيـاء وأنـا لم أنتـظر جـودو ليحضر ولست أنا وحدي الإنسان والآخرون خراتيت كما في مسرحية يونسكـو الخرتيت. كـل هؤلاء أناسي وإن نسيهم الناس فتذكرهم الأجيال.

بعض الأسماء التي كتبت عنها غير معروفة، فهذا العـالم يتطور كـل يوم وتغـزوه الاكتشـافات ولن يضيـع فيـه أثـر. فنحن في عهـد المعـرفـة الشـاملة ولسنـا في عهـد التخصص. والمعرفة كلها أصبحت متصلة.

لـذلك تجـد في رسـمي للشخصيات مـلامح مختلفـة بالـرغم من أنني درست مـا كتبه استراتشي واميل لودفيج وأندريه موروا واستيفان زيفايـج والعقاد ومـا كتبه قبلهم ماكولي وكارليل وتين ومادرياجا وأمرسون وكتـاب الخطط والسـير والطبقـات في الأدب العـربي وما كتبـه بلوتارخ في الأدب القـديم. إنني نتاج عصري فـإن كان هنـالك من يطمع أن يرى تاريخاً صرفاً فليحاول ذلك بنفسه ويهتدي بـالخطوط التي رسمتهـا. وإن كان يتوق ليرى نقداً فإنني قدمت له المواد الأولية. وإن كان يريد فيما كتبه مؤانسـة فربما وجدها، إن الذي أكتبه هو إيقاظ وتنبيـه. وقد يلومني أنـاس أنني نظرت إلى الجـوانب المشرقة في كل ما كتبته ولم أمس أحداً في أدبه أو في سلوكه ولم أحاسبه على هفواته بـل كنت رفيقاً لطيفـاً رحيماً. نعم إننـا بشر وإننا نخـطئ ولكن هؤلاء رواد فتحوا أمـامنا الطريق وتغلبوا على الصعاب فهل أهشمهم وهم آباؤنـا وكبارنـا، ليـست عندي عقـدة

الأب التي يستقل بها الفرويديون كما أنني لا أشد عضلاتي فأستعين بالفلسفة التحليلية أو بالكفر الماركسي أو غيره، فأنا أكتب وأنا في نهاية القرن العشرين درست هيربرت ماركيوز ورأيت المادة تتحلل إلى ذرات والذرات تنقسم وتصبح طاقة ذرية وليس هنالك شيء في حالة استقرار غير القيم الإنسانية، فإن كانت هنالك أشعة لا تراها رؤية واضحة بالرغم مما اكتشفه العالم بيرد ولكن هنالك قيماً مهما تقدم العلم وتقدم الإنسان فهي واضحة ألا وهي الحق والحرية والخير والجمال، فكل ما أكتبه ينتمي لذلك، وأنا نتاج للفارابي وابن سينا وابن النفيس وابن رشد، وحياتي قامت على الثقافة الإسلامية والقرآن، ولست رجعياً، فقد كتب ربك على نفسه الرحمة، وهؤلاء أخرجونا من الظلمات إلى النور وأحسنوا إلينا وجاهدوا، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والله مع المحسنين﴾.

عجوب عمر باشري

الخرطوم

إبراهيم أحمد [١٨٩٨ ـ ١٩٨٩]

من الناس من تطغى أخلاقهم وصدقهم وقيمهم على كل شيء في هذه الحياة، فينفر منهم البشر، ويخافون ويحسون أن وجودهم عبء عليهم، فهذا النفر من الرجال ملوك متوجون لا ندرك قيمتهم إلا بعد فوات الأوان، فهذا الصدق القاسي والحقيقة المؤلمة والصراحة الشاذة مع النفس قبل أن تكون مع الآخرين هي سمات السيد إبراهيم أحمد المهندس المعلم الوزير.

تخرج إبراهيم أحمد في كلية غردون في قسم الهندسة، ذلك القسم الذي أسسه السر جيمس كري في العقد الثاني من القرن العشرين، وجعله تحت إشراف وليام ماكلين، الذي رسم فارساً فيما بعد، ونال كذلك درجة الدكتوراه في الهندسة، ودخل البرلمان الإنكليزي. وماكلين نفسه مهندس بلدية العاصمة المثلثة، فكان أي بناء يقام في العاصمة يرسم ويخطط في كلية غردون، فاستفاد الطلبة من ماكلين خبرة عملية وعلماً نظرياً، فبدون العلاقة مع التجربة والعلم لا يكون هنالك أي تعليم وإلا أصبحت المعرفة اجتراراً للمعلومات ونسيانها فيما بعد. وبالرغم من وجود مصلحة الأشغال أصر السر جيمس كري أن يخطط ماكلين ويبني مدرسة أم درمان المتوسطة، والتي افتتحت في عام ١٩١٣.

نشأ إبراهيم أحمد في هذا المناخ الفكري وحتى إن قسم الهندسة في كلية غردون لم يكتف بتخريج مهندسين بل إنه خرّج أدباء وشعراء، ورجال قانون وساسة فيما بعد، فعندما زار ماكلين السودان في عام ١٩٣٧ كتب يقول: إن تلاميذي القدامى الذين هم الذكريات الحية لعملي فقد علمتهم أن يفكروا ولا يستظهروا الدرس أو

وجّهتهم أن يفتحوا أعينهم على التطبيق العملي لما يدرسونه في الفصول وقد كانوا مهتمين بدراسة الهندسة حتى إنهم كانوا يتناولون وجبات الغداء في حجرة الفصل.

عمل إبراهيم أحمد بعد تجربة عملية في الوظيفة الحكومية مدرساً في قسم الهندسة والمساحة في كلية غردون، فالتزم بالدقة وتطبيق الدروس النظرية على المشروعات والمنشئات، وظل موضع تقدير تلاميذه فلما قام مؤتمر الخريجين كان إبراهيم أحمد من الأوائل الذين اشتركوا فيه، فهو صاحب أفكار واضحة، أولاً: إنه آمن باستقلال السودان دون الارتباط بأي من دولتي الحكم الثنائي، ثانياً: رأى أن الاستفادة من الإمكانات المتاحة دون القفز إلى الطموح غير المدروس مضر بمسيرة الأحداث حينذاك، ووجد نفسه في معترك لا بد له أن ينتمي إلى الفريق الأكثر تماثلاً مع أفكاره، لذلك وقف في المعسكر المناوىء للسيد إسماعيل الأزهري، وفاز برئاسة مؤتمر الخريجين واشترك اشتراكاً قوميًا في تقديم مذكرة مؤتمر الخريجين في عام ١٩٤٢، تلك المذكرة التي طالبت بتحقيق مصير السودان والتزم بذلك.

إن إبراهيم أحمد انبثاقاً من فكره الهندسي وجد أن المعارضة لا تقوم من الخارج فاشترك في كل المؤسسات السياسية التي قامت قبل الاستقلال، وكان له رأي مسموع، كما كان للسيد محمد علي شوقي والسيد محمد صالح الشنقيطي آراء مسموعة، فالفرق بينهم وبين السياسيين الآخرين أنهم لم يعتمدوا على قواعد شعبية، ولكنهم اعتمدوا على معاركة الحدث في مكمنه وحتى سني ما قبل الاستقلال كان الناس يخشون أن يضعوا إبراهيم أحمد في أي منظومة حزبية وإن كان قد وقف مع الأفكار الاستقلالية.

ولما تألفت الحكومة في عام ١٩٥٦ بائتلاف حزب الأمة وحزب الشعب الديمقراطي تبوأ إبراهيم أحمد منصب وزارة المالية، وقد بدأت الأحوال الاقتصادية والمالية تتدهور، أولاً لأن القفزة التي أوجبتها حالة الاستغناء عن الموظفين البريطانيين استدعت دفع تعويضات لهم، كما دفعت للضباط البريطانيين العاملين في قوة دفاع السودان وهزت هذه التعويضات النظام المالي في ميزانية جمهورية السودان. وجاءت مشكلة بيع الأقطان السودانية فاضطربت الحالة الاقتصادية، لم يلجأ إبراهيم أحمد للضرائب بل إنه حافظ على تثبيت الفصل الأول في الميزانية، فكانت الترقيات

بحساب مقدر، كما أنه لم ينس أبداً عوامل التنمية ولكنه ركز على امتداد المناقل للحاجة الماسة للتوسع الزراعي وكانت الاستثمارات الأجنبية تدرس بدقة بالغة بحيث لا يسمح للتوغل الاستثماري أن يفيض على الميزان الاقتصادي فتنوء الدولة بالديون والقروض، لأن هنالك ما يقابله من عائد يغطيه، فاحتفظ بذلك للعملية السودانية بقيمتها، وكانت العملية مرتبطة بالجنيه الاسترليني.

كانت وزارة المالية حريصة على متابعة أعمال المصارف، علماً بأن المصارف كانت كلها أجنبية، لم تسمح لها إلا بحدود في التسهيلات والقروض كما أنها منعت المصارف من قرض الموظفين إلا بإذن من مصالحهم.

إن إبراهيم أحمد لم يتخصص في الاقتصاد والمالية، لكنه كان يعرف كيف يفكر، لذلك عالج الأزمة الاقتصادية التي بدأت مع استقلال السودان، وقبل ذلك كان إبراهيم أحمد يعمل في كلية الخرطوم الجامعية وعمله كان مختصًا بشؤون الطلبة، فلاحظ أن السودان سيمتلىء ويفيض بأصحاب الياقات البيضاء الذين يخرجون من الجامعة، فحاول أن تستوعب الجامعة الذين تؤهلهم كفاياتهم ومؤهلاتهم حتى يواصلوا الدراسة ليستفيد منهم السودان، فكثير من الطلاب يلتحقون بالجامعة ويرسبون ويفصلون، فاجتهد أن يوفر على السودان مثل هذا العبء، لأن التعليم الجامعي مكلف لأنه أداة من أدوات الاستثمار، وانتقده الساسة في ذلك. فالإحصائيات تؤكد أن عدد الذين تركوا التعليم الجامعي حين ذاك كانوا ١١٪.

نعم لقد عمل إبراهيم بالسياسة وترأس مؤتمر الخريجين، فإنه لم يكن بالخطيب الجماهيري وبالزعيم السياسي، بل كان معلماً فخطاباته كانت مبنية على أرقام وحقائق وحتى الخطط التي قدمها كانت محسوسة ومحدودة فهي لم تجرده من الخيال والمخيلة لكنها قامت على الوقائع.

وقد أصبح أول مدير عام ورئيس مجلس إدارة لبنك سوداني وطني وهو البنك التجاري السوداني وعمل معه اقتصاديون ودارسون لشؤون البنوك المالية، فحقق هذا البنك الرائد أرباحاً، وأثبت أن عقلية إبراهيم أحمد الهندسية قادرة على تسيير الاقتصاد.

الذين يعرفون إبراهيم أحمد من المهتمين بالدراسات النوبية يعدونه مرجعاً ثابتاً في لغة النوبة وفي تاريخ الحضارة النوبية، حتى الكبار من المتعلقين بالدراسات النوبية يفيئون إليه ويستمدون من علمه ومعرفته، إنه الرجل الذي عرف متى كان الزمن الذي يستدعيه أن يعمل، والزمن الذي يستدعيه أن ينسحب، لذلك كان أكثر الناس احتراماً لنفسه في كل العهود، فالناس يعرفون آراءه وقد يخالفونه في هذه الآراء، ولكنهم يحترمون هذه الآراء لأنها صدرت عن منطقة قوة وصدق، فإن كان هو أحد رواد حياتنا الفكرية، فهذه الريادة هي الفكر المستقيم والخلق المستقيم، هذا الرجل الذي خرّج المئات من المهندسين من بين يديه كان مهندساً لأن الكون كله قام على نظام هندسي.

فَلْنُحَيِّ السيد إبراهيم أحمد أحد روادنا في مسيرة حياتنا الفكرية فهو أحد مؤسسي مدرسة الأحفاد وقد رسم بناءها وظللها وأشاد به بابكر بدري لأنه فعل الخير من أجل الخير.

الدكتور إبراهيم أنيس [١٩٠٤ ـ ١٩٦١]

كان التعليم العالي بعد كلية غردون وقفاً على الأطباء دون غيرهم، لذلك كان المثقفون الذين استطاعوا أن يطلوا على الآفاق العالية هم في الغالب من الأطباء، فقد استطاعوا أن يدرسوا الكيمياء ووظائف الأعضاء والفيزياء وعلم الحياة، وعرجوا على دراسة علم النفس وألموا بالفلسفة، لذلك كان بينهم الأدباء والعلماء، كمنصور علي حسيب وعلي أرباب، ومحمود حمدي والباقر إبراهيم عبد الماجد، ومختار محمد محمود. كان الطبيب متفرغاً للعمل في المستشفى ويقضي طوال يومه وطرفاً من ليله في الدرس والتحصيل، كما أن ترتيبهم في الوظائف في المقدمة، يتخرجون في درجة عالية، ويصعدون سلالم الترقي من غير بعد.

والدكتور إبراهيم أنيس كان من الدفعات الأولى، وقد اهتمّ الدكتور إبراهيم أنيس بالقضايا الوطنية والمشكلات الاجتماعية، وعشق الأدب والسياسة وذاعت شهرته في كل مكان عمل فيه، فلما استقر في واد مدني رأى النادي ملهى ومركزاً رسمياً تسيطر عليه الحكومة، فاللجنة خاضعة لتوجيهات المديرية، كما أن النادي أتاح لأعضائه أن يكون لهم الحق أن يتناولوا المشروبات الروحية داخل النادي، فالتفّ حوله نفر من المثقفين، وقامت الجمعية الأدبية في النادي وكانت تجتمع في غرفة مغلقة في يوم أو يومين في الأسبوع، وتكاثر أعضاء الجمعية حتى أصبحت جمعية عامة ضمت خيرة الذين كافحوا في سبيل حرية السودان، نذكر منهم إسماعيل العتباني وحسن يسن وإبراهيم عثمان إسحق وحسن نجيله ومحمود الطيب هيبه وإبراهيم عمر الأمين وحسن نوري والدكتور دفع الله مصطفى، وهذا على سبيل المثال وليس على حساب الحصر.

ونشأت في الجمعية الأدبية فكرة مؤتمر الخريجين التي قدمها أحمد محمد خير الذي كان يعمل مترجماً في المديرية.

رعى إبراهيم أنيس الوعي الوطني والثقافي ونقل بعد ذلك، وقد تبلورت الفكرة الوطنية، ولما قامت الرأي العام كصحيفة يومية في عام ١٩٤٥ كان إبراهيم أنيس يعمل في وزارة الصحة، فتكون صالون الرأي العام الذي بدأ بصالون الفول، عندما كان إسماعيل العتباني يرأس تحرير صوت السودان وكانت الرأي العام تصدر مسائية، فيحضر ميخائيل بخيت، وإبراهيم أنيس وإبراهيم عثمان إسحق وأحمد خير في بادىء الأمر ويخططون مع إسماعيل العتباني وأحمد مختار وحسن نجيله فانتشرت الصحيفة في اليوم التالي، فإبراهيم أنيس يأتي بفكرة وتناقش الفكرة، وقل ما كان يكتب إلا إذا وجد في نفسه حماساً فتكون الفكرة في موضوع الافتتاحية.

كان يقرأ في سهولة ويسر، فيناقش ما يقرأه مع أصدقائه وزملائه في أسرة تحرير الرأي العام ويشير في بعض الأحيان لترجمة بعض مفاهيم القارىء السوداني في الصحف الإنكليزية، والرأي العام كانت تمثل المثقفين الذين لم ينضمّوا تحت حزب من الحزبين الكبيرين حينذاك، حزب الأشقاء وحزب الأمة، ورويداً رويداً تكونت منها مدرسة هي مدرسة الاتحاديين التي لم تطلها الطائفية.

كان إبراهيم أنيس محدثاً بارعاً مهماً بما يتحدث عنه، كما أنه كان منطقياً وموضوعياً، وفي الكتابات القليلة التي كتبها نجد الوضوح والجمال، والبراعة في الاستهلال والخاتمة، حتى إن أبناء ذلك الجيل كانوا يعجبون لماذا لم يواصل إبراهيم أنيس الكتابة ويتفرغ لها فعنده كل أدواتها.

حلقة إبراهيم أنيس كانت عامرة بالنقاش والمعرفة فكلهم قارئون ومتمكنون من اللغتين العربية والإنكليزية، تجد حسين عثمان إسحق، ومحمد حسن عبد الله وإبراهيم عثمان إسحق وميخائيل بخيت وإبراهيم يوسف سليمان وأحمد مختار وعثمان أحمد عمر.

وكان إبراهيم أنيس من عشاق الشعر العربي وكثيراً ما اختار الدرر لتنشر في صحيفة الرأي العام، والذين جلسوا لإبراهيم أنيس يرون صورة المثقف المتمكن الملمّ

بشؤون عصره فهو لا يتكلف في حديثه ولا يحيد في نقاشه بل يعالج الفكرة كما يعالج النحات تمثاله حتى يظهر الصورة ويوضحها.

إبراهيم أنيس أشبه في تاريخنا بالمثقفين الذين مهدوا للثورة الفرنسية فهو يقدم الأفكار ويوجه إلى العمل ويشير إلى مواطن الداء، والذين شهدوه في الجمعيات الأدبية وفي ليالي القبعة مدركون فيه الأصالة.

وعندما نال السودان استقلاله اختير إبراهيم أنيس ليكون أول سفير للسودان في واشنطن، وتقاعد في عام ١٩٦٠ وخرج إلى الخرطوم، وافتتح عيادته وشارك في الجمعيات الخيرية ولكن المنية عاجلته وهو يحضر حفلاً في الفندق الكبير في عام ١٩٦١. إن إبراهيم أنيس كان فريداً في دوره الذي قام به في الثقافة السودانية وهو الذي نظم جمعيات القراءة والنقاش والبحث وهو الذي نبه للأفكار الحديثة عامة، من غير تحيز لاتجاه خاص، كما أنه شرح بعض الظواهر في أسلوب علمي كالحب والشعوذة والزار، لم يكن الناس حينذاك يعرفون التفسير العلمي لتلك الظواهر، إن إبراهيم أنيس ظاهرة في حياتنا الثقافية ويعترف له الكثيرون بالفضل في توجيههم، لقد كان منظم التفكير، قوي الإيحاء، هادىء الطبع، مما جعله موضع الاحترام والثقة، والذين يؤرخون لأول مهرجان أدبي في واد مدني يدركون قيمة إبراهيم أنيس في العمل الثقافي وتنظيمه مع زملائه لإنجاح ذلك المؤتمر. والذين عاصروا إبراهيم أنيس في القضارف يؤكدون قيمة إبراهيم في إشاعة روح الثقافة والقراءة وإحياء الحياة الاجتماعية في نادي القضارف، لقد كان طاقة وكان ساحراً يحب الحياة والفكر ويغرس المحبة والجمال في حياة الآخرين.

إبراهيم حسن محلاوي [١٨٩٨ ـ ١٩٧٧]

مكافح حرّ وسياسي بارز ومثقف موسوع الثقافة، نشأت أسرته في البحر الأحمر وكان بعض أسلافه من التجار في كسلا وسواكن وسنكات، وقد نزحت الأسرة من المحلة الكبرى، وعاشت هناك منذ القرن التاسع عشر، تلقى إبراهيم حسن محلاوي تعليمه في المدرسة الوسطى بعطبرة، وعمل في سكة حديد في قسم الحسابات منذ صباه، وعكف على الدراسة الجادة، والاهتمام باللغات، وكان في عام ١٩١٦ يدفع ثلث مرتبه البالغ ستة جنيهات لموظف مدرس كان يدرسه اللغة الفرنسية، درس اللغة الإنكليزية بالمراسلة في كلية بلندن، ونال دبلوما في ذلك، وبدأ دراسة القانون ولكنه فضل أن يتابع دراسته فيما يتصل بعمله، لذلك آثر أن يدرس المحاسبة في عام ١٩١٨، وحصل على دبلوم المحاسبة ومسك الدفاتر من كلية بنت، ولم يكتف بذلك فاتصل بجماعة بجامعة كولومبيا الأميركية ونال درجة جامعية في الاقتصاد السياسي، وبرز محلاوي منذ العشرينات في الحياة الاجتماعية في عطبرة، فكان عضواً في الجمعية الأدبية التي أشرف عليها المرحوم الشاعر الأديب اللواء محمد فاضل باشا، فقدم محاضرات في الأدب العربي بلغ عددها عشر محاضرات وأثارت محاضرته عن الوطنية في الشعر العربي، كثيراً من الجدل والنقاش، إذ وضح أن الشعراء العرب منذ الجاهلية عنوا بأوطانهم على الأطلال حتى وصل إلى شعر البارودي وشوقي وحافظ وسرد في محاضرة أخرى عن القرية في الأدب العربي كنماذج من شعراء الأندلس والمهجر، واحتفظ بهذه الأوراق في خزينته الخاصة. وكتب في حضارة السودان خواطر بتوقيع ا.ح.م لأن الموظفين حجر عليهم الاستعمار الكتابة في الصحف، واعتاد منذ

شبابه الباكر أن يقرأ الصحف الإنكليزية وبالأخص التايمز والمانشستر غارديان بجانب الصحف والمجلات المصرية، منذ الثلاثينات توفر على دراسة الألمانية واتجه اتجاهاً اشتراكيًّا في إعجابه بالفابيئة. كانت مكتبته إبان استقرار حياته في عطبرة حافلة بالكتب والمجلدات في وضع أنيق، حتى إنه كان يجلد الهلال والمقتطف والرسالة، وفي عام ١٩٣٦ تحدث في النادي السوداني عن الحرب الاثيوبية في دراسة وافية، وأشار في هذه الحرب بأنها الحرب التي تمخضت عن الأزمة الاقتصادية العالمية، واستدعاه مدير سكة الحديد وأوكل إليه تدريب المحاسبين عمليًا توطئة لتقدم دراساته في المحاسبة القانونية، وفي عام ١٩٣٩ استعين بخبير بريطاني يهيء المحاسبين لدراسة المحاسبة القانونية وأعفي محلاوي من الدراسة بحجة أنه غير ملم بالمنهج، وكلف بإلغاء محاضرات في الاقتصاد بجانب الخبير البريطاني، وفي تلك الفترة نضجت أفكاره السياسية، واهتمّ بدراسات الفابية الاشتراكية واشترك في جريدة الاستهان اند ناشيون، وخلال الأربعينات إبان الحرب العالمية الثانية ألقى محاضرات عن الديمقراطية والشيوعية والنازية الفاشية، وأرسل له السكرتير الإداري خطاباً أشاد فيه بعلمه وثقافته، علماً بأنه كان من أكثر الناس عملاً في مؤتمر الخريجين، وأجهرهم صوتاً في قيام المدارس، لأن عطبرة لم تكن بها غير المدرسة الوسطى الحكومية ومدرسة الكاثوليك والمدرسة القبطية.

عند نهاية الحرب العالمية الثانية حاول البريطانيون أن يحتوا أفكار محلاوي لأنه تنبه إلى ضرورة قيام الحركة النقابية، وربط عمال سكة الحديد ببعضهم في أنحاء السودان باديء ذي بدء عمل مع المستر وليبي الذي عرف بميوله الاشتراكية، واستطاع الاثنان أن يخرجا قانون نقابة سكة الحديد الذي منح العمال حق الإضراب، فأعفي المستر وليبي من عمله، وتنبهت السلطات البريطانية لأفكار إبراهيم محلاوي التشريعية واندماجه في العمل السياسي، وفي عام ١٩٤٨ اشترك في قيادة المظاهرات ضد قيام الجمعية التشريعية وسجن وفصل عن العمل، فتوغل في العمل السياسي، وأصبح عاملاً هامًّا من عوامل الحركة الاتحادية، واشترك في أول حكومة وطنية في عام ١٩٥٤، وكان وزيراً للثروة المعدنية، وقد فاز في الانتخابات ولكنه اختلف في سياسته مع قيادة الحكومة التي اشترك في وزارتها. بعد ذلك وهب حياته للتنقيب عن المعادن وبالأخص الكروم في سواحل البحر الأحمر، ولم ينس أن يشارك في العمل السياسي،

ويتبنى تنمية التعليم في عطبرة وفي البحر الأحمر، فقامت مدارس مصرية تحت رعايته في عطبرة وسنكات ووقر.

إن الدارس لملف إبراهيم حسن محلاوي يجد مذكراته السياسية للحكومات المصرية وللمستر سولين لويد ودفاعه عن حرية السودان واستقلاله، ويعجب بأسلوبه الرفيع في اللغتين الإنكليزية والعربية، كانت هواية محلاوي القراءة والكتابة، ولكن ظروفه والظروف التاريخية والاجتماعية في السودان جعلته يتفرغ لعملين هما السياسة والتعدين، فإرادته القوية وفكره الثابت جعله يصارع الحياة، ويتغلب على مصاعبها وآلامها، لا يشكو المرض ولا يحس أنه يعاني من أي حاجة في حياته، تجاوز السبعين فكان يسعى على الأرض، ويستقل الحافلات العامة، ولا يمد يده لإنسان. يتأبط كتبه، ويتحدث عن البترول في السودان وعن منابعه وعن المعادن الزاخرة في أرض السودان ويرسم الخرائط ويتابع سير الفكر، ويقرأ في صنوف من المعرفة، ويستشهد بالشعر، لقد درس الإيطالية بعد الستين لأنه تعامل مع شركات تنقيب إيطالية. لم يرزق محلاوي بولد، ولكنه كان أباً للجميع، إن صبره ومثابرته وقدرته على التحصيل والثقافة ودوره في الحركة الوطنية وإذكاءه للحركة الثقافية، وتنبيهه للأجيال منذ العشرينات حتى الخمسينات، كل ذلك يجب أن يقابل بالتقدير. فيا حبذا لو تفرغ الباحثون لجمع كتاباته ورسائله، فإنها تراث لهذا البلد.

إن إبراهيم حسن محلاوي واحد من الأعلام الذين نكرمهم في موتهم وهم خالدون بيننا بأعمالهم.

إبراهيم عبد الرازق [١٨٩٦ ـ ١٩٧٥]

لم ينل مكانه في الدنيا، فلينله في الآخرة، فالآخرة خير له وأبقى، ويسألونك من هو إبراهيم عبد الرازق، أليس هو ذلك الرجل المعلم الذي عمل في مدرسة الصنائع بعبطرة وجبيت؟ أليس هو ذلك المحرر في مكتب النشر بوزارة التربية؟ هذا لا يهمنا في كثير أو قليل.

إن إبراهيم عبد الرازق ظاهرة لن تتكرر في المجتمع السوداني، فقد كانت هنالك ظواهر كثيرة، ولكن كل ظاهرة لها مكانها، فقد كان هناك شوقي الأسد والريح العيدروس ومحمود القباني ولكن إبراهيم عبد الرازق يختلف عن كل هؤلاء.

الطموح والذكاء سمتان من أخطر السمات، إن لم يجدا السكينة والسلام أصبحتا سلاحاً، إما على صاحبيهما وإما على الآخرين، تخرج إبراهيم عبد الرازق في مدرسة العرفان وطمع أن يجد مكاناً في كلية غردون، قسم المعلمين، أو قسم القضاة، لأنه درس العلم واللغة وحفظ القرآن. وأسرته من كبريات الأسر في الخرطوم وشمبات وتوتي. وفي تلك الفترة التي تخرج فيها معلماً في الكتاتيب بدأ يثقف نفسه ويقرأ الأدب والتاريخ ويدمن قراءة الصحف، ووجد أمامه جيلاً ينظم الشعر ويكتب النثر. فنظم الشعر ونشره وألقاه في المحافل وحرر المقالات وأذاعها في الصحف، ولم يلتفت له أحد فتعلم اللغة الإنكليزية واستطاع أن يقرأها ويتحدثها. وفي العشرينات بدأت سلطة الحكم الثنائي تختار من معلمي الكتاتيب من يعمل في الإدارة، واختير توفيق صالح جبريل وصديق نديم وعبد الله أبو سالف وغيرهم وأهمل إبراهيم عبد الرازق فاتصل باللواء الأبيض وجمع الاشتراكات لهذه الحركة ولكنه لم يصل إلى

دور قيادي في صفوفه . . . وتحول بعض معلمي الكتاتيب إلى وظائف في الخدمة المدنية فحاول أن يسلك في سلك الأفندية فلم يستطع . ورحل يلم بالأحداث الاجتماعية ، ويعرف الأنساب ويحلل الآراء والأفكار لعله يجد طريقاً يسير فيه . فعكف على دراسة أخبار الصالحين والأولياء في منطقة الخرطوم ومواقع الأماكن في الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحري والحلفاية ، فظنه الناس يسمر ويحكي ، وفارت البلاد في حركتها الوطنية ، فكان له رأي في كل شخص وفي كل حدث ، فظل كما هو لم يأخذه الناس مأخذ الجد لأنه يهري الأشياء .

وتقاعد في المعاش فعمل في مكتب النشر ، فكتب للصبيان والكبار ، وأخرج سيراً وتراجم ، وصحح ما كان ينشر وقربه للطفل والرجل العادي الذي لم يصب تعليماً منتظماً . . . استيقظ الأكاديميون السودانيون في الستينات فرجعوا إليه وكان مصدرهم الوحيد عن العاصمة المثلثة ، ما من شبر فيها إلا وقد عرف تاريخه ، وما من أرض إلا حدد اسم صاحبها ونسبه ، بدأوا يتهافتون عليه ليقص عليهم قصة نشأة الخرطوم والخرطوم بحري والشخصيات البارزة التي عاشت فيها ، لم يفقد الذاكرة ولم يطمس الحقيقة ودونوا ما دونوا ولم يذكروا اسمه . حقاً لقد كتب عثمان حمدنا الله عن طبغرافية الخرطوم وأرخ لشوارعها ولأحيائها ومقاهيها وأنديتها ولكنه لم يسرد ذلك في قالب الفنان الأديب . فإبراهيم عبد الرازق له هبة الفن وهبة الأدب وهبة الوصف .

درج على غشيان بعض أصدقائه وعارفي فضله ، فكانوا يستأنسون بحديثه لأنه كان ملماً بأحداث الساعة شغوفاً بالأخبار وعرفوا مصادرها وبواطنها . فعشاق الأخبار في الخرطوم كانوا فنانين لهم حاسة سادسة يأتي لهم الخبر مطواعاً في صحة ودقة ، فاللحظة التي تمر بالأحداث ولا خبر تضيق لهم الحياة . . . لم يكونوا لينتفعوا بالأخبار من أجل السياسة أو الإفادة أو استغلالها في مرفق من المرافق . . . عشق الأخبار كانت لحمة وسدى وجودهم ، وعنهم الناس كانوا يروون ويعتمدون . . وإبراهيم عبد الرازق كان من عشاق الأخبار ، تعجب كيف يحصل عليه وما الذي كان يغريه للبحث عنه .

هذه مدرسة كانت لها أساطينها ولها مريدوها . ففي السودان ظواهر كثيرة . هنالك أناس قد توفروا على رصد أسماء الثقلاء والسخفاء ، وأعدوا لذلك السجلات والاجتماعات . وهنالك أناس توفروا على حفظ أماكن مقابر المشهورين في السودان ،

وهنالك أناس تخصصوا في الأنساب، ومواطن النازحين إلى غير بلادهم. أما إبراهيم عبد الرازق فقد تخصص في معرفة تاريخ العاصمة المثلثة وأحداثها وشخصياتها.

لو كان إبراهيم عبد الرازق في غير السودان لجمع الأدباء والمؤرخون أحاديثه وأخباره. فالناس في بلادنا يضيقون بالمعرفة في بعض الأحيان، وعندما يحتاجون إلى ما كان في الماضي لا يجدون من يقصه عليهم.

إن الكتب الصغيرة والمقالات التي كتبها إبراهيم عبد الرازق جعلته رائداً في رصد أخبار المحدثين وتاريخ المشهورين ومواقع العاصمة المثلثة.

سار في الحياة كثيراً ومات ففقده الناس، وتلفتوا لمن يجمع سيرته وتراثه ولكن هيهات، إن الشعوب تصاب بالغفلة في بعض الأحيان ويجيء التاريخ فيتساءل أين كنتم؟ إنني ـ لمذكر ولست بواعظ ـ رحم الله إبراهيم عبد الرازق بن الجامع.

إبراهيم محمد حمو [١٨٨٦ ـ ١٩٥٨]

كانت (سواكن) حتى مطلع القرن العشرين هي عروس الموانىء في السودان وقد سكنها كثير من التجار ورجال الأعمال الذين وفدوا إليها من البلاد العربية والهند وبعض أجزاء فارس، وربطت سواكن كل أجزاء السودان بتجارتها، والناس يفدون إليها من شمال السودان ومن وسطه، كما أنه كانت هنالك طرق متعددة يصل واحد منها إلى المتمة وآخر إلى بربر، وآخر إلى البطانة، ولم تكن سواكن منعزلة، فقد نشأ إبراهيم محمد حمو في أسرة من التجار، وتوشجت علاقة هذه الأسرة بأسرة الكابلي، والمحلاوي، والكردي. وتلقى إبراهيم محمد حمو، تعليمه في مدرسة سواكن الابتدائية وهذه المدرسة توازي المدرسة المتوسطة اليوم وتخرج فيها ليعمل في مطلع القرن العشرين في شركة التلغراف الإنكليزية، وكان من زملائه إبراهيم علي مرزوق وإبراهيم رفعت، ثم جاء من بعده صالح ضرار ونصر عثمان وعوض يوسف.

وكانت سواكن حافلة برجال العلم والأدب في أول القرن العشرين، فكان هنالك الشيخ ماضي أبو العزائم والشيخ محمد البشير الفضل، والمطالعة والمثاقفة والبحث، كل هذه شغلت الشبان، فتسابقوا على الدرس والتحصيل، واقتناء الكتب. فأنشأ إبراهيم محمد حمو صالوناً أدبياً أطلقوا عليه الفرقة الأدبية، وأول ما قام به إبراهيم محمد حمو جمع أخبار وتاريخ منطقة البحر الأحمر، ودراسة القبائل وطبائعها وأنسابها ورد أصولها إلى القبائل العربية، التي هاجرت إلى السودان، ورأى المفتشون البريطانيون في هذه الدراسات التي صنفها مدرسة، فاستفاد من ذلك روبرت، بالأخص في كتابه عن البجه، وج.س. اسكوت في الأوراق التي نشرها في دورته في

السودان «مذكرات وملاحظات». وقد اتقن إبراهيم حمو اللغة التركية والفارسية فأعانه ذلك في حل كثير من المخططات والرسائل، التي كانت في مديرية سواكن. وكبرت حلقة إبراهيم حمو، فكان أعضاؤها يجتمعون بعد تناول طعام الغداء فيقرأون الصحف المصرية والصحف الإنكليزية، ويناقشون أخبار رويتر، لأن نشرة رويتر كانت تلتقط صباح ومساء من أجهزة التلغراف الإنكليزي التابعة للشركة الشرقية، لذلك عشق إبراهيم حمو الأخبار فكان الحجة في معرفة الأخبار، والتاريخ المعاصر يذكر اليوم والساعة والسنة، وقد احتفظ في إبان حياته بمجلدات من الصحف والمجلات.

وعندما نقل أحمد عثمان القاضي إلى سواكن أحيا ندوة إبراهيم حمو، فقد كان يعمل بالتدريس في مدرسة سواكن الابتدائية، واستطاع أحمد عثمان القاضي أن يجذب الكثيرين للعمل في سواكن لأن الندوة كانت متعة ومدرسة. وجاء الشيخ سيد أحمد الفيل ليعمل في القضاء الشرعي فانضمّ إلى الندوة. وفي خلال الحرب العالمية الأولى توجس المستعمرون من الندوة، لأن أعضاءها وقفوا مع الخلافة الإسلامية، والدفاع عن سلطان تركيا، وذلك لمشاعرهم الإسلامية، ولكن لما قامت الثورة العربية في الحجاز وظهر الشريف حسين تحولت الندوة إلى عربية خالصة، واهتمت بجمع أخبار الثورة العربية، وفي تلك الأثناء كان بعض أعضاء الندوة قد سافروا إلى الحجاز وعملوا في الشركات الإنكليزية، فأسندت لهم وظائف وزارية في حكومة انتقالية وهم محمد سعيد بايبر، وباعمير بازرعة، وعبد ربه عارف، لكنهم ضاقوا بالألاعيب السياسية، ورجعوا إلى بور سودان.

إن إبراهيم حمو يحمل تاريخاً مجيداً، إذ جمع بين عدد عظيم من مثقفي السودان، وفتح بيته لهم وزودهم بالكتب والمراجع من مكتبته، ولما انتقل مكتب التلغراف الإنكليزي إلى بور سودان، انتقل إبراهيم حمو إلى بور سودان واشترى منزلاً كانت تمتلكه السيدة علوية الميرغنية، وهو بالقرب من مدرسة بور سودان الثانوية، وأصبح هذا المنزل كعبة الزائرين الباحثين في تاريخ البحر الأحمر، فما من مرجع إلا كان هو إبراهيم حمو. وفي عام ١٩٤٥ أعد ريتشارد هل بعض الدراسات عن الشخصيات التي عاشت في طوكر وسواكن وسنكات فلم يجد إلا أن يستنير بإبراهيم حمو.

هنالك اثنان تخصصا في تاريخ البحر الأحمر: الأول هو إبراهيم حمو، والثاني صالح ضرار، وقد نشر صالح ضرار الكثير من الدراسات. أما إبراهيم حمو فقد احتفظ

بالمخطوطات والآثار والتحف ورعى كل هذه المحفوظات، ولكنني لم أر أي كتابات أو مذكرات قام بها إبراهيم حمو لأنه كان يتحدث من ذاكرته، ولكني صحبت الكثير من الباحثين ليستفسروا منه فكانوا يدونون عنه.

قضى إبراهيم حمو شيخوخته عامرة زاخرة بالوعي والاطمئنان والعبادة، فكان يصرف طول يومه في القراءة والمؤانسة، وكان صالونه لا يخلو من الأدباء والشعراء والمؤرخين، فكان من أصدقائه أحمد محمد صالح ومحمد أحمد محمد سليمان ومحمد صالح الشنقيطي وحسن الأزهري وعبد الله البنا وهيلسون واسكوت وروبرت وريتشارد هيل، كما أن مفكري المسلمين كاتبوه وكاتبهم، مثل شكيب أرسلان ومحمد كرد علي والألوسي وشيخ العروبة أحمد زكي.

انتقلت أسرة إبراهيم حمو إلى الخرطوم، ولست أدري إن كانت محفوظاته موجودة أم عفا عليها الدهر فهذا رجل «رائد» يستحق البحث والعناية.

إبراهيم يوسف بدري [١٨٩٧ ـ ١٩٦٢]

الحياة مع هذه الأرواح والأطياف جميلة، لأنها تربط الحاضر بالماضي وتؤكد أن للإنسان مستقبلاً، فالرواد لا يموتون، لأن الرائد لا يكذب أهله، وإبراهيم يوسف بدري وجه لا تدور ملامحه في وجه آخر، لقد كان نسيجاً وحده، وهو ابن يوسف التاجر وابن أخي الشيخ بابكر بدري، درس حتى السنة الثانية في كلية غردون وعمل بالتجارة مع أبيه في كومتي وتندلتي وسنجه وسنار، ولما توفي أبوه لجأ للوظيفة ودخل مدرسة نواب المآمير وعمل بين الدينكا، فتعلم لهجتهم في ستة أشهر، وعاش بينهم ودرس طبائعهم وثقافتهم وكتب عنهم في دورية مذكرات وملاحظات باللغة الإنكليزية. كان أول سوداني شمالي يهتم بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، وأول إداري سوداني يهتم بدراسة الأقاليم التي يعمل فيها ويكتب عنها المقالات ويوضح طبائعها وطبائع أهلها. كان هذا العمل من اختصاص البريطانيين، لذلك أصبح إبراهيم بدري الحجة والمصدر في ثقافة الدينكا، كما أنه وضع قواعد أوضح للغة الدينكا ولهجاتها المختلفة، فكل الكتب التي اختصت بلغات قبائل الجنوب وجبال النوبة لم يشارك في وضعها شمالي واحد حتى فتح الباب إبراهيم بدري، وجاء من بعده يوسف الخليفة أبو بكر، فضم ذلك في إطار دراسته للهجات وصولاً لتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها من السودانيين.

لا شك أن يوسف بدري قد فتح المجال لكرار أحمد كرار ليواصل السعي والدراسة الأكاديمية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

لقد كانت هذه قسمة من قسمات فكر إبراهيم بدري. وبعد ذلك انتقل إبراهيم بدري إلى وسط السودان فقدم مشروعاً متكاملاً لتوطين الرحل وإقامة مدارس لهم في

مواقع الرعي والزراعة والبحث عن العيش، وأقيمت بعض القرى النموذجية في منطقة البطانة خصيصاً لذلك، ولكن المشروع تبنته بعد ذلك هيئة الأمم في الستينات وأوفد الدكتور أحمد أبو زيد لوضع الأسس له ولكن لم نسمع عنه شيئاً بعد ذلك.

ونقل إبراهيم بدري إلى البحر الأحمر واستقر كمفتش بسنكات في الأربعينات.. فواصل مشروعه مرة أخرى، كما أنه قدم مشروعاً للمدارس الصغرى ذات المدرس الواحد بدلاً من الخلاوى في تلك المنطقة ونجح المشروع في كومسانة وهيأ وصمت، وبعد رحيله عن المنطقة لم يهتم أحد بمشروع المدرسة ذات المدرس الواحد.

وفي خلال الأربعينات بدأت إدارة الحكم الثنائي توزع الأراضي الزراعية في منطقتي النيل الأبيض والنيل الأزرق لتكون طبقة جديدة من المزارعين الكبار فكان من نصيب إبراهيم بدري مشروع أم هاني، وحاول إبراهيم بدري أن يدخل الخدمات الرئيسية في مشروعه وأن ينشيء مركزاً صحيًا ويؤسس مدرسة ولكن الظروف الاجتماعية والسياسية لم تكن مواتية واشتعلت المنطقة بعد الاستقلال، وثار المزارعون، وكانت هذه ثورة بداية محاربة الإقطاع حتى صفيت المشاريع الخاصة وحولت في خلال ثورة مايو إلى الإصلاح الزراعي.. ولما قامت الأحزاب تكوّن الحزب الجمهوري الاشتراكي الذي كان رائده الفكري مكي عباس، وأصدر هذا الحزب صحيفة هي الوطن ثم أخرى، ولكن أفكار الحزب لم تجد الالتفات من الجماهير، وكان إبراهيم بدري هو المشرف السياسي على صحافة الحزب الجمهوري الاشتراكي.

عرف إبراهيم بدري أن الجماهير قد شقت طريقها فابتعد عن السياسة الحزبية وانصرف إلى القراءة والبحث والثقافة فكان له صالونه في أم درمان. سعى إلى هذا الصالون محمد صالح الشنقيطي وعبد الرحيم الأمين ومبارك زروق والشيخ محمد الخاتم ومحمد أحمد عمر والسيد محمد الخليفة شريف ومحمد خير البدوي وبعض المثقفين، فكان الصالون يناقش مشكلات العدالة الاجتماعية، والتعليم الأساسي، واستثمار الأراضي، والحرية بين المسؤولين، والالتزام، والحرية المطلقة. إبراهيم بدري قرأ أفلاطون واستوعبه، كما أنه درس أرسطو وألمّ بالمذاهب السياسية في الفلسفة الحديثة فكان يدعو إلى الالتزام والوعي قبل محاربة العمل السياسي، كما أنه كثيراً ما

اعتقد أن التعليم الأكاديمي هو الذي سيدخل البلاد في أزمات. فالسودان في حاجة للزراعيين وللصناع المهرة وللمتخصصين في إدارة المكاتب والأعمال. فدراسة الأدب والعلوم النظرية ستكون عائقاً للتنمية، إذ إنها ستزحم المكاتب بموظفين غير مؤهلين لعمل غير صرف مرتباتهم عند نهاية الشهر، وسيأتي اليوم الذي يكون فيه هؤلاء الموظفون عبئاً ثقيلاً على ميزانية الدولة، لذلك كان يرى أن يوجه الشبان إلى تربية الماشية وزراعة الطعام وأن يتخصص بعضهم في الطرق والإنشاءات. فالأدب والفلسفة والفن في بلد نام كالسودان مسلاة وليس عملاً.

واتّهم بالرجعية في وجهة نظره تلك لأنه دعا أولاً أن تكون المدرسة متصلة بالأسرة، فإذا كانت الأسرة مفكّكة ليس لها بنية فالمدرسة لا تفيد فأولاً قيام الأسرة ثم التعليم، كما أن الأسرة يجب أن تشارك في التعليم ماديًا ومعنويًا. فالتعليم عند إبراهيم بدري ليس إحساناً لكنه استثمار مشترك بين الأسرة والمجتمع. والتعليم الأكاديمي هو للأذكياء والمتفوقين.

شخصية إبراهيم بدري امتزجت فيها المعرفة بالسخرية، كما أن التجربة في حياته كانت مريرة، لذلك كان رجلاً واقعيًا تناول الثقافة من جوانبها التطبيقية ولم يقدر له أن يعبر علمياً على أفكاره لأنه ابتعد عن السياسة واكتفى في أخريات أيامه بالنقاش وتبادل الآراء في صالونه ولكن رغم ذلك فهو أحد روادنا في مجالات شتى.

إبراهيم يوسف سليمان [١٩٠٧ ـ ١٩٨٤]

أحسّ الغرب بعجزه بعد الحرب العالمية الأولى وصرخ ت.س. اليوت: (نحن الرجال الجوف، نحن الرجال المحنطون مستدون في صف واحد وقد حشينا بالغش).
وفي الشرق استيقظ الشباب وقد استعاروا أجنحة في أرجلهم وحملوا حجر الموت يقذفون به الاستعمار، ودخل كل بيت بسطل، ففي أم درمان بشّر عبد الله عشري بنظرية النشوء والارتقاء، وتحدث شقيقه عن الأدب اليوناني وكان قد قرأه في اليونانية القديمة، وهاجم محمد أحمد محجوب الشعر العمودي وانطلق معاوية محمد نور يعلم مذاهب النقد والفكر للشباب العربي، ويوسف مصطفى التني ينادي بالقومية السودانية. وهناك في حي أبي روف برزت جماعة كالسهام حرة كالرمح تندفع إلى الغاية والنهاية تبشر بالاشتراكية وتقرأ في مذاهبها، ولا ينتهي طريق هذه الجماعة لأنها تفكر في الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص، تجمع لهذه الجماعة الحس والذوق، والتقى مع الفكر والذكاء عبد الله ميرغني وحسن عثمان الكد وحسين عثمان الكد وأحمد خير وخضر حمد وإبراهيم عثمان إسحق وإبراهيم أحمد سليمان والهادي أبو بكر وغيرهم.

هذا الرجل الذي نتحدث عنه لم يقف في الزحام ولكنه خطا في السهول المنداحة. في روحه عذاب الشاعر وفي فكره حكمة الفيلسوف، لم يتعجل الأشياء ولم يسع للمواقف الزائفة ولكنه كان أشبه بالنبي داود اعتلى العرش وقد رنت إلى الأعالي مزاميره تسبح لله في الأعالي وتدعو للأرض السلام والمحبة، ذلكم هو شيخ الاتحاديين والاشتراكيين ومحدثهم إبراهيم يوسف سليمان.

تلقى تعليمه في كلية غردون وتخرج محاسباً في أخريات العشرينات وتنقل في أرجاء البلاد يحسب ويراجع ويعيش الحياة والجهال ويناقش المذاهب السياسية والأفكار وقد أعجب بالنابغين، كما أعجب صحبه بهم، ونظر إلى الهند وافتتن بالمؤتمر الهندي ونهرو، ولم يستهوهم غاندي لأنهم رأوا في نهرو إنساناً مثقفاً لا ينكر الحضارة الحديثة ولا ينفر من العلم والتكنولوجيا.

تميز إبراهيم يوسف سليمان بالثقافة الواسعة التي كسبها في أناة وصبر والذاكرة الواعية الحافظة. فهو عندما يقدم على الحديث لا يتعجل بل يحاور ويعلق وبعد ذلك يلم أطرافه ويدلي برأيه ولا يشير إلى الكتب والمراجع لأنه استغنى عنها واستوعب آراءه وعلى نقيضه المرحوم حسن عثمان الكد الذي يؤكد كل ما يقوله مستنداً إلى أعلام الفكر والسياسة. أفاد إبراهيم يوسف سليمان في ذلك ما كسبه من معالجة الفكر كتابة وعرضاً فإنه وإن لم ينشر الكثير من آرائه في الصحف لأنه من أجود كتّاب الرسائل والخطابات، لا تفوته ملاحظة ولا تغيب عنه ذكرى شأنه في ذلك شأن اثنين رحمهم الله ألا هما المرحوم الأستاذ عبد الله الميرغني والمرحوم الأستاذ يعقوب عثمان.

في تلك الفترة لم تكن الصحف لتفتح أبوابها للآراء والأفكار، كما أن سياسة الاستعمار حرمت على الموظفين الكتابة على صفحات الجرائد لذلك كانت جماعة أبي روف أنشط الجماعة تسجيلاً لآرائها في الرسائل والخطابات كما كان أعضاؤها يجتمعون سوياً ويلتقون لأن مرمى الفكر والهدف وحد بينهم. وفي تلك الفترة لم يظهر منهم كاتباً غير خضر حمد (طوبجي) وعبد الله ميرغني وأحمد خير وإسماعيل العتباني الذي كان يشترك في المحافل ويشرف على الجماعات الأدبية.

ابتعد بعضهم عن ممارسة السياسة الجماهيرية ما عدا أحمد خير وعبد الله ميرغني أما إبراهيم يوسف سليمان فكان يخطط وينظر وليس هو أكثرهم متابعة للفكر الحديث، بل كان ألصقهم بالواقع السوداني، فأكثرهم متابعة للفكر كان مكاوي سليمان أكرت وإبراهيم عثمان إسحق.

إن جماعة أبي روف هي الجماعة الوحيدة في الفكر السياسي السوداني التي حددت أهدافها ورسمت طريقها منذ الثلاثينات فرفضت العشائرية والطائفية وعرفت الأسباب التي تبعدها عن المحاور. وفي عام ١٩٤٠ كادت أن تسيطر على المؤتمر ويرجع

إليها الفضل الأكبر في صياغة مذكرة المؤتمر في عام ١٩٤٢، إذ استطاعت هذه الجماعة أن تقنع كل الأطراف بحق تقرير السودان لمصيره. برز إبراهيم يوسف سليمان فكريًا في الأربعينات مع أن البريطانيين رفعوا من قيمة بعض السودانيين الوظيفية فلم يتح لإبراهيم يوسف سليمان أن يلتحق بالإدارة أو بمدرسة الحقوق بل ظل محاسباً في الكشف العام كما ظل حسن عثمان وحسين عثمان إسحق. ولما تفرعت من المؤتمر الأحزاب كان حزب الاتحاديين في بدنة هو حزب أصحاب الجباه العالية لأنهم حسبوا الخطوات قبل المضي في المسيرة. وانعطف نحوهم المرحوم السيد ميرغني حمزة وإن لم يكن عضواً في تنظيمهم، وتغلبت الأحوال واشتد الصراع حتى أعلن ائتلاف الأحزاب الاتحادية فلم يكن إبراهيم يوسف سليمان بعيداً عن العمل الوطني وقد اشترك في اللجان المتخصصة. وعمل على سودنة الوظائف وأعلن استقلال السودان وانشق الحزب الوطني الاتحادي وخرج عنه حزب الشعب الديمقراطي الذي ساندته الختمية، لكنه لم يشارك في أي رسم أهداف حزبية بل وقف كما وقف إبراهيم عثمان إسحق وحسن عثمان الكد بعيداً عن العمل الحزبي وتسلمت حكومة ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ السلطة فظل موظفاً مسؤولاً حتى أحيل إلى المعاش، وعند اندلاع ثورة أكتوبر ١٩٦٤ اختير إبراهيم يوسف سليمان عضواً في مجلس السيادة.

ويسأل الناس عن المؤهلات الفكرية السياسية التي جعلت لإبراهيم يوسف سليمان القدرة على البروز في أوقات الأزمات السياسية، إن هذه القدرة ترجع إلى تفكيره الواقعي الذي لا يختلط مع النظرة الشخصية للناس والأشياء فهو يقلب الأمور ويخطط بلا اندفاع ولا تحمس، لأنه يفكر ويقدر ومع ذلك لا نرى بطئاً في قراراته.

استطاع أن يوجه في كثير من الأحيان عندما تصعب الأمور. كما أن الأطراف تثق به لوضوحه وزهده في الدنيا والجاه فهو لا يدّعي فضلاً ليس له.

أحب إبراهيم يوسف سليمان الثقافة العربية والأدب العربي واتّصل بالطيب السراج وحضر مجالسه وأفاد كثيراً ولكنه لم يعمد أبداً لخلط أسلوبه بالقديم وباللفظ المهجور أو الغريب. وكان أشد نشاطاً في الثلاثينات فقد كتب في الفجر وكتب في جريدة المؤتمر واشترك في المهرجانات الأدبية وحاول أن يجعل الفكر السياسي مستقلاً.

إنـه كرائـد من رواد الفكر الســوداني عني بـالمشكـلات الاقتصـاديـة والمسـائـل الاجتماعية وقد أعانه على ذلك تجواله وعمله في مراكز مختلفة في الســودان واستطاع أن يكتب عن هذه الأشياء بمعـرفة ودقـة وكان هـو وإبراهيم عثمان إسحق أول سودانيين يعرفان أسرار الميزانية ويناقشان ذلك لأن المحاسبين كانوا محصورين في مسـك الدفـاتر ورصد الأرقام، ولكن إبراهيم يوسف سليمان تمتع بعقل فاحص نبهه ليتابع السياسة المالية وأثرها على الإنسان الســوداني. وحتى نهاية الثلاثينات لم يكن هنـالك ســوداني درس الاقتصاد دراسة علمية بل كان هنالك شاب يكتب في الصحف السودانية اسمه عبد الرؤوف فهمي سمارة ويعالج المشكلات الاقتصادية ويوقع تحت اسمه بشهادته في المحاسبة والاقتصاد.

فإبراهيم يوسف سليمان مـع مزاجـه الأدبي كان مهتـماً بتحليل السـيـاسة المـالية والكتابة عنها كما أنه قدم بعض الدراسات عن الصناعات الصغيرة بحكم عمله.

إنـه نمـوذج من نمـاذج أبي روف الثقـافيـة وكـل منهم يختلف عن الآخـر ولكنهم يلتقون في النظر للسياسة كعلم وقواعد وأسس وإبـراهيم يوسـف سليـمان يمثل الجـانب العلمي العملي بين هذه الجماعة لأنه شارك بأفكاره ومحاربته، لذلك فهو رائد من رواد الفكر السوداني الذين قدّموا لبلادنا عصارة أفكارهم وحياتهم.

الشيخ أبو القاسم هاشم [١٨٦١ ـ ١٩٣٤]

رجل صنع نفسه، وعلّمها ليعلّم الآخرين، صقلته التجارب وعاصر أخطر الأحداث في حياتنا فانتصر عليها وطوّعها، إنه مثال فريد للإنسان المتفوق المنتصر، ذلكم هو الشيخ أبو القاسم هاشم الذي ولد في قرى بري المحس، فوالده نشأ في أسرة دينية، وأمه كذلك هي السيدة آمنة بنت وهب الفقيرة ابنة الفقيه الشيخ محمد المبارك المقرىء الحافظ الذي كان يدرس القرآن في بري وأم مقد، والتي بشمال الجزيرة، وله قبر مشهور والمقبرة تسمى باسمه، مقبرة ود المبارك في بري، وكانت أمه السيدة الفقيرة آمنة بنت وهب تحفظ القرآن وتتلوه وقد سمعها تتلو القرآن وعمرها تسع سنوات وهو يريد أباها، فخطبها لنفسه وبنى بها عندما بلغت الثالثة عشر من عمرها، وكان شرط من شروط زوجها أن يدرسها كتاب مختصر الخليل في الفقه وصحيح البخاري في الحديث.

كانت أمه عالمة تجادل زوجها في الفقه، فعندما ناقشته في الرعاف اتجهت لرأي ابن القاسم ورأى هو رأي سحنون، وسمت ابنها الثالث باسم يوسف وكانت قد وقفت على سورة يوسف في حزبها اليومي في ذلك اليوم.

أما والده فهو الشيخ أحمد هاشم قاضي الخرطوم وبربر، وجدهم الأكبر الشيخ هاشم مدفون ببربر وينتهي نسب هذه الأسرة إلى ذي الكلاع الحميري إلى عبد الله بن العباس، ترجمان القرآن، وجدهم ذو الكلاع الحميري تحفظ كتب التاريخ الإسلامي أخباره، وقد ذكره الواقدي في كتابه فتوح الشام عندما أنشد أمام الخليفة أبي بكر الصديق هذه الأبيات:

أتـتـك حمـير بـالأهـلين والـولـد	أهـل السوابق العـالـون في الـرتب
أسـد غـطارفـة شـوس عـمالـقـة	وردوا الكـماة عـدا في الحرب بـالقصب
الحـرب عـانـقـنـا والضرب همـتـنـا	وذو الكـلاع دعـا في الأهـل بـالنسب
دمـشـق لي دون الـنـاس أجمعـهـم	وسـاكـنيـهـا سـارديهم إلى العـطـب

حفظ أبو القاسم على جده الشيخ محمد المبارك ثم على الشيخ أحمد ود حسين في بربر، وكان عمره أحد عشر عاماً، وكان والده معجباً به ومقدراً لذكائه فألحقه بمسيد الغبش غربي بربر، فتلقى العلوم الدينية والعقلية على الشيخ محمد الخير عبد الله خوجلي، وقد سبقه لذلك الشيخ المهدي... وأراد أبو القاسم أن يشد الرحال إلى مصر ولكنه جلس للشيخ العالم حسين المجددي فقرأ عليه جميع الجوامع في أصول الدين، ثم عمل أبو القاسم مدرساً بجامع الخرطوم العتيق، ولما قامت المهدية كان عمره اثنين وعشرين عاماً وقد تزوج ابنة شيخه محمد الخير، وبايع المهدي وبايعه والده الشيخ أحمد هاشم وأخواه الشيخ محمد والشيخ الطيب وابن عمه عبد الحليم مساعد هاشم جد الدكتور عبد الحليم وكذلك أخوه الشيخ إدريس هاشم.

أوكل إليه المهدي الكتابة في الديوان وعمره خمسة وعشرون عاماً، فأرسل المناشير إلى الملوك والرؤساء وإلى علماء مصر، وكانت الرسالة الثانية التي كتبها قد بعث بها إلى الخديوي توفيق، والرسالة الثالثة إلى السلطان عبد الحميد سلطان تركيا.

ولما توفي المهدي جمع آثار الإمام المهدي، واستمر في عمله بعد موت المهدي يعمل في ديوان الكتابة أيام الخليفة وتغلب على كل الصعاب والمكائد وعاصر حركة الأشراف ولم يصبه أذى وانصرف للعبادة وتلاوة القرآن، وكان يقول إنه من فضائل المهدية أنها علمتنا تلاوة القرآن.

وكان أصدقاؤه في تلك الفترة الشيخ مدثر إبراهيم الحجاز والشيخ محمد عمر بنا فكانوا يطالعون الأدب العربي ويتبادلون قرض الشعر ويمدحون الرسول.

ولما سقطت المهدية وكان الخليفة قد سمح له بعدم الخروج للجهاد وانكسرت الجيوش الوطنية في كرري أراد أبو القاسم أن يلحق بالخليفة ولكن إخوانه منعوه،

وجاء إليه سلاطين، وكان يعرفه، وطلب منه تسليم كل الأوراق والمستندات ولكنه أحرقها قبل ذلك.

بدأ كتشنر يخطط لحكم السودان وقد عين الشيخ عبد الرحمن مضوي أحد السودانيين الحاصلين على شهادة الأزهر الشريف قاضياً من الدرجة الأولى، وعين الشيخ محمد شاكر وهو والد الأديب المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر قاضياً للقضاة، وتم تعيين الشيخ أبو القاسم والشيخ الطيب هاشم والشيخ الحسين هاشم قضاة، ونقل أبو القاسم إلى سنار فعمل على بناء جامعها، وفي عام ١٩٠٤ ترقى قاضياً لمديرية النيل الأزرق فنقل إلى واد مدني، فامتدت علاقاته لقرى الجزيرة، وارتبط بعلاقات مع الشيخ عبد الباقي بن الشيخ المكاشفي بالشكينيبة ناحية المناقل، كما توطدت صلاته مع الشيخ عبد الباقي بن الشيخ حمد النيل وشملت كل أهل أبو حراز، وأحس الإنكليز بخطره عليهم، وكان الشيخ محمد ود البدوي قد وفر له المال من العوائد حتى فاض المال فبنيت من الفائض مستشفى أم درمان.

وأشرف الشيخ أبو القاسم على بناء المساجد وتطوير المعهد العلمي حتى اكتمل وجمع له العلماء الأجلاء كالشيخ النذير خالد، والشيخ أحمد محمد نور، والشيخ محمد عبد الماجد، والشيخ الجيلي التلب، والشيخ محمود ود الجريف، والشيخ عيسى دوليب، والشيخ الباقر السيد إسماعيل، والشيخ محمد الجزولي، والشيخ أحمد المجذوب، والشيخ محمد الأمين الضرير، وبرهن للإنكليز أن للسودان علماء. ونظم اللائحة والمناهج وطريقة الحصص، وامتحن الطلبة للشهادة الأهلية في عام ١٩٢٠ بعد مرور ثماني سنوات وأنشأ مكتبة للمعهد كان بدايتها ٢٠٩١ مجلداً هدية من مصر، وفي عام ١٩٢٤ جلس طلبة المعهد للشهادة العالية، وفي تلك الأثناء هبت ثورة عام ١٩٢٤ وكان من مؤيديها ابنه محمد الأمين وابن أخيه الشاعر المعروف الأستاذ عثمان محمد هاشم وابن أخيه محمد إبراهيم أحمد هاشم.

أنشأ الشيخ أبو القاسم الجمعية الأدبية في المعهد العلمي، وأسفرت هذه الجمعية على شعراء وأدباء أبرزهم محمد عبد الوهاب القاضي، والتجاني يوسف بشير، والهادي العمراني وغيرهم، وأدخل العلوم الحديثة، وعين الأستاذ حسين منصور مدرساً للرياضيات وللأدب والنقد وأدخلت الجغرافيا والعلوم، ولم ينس أن يكون بالمعهد مدرسة لتحفيظ وتجويد القرآن وعين لها الأستاذ الشيخ حسن عبد الكريم.

لقد قال الشيخ أبو القاسم الشعر وله قصائد معروفة، فلنذكر له هذه الأبيات:

إن أسماء الجمال حسنها   سلب الشمس ضياها المستبين
كملت بين الورى أوصافها   فتصدت فتنة للعالمين
فكأن الله قد صورها   من هدى الأنفس لا ماء وطين
ما على عاشقها من حرج   إن حب الحسن في الطبع مكين

وله شعر كثير في الغزل وفي مدح الرسول.

لقد رثاه الكثيرون نثراً وشعراً كتوفيق أحمد البكري ومحمد أحمد محجوب وعبد الله عشري الصديق من الكتّاب، ومن الشعراء التجاني يوسف بشير ومحمد عبد الوهاب القاضي وعباس العبيد وغيرهم، لقد وضع الشيخ أبو القاسم أسس التعليم الديني، فالجامعة الإسلامية بأم درمان هي غرسه وثماره، رحم الله العالم الشاعر الفقيه.

أحمد إسحق شداد [١٩٠٦ ـ ١٩٨١]

هجرة أهل المتمة في أرجاء السودان لم تكن انفصالاً وانفصاماً عن الجذور، بل كانت أبداً يداً تشير إلى المنبع وفي كل منتج خفقت قلوبهم بالحنين إلى المتمة، فالذكريات ربطتهم، حكاها لهم أجدادهم وآباؤهم وبعضهم لم ير المتمة ولم تكتحل بها عينيه. ومن ثم نمت في أرواحهم قوى خفية دفعتهم نحو التفوق والعلياء.

هذا الحلم الذي تقمصهم كان حارساً لهم فلا الشمس غابت عنهم ولا النجوم انسرقت في ظلمات الليل.

فأحمد إسحق شداد نزحت أسرته من المتمة بعد دنقلا ودلفت إلى غرب السودان واستقرت ببارا حيث لا النيل يفيض بخيراته ولا سحره وأسراره تغور في باطن النفس وسراديبها، فجعلوا من بارا جنة من جنات الأرض ترفل في سمائها الأشجار المزهرة بثمارها الزاهية بجمالها.

نشأ أحمد إسحق شداد في أسرة غشيها الجاه ورعاها الحظ وتأصل فيها الفكر والذكاء وآلت الرئاسة إلى بيت شداد.

تلقى أحمد شداد تعليمه في كلية غردون بينما هو وافد إليها، وكانت أعلام ثورة ١٩٢٤ الوطنية قد سقطت وتوقفت الدراسة عاماً، لا حداداً ولا احتفاء، ولكن عقوبة وقصاصاً، ولجوا الكلية والصليب المرفوع فوق رؤوسهم والإرهاب يجوس في أحشائهم، فلا هم شاخصون بأبصارهم إلى الأفق، بل هم مطأطئو الأبصار يتعثرون في طريقهم بين الشوك. كانت حياتهم عقوبتها الصبر وزادها الرجاء، وأبواب الأمل أغلقت والزمن كله أصبح صيفاً حروراً.

بين السيف والنار رأوا الموت فانكبوا يدرسون ويتعلمون في ليل مدلهم لا تبرق فيه رحمة لأن الثقة قد فنيت، والإنكليز يتوعدون ويهددون، وفي أزمان الأزمات تنمو العبقرية لأنها لطف الله الذي يسبغه على عباده الضعفاء فنشأ في تلك الفترة جيل جديد ولد كما يولد الفجر الصحو من الليل العقيم الكئيب. وانبثقت قافلة محمد أحمد محجوب ويوسف مصطفى التني ومحمد عشري وعبد الله عشري ومعاوية نور وإبراهيم عثمان إسحق وفرح عبد الرحمن حامد، وربح الخوف في محاربة اللئيم ومات الموت لأن الحياة أقوى منه.

وتسأل ماذا كانوا يقرأون؟ فقرأوا كل ما منع منهم، فالمعرفة نور ظنت السلطات البريطانية أنها عندما تحجب عنهم الصحف والمجلات المصرية، تحرم بذلك الكلمة من أن تسود، لكنهم انتصروا وتحدوا فكانوا يقرأون الصحف والمجلات المصرية في ليالي الخميس ونهار الجمعة، ومن كان منهم لا يقرأ قد قرأ. فثقفوا رغم الصدود الذي كان يطفح في النفس عندما تتوفر الأشياء فجاءت الندرة والاستحالة فتفتحت منافذ العقل للثقافة، وهل نكرر القول فنذكر أن البيوت أصبحت مدارس وحفلات العرس عادت جامعات ومجالس العزاء والمواساة تحولت إلى باحات فكر وثقافة.

خرج أحمد إسحق محاسباً في عام ١٩٢٧، وقد عشق الأدب العربي القديم واستخلص لبابه وقد عكف عليه في مكتبة الكلية، وخالط بعد ذلك زملاءه الذين يكبرونه في المراكز التي نقل إليها، فدرس العادات والأمثال والحكايات الشعبية والأغاني الشعبية وسجل منها الكثير، وسما في مجال الأنس والمسامرة فكان الحاكي، وكان المتحدث، وكان المبدع. فكر متفتح وذكاء متوقد وذرابة في اللسان ورحابة في القلب وشجاعة فكرية وإحساس وتعبد للجمال. تلكم البساطة التي غذاها الصفاء وتلكم القريحة التي اصطفاها الحدس والإلهام، وثقت بينه وبين الحياة، فأمسك القلم لا كما يمسك الفارس السلاح ولكن كما يعلّم الله الإنسان بالعلم ما لم يعلم. فجرى مداده حسناً وظرفاً، وبهاء الكلمة العذراء البكر معتقة لا تغرها ثيبات المعاني والأفكار، يحتضنها حنان الجرس والنغم وتقبل عليها شفاه السنى فترفعها لترقص في العين فتجوع لها الروح فتضمها لا في لحظة شبق ولكن في سمو ووصول إلى مراقي الحلول الذي يلقى الزمان والمكان.

هذا الرجل المحاسب الثاوي على الأرقام والأعداد. لقد أفشت إليه الأعداد بأوقاتها فكان كأنه فيثاغورس أو أرفيوس، فشهد له الأستاذ الزيات والأستاذ محمد فريد أبو حديد بهذه الهبة. لم يكن أسلوبه تبذه الذاكرة عندما ينطفىء النظر إلى ما يكتبه وينكسر الضوء عندما يفارقه، يعود إليك وأنت قد رحلت عنه ويتخايل في وجدانك لا كأفعى من أفاعي الفردوس ولكن فرح مخضر يحيا به الربيع السرمدي.

هذا رجل تميز بأسلوبه قل أن يحاكيه فيه أديب أو كاتب، تحس بكلماته تداعب شعر رأسك وتعانقك وتتحدث إليك، وإنك تسمع أصداء الطفولة الغاربة تتراءى لك أطياف النعيم في فردوس الخلد. وكان أحمد إسحق شداد عاشقاً مغرماً بالصيد والقنص، يعرف قبائل الحيوان وأنساب الطيور. وقد أحب الخيول وسعى إلى منابعها وألف الحديث إليها ومناجاتها، وكأنه قد تعلم لغتها وكتب عنها وهو السوداني الوحيد الذي فتن بالخيل.

كتب أحمد إسحق شداد في الرأي العام وفي الأيام والصحافة ومجلة الثقافة بالقاهرة.

وله أوراق كثيرة عندما يقرأها لأصدقائه يفوح منها عبق المسرة والصدق والأصالة والفن وكأنها الأزهار أو العشاق الفرحون يضحكون ويمرحون. وقد تعرف على الأغاني السودانية في فترة الحقيبة ودرس أسرارها، فكان يحكي مناسباتها ويرد القصائد إلى أصولها وأصحابها. فالذين يرى فيهم الفن في لحظات الطرب يموت الفن في نفوسهم فيموتون. ولكن الذي ينبت الفن في قلوبهم يخلدون. وهكذا كان أحمد إسحق شداد. أحب الحياة فناً وجمالاً، كما أحب ابنته الوحيدة سميرة وقد ماتت وتركت له بنتاً واحدة فكانت هي سميرة الثانية فأحبها حبين، حب المفجوع الملهوف الجزع، وقد عرف أن الموت حق وأنه وعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، ولكنه الحزن الذي لا نستطيع أن نتغلب عليه. وأحب حفيدته حباً آخر كفكف به دمعه رأفة بهذه الصغيرة.

وفي السنين الأخيرة انكسرت الأمواج على سيف حياته فما قدرت صخور الشاطىء أن تردها إلا أن تقيدها حزناً وأسى في أعماقه.. ولكن كان منذ نشأته ذا دين يلهمه الصبر والعزم والتوكل.

هذا رجل صاحب أسلوب وأسلوب فريد. وأديب نادر فهو رائد سيرتد إليه البصر ولن يعود حسيراً لأن الفكر سيمتلىء به والقلب يخضر وتنبت من أدبه وفنه أشجار مزهرة يفيء إليها قراء الأدب السوداني. وإنني أرجو أن ننشر مقالاته على الناس لينتفعوا بها ويستمتعوا.

الشيخ أحمد السيد الفيل [١٨٨٥ ـ ١٩٥٦]

إن الثقافة العربية الإسلامية هي التي دفعت السودانيين لإدراك وجودهم، فلولا اللغة العربية والإسلام لما استطاع السودانيون أن يتفهموا مدار حياتهم، والسودان عربي إسلامي في أغلب أجزائه، والحضارة العربية الإسلامية هي الأساس للكيان التاريخي للسودان، فالسودان المعاصر مدين لعلمائها الإسلاميين، فهم الذين حافظوا على اللغة العربية، لأن القرآن قد أنزل بها، لذلك لم يكن غريباً أبداً أن نرى الشعراء الأوائل في السودان هم من رجال الدين. والشيخ أحمد السيد الفيل واحد من أئمة الفكر السوداني قد حفظ القرآن، وألمّ بدراسة الدين الإسلامي ثم التحق بكلية غردون في قسم المعلمين والقضاة وتخرج قاضياً شرعياً، وعمل في سواكن فالتقى هناك بالسيد إبراهيم محمد حمو رحمه الله والشيخ أحمد عثمان القاضي وشارك في الفرقة الأدبية التي كوّنت الصالون الأدبي الذي أقامه المرحوم إبراهيم محمد حمو.

عرف الشيخ أحمد السيد الفيل بإجادته الفائقة للغة العربية وأسلوبه الأدبي المشرق، وقد كتب في حضارة السودان، كما أنه كتب مقالات كثيرة غير موقعة في صوت السودان، وكان من العارفين المحققين لأنساب السودانيين وبيوتهم وقبائلهم.

اشتهر بكراهيته للاستعمار البريطاني، وليست لنا مصادر فيما إذا كان قد اشترك في اللواء الأبيض أو جمعية من الجمعيات الوطنية المناوئة للاستعمار، ولكنه وقف موقفاً صارماً من الاستعمار، وكان رأيه واضحاً، وقد ترقى حتى أصبح مفتياً للسودان.

ظهرت بوادر نشاط الشيخ أحمد السيد الفيل في نادي الخريجين بأم درمان فكان من خطبائه وأعضاء نخبته، وترشح في مطلع الثلاثينات ليكون رئيساً لهذا النادي

فنافسه على الرئاسة المرحوم السيد محمد علي شوقي. ولأول مرة ينقسم أعضاء النادي إلى فريقين، فريق يؤيد الشيخ الفيل وفريق يؤيد شوقي. وأفسحت المناقشة للشعراء والظرفاء أن يرسلوا أقوالهم. ومما يذكر أن أحد المؤيدين لشوقي صلى بالجماعة فقرأ في صلاة المغرب سورة الفيل، كما أن فريق الفيل قد أجاد في رواية القصائد العربية التي ورد فيها اسم الشوق. وجند الفريقان المؤيدين لهما لأن انتخابات النادي كانت تسمح لكل الخريجين في أنحاء السودان أن يدلوا برأيهم كتابة وعينت لجنة فرز ففاز الشيخ الفيل.

أوقف الشيخ الفيل حياته على العمل العام فكان من مؤسسي المدرسة الأهلية والقائمين على معهد أم درمان العلمي والمشرفين على ملجأ القرش. تميز الشيخ الفيل بالمواجهة والصراحة والشجاعة، فلم يذعن للمستعمرين، بل كانت كل الفتاوى التي يصدرها تؤيد وجهة العقل والنقل، ولا يمالي فيها المستعمر. ولما بدرت ملامح وجهات النظر السياسية كان الشيخ الفيل من المؤيدين للأشقاء. وقد أوضح اختلافاته مع الاستقلاليين. وقد قربه السيد علي الميرغني منذ مطلع شبابه فكان من المستشارين الذين يؤخذ برأيهم، لذلك كانت السلطة في السودان تقيم وزناً خاصًّا لآرائه ووجهات نظره.

اهتم الشيخ الفيل بتعليم المرأة وأصدر فتوى تؤيد دخولها المدارس إذ كان السودانيون يجدون حرجاً في إرسال بناتهم للدراسة بعيداً عنهم. ووقف مع طلبة أم درمان وأتمّ رسالة تحديث التعليم الإسلامي بعد وفاة الشيخ أبي القاسم هاشم.

عشق الشيخ الفيل الشعر العربي وعرف أصوله وحفظ الكثير من عيونه، لذلك تراه يستشهد ببعض الأبيات فيما يكتبه. وأسلوبه أفصح من الشيخ أحمد عثمان القاضي رحمه الله، كان يتحدث باللغة العربية الفصحى مع كل الناس، لذلك كان يتجاوز بعض قواعدها في حروف الجر وفي استخدام الكلمات السهلة التي يعرفها العامة والخاصة ولكن الشيخ الفيل كان أديباً مطبوعاً ينتقي ألفاظه ويصل في كثير من الأحيان إلى درجات سامية من البيان. فمقالاته غير الممهورة في الخصومة السياسية التي شبت بين الأنصار والختمية في الأربعينات والثلاثينات تثبت ذلك، أما ما عدا ذلك فقد كان رحمه الله يراسل أصدقاءه وعارفي فضله، كما كان يصوغ بيانات الختمية ورسائلهم في إيجاز ووضوح محكم.

إن مكانة الشيخ الفيل في حياتنا نابعة من احترامه للحرية والفكر ومن رأيه الذي كان له الوزن والاعتبار في المجتمع السوداني. فهو ليس بالكاتب الذي تفرغ للكتابة ولكنه المرشد الرائد الذي آمن بالحرية والعدل. رحم الله الشيخ أحمد السيد الفيل.

الشيخ أحمد العاقب [١٨٨٨ ـ ١٩٤٧]

أنار الإسلام جنوب شرقي آسيا عبر حضرموت واليمن. فالتجار المسلمون ذهبوا إلى تلك البقاع منذ الربع الأول من القرن الأول الهجري، وذهبوا إلى الصين، وما من جهة ذهب إليها التجار المسلمون إلا وأقيم فيها مسجد وذاع فيها الإسلام وتعلم المسلمون اللغة العربية، وأنشئت المدارس الأولية، التي عرفت بالكتاتيب والحلقات في المدارس والمساجد لتدريس علوم الدين واللغة، وتفهم أهل الملايو دينهم الحنيف، ودفعتهم غيرتهم أن يبعثوا أبناءهم إلى الأزهر الشريف ليزدادوا علماً وتفقهاً، وكان للدين الإسلامي أثره العظيم في بعث الروح الوطنية، ويقظة الشعب الملاوي مطالباً بحريته واستقلاله، فالحركة القومية الملاوية نبعت من الإسلام.

واستعمر الإنكليز ماليزيا، وفرضوا اللغة الإنكليزية كلغة أساسية فأحس الملاويون أنهم لا بد أن يحافظوا على دينهم وعلى القرآن، فقيض الله لأثرياء المسلمين في ماليزيا الاستعانة بالعلماء المسلمين، فكان شيخنا أحمد العاقب السوداني المسلم هو الأستاذ المرشد. درس أحمد العاقب على علماء أسرته كالشيخ الأمين الضرير، فهو سوداني من توتي، وتلقى تعليمه في الأزهر، وعمل فترة في مدارس السودان، ثم شد الرحال إلى ماليزيا ومعه الشيخان الجيلاني سوركتي والعباسي، فأسس المدارس الأهلية الإسلامية، واستعان بالسودانيين المثقفين الذين يجيدون اللغة الإنكليزية ليعلموا معه، فاستجاب لندائه أربعة، نذكر منهم محمد اللريني ومحمود البدوي.

وأغلب الذين دخلوا المدارس الإسلامية الأهلية كانوا من أبناء الفقراء، لأن الاستعمار البريطاني زين للناس هناك أنه من لا يتعلم في مدارسه لا يحصل على وظيفة

أو مكانة في ماليزيا، فحارب الشيخ أحمد العاقب هذا الاتجاه واتصل بمصر التي فتحت مدارسها المدنية للطلبة الملاويين، وخاطب ملوك العرب فهبوا لنصرته، وطور أحمد العاقب التعليم ورقاه إلى المرحلة العالية، إذ لم يكن في ماليزيا جامعات واستعان بالعلماء المسلمين من الهند، وزار مولانا محمد علي وشوكت علي والأمير شكيب أرسلان.

فدرس الفلسفة الإسلامية وقرأ إحياء علوم الدين للغزالي والأخلاق لابن مسكويه وأدب الدنيا والدين، والملل والنحل، وتخرج على يديه وعلى يد صاحبيه شيخ داود العظاني وحاج يوسف كنالي والحاج علي لولو فيسنج، وألف هؤلاء كتباً في اللغة العربية والفلسفة الإسلامية، وكان التدريس في المدارس العربية الإسلامية باللغة العربية الفصحى. وفي تلك الفترة كان يفخر المسلم الملاوي بلغته العربية، حتى إن اللغة الماليزية كانت تكتب في تلك الفترة بالحرف العربي، لذلك تمكن الماليزيون في الاصطلاح والحديث أو «الملاوين في الاسم القديم» وأن يقرأوا القرآن. واستمر هذا الوضع حتى نالت ماليزيا استقلالها في عام ١٩٥٧، وبعد الاستقلال قويت حركة التعريب فكتبت اللغة الماليزية بالحرف اللاتيني.

إن أحمد العاقب الرائد المبشر العالم قد قدم خدمات للإسلام واللغة العربية، فلما رجع إلى السودان كان أول ناظر لمدرسة أهلية في السودان وهي المدرسة الأهلية بأم درمان.

أحمد العاقب رجل متمعن في الثقافة العربية والإسلامية، ملم بتطورات علم التربية وعلم النفس التربوي، فالذين عملوا معه يشهدون له بثقافته الواسعة وقدرته الفائقة في الإدارة، فالمدرسة الأهلية قد نافست مدارس الحكومة، وكثير من الآباء فضلوا أن يعلموا أبناءهم في المدرسة الأهلية لأن نتائجها كانت متفوقة، كما أن أحمد العاقب اختار لها خير المعلمين، وتحسس فيهم روح الوطنية والمثابرة على الثقافة والتحصيل، فولد من المدرسة الأهلية الوسطى جيل من حملة المشاعل، سواء كانوا معلمين أو كانوا تلاميذ.

وهب أحمد العاقب حياته للعلم ولخدمة بلاده، فكره الاستعمار وحاربه في دروسه، وفي سلوكه، ورفض أن يحضر حفلات الحكام، أو يتودد لهم، فكان قانعاً

مطمئناً لأداء رسالته، فلم يبحث عن المعاش وعن الجزاء، ومما يحكى أن ابنه عبد الرحمن العاقب، المهندس الذي أصبح وزيراً للأشغال في حكومة أكتوبر تقدم لكلية غردون بمصاريف مخفضة فلم يقبل، بل إن لجنة القبول رأت أن ترسله إلى مدرسة الصنائع العليا بعطبرة، ورأى الأساتذة السودانيون أن عبد الرحمن متفوق وعمره صغير، ووالده معلم، فهب المرحوم الأستاذ صالح عبد العظيم، وصرخ في الاجتماع قائلاً: إن كان أبناء المعلمين يحاربون ويحرمون من العلم، فكيف نضمن لأبنائنا أن يتعلموا، إنني مستعد أن أدفع له المصروفات وأضمه مع أبنائي في بيتي، فوقف المستر اسكوت وقال: إن المكافأة الوحيدة التي نقدمها للشيخ أحمد العاقب هي قبول ابنه.. لم يعرف أحمد العاقب ذلك إلا أخيراً، وعندما تحدث إليه بالهاتف الأستاذ محمد حمزة، فلم يشكر أحداً ولم يعلق لأنه كان يكره أن يتصل بالبريطانيين.هذه الحادثة إن دلت فإنها تدل على سمو روح الشيخ أحمد العاقب الذي لم يتزلف ولم يرق ماء وجهه.

هذا رجل يجب أن ينقش اسمه في سجل الخالدين ويفخر به السودان لأن كفاءته عمت السودان والعالم الإسلامي، لقد كان رائداً في الخارج وفي الداخل وكان مثلاً في العلم والسلوك.. فما أحوجنا أن ننقب عن سيرة شيوخنا، وننلقنها لأبنائنا، فهذا هو الذخر والحرز.. ما أغنى السودان برجاله، رحم الله الشيخ أحمد العاقب المعلم الرائد المربي.

الشيخ أحمد حسون [١٨٩٧ ـ ١٩٧١]

شخصيته نادرة في الحياة السودانية، تخرج في مدرسة البريد والبرق، وكان أفندياً يلبس الزي الأوروبي، ولم ينس نصيبه من الدنيا، ثم بعد ذلك تحول لدراسة الدين الإسلامي والعلوم الإسلامية، وقام بنشر دعوة السنة محارباً للطرق الصوفية. وقد عانى حرباً ضروساً من كل الاتجاهات لأنه كان يناوىء الأحزاب وكل الحركات النقابية لأنه يرى أن الفرد إذا لم يعرف دينه ويتغذى به ويطبقه شرعاً وسلوكاً لا يقدر أبداً أن يصل إلى السعادة والتقدم.

اتجه نحو الوهابيين وعمل في مناطق متعددة في السودان، كانت الطائفية مسيطرة عليها فتعرض للأخطار والحرب، مع أنه كان رجلاً رائع الفكاهة، قوي الحجة، مطلعاً على الأدبين العربي والإنكليزي ومبيناً في حديثه باللغتين. وقد أعجب به الشيخ الطيب السراج والسيد عبد الله محمد عمر البنا، فكانت أزهى المجالس التي يجتمع فيها الثلاثة حتى إن أبناء الثلاثينات كانوا يلقبونهم بالثلاثي الرائع. وأحمد حسون كان من أندر السودانيين الذين ألموا بالأغاني السودانية والأنساب السودانية والأحداث، كما كان راوية للشعر العربي والشعر السوداني في العامية والفصحى. وقد نمت بينه وبين الشاعر توفيق صالح جبريل صداقة حتى نهاية العمر.

ضاق بالصراع الطائفي وعمد على محاربته، وأخيراً رأى أن ينشر الدعوة بين المسلمين قاطبة، فشخص إلى المملكة العربية السعودية فكان يحاضر في الحرم الشريف ويخطب في الحجيج، وبعد ذلك رأى أن ينشر الإسلام في أمريكا، فقد أسلم على يديه أكثر من مائتي ألف شخص، كما أنه استطاع أن يوجه المسلمين السود وجهة

إسلامية ويعلمهم طريق الدين الحنيف، فكنت تراه يخطب في الكنائس وفي المعابد وفي الحدائق والميادين العامة في أمريكا. ولما قتل مالكوم اكس غسل جثته وعمل على دفنه على الطريقة الإسلامية.

وكان بين الفينة والفينة يعود إلى السودان وقد كوّن جماعة أنصار السنة، والتفّت حوله هذه الجماعة، شيوخ وشبان، ولقيت معارضة قاسية، ولكن هذه الجماعة تعمل على تنقية الدين الإسلامي مما علق به من مؤثرات ليست في لبه.

استطاع أحمد حسون أن يكون مبشراً إسلامياً بين الأوروبيين والأمريكيين لأنه فصل الدين عن التصوف وركز على الشريعة وقارن بين الأديان الأخرى، كالمسيحية، ونفى التثليث والصلب وبرهن على ذلك، وله خطب ورسائل تنفي التثليث والصلب وتؤكد أن هذه المعتقدات ليست في جوهر المسيحية. كما أنه رفض فكرة الرهبنة وأبان أنها كانت مرحلة تاريخية وليست فرضاً في المسيحية، وفند آراء اليهود في أنهم شعب الله المختار، وأوضح العلاقات بين الأديان الثلاثة وأنها تنبع من روح واحد، فالاختلافات هي ليست في صلب الكتب المقدسة. وأبان أن أصحاب الأديان الثلاثة إخوة يجب أن يتعاونوا على الحق ونشر الفضائل.

كان لأحمد حسون جواب عن كل سؤال يرجع فيه للنصوص في الكتب المقدسة الثلاثة، فهو يرى أن العالم لا يمكن أن يفسر أو أن يعرف من غير وجود الله ووجود الدين. ولأحمد حسون كتب بالإنكليزية للدعوة الإسلامية. ولم يجد مكانه في السودان، فقد منع في أيام الحكم الثنائي من العمل بالتبشير كما أنه عاش في صدام مع الطائفية. ولأحمد حسون أتباع ومريدون في بريطانيا وأمريكا، ألا رحم الله الشيخ أحمد حسون.

أحمد عثمان القاضي [١٨٨٣ ـ ١٩٦١]

بدأ أحمد عثمان القاضي حياته الدراسية في الخلوة، وحفظ القرآن وكان أمامه إما أن يعمل بالتجارة والزراعة، أو يواصل دراسة العلوم الدينية وعلوم اللغة، فأسرته من المتمة، وأهله من التجار الذين يزاولون أعمالهم بين أم درمان والخرطوم بحري والحصاحيصا، وكوستي وتندلتي، ولكن شاء حظه أن يختار بعد فوزه في الامتحان فيلتحق بكلية غردون. في ذلك العهد كانت الحاجة تدعو لتوظيف المدرسين والقضاة الشرعيين وكتبة المحاكم الشرعية ولا طريق للحكومة إلا أن تبحث عن الذين حفظوا القرآن وألّموا ببعض علوم اللغة، وكانت إما أن تعينهم على الفور في وظائف كتبة المحاكم الشرعية أو في قسم الكتبة في الأقسام العربية في المراكز والمديريات، وإما أن تبعثهم للدراسة في كلية غردون، وقد برز منهم الكثيرون كالشيخ سيد أحمد الفيل، والشيخ عمر إسحق وحسين شريف ومحمد الخليفة شريف والشيخ أبو دقن والشيخ أحمد الطاهر، والشيخ علي أبو قصيصة والشيخ عمر إسحق والشيخ عبد الله عمر البنا وغيرهم ما عدا الشيخ بابكر بدري الذي علّم نفسه بنفسه.

فأحمد عثمان القاضي تخرج مدرساً ليعلم اللغة العربية والحساب والتاريخ والجغرافيا من كلية غردون وعمل في أم درمان وفي سواكن وتعلق منذ شبابه بالتحدث باللغة العربية الفصحى ومعاشرة الأدباء والشعراء والبارزين في المجتمع وعرف بلباقته وتميز بالأناقة في ملبسه. فأول ما ظهر كان ذلك في عام ١٩١٧ إذ كاتب كل الموظفين السودانيين وشرح لهم الحالة الاقتصادية وما يجب أن تقدمه لهم الحكومة من اهتمام لمجابهة الغلاء الذي طرأ في السوق من جراء الحرب العالمية الأولى ووافقه الموظفون

وعقدوا الاجتماعات في مواقع عملهم في الخرطوم وخارجها ثم بعد ذلك تدرج وصار يدعو إلى تحسين حالة الموظف السوداني وإتاحة الفرصة له ليملأ الوظائف التي كان يشغلها المصريون والسوريون، والتفّ حوله الموظفون في مقهى الشيخ أمين في الخرطوم في عام ١٩١٩، وبرز أحمد عثمان القاضي في نادي الخريجين بأم درمان وأصبح من أركانه في العشرينات وذاع اسمه وهو يكتب في حضارة السودان. واستطاع أحمد عثمان أن ينتقل إلى سلك القضاء الشرعي وساعده على ذلك (السر لي استاك) حاكم السودان وسردار الجيش المصري، إذ التقى به في سواكن وأصبح أحمد عثمان القاضي ملء السمع والبصر، وكان من المحافظين في فكره السياسي، فهو لا يدعو للتغيير والتبديل المفاجىء ولا لقلع الجذور بل لتنسيق الأشياء وترتيبها في وضعها القائم، ولما تفجرت ثورة ١٩٢٤ اتخذ أحمد عثمان القاضي موقف التنقية وحاول بطريقته أن يدعو للاستقرار والعمل وأن يلتفت السودانيون لحياتهم وإصلاحها، فثارت عليه ثائرة المثقفين، وخلف حسين شريف في رئاسة تحرير حضارة السودان. والصحافة كانت مقيدة وثورة ١٩٢٤ أصابت الكثيرين في أرزاقهم وفي معاقبة ذويهم بالحرمان من العمل وبالسجن والاعتقال والمراقبة وتحديد الإقامة، كما أنها أعقبت رد فعل بالنسبة لمشاعر السودانيين نحو الأحزاب المصرية، كحزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين. ولم تمت الثورة ولكن رمادها كان الجمرات والوميض من تحته. وأحمد عثمان القاضي يدعو للإصلاح والترقي، وقد كان من أنصار اللواء الأبيض في بادىء الأمر، فظن الناس حينذاك أن أحمد عثمان القاضي يتنصل من الكفاح والجهاد، لا سيما ولم تكن هنالك غير جريدة واحدة هي الحضارة، وتلك الجريدة محكومة، فأصحاب امتيازها زعماء الطوائف الثلاثة السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي، فإذا درسنا مقالات أحمد عثمان القاضي نجد أنه كان ينفذ إلى لب الأشياء ويستخدم أسلوب الحكيم، فلا تضيق به السلطة ولا يمل القارىء مقالاته بل إنها كانت تتدارس ويعجب الناس كيف يتسنى لهذا الرجل أن يكتب ما كان يكتبه ويحرم المثقفين من التعبير عن آرائهم على نسق أحمد عثمان القاضي، ولعل هذا الأمر قد أثار عليه المثقفون أكثر، كما أن الحضارة عنيت بنشر بعض قصائد الشعراء ومقالات الكتّاب دون غيرهم، فصفحات الحضارة كانت أربع صفحات، الصفحة الأولى للافتتاحية وبعض المقالات الرئيسية، والصفحة الثانية

للأخبار المحلية، والصفحة الثالثة لأخبار المراسلين من الأقاليم، والصفحة الرابعة للأخبار العالمية المنقولة من نشرة رويتر.

إن أحمد عثمان القاضي وضع أسس اللغة الصحفية ونقلها من القالب الأدبي والأسلوب الخطابي. . ولا شك أنه تأثر بأسلوب صحيفتي المقطم والأهرام، مع وجود صحف مصرية يومية أخرى كالبلاغ وكوكب الشرق والجهاد، إلا أنه ابتعد عن الأسلوب المثير، كما أنه بسط اللغة العربية وخاطب بها طبقة التجار والعاملين في المهن الحرة، وأغفل المتعلمين والمثقفين، فالكلمات التي صب فيها مقالاته هي كلمات مألوفة والجمل قصيرة والمعاني واضحة، والمنبر الذي يتحدث منه كان يتوجه إلى رجل الشارع وليس إلى رجل المكتب، لذلك انتشرت الحضارة في البلاد السودانية الصغيرة والقرى وكان لها محصلون للاشتراكات أشهرهم مصطفى التني وعلي أردب، كما كانت مكاتب الحكومة والمدارس تشترك فيها رسمياً.

أحمد عثمان القاضي من أظرف المتحدثين وهو مع ذلك لا يتحدث للجمهور، ولكنه يتحدث للخاصة، وإن كان يكتب للجمهور، حديثه باللغة العربية الفصحى ويرصع حديثه بأبيات من الشعر، ولا تحس أي نوع من التكلفة فيما يتحدث عنه، ولا تمل ما يقوله، كان منظماً في أفكاره، رائعاً في نبرات صوته، مبيناً في لغته، واسعاً في معرفته عما يتحدث عنه. اعتاد في سنينه الأخيرة أن يحضر إلى نادي الخرطوم ليلعب الطاولة ويجلس في حلقة خاصة مع حامد باشا صالح الملك والدكتور منصور علي حسيب والدكتور أحمد عكاشة ومكي شبيكة وبعض الشبان.

وكان له ابن وحيد هو رشاد، فلما توفي ابنه زهد في الدنيا وفي الخروج من منزله، وقضى شيخوخته وحيداً يصلي ويقرأ كتاب الله. لقد ظلم أحمد عثمان القاضي في حياته فإنه قد أحب هذا الوطن وقرع الأجراس منبهاً لكثير من المشكلات، تحدث عن سوء عربات القطار وإهمال مراعاة القواعد الصحية في محاربة الأمراض في القطارات. دعا لإقامة المحاجر الصحية ونادى بتقديم القروض للمزارعين ودعم أسعار السلع الرئيسية. وأفاض في إجراء قواعد الضبط والربط في المكاتب، وحارب الرشوة والاختلاس وانتقد مجاراة الأوروبيين في عاداتهم وطالب بتوسيع الشوارع وأدان عدم حرص الحكومة على توفير الذرة. . أجل لقد ظن الناس أن ما كان يكتبه

المدرسة الابتدائية بأم درمان. وعندما ينشد إحدى قصائده يحتفل بها كل السودان؛ فقصيدته في دمشق تُعَدُّ في ميزان واحد مع قصيدة شوقي عن دمشق. فالسر في ذلك أن أحمد محمد صالح ينفعل مع الأحداث ويصدرها كما تجيش النفوس فلا تقدر أن تعبر عنها، لذلك أصبح صناجة الشعر. إنه عقل ومجود ومفاجىء، لا نستطيع أن نسلكه مع المجددين ولا مع الاتباعيين، ولكن نقول هو الشاعر الذي عرف أن يضرب على وتر القلوب. لا يخشى أحداً في شعره، ولا تقدر أن تحل بيتاً فتضعه في مكان بيت، ولا تحذف بيتاً. عندما ينظم الشعر ليعبر عن نفسه تجده يعبر عن كل ما في نفوسنا، فقصيدته التي مطلعها:

طار للنور وخلاني على النار أذوب

كانت حدثاً عارضها شعراء كثيرون، لكنهم لم يصلوا إلى ما بلغه أحمد محمد صالح. لم نقرأ نقداً كتبه أحمد محمد صالح للشعر والشعراء ولكن كثيراً من كبار الشعراء كانوا يعرضون قصائدهم عليه، ويطلبون رأيه. قال عبد الله عمر البنا إن أحمد محمد صالح هو أشعر شعراء السودان. ولكنه سئل: وما تكون أنت؟ قال: إنني شاعر، في كل لحظة يطرق الشعر بابي ولكن أحمد هو الذي يوقظ الشعر فيخدمه.

الشعراء الذين عاشوا في جيله كالكردي وصالح عبد القادر وتوفيق ومكاوي يعقوب وعبد الرحمن شوقي أطلقوا عليه اسم الأستاذ الشاعر، وحقاً كان أستاذاً شاعراً. صحبه في شبابه خليل فرح وتوفيق البكري وعابدين الخانجي ومكاوي يعقوب وتوفيق صالح جبريل وجلسوا مع (فوز)، ونظم أحمد قصائد وجدانية حفظها بعض المعاصرين له ولكنها لم تثبت في ديوانه. إنكم لم تسمعوا لأحمد وهو يدرس الأدب الإنكليزي، وقد يستشهد بشعر عربي، وهو يشرح، فلا تحس شرخاً في عربيته أو إنكليزيته. وعندما كان يفوز طالب بجائزة الشعر في كلية غردون وأحمد من حكام المباراة يكون ذلك الشاعر الطالب أسعد السعداء لأن أحمد حكم له بالشعر. كم ازدهى عبد الله الطيب والرشيد نايل وبابكر أحمد موسى بذلك، وكم فخروا، فقد كان في الكلية شعراء ثلاثة هم: البنا، الشيخ المجذوب جلال الدين وعبد الله عبد الرحمن. ولكن حكم أحمد محمد صالح كان صمام الأمان.

نشأ أحمد وطنياً أبياً يعتز بكرامته وحريته، فلما فرض المستر يودل على المدرسين أن يغيروا زيهم إلى الجبة والقفطان رفض اثنان أن ينصاعا لذلك الأمر لاستفزازهما:

أحمد محمد صالح وعمر سليمان.. ويحكي أن لأحمد مواقف في الثلاثينات مع معتمد بور سودان. فقد استدعاه مرة لأن تلميذاً من التلاميذ لم يرفع يده له بالتحية فرفض أحمد أن يذهب إلى المعتمد وكتب له خطاباً جاء فيه: (أتظن أن هذا التلميذ يعرفك فالبريطانيون كثيرون)، أيحيي التلاميذ كل بريطاني يرونه، وما الداعي لذلك؟.

أرسل المعتمد الخطاب لمدير المعارف وكان المستر وليمز فرد عليه أن يفعل ما يراه حقاً ولا يخضع لأحد، وهل رفض أن يحييك حتى تستدعيه؟!.

عرف الإنكليز وأكبروه لأنه أكبر نفسه. علمنا أحمد محمد صالح كيف يحترم السوداني بلاده، وكيف يخدم نفسه، وكيف يتفوق على المستعمر في لغته وكيف يقال الشعر ومتى يقال. هذا الرجل الفنان المعلم هو أستاذ جيل، رحمه الله.

أحمد يوسف هاشم [١٩٠٣ ـ ١٩٥٧]

رائد الصحافة السودانية الأصيلة هو السيد حسين شريف، ومؤسسة الصحافة السودانية الحديثة هو أحمد يوسف هاشم. شد أحمد طرفاً من العلم والمعرفة في المعهد العلمي بأم درمان، وعمل فترة كاتباً في المحاكم الشرعية ثم هجر الوظيفة والتحق بجريدة النيل، وكانت جريدة النيل هي أول صحيفة سودانية يومية، وقد ترأس تحريرها كاتب وعالم آثار مصري هو حسن صبحي، وقامت هذه الصحيفة في عام ١٩٣٥، ولما انتهت مدة حسن صبحي في عام ١٩٣٦، أصبح أحمد يوسف هاشم رئيساً لتحرير النيل، ولم تكن الصحافة منتظمة في السودان، فبجانب جريدة النيل كانت تصدر جريدة السودان مرتين في الأسبوع، وكذلك جريدة الحضارة مرتين في الأسبوع، فاحتفل السودانيون بجريدة النيل التي اهتمت بالرياضة والسينما والآداب والفنون، وكان لها في البدء عدد أسبوعي، وامتازت جريدة النيل بافتتاحيتها التي كان يكتبها أحمد يوسف في الصفحة الأولى، ويعالج فيها المشكلات الاجتماعية ويصور الآمال الوطنية، فكان قلم المخابرات يضيق بقلمه، ولا سيما أنه تولى رئاسة تحرير مجلة الفجر بعد وفاة عرفات، ومجلة الفجر كانت لسان الوعي وصوت الدعوة لمحاربة الطائفية، وعنيت النيل في إبان تحرير أحمد يوسف هاشم لها في الفترة الأولى بتحليل الأحداث التي لها مساس بالسودان، كالحرب الاثيوبية الإيطالية، وهجرة القبائل الافريقية إلى الجزيرة، والمعاهدة المصرية الإنكليزية في عام ١٩٣٦.

كما أن النيل فتحت أبوابها للشبان والأدباء وعنيت بالقصة والشعر، ولمعت فيها أسماء كثيرين، وكان أحمد يوسف هاشم ثائراً على الإدارة البريطانية فهاجر صيف عام

١٩٣٩ إلى مصر وعمل فترة في إحدى الوزارات ولكنه رجع إلى السودان وواصل عمله في رئاسة التحرير، واستفاد من تلك الفترة التي قضاها في مصر فطور الجريدة في تبويبها وإخراجها مع ظروف الحرب العالمية الثانية، وشح الورق ومواد الطباعة، وظهرت في عام ١٩٤٠ جريدة صوت السودان يومية، بجانب جريدة النيل، وترأس تحرير الصوت محمد عشري الصديق، وتنافست الصحيفتان وبرزت ملامح الطائفية في وضوح، فكل صحيفة لها ولع ولها اتجاه، ولكن لم تقم غير المعارك الأدبية في الصحيفتين. وفي عام ١٩٤٤ أصدر أحمد يوسف هاشم مجلة السودان الجديد بجانب رئاسة تحرير النيل، وبعد ذلك انسحب من جريدة النيل وأسس جريدة السودان الجديد اليومية، فاشترك معه في التحرير محمد أحمد محجوب والدكتور عبد الحليم محمد وعبد الحفيظ هاشم، وكان بجانب صحيفة السودان الجديد اليومية صحيفة صوت السودان وصحيفة النيل وصحيفة الأمة وكلها صحف يومية حتى أطلت صحيفة الرأي العام، فكانت صحيفة السودان الجديد، حافلة بالأخبار والأسرار، ولكنها لم تتخذ الإثارة، وقد انضم إليها عبد الله رجب ومحمد عثمان جودة، وسارت السودان الجديد على طريق الاستقلال، وإن كان أحمد يوسف هاشم قد انضم لحزب القوميين، إلا أنه دخل معيناً الجمعية التشريعية واستقال منها مع زميليه محمد أحمد محجوب وصالح عبد القادر، وبدأ يهاجم الجمعية التشريعية والتنظيمات الدستورية التي شرعت في تطبيقها الإدارة البريطانية في السودان، وانتقد حكومة المفتشين واشترك في النزاع الذي قام بين الصحفيين والسكرتير الإداري، وقد وقف مع حرية الرأي والتعبير قبل ذلك في عام ١٩٤٧ عندما ثار السر جيمس روبرتسون على الصحفيين، وكان اتجاه أحمد يوسف قومياً، وإن كان صديقاً للجبهة الاستقلالية.

عرف أحمد يوسف بالجرأة والصراحة في كل كتاباته، فقد كان أقرب إلى الأديب فيما يكتبه في افتتاحية الجريدة، ولكنه في الصفحات الداخلية التزم بالأسلوب الصحفي.

حافظت السودان الجديد على الروح والمستوى وأفسحت صدرها لكل الكتّاب وكل الأدباء، وأتاحت للمرأة صفحة أسبوعية كانت تحررها لفترة طويلة ثريا امبابي ثم أعقبتها فاطمة سعد الدين، وكان أحمد يوسف هاشم متحرر العقل متفتح الآفاق فلم يفقد علاقاته الشخصية مع أي معسكر سياسي، وإن كان أقرب إلى الاستقلاليين،

والناس في تلك الفترة درجوا على قراءة كل الصحف ليقارنوا بين الأخبار والأحداث، فالسودان الجديد كانت هي التي تنشر الخفايا والأسرار في حكمة وفن، لذلك كانت صحيفة محبوبة لدى الكثيرين، وقد اتسمت بميزان التعادل بين الاتجاهات المختلفة، وأحمد يوسف هاشم امتاز بأنه رجل ذكي لماح، فكثير ما كنت ترى تجديداً في صحيفته، وكثيراً ما كانت تصدق اجتهاداته. ورسم في صحيفته خطاً واضحاً هو تجنب الاصطدام مع الأحزاب والسياسيين، حتى إنه في نقد السياسة كان موضوعياً لا يمس الأشخاص، وكان قلمه مهيباً مخيفاً عندما يعالج الموضوعات، يقرأه الناس بين السطور، وكثيراً ما كانت مقالته اليومية مثار جدل ونقاش في المجتمعات والأندية، أما أخباره سواء كانت عن السلطة أو عن المعارضة فكانت موضع الثقة، وقد أوكلت له بعض وكالات الأنباء المصرية أعمال مكتبها في السودان لفترة لثقتها في تصويره للأحداث وتقييمه للأخبار.

وهب أحمد يوسف حياته للصحافة وقد اشترى مطبعة لصحيفته، وبنى لها داراً هي اليوم دار التوزيع، وكافح وحده حتى أرسى أسس هذه الصحيفة المستقلة، بالرغم من أن التوزيع في تلك الفترة لم يكن عالياً لكل الصحف، إلا أن صحيفته كانت تتخاطفها الأيدي في الدقائق الأولى لصدورها، ويقرأ العدد الواحد قراء كثيرون، فأعلى توزيع في تلك الفترة لم يتجاوز اثني عشر ألفاً ومع ذلك كانت الصحف تكسب وتغطي مصروفاتها.

وفي منتصف الخمسينات تدهورت صحة أحمد يوسف هاشم ولكنه ظل يكافح ويكتب، وقد أطلق عليه أب الصحف لأنه أول صحفي منفرد يصدر صحيفة يومية، كما أن السودان الجديد كانت أول صحيفة مستقلة جاءت بعدها الرأي العام، أما الصحف الأخرى فقد كانت صحفاً حزبية أو مؤيدة للأحزاب.

أحمد يوسف هاشم حقاً رائد الصحافة السودانية الذي وطّد أقدامها في هذا البلد ففضله لا ينكر في هذا الميدان.

إسماعيل الأزهري [١٩٠٠ ـ ١٩٦٩]

أسرة السيد إسماعيل الولي لها تاريخها الضارب في أعماق الوجود السوداني، والسودان منذ القرن السابع عشر الميلادي قد تأثر بالمد الصوفي الذي تدفق عليه من المغرب الأقصى، وتلاقى هذا المد بتيار صوفي قديم من المشرق، سواء إن كان ذلك من الحجاز أو من العراق، أو من الأماكن الأخرى في أواسط آسيا الإسلامية، فالسيد إسماعيل الولي سلك في بادىء الأمر الطريقة الختمية، ثم شق لنفسه طريقاً آخر هو طريق الإسماعيلية، فأسرة الإسماعيلية عرفت بالعلم والتقوى واستقرت في الأبيض، وما زالت منطقة القبة شاهدة على ذلك حتى يومنا هذا، وقد نبغ في هذه الأسرة العلماء والقضاة ورجال الإفتاء، وتلقى كثير من أبنائها العلم في الأزهر الشريف، وولد إسماعيل الأزهري في هذا البيت العريق، وتعهد جده لأبيه الشيخ إسماعيل الأزهري بتربيته وتعليمه، والتحق إسماعيل الأزهري بالمدرسة الوسطى بواد مدني وعمره ثلاث عشرة سنة في عام ١٩١٣، وكان أول دفعته، ولما دخل كلية غردون في عام ١٩١٧ أراد أن ينتظم في قسم المهندسين، ولكن إدارة الكلية حققت رغبة جده أن يكون معلماً فكان أول دفعته، وفي عام ١٩١٩ اختارت الحكومة البريطانية وفداً من أعيان السودانيين أن يذهب إلى بريطانيا برئاسة السيد علي الميرغني ليبارك لبريطانيا انتصارها في الحرب العالمية الأولى، وكان من بين أعضاء هذا الوفد الشيخ إسماعيل الأزهري جد الرئيس إسماعيل الأزهري، فصحب معه حفيده، كما صحب الشيخ الطيب هاشم ابنه أحمد البشير الطيب معه لأنهما كانا يدرسان في قسم المعلمين بكلية غردون، وكانا يعرفان اللغة الإنكليزية.

وأحس البريطانيون أن السودان قد تطور، فذان الشابان قد أبديا ملاحظات نمت عن وعي بالحرية، فلما رجع إسماعيل الأزهري ليتابع تعليمه في كلية غردون. بعد هذه الرحلة لم يسمح له بإكمال السنة الرابعة، بل عينّ على الفور، وأرسل إلى مدينة عطبرة ليعمل مدرساً في مدرستها الوسطى، وناظر المدرسة في تلك الأثناء كان المرحوم الأستاذ عبد الله العربي وهو من المعلمين المصريين الذين كان لهم أثر في حياة السودان الفكرية، وقد اشتهر كتابه في الترجمة الذي شمل على نصوص من اللغتين الإنكليزية والعربية ونماذج وقواعد للترجمة، وكان نائبه الشيخ علي أبو قصيصة. وعين الأستاذ إسماعيل الأزهري معلماً وضابطاً للمدرسة، واتّسم في تلك الفترة بدقته في مواعيد الحضور والانصراف وتفرغه للتدريس وإشرافه على الألعاب الرياضية، وكان يدرس اللغة الإنكليزية والرياضيات والجغرافيا، ورفض أن يدرس علم التاريخ لأنه رأى في ذلك ظلماً للحقائق، وتشويهاً للفكر، ونلاحظ أن هذه الحادثة مذكورة في ملفه الوظيفي، واشتهر في تلك الأونة بأنه رجل مجتمع، عقد الكثير من الصلات والعلاقات بينه وبين أعضاء الأندية المختلفة، واتصل بالعاملين على تحرير السودان وحريته، ولكنه وقف عن قرب من حركة اللواء الأبيض، ولم يشارك أعضاءها سواء إن كان ذلك في العمل السري أو العمل العلني، ونقل في عام ١٩٢٤ إلى مدرسة أم درمان الوسطى وتعاقب عليه ثلاثة نظار هم: المرحوم الأستاذ مصطفى السيد، والمرحوم الأستاذ عبد الحميد موسى، والمرحوم الشيخ عبد الرحيم حامد، والناظران الأولان مصريان، والناظر الثالث سوداني تخرج من الأزهر الشريف، ووصى عليه النظار الثلاثة بالتعاقب لدراسة عليا في جامعة بيروت الأمريكية، ولكن تأخرت بعثته حتى عام ١٩٢٧.

ولما تحققت البعثة رغب في دراسة التاريخ، لا سيما وقد كان هنالك أساتذة رواد من أهل لبنان وسوريا قد نبغوا في تدوين التاريخ العربي والإسلامي والشرقي وعلى رأسهم الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف، والأستاذ الدكتور فيليب حتي، والأستاذ الدكتور أسد رستم، فلم يأبه المسؤولون في السودان بذلك لأنه يبعث ليدرس الرياضيات، فأضاف لدراسة الرياضيات علم التربية وكتب رسالته عند التخرج عن الصفر، وعاد للسودان عام ١٩٣٠، وقد سبقه الأستاذ عبيد عبد النور، وحاول أن يبث روح الوعي الجديد الذي انتظم الأقطار العربية بعد الثورة العربية التي تمت

بوقوف العرب ضد الأتراك في سوريا ولبنان والعراق والحجاز، وكان لها مبشرون، كأبي خلدون ساطع الحصري والدكتور عبد الرحمن شهبندر، والأمير شكيب أرسلان، وخليل الخوري، وجميل صدقي الزهاوي، ومعروف الرصافي، ولكن السودان قد تأثر بقمع ثورة عام ١٩٢٤، فلم يتح المجال للأستاذ عبيد عبد النور. ولما عيّن إسماعيل الأزهري في كلية غردون أسس جمعية الآداب والمناظرة، ووضع لها اللوائح والقوانين، وقبل ذلك كانت اللغة التي تجري بها المحاضرات والمناظرات هي اللغة الإنكليزية، بالرغم من وجود الأساتذة السوريين، كالأستاذ حنا خباز مترجم جمهورية أفلاطون، والأستاذ ادوارد عطية وغيرهما.

وكانت الصحف والمجلات العربية محظورة على طلبة كلية غردون، فلما تبوأ السيد إسماعيل الأزهري مكانه في الكلية عمل مع زملائه المدرسين السودانيين على توطيد اللغة العربية وإتاحة الفرصة لها في جمعية الآداب والمناظرة، ووقف معه المرحوم الشيخ البشير الفضل، والمرحوم الشيخ المصري والأستاذ عبيد عبد النور رحمه الله والأستاذ عبد الفتاح المغربي، وازدهرت الجمعية الأدبية، وخطا السيد إسماعيل الأزهري خطوة أخرى، إذ عارض في تدريس التاريخ الإسلامي باللغة الإنكليزية، ووقف معه الشيخ البشير الفضل رحمه الله، وبذلك أنشأت مجلة كلية غردون واحتجبت في عام ١٩٤٠.

وعرف السيد إسماعيل الأزهري بين زملائه وطلبته باحترامه لنفسه وعدم التفريط في كرامته، فكان موضع الهيبة والإجلال من المدرسين البريطانيين، وفي صيف عام ١٩٣٧ تكوّن مؤتمر الخريجين فانتخب السيد إسماعيل الأزهري أميناً عاماً له، وكان رئاسة المؤتمر دورية، وفي منتصف عام ١٩٣٨ كتب السيد إسماعيل الأزهري بوصفه أميناً عاماً للمؤتمر خطاباً رسمياً إلى السكرتير الإداري، وكان الخطاب بتاريخ ١٧ مايو عام ١٩٣٨، وأثار ذلك الخطاب رد فعل قاس في الأوساط السياسية البريطانية، إذ إن العهد الذهبي للحكام البريطانيين بدأ ينهار، وقد علق على ذلك المستر بريدن مدير النيل الأزرق، وكتب إننا ظننا أن السودانيين سيبقون في ذلك القالب الذي صببناهم فيه، مطيعين قانعين، ولم تعترف السلطات البريطانية بمؤتمر الخريجين، ولم تر فيه ممثلاً وناطقاً باسم السودانيين، وكان كل الذين تخرجوا من المدارس الوسطى أو قضوا فترة فيها، بالإضافة للذين تخرجوا من كلية غردون أو

قضوا فترة فيها، طبقاً لإحصاء عام ١٩٣٨، لا يزيد عن خمسة آلاف خريج سوداني.

واستتب المؤتمر وجاء السير دوغلاس نيوبولد بعد ذلك ليشغل وظيفة السكرتير الإداري، وكان رجلاً استعمارياً محافظاً، ظن أن استقطاب السودانيين في شبه الوظائف العليا يسكت صوت المؤتمر، وجمع حوله نفراً سعوا لترقيتهم، ولكن الرئيس إسماعيل الأزهري فضح هذه المؤامرة، ودخلت مؤتمر الخريجين الانقسامات وتسربت إليه الطائفية وتفرعت منه الأحزاب، وتكوّن حزب الأشقاء الذي قاده السيد الرئيس إسماعيل الأزهري وأعلن عن تكوين حزب الأمة في عام ١٩٤٤ فكان حزب الأشقاء قد اكتمل وبرز معارضاً لحزب الأمة. المجلس الاستشاري لشمال السودان، وضح أن السودان قد دخل في طور دستوري جديد وألغى أهم ركن في اتفاقية عام ١٨٩٨ التي نصت على أن تحكم بريطانيا السودان باسم مصر، وتكوّن بذلك رأي للسودانيين، وفشل المجلس الاستشاري لشمال السودان الذي أسس في عام ١٩٤٣. وبقيام الأحزاب رأت بريطانيا أن تخطو خطوة جديدة بأن تؤسس جمعية تشريعية، واتفقت الأحزاب كلها في عام ١٩٤٦ أن تسافر إلى القاهرة برئاسة السيد إسماعيل الأزهري لتفاوض مصر في مصير السودان، ولم تتفق الأحزاب السودانية، وبقي السيد إسماعيل الأزهري يقود الكفاح في مصر. ولما قامت الجمعية التشريعية في عام ١٩٤٨ م قاد المعارضة ضدها السيد إسماعيل الأزهري ونشأت جبهة الكفاح الداخلي الذي اشتركت فيه كل الأحزاب المعارضة كحزب الأمة واعتقل السيد الرئيس إسماعيل الأزهري وسجن بعد ذلك. وفي عام ١٩٥٣ م تلاقت كل الأحزاب السودانية في القاهرة وتوحدت الاتحادية تحت اسم الحزب الوطني الاتحادي برئاسة السيد إسماعيل الأزهري وتولى أمانة الحزب المرحوم السيد خضر حمد، ووكالة الحزب السيد محمد نور الدين، وأجريت الانتخابات العامة لمجلسي النواب والشيوخ. وفي عام ١٩٥٤ انتخب السيد إسماعيل الأزهري رئيساً للوزارة من داخل البرلمان ورشح السيد ميرغني حمزة السيد إسماعيل الأزهري لذلك. وقدم التثنية السيد بولين ألير، واستطاع السيد إسماعيل الأزهري أن يقدم اقتراح الاستقلال من داخل البرلمان وتم استقلال السودان في أول يناير ١٩٥٦. وبالرغم من الانشقاقات في الحزب الوطني الاتحادي وخروج السيد ميرغني حمزة والسيد خلف الله خالد والسيد أحمد جلي أولاً ثم السيد محمد نور الدين والسيد علي عبد الرحمن، حقق السيد إسماعيل الأزهري فكرة الاستقلال، ورفع علم

السودان، وأسقطت المؤامرات في عام ١٩٥٦ وزارة السيد إسماعيل الأزهري وتفرع حزب جديد من الحزب الوطني الاتحادي هو حزب الشعب الديمقراطي واتفق السيدان علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي على تكوين ائتلاف بين حزب الشعب الديمقراطي وحزب الأمة، وألف السيد عبد الله خليل الوزارة، وأجرت وزارة عبد الله خليل الانتخابات في أخريات عام ١٩٥٧ وضمت إليها كل العناصر المناوئة للحزب الوطني الاتحادي في الشمال والجنوب ولكن انقلاب ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨ جعل السودان تحكمه طبقة عسكرية، وأسقط نظام الفريق إبراهيم عبود نشوب ثورة ٢١ أكتوبر عام ١٩٦٤، وظهرت الأحزاب مرة أخرى وتم التعاون بين الحزب الوطني الاتحادي وقد رجع حزب الشعب الديمقراطي إلى قواعده القديمة فيه، وكان من نصيب الحزب الوطني الاتحادي أن يكون السيد إسماعيل الأزهري رئيساً لمجلس السيادة، وقبل ذلك كان مجلس السيادة دورياً بين أعضائه، وأن تكون رئاسة الوزارة لحزب الأمة وسقطت الأحزاب باندلاع ثورة ٢٥ مايو عام ١٩٦٩ واعتقل السيد إسماعيل الأزهري في سجن كوبر ومعه كل رجال الأحزاب، واشتد المرض على السيد الرئيس الأزهري فنقل إلى المستشفى وتوفي في عام ١٩٦٩ م.

إن اسم السيد الرئيس إسماعيل الأزهري سيظل خالداً في حياتنا لأنه يمثل الريادة في الفكر والرأي والإقدام والشجاعة والنزاهة والإيمان فهو ليس رائداً في ميدان الفكر ولكنه رائد في كل مجالات الحياة السودانية، فهو بطل الحرية والاستقلال، وهو فارس الحرية، وهو معلم لا يستطيع أحد أن ينكر دوره في تاريخنا السياسي ووجودنا. اتّسم بسعة الأفق ويقظة الضمير ورعاية الديمقراطية، لقد كان في إمكانه أن يبقى رئيساً للحكومة عندما أسقطت وزارته أول مرة في عام ١٩٥٥ وأن يعلن الأحكام العرفية بعد استقلال السودان عندما أسقط في المرة الثانية في عام ١٩٥٦.

إن الرئيس الزعيم الأستاذ المعلم إسماعيل الأزهري له مواقفه في حل كثير من قضايا السودان، ومواقفه في مؤتمر باندونغ، فهذه العجالة لا تكفي لتاريخ جيل من الكفاح والبذل والتضحية فهو جدير بأن يؤرخ له وتكتب سيرته للأجيال لأنه لولا كفاح الرئيس السيد إسماعيل الأزهري لما تحقق الاستقلال من غير إهراق الدم وسفك الأرواح.

رحم الله إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان بطلاً عظيماً.

إسماعيل العتباني [١٩١٢]

حي أبي روف اشتهر بشبابه الذين توفروا على الدراسة والبحث والاهتمام بالتيارات الفكرية التي عمّت العالم بعد الحرب العالمية الأولى وكانوا هم أول القارئين والمتابعين للمذاهب الاشتراكية، وبرزوا جميعاً في الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية، فحسين أحمد عثمان الكد وحسن أحمد عثمان الكد وخضر حمد وإبراهيم يوسف سليمان وحسن عثمان إسحق ومكاوي سليمان اكرت وأحمد خير وإسماعيل العتباني والهادي أبو بكر وغيرهم كانوا أهم أعمدة جماعة أبي روف الثقافية، وكانوا أغلبهم من المحاسبين والمترجمين وقد تخرجوا في فترات متلاحقة وإن كان بعضهم قد سبق الآخر، إلا أنهم كانوا أشبه بالإخوة في هذا المناخ الثقافي تفتحت رؤية إسماعيل العتباني فكان يشترك بأحاديثه في المراسم ويشارك في حفلات التأبين ويكتب عن مشكلات الحياة الثقافية.

وكانوا كلهم موظفين في دواوين الحكومة فتعرضوا للنقل من بلد إلى بلد حتى التقوا في واد مدني في منتصف الثلاثينات، فقامت جمعية واد مدني الأدبية وكانوا أهم قوامها وأسسها. وكان إسماعيل العتباني من أكثر العاملين في نادي واد مدني فانتخب أميناً عاماً له. والأندية في تلك الفترة كانت أبنية تؤجرها الحكومة للموظفين بإيجارات اسمية وتشرف عليها، ويكون رئيس النادي في الغالب مقرباً وموثوقاً به من الحكومة، فكان رئيس النادي في تلك الفترة المرحوم السيد محمد صالح ضرغام باشكاتب المديرية. وكان قد تكوّن مؤتمر الخريجين وأصبح للخريجين صوت مسموع. ففكر أعضاء النادي أن يحولوا اسم النادي من اسم نادي مستخدمي حكومة السودان إلى

اسم نادي الخريجين. ورشحوا الدكتور إبراهيم أنيس رئيساً للنادي ولكن السلطات اعترضت على ذلك. وكان نائب مفتشي مركز واد مدني المرحوم محمد علي نديم والمأمور المرحوم علي الملك والباشكاتب محمد إبراهيم والد الأستاذ علي محمد إبراهيم المحامي. والحكومة لم تر إلا أن يكون أحد كبار موظفيها رئيساً. وقد رشح أعضاء النادي الأستاذ أحمد خير. ولكن مفتش المركز المستر ساندرز الذي كان يشرف على واد مدني اعترض كما اعترض المستر ميل مدير المديرية، وتم نوع من المصالحة. فاختير السيد محمد إبراهيم رئيساً للنادي وانتخب إسماعيل العتباني أميناً عاماً للنادي. فازدهرت الجمعية الأدبية، وبالتالي نشطت لجنة المؤتمر الفرعية. وفي تلك الأثناء وفدت إلى واد مدني فرقة الفنانة بديعة مصابني فأقامت حفلات في نادي واد مدني بعد أن وافق مفتش المركز البريطاني، وقد تسلم إسماعيل العتباني تصريحاً مكتوباً، ولكن حدث أن عرضت رقصة رأى فيها الناس أنها غير لائقة بالأخلاق والعادات فاصطدم إسماعيل العتباني مع مفتش المركز وألغيت الرقصة.

علا صوت إسماعيل العتباني في النادي وفي لجنة المؤتمر وفي الجمعية الأدبية. وأقيم أول مهرجان أدبي في السودان منبثقاً من الجمعية الأدبية بنادي واد مدني... واختار مدير المديرية أن يفتتح المهرجان، وقد أبدى إعجابه بنشاط الموظفين في مديريته، وكان ذلك في أخريات عام ١٩٣٩.

وكانت للإنكليز سياسة في احتواء المثقفين وإبعادهم عن النشاط الثقافي ـ الاجتماعي. ولم تكن هنالك ترقيات استثنائية، بل كانت هنالك فرص في مدرسة البوليس والإدارة وفي مدرسة الحقوق، فقبل أحمد خير في مدرسة الحقوق، كما قبل إسماعيل العتباني، ولم يكمل إسماعيل العتباني دراسته في كلية الحقوق، فتوجه للعمل الصحفي وتولى رئاسة تحرير جريدة صوت السودان فجعل منها مدرسة جذب إليها أصدقاءه القدامى: المرحوم ميخائيل بخيت وحسن عثمان إسحق وحسن نجيله وأحمد خير وإبراهيم يوسف سليمان. ونشأ صالون القول حيث كان يجتمع الأصدقاء القدامى يخططون ويتناقشون في المشكلات السياسية والفكرية، وكانت جريدة صوت السودان لسان حال الختمية، وكان أولئك الأصدقاء القدامى لهم وجهة نظر سياسية، فهم لا يرون الاندماج في أية طائفية، بل يقفون بعيداً عن أي انتماء قبلي أو طائفي، ففكروا أن تكون لهم صحيفة تعبر عن رأيهم، وكان معهم المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس.

فاختار الدكتور إبراهيم أنيس اسماً للصحيفة فكان «الرأي العـام». وترك إسماعيل العتباني رئاسة تحرير صوت السودان، وصدرت جريدة الرأي العام في عام ١٩٤٥، وكانت مسائية في بادىء الأمر واشترك في تحريرها متطوعون من الكتاب هم: الأستاذ أحمد مختار والمرحوم الأستاذ عثمان أحمد عمر والمرحوم الأستاذ ميخائيل بخيت وإبراهيم عثمان إسحق، وكانت أول صحيفة تعمد إلى الاهتمام بالأبواب والأعمدة. فمن أبوابها الشهيرة: الضحى وحديث الطير وأخبار المحاكم والقضايا. وكان من المحررين الذين يتقاضون مرتبات فيها المرحوم الأستاذ محمد أحمد السلمابي، والأستاذ سليمان بخيت ثم بعد ذلك الأستاذ حسن نجيله.

أما بقية الكُتَّاب فكانوا متطوعين. وقد عنيت ببعض أهم ما ينشر في الصحف البريطانية وترجمة قطرات من ذلك وأدخلت التعليق السياسي في الموقف الخارجي والموقف الداخلي.

وكانت جريدة الرأي العام حريصة على دقة الخبر وصحته، كما أنها وقفت في حيرة عن الصراع الحزبي، وإن كان لها رأي سياسي معروف. كان إسماعيل العتباني هو (الرأي العام)، يشرف على مقالاتها ورسائلها وإعلاناتها وأخبارها، ويراجع كل كبيرة وصغيرة فيها، لذلك كانت صحيفة موثوقاً بها، حتى إنهم كانوا يشبهونها بجريدة التايمز اللندنية والأهرام القاهرية.

وبعد ذلك انضمّ لها صحفيون يتقاضون مرتبات كالأستاذ محجوب عثمان والأستاذ محمد الخليفة طه الريفي والمرحوم الدكتور سيد أحمد نقد الله كما أن المرحوم الأستاذ الشاعر محمد محمد علي عمل فيها قبل سفره للالتحاق بدار العلوم بالقاهرة.

استحدثت الرأي العام أبواباً جديدة ونجحت في أن تكون مقروءة لما كانت تقدمه من معلومات وثقافة بعيداً عن الضجيج الحزبي واستكتبت داود عبد اللطيف وجمال محمد أحمد والدكتور مكي شبيكة والدكتور عبد الله الطيب، وكادت أن تحتكر قصائد الأستاذ الشاعر المرحوم أحمد محمد صالح والمرحوم الأستاذ الشاعر توفيق صالح جبريل. نظمت لها شبكة ممتازة من المراسلين في كل أنحاء السودان، فكان من مراسليها الأستاذ محمد عبد الجواد والأستاذ الفاتح النور. ومن مراسليها فيما وراء البحار الدكتور بشير البكري. وجعلت للرياضة وكرة القدم دولة فالمرحوم الأستاذ

كوركين اسكندريان كان يشرف على القسم الرياضي والمرحوم الأستاذ محمد عامر بشير فوراوي يحضر أهم مباريات كرة القدم في العالم ويكتب للرأي العام.

اتّسعت دائرة الرأي العام فانضم لها المرحوم الأستاذ عوض برير والأستاذ ابن خلدون. ونشأ في أحضانها الأستاذ الفاتح التجاني. وكان لكل محرر أو كاتب يعمل فيها وجهة نظره السياسية، ولكن كانت سياسة الرأي العام العمل الجاد والصدق، لذلك لم تنعكس على صفحاتها أي دعوات إيديولوجية أو حزبية. فالحديث عن الرأي العام، تلك الصحيفة التي كانت معلماً بارزاً وجديداً في الصحافة السودانية، لذا كان الأستاذ إسماعيل العتباني من رواد الفكر السوداني الذين أفاضوا الجديد في حياتنا الثقافية والفكرية.

الأمين علي مدني [١٩٠٢ - ١٩٣٣]

عندما تفتحت القلوب والعقول في مطلع العشرينات، وعرف الشباب السوداني أن لهم مكاناً تحت الشمس، لا يتبعون ولا ينصاعون، بدأوا يتمردون على كل ما حولهم، فالنثر المنمق ومحاكاة الأقدمين مرفوض، وشعر التقليد والمسايرة بغيض، وفي تلك الأونة علا صوت جبران خليل جبران، وزلزل شعراء المهجر أركان الشعر، فالبساطة والتلوين والتعبير عن النفس في افتتان، كان ذلك ديدن المهجريين، وتخرج الأمين علي مدني من مدرسة العرفان، الطريق أمامه مسدود، إنه سيبقى مدرساً في الكتاتيب، وينقل بلا إنذار، وسبل الترقي أمام أولئك المدرسين صعبة، وهو أديب وكاتب فلم يكن ذلك طريقه. عكف على الدراسة ومعاشرة الأدباء في أم درمان يثاقفهم وينادمهم. ونظر فيما كتبه الشعراء السودانيون، وصاغه البنا وعبد الله عبد الرحمن والكروي والقرشي فلم يجد في ذلك جديداً، إنهم كانوا يسيرون في خطى السلف. وذات يوم ظهر في نادي الخريجين بأم درمان، وقد أعلن عن محاضرة يلقيها عن الشعر السوداني، فإذا هو يهاجم شيوخنا الشعراء وينتقد فنّهم ويتهمهم بالجمود، وأثارت محاضرته نقاشاً مستعراً في المجالس والأندية، وانتقلت إلى صفحات حضارة السودان، فما كان أحد ليجرؤ أن يشن مثل ذلك النقد، حقاً إنه لنقد ذاتي، فإنه قرأ هؤلاء الشيوخ فلم يعجبه شعرهم لأنه لم ير جديداً فيه، بل كان مكرراً معاداً، وعزا ذلك لاقتصار نظرهم في القاموس الشعري القديم ومحاكاتهم له كما كان ينظم في الماضي، واتهمهم بأنهم ناظمون.

من أين تفتحت هذه الرؤية للأمين علي مدني، إنه اكتشف ولي الدين يكن وقرأ شعره ورسائله، فولي الدين يكن ثار على التقليد قبل مدرسة الديوان، ومهد لأفكار

وفنون شعراء وكتّاب المهجر، فهو الذي أطلق الصيحة قبلهم، لكنه كان متأرجحاً قلقاً لا يستند على موقف ثابت، ولم يعن بإقامة القواعد والأسس لكنه اتّهم الجميع، وبينما كان الناس يقرأون الأدب العربي القديم في السودان، نفذ الأمين علي مدني إلى مجلة مركيس، والجامعة والفنون المهجرية وتابع ما كانت تكتبه «مي» في الهلال والمقتطف، وهام بمؤلفات شبلي شميل وفرح أنطون، وعشق الثورة الفرنسية، ولم يتلفت للصراع السياسي والأدبي في مصر في العشرينات، بل أطل على العالم الجديد يستوحيه متجاوزاً فترة التكوين السياسي للفكر العربي، لذلك كان رومانسياً، فأسلوبه غير مطروق في الأدب السوداني حينذاك، فهو شعر مرسل تكتنفه العاطفة العميقة والأسى، وقد كان أناس يكتبون أدباً مرسلاً في مصر والشام وقد برعوا في ذلك الضرب وعلى رأسهم مصطفى صادق الرافعي ومحمد صادق عنبر ولكن شفافية الأمين لم تلتصق بعمود الكلمة المنتقاة المنمقة عند أولئك.. لقد سار في طريق جبران، وإن كانت في كتابه الوحيد «أعراس ومآتم» لمحات من أمين الريحاني، إلا أن أثر جبران أقوى وأوضح من أثر الريحاني.. فلنقرأ كتابه، هل هو صدى الغربال الذي كتبه ميخائيل نعيمة في مطلع العشرينات؟ لا أشك في ذلك، فالتعابير والقواعد هي قواعد نعيمة في نقده للشعر السوداني.. ولماذا أزعج ذلك الشيوخ حينذاك؟ لقد تعود الناس على القصيدة المنبرية، والشعر حينذاك حكم منبري، فنرجع إلى زهر الربيع، الذي جمعه سليمان كشه، نجد أن الشعر كانت له مواسم، الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والهجرة وحفلات التأبين، وليس غير، فالشعراء الذين استطاعوا أن يعبروا عن أنفسهم، عبروا في شعر الهجاء أو في شعر الشكوى، والذين اكتشفوا الوجد والحب في قلوبهم كتموا شعرهم عن المحافل، ولم تدع غير قصائد الهجاء وتصوير الأحوال السيئة في المجتمع السوداني كقصيدة البنا التي كتبها عن الهلال ومطلعها:

يا ذا الهلال عن الدنيا والدين حدث فإن حديثاً منك يشفيني
عاصرت نوحاً ولم تركب سفينته وأنت أنت فتى في عصر زيلين

فتلك المواسم، كانت سوانح للتعبير عن الأحوال، ولكن الأمين علي مدني أراد الشعر للشعر وقد اندهش الأدباء لآرائه، ولقيت في نفوسهم قبولاً.

عرج الأمين علي مدني بعد ذلك للنقد الاجتماعي وتقويم المجتمع السوداني، فتناول العادات والتقاليد، وأوضح أنها ذات رموز، فبعضهم وقف معه، وبعضهم

هاجمه، نظرت السلطات حينذاك لما كتبه الأمين علي مدني. إنه جديد، ولكن بعضه قد تجاوز الحدود فنقل إلى الأقاليم.. فصار يكتب لأصدقائه رسائل يصف فيها حياته ويطلب منهم أن يرسلوا له الكتب، فعكف على قراءة سلامة موسى والمازني وإسماعيل مظهر، ولم يهتم إلا ببعض كتابات هيكل (كزينب) و(ولدي)، فأولئك الكتّاب كانوا مجددين يهدمون القديم، ويدعون إلى مجتمع جديد، ولست أدري كيف توصل إلى نيتشه، فحتى تلك الفترة لم تكن لنيتشه مؤلفات معربة، ولكن عزا ذلك إلى مجلة الفنون المهجرية، وعشق جبران لنيتشه، ولكتاب كتبه سلامة موسى عن الإنسان وفسر فيه بعض آراء نيتشه.. لقد كان نيتشه معبوداً عند الأمين علي مدني.

هذه العبقرية المبكرة، وهذا الإلهام العميق كان حدثاً في حياتنا الفكرية، لم يألفه السودان من قبل، الذي أثاره كان فتى في ميعة الصبا.. تفتحت شجرة الورد فجرا وضحى، حتى إذا ما سطعت الشمس في الظهيرة أغلق عليها الخىق.. أصابت العلة الأمين علي مدني.. ومات وكله حياة.. ولكنه اليوم حيا في الموت.. هذا الرائد الثائر قمة في تاج حياتنا.. نذكره لأنه موقظ للسبات.

التجاني الماحي [١٩٠٨ ـ ١٩٧٠]

نشأ التجاني الماحي في أسرة من العمراب الذين عملوا بالتجارة في النيل الأبيض، وانصرف كل أهله إلى هذا العمل، ولكنه دون إخوانه اهتمّ منذ طفولته بأخبار كرامات الأولياء، وعلاج المرضى وفاقدي العقول، وزار المشايخ والقباب، وحفظ الأنساب، وذهب إلى جبل أم علي وديم القراي، وسمع أهله يتحدثون عن سماعة والقراي، والشيخ حامد أب عصا سيف.. كما أن الحاسة الأدبية قد ظهرت في كتاباته منذ المدرسة الوسطى، ولما التحق بكلية غردون، فكر في بادئ الأمر أن يكون معلماً، ولكنه اختير في القسم العلمي، فكان بجانب دراسته يقرأ في شتى المعارف، ويتحدث عن فرويد، ويونج، وأدلر، والتحق بمدرسة كتشنر الطبية، وتخرج طبيباً عمل في كثير من الأقاليم حتى نقل إلى الأبيض في الأربعينات فالتقى هنالك بمحمد أحمد محجوب، الذي كان قاضياً جزئياً هناك والدكتور علي باخريبة، وتألق التجاني في كردفان فكان الحكم في المصالحات بين القبائل والمرجع في المنازعات، وكان بجانب ذلك يحاول أن يستخدم الطرق النفسية في معالجة الأمراض، ويزور العاملين في معالجة الجنون ويستمع إليهم ويناقشهم ويستعين بهم في بعض الأحيان، فلما تمت له البعثة للمملكة المتحدة تخصص في الأمراض العصبية والنفسية وعمل فترة في الحكومة واستقال بعد ذلك ليتفرغ لعيادته، فكان أول طبيب نفسي في السودان، وفي تلك الفترة درس معاقل علاج المجانين بالجزيرة وفي غرب السودان، كما أنه درس التاريخ الاجتماعي وهب التجاني نفسه للقراءة والدرس، وزار مواطن الأولياء والصالحين ودرس الأنثربولوجيا الاجتماعية لوادي النيل، وأقر السحر والخرافات في تكوين الشخصية، وفي صحوها ومرضها، ودعاه ذلك أن يدرس اللغة الهيروغلوفية

والآثار وأن يلم باللغة اليونانية القديمة، وفتحت له هذه الدراسات أن يلجأ للمحفوظات واللوحات الفنية، ويتابع ما بدأه من دراسات في الموسيقى، فالتجاني كان يعزف الكمان والعود عندما كان طالباً في كلية غردون.. وكتب التجاني عن الزار، وعن طرق العلاج به، وعن الأنغام وصلاتها بالمرض النفسي والعصبي.

ومنذ عام ١٩٥٧ أصبح التجاني يشارك مشاركة واضحة في الحياة الثقافية، فكان صالونه يعج بمحبي الثقافة والعلم، يتحدثون في كل صنوف المعرفة، وأخرج في تلك الأونة كتابه عن تاريخ الطب العربي، وهو من أقيم الكتب التي ألفت في هذا المجال، ولكنه لم يجد الاهتمام والدراسة. وفي تلك الأثناء كتب كذلك عن العلاج بالأعشاب. وبعد ذلك شد الرحال إلى الإسكندرية حيث عمل خبيراً في هيئة الصحة العالمية حيث عمل في ميدان الصحة النفسية وكتب دراسات عن الاضطرابات النفسية القاسية في المنطقة، وعاد قبيل ثورة أكتوبر، فقام بالعمل في كلية الطب في جامعة الخرطوم بتدريس الطب النفسي، ولما هبت ثورة أكتوبر اختير عضواً في مجلس السيادة ولكنه استقال، وعاد مرة أخرى للعمل في كلية الطب، وأشرف على أول مؤتمر للصحة النفسية أقيم في جامعة الخرطوم في عام ١٩٦٦، وكان التجاني يعاني من مرض السكري، ولكنه كان يقاومه ويعمل طوال اليوم في القراءة والبحث، ويفتح صالونه كل ليلة ليعالج مسائل العلم والثقافة.

كل الدراسات التي كتبها التجاني الماحي كانت باللغة الإنكليزية لأنه رأى في ترجمة الاصطلاحات قصوراً، كما أن العالم العربي لم يتفق على كثير منها. وهكذا كانت حجته، مع أنه كتب كتاب تاريخ الطب العربي وبه اصطلاحات علمية وجد لها مقابلها باللغة العربية.

لا شك أن التجاني قرأ كثيراً من صنوف المعرفة، واهتمّ بالتاريخ الروحي والإنساني في وادي النيل، ورجع إلى أمهات المراجع، وسجل عملاً يستفيد منه الذين جاؤوا بعده، كما أنه كان حجة في علاج الجنون، من غير استخدام العقاقير والصدمات الكهربية، وقد استفاد من طرق العلاج في كدباس وفي كركوج وأورس وأم ضوابان، وفي كثير من الأحيان كان يستفيد من وصفات الفقراء، وقد سجل ذلك في مذكرات، وكان دائماً يتحدث عن الأجسام الغريبة، وفي بعض الأحيان كان

يتحدث عن تجارب ورؤى غير محسوسة وتتحقق كل أقواله، لذلك كان راضياً بالقضاء والقدر، فقد حدث أن اختير ابنه عبد الرحمن في الكلية الحربية واجتاز الاختبارات الطبية، فسحب أوراقه، وأكد للأطباء أن ابنه يعاني من سرطان كرويات الدم وأكد لهم أنه سيتوفى في زمن وقته، وفعلاً حدث ما قاله وفي عام ١٩٦٨ حدد ميقات وفاته.

إن قراءات التجاني في التصوف عامة جعلته ينظر للحياة كطريق لحياة أفضل، لذلك اتّسمت حياته بالقناعة والصبر، وأهدى كثيراً من تحفه ومحفوظاته، وقصر حياته على العلم والتعليم، فتدريسه في كلية الطب كان سياحة وتحليقاً وسمواً يستفيد منه الأديب والفنان والعالم والطبيب، لذلك جذب الكثيرين من طلبة الطب النفسي، كما أن أحاديثه في ندواته وجهت الفنانين والأدباء والمؤرخين للعناية بالبحث وولوج أبواب الإبداع، فكنت ترى الشاعر والطبيب والمعلم والصحفي والمهندس يغشى ندوة التجاني الماحي.

وقد سألته مرة: لماذا لا تتيح للآخرين أن يكتبوا ما يدور في ندوتك، فإننا قد عرفنا سقراط عبر محاورات أفلاطون، وجونسون في كتاب بوزيل، وجوته في كتاب اكرمان. قال لي: تمنيت ذلك، ولكن لم أجد أحداً واصل معي كل هذه الرحلة.

قلت له: لأنك تتحدث عن مسائل لا يفهمها الكثيرون، فأنت تتحدث عن السحر عند الفراعنة، والشمس وعلاقاتها بأهل النيل، والحلي السودانية، ثم تسافر معهم فتتحدث عن شخصية هتلر وأتاتورك وأثر الأمراض النفسية في الشخصيات التاريخية، إنك في حاجة لمتفرغ للمعرفة، فضحك وقال: إنني أحاول أن أثير ذاتي.

رحم الله التجاني الماحي الطبيب العالم الفنان.

التجاني يوسف بشير [١٩١٠ - ١٩٣٧]

جنة الشاعر في خلوده بعد الموت، ونعيمه في ذكراه وإجلاله، فلو كان الشاعر يكرم في حياته، كما يكرم في مماته، لأحب الشعراء الحياة وأبدعوا فيها مدحاً وإطراء. ولكن الحياة الدنيا تجرد الشاعر والفنان من النعمة والسعادة، فلا يرى حياة إلا في الشعر. هكذا كان التجاني يوسف بشير يحيا بين شقي الرحى.. داء دفين، وفقر مدقع، واحتفال بالوجود والحياة.

دخل المعهد العلمي، ولا مكان له غيره. المعهد آنذاك قد هبت عليه رياح التغيير. طلابه أطلّوا على الفكر الحديث، قرأوا طه حسين، والعقاد، وإسماعيل مظهر، وشوقي، ومطران، وتعلّقوا بالتجديد. وحسين منصور تعهدهم بدروسه في الأدب والنقد وقادهم إلى عوالم جديدة. وهم دائبون على تتبع كل جديد في الحياة. فكان بينهم محمد عبد الوهاب القاضي والهادي العمرابي وعوض عقارب وخالد بن الخياط وخالد عبد الرحمن. رأى التجاني كل هؤلاء حوله، وكلهم يسعون إلى عالم الانعتاق، وينكرون هذه الدراسة التي تغوص بهم في المتون والشروح، وفي منزله خلوة الكتيابي التي هرع لها أدباء مجددون من الشباب، كعقيل أحمد عقيل ومحمد أحمد عمر وإبراهيم عبد العاطي. فشق التجاني طريقه إلى عالم الشعر، لا أستاذ له غير نفسه. نعم، قد قرأ الشعر الحديث والشعر القديم، واقتنى كل أعداد مجلة أبولو، ينظر فيما استحدثه هؤلاء الرومانتيكيون الجدد، فلم ير صاحب له غير اثنين هما محمد عبد المعطي الهمشري وأبو القاسم الشابي. فالهمشري اغترف من شيلي، وكيتس، وتابع شعراء البحيرة في الأدب الإنكليزي وتعمّق في اللغة الإنكليزية. والشابي قد

اعتصر روحه شعراً وتابع الدروس في جامع الزيتونة، وتوفرت له بيئة علمية ممتازة. والسودان حينذاك قد أينعت فيه ثمار الاتصال بالفكر العربي الحديث والفكر الغربي، ولكن الذين قاموا بذلك كانوا من طبقة الأفندية الذين لا تربطهم صلات بالمعهد العلمي. فضاق التجاني بالمعهد العلمي، وخرج للحياة منفرداً لا يحمل شهادة، ولا يتبوأ وظيفة فعمل في السوق، والوقت كان وقت كساد، والأزمة الاقتصادية ضاربة بأطنابها، واستطاع أن يلتحق بشركة سنجر، يلاحق جمع أقساط ماكينات الخياطة، ويعمل كذلك في المكتب أدنى الورشة، وبين ذلك يتصل بجريدة ملتقى النيلين، يصحح في المطبعة ويحرر المقالات، ويساعد في جمع الاشتراكات وحظه من ذلك في المال قليل جداً قد لا يقدر أن يقيم أوده. وظل التجاني يتردد بين الخرطوم وأم درمان حتى أنشأ محمد عبد الرحيم مجلة «أم درمان» التاريخية، فعيّن التجاني بدراهم معدودات، فأشرف التجاني على تبويب المجلة وعلى صفها وعلى تصميمها، وعلى كتابة أجزاء كثيرة منها، والجنيهات الأربعة هي كل ما يصل إليه.

اشتدت العلة على التجاني، فترك التجاني العمل، وشعره ذاع وأقر له الناس وحفظوا شعره، ونشرت له مجلة الرسالة التي كان لا يرقى للوصول لها إلا الأكفاء الممتازون في العالم العربي. وكذلك كتب فيها التجاني مقالين عن الحركة الأدبية في السودان. وأضفت مجلة الرسالة إلى اسمه لقب الأديب، فمجلة الرسالة كانت توزع الدرجات، من اسم السيد إلى اسم الأديب إلى اسم الأستاذ، وأقل ما تقوم به مجلة الرسالة أن تنشر لإنسان من غير لقب. حسده الكثيرون على ذلك، فكثير من أدباء السودان في تلك الفترة تاقوا أن تنشر لهم مجلة الرسالة، فما نشرت إلا لمعاوية نور، والتجاني يوسف بشير، وعبد الله عبد الرحمن.

وما من مجلة أو جريدة ظهرت في حياة التجاني إلا أتحفها بنثره وشعره، فقد كتب عن الحركة الأدبية في مجلة الفجر مقالين. لم يهتم بالتجاني في حياته ومماته غير المبارك إبراهيم الذي كانت له مكتبة في أم درمان يستلف منها التجاني الكتب.

لزم التجاني سرير المستشفى، فنفر الناس من زيارته، ولم يزره غير الشاعر محمود أنيس، فأكبر تلك الزيارة، ومدح محمود أنيس بقصيدة قيل إنها آخر ما قاله من الشعر. توفي التجاني، فكان لموته رنة حزن. وبدأت مجلة الرسالة تنشر بعض قصائد

ديوانه «إشراقة»، بعد وفاته. وفي صيف عام ١٩٣٩ حمل المبارك إبراهيم رحمه الله ديوانه، وحاول أن يجد له ناشراً في مصر، ففشل في ذلك. فأبقاه أمانة لدى الشاعر العاطفي الدكتور إبراهيم ناجي. أحب ناجي شعر التجاني، وأخفاه عن الناس، ولم يقدر أن يخفي إعجابه بهذا الشعر. فبدأ يقرأ مقطوعات منه لمن يحبهم من الشعراء، وبينهم شاعر تألق في تلك الفترة في سماء الشعر في مصر، ألا وهو الشاعر محمد فهمي. ولم يسمح لأحد أن يستعير الديوان، فحفظ محمد فهمي قصائد منه، ونشر في مطلع الأربعينات كتاباً بعنوان الشعراء الثلاثة، وهم التجاني يوسف بشير، وأبو القاسم الشابي، ومحمد عبد المعطي الهمشري. فنبه هذا الكتاب أدباء العربية لمكانة التجاني، وبدأوا يتساءلون عن ديوانه، فأسرع المرحوم السيد علي البرير بطبعه. فكانت تلك أول طبعة لديوان إشراقه، وتعاقبت بعد ذلك الطبعات، وأقيم مهرجان لتكريم التجاني في مصر اشترك فيه أساتذة الجامعات والأدباء والنقاد في عام ١٩٤٧.

إن التجاني كان خرقاً في عالم الشعر السوداني، فهو رأس المجددين في الشعر السوداني كله.. نقل الشعر من ساحة التقليد إلى ملكوت الحياة والوجود، وبنى القصيدة في نسج أشبه بنسج الطائر لعشه، وأحيا اللفظة بالفكرة، وجمع الفكرة واللفظة في بعد ثالث هو الموسيقى الباهتة والموسيقى الظاهرة، ثم نقل ذلك إلى البعد الرابع الذي دمج القارئ في جو القصيدة، فجعله جزءاً في الكل، وكلاً في الجزء. فإنك عندما تقرأ التجاني أول وهلة، لا تسأل عقلك فيما إذا ما كنت قد فهمته، لأنك تسرب في مراقي السحر والجمال والحقيقة. تضن على نفسك بالسؤال لأنك في حضرة الجلال والجمال.. وبعد ذلك لو أردت أن تكون ناقداً تتوقف بك القواعد فتسأل: لِمَ هذا الغموض؟ ليس هناك غموض في شعر التجاني لكن هذا الشكل نوع من العمارة في هندسة الشعر، تختلف عن عمارة الشعراء الآخرين. فالمتنبي قديماً اتّهم بالغموض في شعره، وجاء بعد ألف عام ونيف، أديب طبيب جراح للعظام في مصر هو الدكتور محمد كامل حسين فاتّهمه بمرض في العظام. كان هذا المرض سبباً للغموض، والالتواء في شعره. ولكن الحقيقة ليس في شعر المتنبي غموض، كما ليس في شعر التجاني غموض. فلكل منهما جوه النفسي الذي هو قوام شعره. فهذا الجو هو ملاك روحه، فلا نقدر أن نفسره على ضوء علم النفس والعلوم البيولوجية.

والشاعر العظيم هو فنان منفرد الصفة لا يُحاكى ولا يحاكي. فهل قدر أحد أن

يحاكي المتنبي وابن الرومي وأبا العلاء المعري أو شكسبير أو جوته.. كلا.. لأن الشاعر العظيم يصب حياته في شعره فينفخ من حياته حياة في الآخرين فإن كانت هنالك صعوبة فهي ليست صعوبة ولكنها عمق. وإن كان هنالك غموض فهو ليس غموضاً بل إنه انطلاق نحو اللانهائية.

فالتجاني لا شك شاعر عظيم وقمة في الشعر العربي الحديث، لا يقرأه الناس في السودان وفي مصر وحسب، بل يقرأه كل العرب ويعجبون بشعره.

في السودان اليوم شعراء مميزون وشعراء نابغون، ولكن الفاصل بين القديم والجديد، كان هو التجاني يوسف بشير، فإن تألق شاعر أو شاعران في قمة العبقرية اليوم في السودان، فليس هذا يمحو أثر التجاني يوسف بشير ويطمره، ولكنه يقف قمة بين القمم، هكذا هو الشاعر الخالد الذي لا يموت ما دامت الحياة باقية. رحم الله شاعرنا العبقري التجاني يوسف بشير.

الدرديري أحمد إسماعيل [١٩٠٣ ـ ١٩٨١]

قدمت القطينة للسودان خير الأبناء البررة الذين شاركوا في بناء السودان الحديث. فرجالها ونساؤها اهتموا بالعلم والثقافة منذ مطلع القرن العشرين، فلا غرو إن كان منها العالم الأديب المرحوم الدكتور فضل بابكر والأستاذ المربي عبد الله البشير سنادة. فالدرديري أحد أبناء القطينة تولد عنده الوعي السياسي منذ صباه فاشترك في جمعية الاتحاد وهو طالب في كلية غردون، ولكن تكشفت آراء بعض أعضاء هذه الجمعية في عام ١٩٢٢ إذ تسلل لها البريطانيون في عيونهم وأرادوا احتواءها فاستقال منها هو وتوفيق أحمد عبد العال الذي عرف بعد ذلك باسم توفيق البكري ومعه بشير عبد الرحمن وتوفيق صالح جبريل وعرفات محمد عبد الله وخليل فرح وانضمّوا إلى جمعية اللواء الأبيض.

وفي عام ١٩٢٣ اختير الدرديري في القسم العلمي ليدرس الطب ومعه زميله المرحوم الدكتور مختار محمد محمود قريب المرحوم عرفات محمد عبد الله، ولكن الدرديري فضّل أن يهاجر إلى القاهرة ليواصل تعليمه، فحمل ملابسه القليلة وهو يرتدي جلبابه وسار على الأقدام حتى حلفا، واستطاع أن يجد تاجر مواشي أوكل له حراسة أغنامه وجماله فسافر إلى القاهرة ولم يكن هنالك في تلك الأثناء أية فرص للسودانيين ليلتحقوا بالمدارس المدنية المصرية فوجد الدرديري صعوبات جمة حتى تبنى مشكلته الأمير عمر طوسون، فألحقه بالخديوية الثانوية وقُبِل بعد ذلك في الجامعة المصرية ليدرس القانون. وانفتح الباب أمام الهاربين من الطلبة السودانيين فانضمّ له توفيق أحمد البكري رحمه الله وبشير عبد الرحمن رحمه الله ويعقوب عثمان رحمه الله، ولما

نال الدرديري ليسانس الحقوق فكر في استكمال دراسته ببريطانيا ولكن لم تكن هنالك هوية للسودانيين ولم تكن لهم جنسية، وللسودان في مصر وكالة يقوم على إدارتها بريطاني، فهو الذي يفصل في شؤون الجوازات والهجرة، فرفض المستر هازلدين أن يزود الدرديري بجواز سفر، كما أن الحكومة المصرية عجزت أن تقدم له أي جواز سفر. فالسوداني ليس مصرياً، كما أنه ليس سودانياً فهو تابع للسلطة البريطانية في السودان تتصرف في حياته كيفما شاءت، إذ يكتب أمامه اسم قبيلته فقط. فالتقى الدرديري بالشيخ أحمد عثمان القاضي رحمه الله فوعده أن يسعى لمنحه جواز سفر. وفي تلك الأثناء كان رئيس الوزراء في مطلع الثلاثينات في مصر (إسماعيل صدقي باشا)، كان مدير مكتبه هو صهره الأستاذ إبراهيم رشيد وقد زامل الدرديري في كلية الحقوق بالجامعة المصرية وكان يسبقه بعامين في الدراسة. وعجز صدقي باشا في استخراج جواز سفر للدرديري.

وأخيراً أتيحت الفرصة للدرديري ليسافر كتابع لعثمان باشا محرم وتم سفره إلى بريطانيا والتحق بجامعة ليدز وتخرج منها في عام ١٩٣٤ وهو يحمل شهادة الماجستير في القوانين في عام ١٩٣٤.

وعاد الدرديري إلى السودان ولم يكن حتى تلك الفترة أي محامي سوداني، فنصبت العوائق أمام الدرديري، إذ لا بد من امتحان معادلة واجتاز الدرديري الامتحان وأصبح محامياً وذاع صيته.

لم يشارك الدرديري في بادئ الأمر في حركة الخريجين لأنه آمن بالوحدة مع مصر، ولما نشأت الأحزاب أسس الدرديري حزب وحدة النيل الذي ذاب في الحزب الوطني الاتحادي في عام ١٩٥٣. واختار الدرديري الإقامة بالقاهرة فعين وكيلاً لوزارة شؤون السودان، كما أنه عمل أميناً مساعد بالجامعة العربية، وعند اندلاع ثورة مايو اختير سفيراً للسودان في القاهرة ولكنه استقال بعد فترة وجيزة واستقر بالقاهرة حتى توفي فيها.

فكر الدرديري السياسي لم يكن فكراً جماهيرياً، حتى إن أعضاء حزب وحدة النيل لم يتجاوزوا العشرين، ولكن كان للحزب صوت مسموع في دوائر السياسة في الخارج والداخل. وقد ساعد هذا الحزب في تخطي كثير من الصعاب في عقد اتفاقية

القاهرة في عام ١٩٥٣، كما أنه كان بمثابة الرقيب على الفكر السياسي الحزبي في السودان، فقد وقف حتى اندماج الأحزاب الاتحادية موقف المعارض ولم يقبل أن يشارك في الحكم لأنه يرى أن مصر والسودان بلد واحد، فلما عين الدرديري سفيراً للسودان في القاهرة كان يقول: أنا سفير مصر بمصر. لم يعرف الدرديري الخطابة والعمل بين الجماهير ولكن المذكرات السياسية القانونية التي صاغها الدرديري في مهاجمة الاستعمار كانت مفتاحاً لحل كثير من المشكلات، كما أن رأيه كان له الاعتبار عندما تتأزم الأمور. ومع شهرته عُرف الدرديري بثقوب الفكر ونظافة اليد، وبالأمانة، وبالترفع عن المكاسب والإفادة من العمل بالسياسة، فهو رجل مثالي لا يرضى العمالة أبداً في صفاء سيرته وسريرته. والدرديري أحمد إسماعيل هو أول رائد للانفتاح والتكامل بين مصر والسودان. وكان يردد رحمه الله كلمته: سيعرف السودانيون ألا فائدة لهم إلا مع مصر فلا بد من التكامل.

وفي غضون الفترة التي أسند فيها للدرديري وكالة وزارة شؤون السودان شجع الطلبة السودانيين وساعدهم على الالتحاق بالجامعات المصرية، فأتاح لهم كل فرص الراحة والاستقرار، وجعل الحكومة المصرية تدفع لهم الإعانات المتواصلة، وتوفر لهم السكن واحتياجات المعيشة. ويعد الدرديري هو المنسق والمنظم لاستيعاب السودانيين في الجامعات المصرية. إنه كرائد تشهد له مذكراته القانونية والسياسية في إجلاء المواقف وإنارة الطرق لطرد الحكم الأجنبي من السودان، ويكفيه ذلك كجواز مرور في تاريخ الفكر السوداني.

الدرديري محمد عثمان [١٨٩٦ ـ ١٩٧٧]

الأمير محمد عثمان خالد، قائد من قواد المهدية، تميز بقوة شخصيته واعتداده برأيه، وأسرة الحاج خالد شهيرة بين قبائل الجعليين وهي أسرة نشأت في جبل أم علي في بيت من بيوت العمراب، والعمراب إما رجال علم ودين، وإما تجار ورجال أعمال. والدرديري محمد عثمان ابن الأمير محمد عثمان خالد كان ظاهرة منفردة لا تنساق إلى تصنيف، ففكره وحياته لم يمتد إلا بالتعلق بالمثل حتى أصبح حاله محالاً في الوقائع والوجود.

درس في كلية غردون وتخرج مدرساً في عام ١٩١٤ وعشق في مطلع حياته حلقات النقاش والثقافة والتمثيل، وانتدب ليدرس اللغة الإنكليزية في كلية غردون، لكنه أوضح لسلطات الكلية أنه لن يستمر ليعلم في كلية تعليم فيها يجتر ما درسه ويلقيه على تلاميذه، إذ إن المعلم يجب أن يكون متخصصاً دارساً عالماً وقد نال تعليماً أرقى من المرحلة التي يدرس فيها. وتحول للإدارة، والإدارة حينذاك كانت وقفاً على الضباط العسكريين والمصريين بجانب نفر غير مؤهلين من السودانيين، عمدت السلطات البريطانية لاختيارهم من بين كتبة الأسواق ومعلمي المدارس الأولية ليعملوا بجانب هؤلاء العسكريين. واستمر في الإدارة وهو يهتم بدراسة القانون، ويطبق العلم على العمل ويتولى التحقيق بنفسه. وفي الثلاثينات فتح باب الاختيار للسودانيين المتمرسين بالخبرات العلمية سواء كانوا يعملون في التسجيلات والأراضي أو الإدارة ليلجوا أبواب الوظائف القانونية. وبرز الدرديري والشنقيطي وحلمي أبو سمرة وأحمد عباس ومحمد علي الطيب في هذا الميدان. ولكن الدرديري والشنقيطي تألقا في المجتمع السوداني وانفردا بمميزات شخصية في العمل العام.

التزم الدرديري بجانب المحايدة والابتعاد عن المجتمعات الخاصة، لكنه توفر على الأعمال العامة، واشترك في كل مشاريع الإصلاح والترقي الاجتماعي، كما أنه أبرز نشاطاً ملحوظاً في نادي الخريجين في أم درمان، وشارك في مشروع ملجأ القرش.

ونقل في أخريات الثلاثينات إلى بورتسودان فوحد بين المواطنين وأزال الفوارق، ومحا الجفوة القديمة، كما أنه أشرف على جمعية القراء والبحث في نادي الخريجين ونادي السواكين الذي أصبح يسمى بعد ذلك باسم نادي سواكن، وأتاح لشباب الناديين أن يتعاونوا سوياً في لجنة المؤتمر، مع أنه لم يكن عضواً مقيداً أو عاملاً في المؤتمر بحكم وظيفته في القضاء، وبدأ في إحياء الخلاوى في بورتسودان وجمع لها المال، ثم أقبل على إنشاء المدارس الأولية، وبعد ذلك توفر له أن يدعو لإنشاء مدرسة بورتسودان الوسطى الأهلية، وكانت كلمته مسموعة محترمة فتبرع محمد أحمد سليمان ليكون أول ناظر لهذه المدرسة، وقد استقال من وظيفته كمدرس بكلية غردون التي أصبحت عند ذاك مدرسة أم درمان الثانوية، وقبل العمل في عام ١٩٤٣ في تلك المدرسة.

نقل الدرديري إلى العاصمة ولكن صلته بالمدرسة لم تنقطع حتى نمت وأضافت إليها فصولاً ثانوية للتعليم التجاري، وبدأت الاتجاهات السياسية واضحة في التكوين الجديد للمجتمع السوداني ولكن الدرديري لم يقف معلناً انضمامه إلى حزب من الأحزاب، بل إن صلته بالطائفة الختمية جعلته أقرب لأصحاب الميول الاتحادية وقف الدرديري معارضاً اللجنة التي عينها السير جيمس روبرتسون عندما كان يقوم بأعمال الحاكم العام بالإنابة، في عام ١٩٥١ وأسندت رئاستها للقاضي استانلي بيكر الذي التحق بخدمة حكومة السودان منذ عام ١٩٣٧ حتى عام ١٩٥٥، وعمل في المديريات منذ عام ١٩٣٧ حتى عام ١٩٤٤، ثم التحق بسلك القضاء كقاضي جنايات حتى ترقى إلى قاضي محكمة عليا منذ عام ١٩٤٤ حتى عام ١٩٥٥، وليست له مؤهلات في القانون غير اجتيازه امتحان القانون الذي كانت تعقده حكومة السودان، وأهله ذلك لشهادة من إنكلترا في عام ١٩٤٨ وهذه اللجنة دستورية، فلما ألغت حكومة النحاس باشا اتفاقيتي عامي ١٨٩٩ و١٩٣٦ في يوم ٨ أكتوبر عام ١٩٥١ طالب الدرديري بحل اللجنة الدستورية استناداً على أن اللجنة ليس لها سند دستوري لأن السودانيين لم يحصلوا على حق تقرير المصير. وثانياً حق السيادة أصبح غير ذي موضوع، فمصر ألغت الاتفاقيتين من جانب واحد، وبريطانيا تمسكت بالاتفاقيتين، وأوضحت بريطانيا

أن حق السيادة آل للسودانيين، ومصر صرحت أن حق السيادة على السودان أصبح حقاً من حقوقها، وحتى تلك الفترة لم يكن للسودانيين حق تقرير المصير ليسمح لهم بالإجراءات الدستورية.. ووقف مع الدرديري محمد عثمان الأستاذ محمد أحمد محجوب، وأقنع محمد أحمد محجوب اللجنة أن تبرق لأمين عام الأمم المتحدة لتعيين لجنة منها تقوم بإعداد مسودة للدستور، ولم يجب أمين عام الأمم المتحدة، فقامت السلطات البريطانية في السودان بتعيين القاضي استانلي بيكر ليعد تقريراً عن أعمال اللجنة الدستورية وانسحب الدرديري محمد عثمان.. وتم إعداد ذلك ونوقشت مسودة الدستور في الجمعية التشريعية ولم يشترك الدرديري في النقاش لأنه لم يكن عضواً في الجمعية التشريعية واختيرت المسودة وأرسلت للصياغة. وقد حقق موقف الدرديري التنبه لسيادة السودان في ابريل عام ١٩٥٢.

عرف الدرديري طوال حياته بالنزاهة والصراحة والدقة، كما كان أول قاضٍ سوداني يطبق القانون على البريطانيين، فقد حدث في عام ١٩٣٩ أن ارتكب بحار إنكليزي حدث جريمة سرقة، فحكم عليه الدرديري بالجلد، وعرضت الشركة التي يعمل في باخرتها ذاك البحار أن تدفع أية غرامة، فأصر الدرديري أن يطبق القانون بلا تمييز. وفي قضية سرقة البضائع من ميناء بورتسودان قبض رجال الأمن على تجار كبار كانت لهم صلات اجتماعية بالدرديري، فتنحى الدرديري عن المحكمة وطالب أن ينظر في القضايا قاض غيره.

وفي عام ١٩٣٩ قبض البوليس على شبان سودانيين يحتسون الخمر في مشرب عام، فأمر الدرديري أن يخلى سبيلهم لأن جريمة شرب الخمر كانت عقوبتها السجن حينذاك، وأحضرهم إلى مكتبه ونبههم وقال لهم: إنكم لا تعرفون قيمة أنفسكم، ففيكم الأديب والمثقف، وفيكم المجاهد في إصلاح المجتمع، وفيكم العضو البارز في مؤتمر الخريجين، وفيكم الأخ، وفيكم الأب، فلو حاكمتكم لجنيت عليكم وعلى أسركم وعلى السودان، أريد منكم كلمة واحدة: من لن يستطيع أن يترك شرب الخمر فعليه بالستر وعدم المجاهرة، ومن يقدر على تركها فإنه سيرضي الله ويرضي الوطن، فإذ بليتم فاستتروا، وتركها بعضهم واستمع البعض لنصيحته.. ومرت الأيام فكانوا كلهم بارزين في المجتمع، منهم من أصبح وزيراً، ومنهم من أصبح مديراً، ومنهم من برز في ميادين أخرى.

جدير بالذكر أن الدرديري محمد عثمان هو خال الأديب السوداني معاوية محمد نور، وقد تعهده برعايته وعطفه وأشرف على تربيته. وقد كان الدرديري ممتازاً، كما كان مطلعاً على علوم الدين والشريعة وقد انصرف عن الدنيا وعامل أهلها معاملة أهل الآخرة، ففي أثناء أزمة السكر في الحرب العالمية الثانية خرج من المسجد بعد الفجر في بورتسودان وهو يرتدي جلبابه ودخل دكان أحد البقالين وطلب أن يشتري عشرة أرطال من السكر، وأمامه بعض المشترين، فارتجف البقال وحاول أن يبيعها له بالسعر الرسمي، فنهره الدرديري وقال له: إن أنت لم تخف من الله وبعت بسعر السوق السوداء لهؤلاء المواطنين، فكيف تخاف مني. خذ الثمن الذي تقاضيته من الآخرين، فبيتي في حاجة للسكر، والحاجات تبيح المحظورات. فسمع أحد التجار بذلك فأرسل جوال سكر إلى بيت الدرديري، فعلم الدرديري بذلك فناداه وقال له: ارجع جوال السكر وإلا حاكمتك، إن هذه رشوة.

عمل الدرديري على تطوير مناهج الطعام السوداني، وكوّن جمعية خاصة بذلك، كما أنه دعا لاستعمال الدمور كبدل، وكان يرتدي بدلة من الدمور في أغلب الأحيان.

كتب الدرديري مذكراته باللغة العربية، ولكن أقيم كتابات الدرديري كانت باللغة الإنكليزية، فالتقارير القانونية والأحكام التي يصدرها كانت من عيون الأدب، كما أن المحاضرات التي ألقاها في صدر شبابه في الثقافة والحياة توضح ملكاته الفكرية وإجادته البالغة للإنكليزية.

وكان الدرديري عضواً في لجنة الحاكم العام، كما كان عضواً في أول مجلس سيادة في السودان. ومنذ عام ١٩٥٦ اعتكف الدرديري محمد عثمان عن الحياة، فكان يقضي شهر رمضان في الأراضي المقدسة، كما كان يذهب معتكفاً في جبل أم علي.

إن هذا الرجل العف الصارم الصريح النزيه قد التزم حد نفسه واحترم نفسه، وكافح كفاح الحكماء من أجل ترقية وإنماء الحياة الفكرية والاجتماعية في السودان، رحم الله الدرديري محمد عثمان.

الدكتور الريح العيدروس [١٨٩٢ - ١٩٧١]

يعد غرب السودان من المداخل الرئيسية لهجرة القبائل العربية التي فرت من الاستبداد الإسباني والبرتغالي. وعندما سقطت الأندلس تبعثر المسلمون العرب في ممالك المغرب، ولكن تعرضت هذه الدويلات للغزو الأوروبي باسم الكنيسة. وقد فتحت مصر قلبها للأندلسيين وللمغاربة. والسودان الشاسع لم يكن ذا حدود فهو قلب افريقيا ومخبأ العرب المسلمين، وقد امتد في القدم إلى ما يعرف اليوم بإفريقيا الوسطى، وشملت تشاد ودار التكرور بنيجيريا وتوغل حتى يوغندا. وعلماء الآثار والأجناس لهم مؤلفات تقصت هذه الأجناس وحصرتها. فإن كانت مصر هي قلب العروبة والإسلام فالسودان شرايينه في القارة السوداء.

ففي غرب السودان امتزجت الدماء السامية بالدماء الحامية، فقبيلة كقبيلة الهوارة، وهي قبيلة عربية من صعيد مصر هاجر بعض أفرادها إلى كردفان. وكانوا في الأصل سبعة، اختلف ثلاثة منهم مع إخوانهم في سوهاج فهاجروا إلى كردفان وفي جنوب غرب الأبيض وقد عرفوا بأولاد البر. وصاحبنا هذا الذي نتحدث عنه ينتمي من جهة والدته إلى قبيلة الهوارة، وهي حفيدة القاضي عربي الهواري قاضي كردفان ومن كبار تلاميذ السيد محمد عثمان الميرغني الذي كانت والدته من بارا. والذين يدرسون الثقافة السودانية يجدون اسم القاضي عربي في توسل الختمية. أما والده فقد كان قاضياً شرعياً ينتسب إلى قبائل السناهير وهي فرع من فروع الجعليين.

صاحبنا هذا نظر إلى النجوم فرصدها ليكشف ما يخبئ الغد، وزهد فيما يأتي به الغد لأنه لا يدوم، وزهد في الأمس الذي ولى ولن يعود، وعلم ألا مفر مما هو

كائن فأحب يومه وجعله زاد حياته وعرف أن كل شيء محسوب بالرغم من الاحتمالات والمفاجآت. ذلكم هو الريح العيدروس ابن قاضي الأبيض، ولد في عام ١٨٩٢ وتلقى تعليمه الأولي ومبادىء الشريعة على خاله المرحوم الشيخ محمد الصلحي عثمان وقرأ عليه الألفية كما حفظ القرآن.

وكان ذكياً لماحاً له إشارات وإيماءات، كما أنه كان يحس ويحس الذين حوله أنه يحيا في عالم غريب يفيء عليه ويستقي من منابعه. وود أهله لو أصبح قاضياً ولكن قسم القضاة ومعلمي اللغة العربية بكلية غردون أصبح مختلفاً عما كان عليه من قبل، فإنه يقبل الطلبة النظاميين الذين درسوا في المدارس الابتدائية وألحقوا بكلية غردون. وقبل ذلك كان يقبل الراشدين الذين حفظوا القرآن ودرسوا في حلقات العلم في مجالس العلماء والفقهاء، ولم يكن هنالك بد إلا أن يتقدم الريح العيدروس إلى مدرسة العرفاء وأنشئت هذه المدرسة لتخرج معلمين يدرسون في الكتاتيب، وتلقي عمل الخلاوى وتقدم تعليماً أساسياً للذين لا يقبلون في المدارس الابتدائية وكانوا هم أغلبهم من أطفال السودان.

تخرج الريح العيدروس من مدرسة العرفاء وكان الأساتذة يعنون بهؤلاء المعلمين ويكثفون لهم الدراسات في اللغة العربية والعلوم الإسلامية والجغرافيا، إذ يدرسون الجغرافيا بتركيز على الجزائر البريطانية ومقارنتها بالجزائر اليابانية، بجانب علم التربية والرياضيات والأخص الرياضيات العقلية. ويتخرج معلم الكتاب في الدرجة الثامنة (ج) ويترقى بعد أعوام كثيرة إلى السابعة، ويتقاعد بلا معاش مقابل مكافأة هي عبارة عن مرتب سنة. وحتى عام ١٩٣٥ كان عدد المعلمين في الكتاتيب كالآتي: اثنين وثلاثين في الثامنة وستة وأربعون في السابعة. وفي عام ١٩٣٥ قررت الحكومة أن تخصم متأخرات المعاش من معلمي المدارس الابتدائية. وكان الريح العيدروس قد تخرج في عام ١٩١٤. وكان الريح العيدروس في تلك الفترة قد رقي ناظراً، وأصبح ناظراً لمدرسة الخرطوم الأميرية. وأخرج في تلك الأثناء كتابه «تقويم السودان» وهو سفر حافل لخص فيه تاريخ السودان منذ قديم العصور وتحدث عن الآثار وشرح علاقة الزراعة بالنجوم والكواكب، وكان قد عقد صداقات مع المستر جراهام مدير الجيلوجيا والآثار والدكتور ارشيبالد مدير معمل استاك والمستر اركل، وتعلم اللغة

الإنكليزية اجتهاداً، ومثابراً على نفسه، وألمّ إلماماً حسناً باللغتين اليونانية واللاتينية وأجازه المجمع الفلكي بالقاهرة على أبحاثه بدرجة الدكتوراه.

وقبل ذلك كان قد نظم الشعر وجمع ديواناً، وعرض ديوانه على الدكتور طه حسين ولم يرض الدكتور طه حسين على شعره فتقبل نصيحة الدكتور طه حسين بصدر رحب، فاتّجه لدراسة القبائل السودانية ورغب في أن يلتحق بمتحف الآثار ليتفرغ لدراسته ولكنه نقل إلى مدرسة عطبرة الأولية ناظراً. فكانت بعطبرة حركة أدبية وفكرية فلم يجد مكانه بين الشعراء والأدباء فتعرف بالدكتور ريتشارد هل الذي كان يعمل بسكة الحديد ويعنى بدراسة تاريخ السودان فأفاد منه ريتشارد هل بالأخص في قاموسه عن الشخصيات السودانية. نظر في كتب العرب وما سجله عن النجوم والكواكب وتسخير النجوم في معرفة الطوالع والأحداث فتنبأ بنشوب الحرب العالمية الثانية وانتحار هتلر ولم يصدقه، وكان قبل ذلك قد حدد تاريخ موت ملكين لهما صلات مع السودان وانتحار ملك أو حاكم بغرب السودان. وانكب على دراسات بيكارد البلجيكي الذي كان يسعى للوصول للقمر. وتحدث عن الذرات التي تتفاعل مع بعضها طبقاً لقانون الكيمياء وأكد أن نفس هذه الذرات موجودة في الكواكب وراسل في ذلك جامعة كمبريدج وجامعة برنستون.

وقد مزج الريح العيدروس بين الفلك والكيمياء والتنجيم وسيكولوجية الخوارق. ولم يكن المناخ الفكري في السودان مناسباً لمتابعة آرائه لأن الثقافة العلمية كانت محصورة ومقصورة على قراءة نظرية داروين. فعندما بشر الريح العيدروس برحلات الفضاء سخر الناس منه. ولست من الدارسين للفلك بل إن مطالعتي فيه مطالعة رجل الشارع، فقد قرأت كتاب العالم الفلكي سبنسر جوفز ذلك الكتاب المعروف باسم الحياة في العوالم الأخرى فرأيت أن آراءه تتفق مع الريح العيدروس.

حقاً إن الدراسات العلمية التي كتبها الريح العيدروس لم تشغل العامة كما أنها لم تشغل المتعلمين. ولكن الأستاذ عوض ساتي شهد أن الريح العيدروس بنى نظرياته على ركائز من الفيزياء والرياضيات. لذلك تراه قد انكفأ على نفسه ولم يجد في الحياة الدنيا متاعاً غير الزواج فتزوج أكثر من ستين امرأة ولم تبق غير اثنتين في عصمته عند وفاته.

وجدير بالذكر أن للريح العيدروس دراسات وممارسات في السحر وصفها في معادلات رياضية.

وعندما تقاعد افتتح مدرسة ثانوية باسم «مدرسة الفلاح» وقد أغلقت هذه المدرسة في عام ١٩٥٨ ووزع تلاميذها على مدرسة المؤتمر الثانوية ولكنه أعاد فتحها.

كنت إذا جلست للريح العيدروس أمتعك بحديثه، فهو يتنقل من فن إلى فن، يروي الذكريات ويستشهد بالشعر ويتحدث عن القبائل والأنساب. وقد ذكر ذات مرة أن لكل أسرة خاصية وأن هذه الخصائص تورث، فأسرته من ناحية أبيه خصها الله بقوى روحية خارقة، فالسناهير قادرون على معالجة المجانين، لذلك يصاب أبناؤهم بالجنون كردة من الجن. وأسرة القاضي عربي توفر لها الصلاح. وقد تعمد قوى الشر فتنزع الصلاح من بعض أفرادها. ويضحك، وقد سُئل: ماذا أورثت من أبيك، فكان يضحك ويقول: خير لك أن تقرأ، إما الزهاوي أو أبا العلاء المعري لتعرف ما ورثته عن شقى أسرتي. وفي أيامه الأخيرة انصرف للحديث عن الفضاء ومراكب الفضاء والأطباق الطائرة وصلة علم الكيمياء بالفلك وما كتبه الفيلسوف الفرنسي ويدور في هذا المجال. وقد تعلم اللغة الفرنسية ليقرأ فلاميرون وبوانكاريه، وقبل ذلك قرأ السير جيمس جينز وعلق عن كتابه «النجوم في مسالكها» وتعجب عندما يحدثك عن الفيلسوف الألماني عمانويل كانت ونظرياته عن الكيميات السلبية والكيميات الموجبة.

لخص الريح العيدروس الإنسان المعاصر بأنه إنسان محروم من الإرادة والإدراك لأنه لم يلتصق بالحياة والطبيعة. فالإنسان كان أكثر التحاماً بالأرض والثمار، لذلك كان يشارك الفلك المدار في كل لحظة.

هذه خطوط عامة عن شخصية فذة نقدمها للباحثين لعل في يوم من الأيام يدرس أحد أبنائنا تراث وفكر الريح العيدروس.

الطيب السراج [١٨٩٤ _ ١٩٦٣]

الطيب السراج رجل نسيج وحده، لغوي وشاعر وأديب وعالم ومحقق ومؤلف أغاني بالعامية، ومترجم من العربية إلى الإنكليزية، وعاشق للحياة وفنان عاش حياته كما يريد.

تلقى تعليمه بمدرسة أم درمان الابتدائية ولم يكن تلميذاً يهتم بالدروس، بل كان القاموس الإنكليزي شغله الشاغل يستظهره، وعندما وصل السنة الرابعة درس اللغة العربية، ويحكي المرحوم محمد صالح الشنقيطي أنه استلف منه ديوان «جمهرة أشعار العرب» فاستظهره في أسبوعين، وترك المدرسة قبل أن يكملها، وعمل كاتباً في الجيش البريطاني ببري، فكان يقلد الجنود البريطانيين في لغتهم العامية وينطقها في لهجتهم فعين مترجماً فانصرف لقراءة شكسبير وكتب شعراً بالإنكليزية وعرضه على الإنكليز فاستحسنوا ما كتب، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى انعطف نحو الخلافة الإسلامية، فأنذره رؤساؤه، فاختلف معهم فألحق بمصلحة الحسابات وغير زيه ورفض أن يرتدي الملابس الافرنجية، وتوفر على دراسة اللغة العربية بلا معلم، لم يعترف في اللغة إلا بالقرآن والشعر والنحو والبلاغة.

انفرد بنفسه منذ العشرينات حتى أوائل الثلاثينات يقرأ ويدرس وتعرف إليه نفر قليل من الشبان، من بينهم حسين عثمان الكد وخضر حمد وإبراهيم يوسف سليمان فسمح لهم بالجلوس معه.. فهو إذا تكلم درس وعلَّم وتوجه بالسؤال لمستمعيه، فلم يستطع معه الكثيرون صبراً.. جعل الشعر العربي ينتهي عند المتنبي وأبي العلاء وأبي تمام والبحتري ويبدأ من الجاهلية، وسخر من الشعراء الذين أتوا بعد ذلك، وإن كان

يقرأهم ليكشف أخطاءهم. لم ينظر للشعر بمنظار اللغة والفصاحة كما اعتقد الكثيرون، بل نظر له بمنظار الخيال والرؤى والصور والإيقاع والكلمة المناسبة في المكان المناسب. وظنه الناس بدوياً جاهلياً ولكنه كان عصرياً يحلل الشعر بمقياس الشعور ودقة الحس، وينقل جوه إلى النفس في عرضه والقائه.. وقد أنكر على تلاميذه أن يدونوا عنه لأن العلم يكون في الصدور ولا يستقر في السطور. اهتم بترجمة الكلمات الجديدة الوافدة في حياتنا اليومية وراسل علماء اللغة العربية في العراق، وقد اعترف له انستاس الكرملي بالعلم والتبحر، وراسل عبد القادر المغربي في دمشق، والنشاشيبي في القدس والشنقيطي في القاهرة فعجبوا لعلمه ووفرة معرفته، ونقل في منتصف الثلاثينات إلى عطبرة، فكان مجلسه مدرسة أخذ عنه أبو شرف ومحمد عمر إدريس وخليفة عباس ومحمد عثمان عبد الرحيم وحسن مدثر.. اعتاد أن يتحدث عن كلمة واحدة ويورد فيها من الشعر ما يعجز أن يضمه إنسان إلى حافظته في جلسة واحدة، فإذا تحدث عن الأسد وذكر أسماءه وأوصافه والحكايات عنه لا ينتهي من ذلك في أسبوع، وتسأله: أدونت ذلك فلا يجيب.. وينتقل إلى الدوبيت السوداني فتنكر أنه يعرف العربية الفصحى ويجيدها، يأتيك بألفاظ لا تعرفها في العامية السودانية، ويقارن تلك الألفاظ بمفردات عربية فيردها إلى الفصيح.

عشق الغناء السوداني، وألف فيه، وكان فنانه المفضل كرومه، وشاعره المفضل صلاح عبد السيد، فيدهشك عندما تراه ينشد قصيدة غنائية بلحن من ألحانه.

وفي مرة من المرات جمع طلاب كلية غردون بينه وبين الشيخ عبد الله عمر البنا والشيخ أحمد حسون فكانت تلك ليلة العمر التي لم تتكرر ولن تتكرر، لقد فتحوا عالماً مغلقاً من الروعة والنوادر والنصوص، كل في تخصصه. ولكن السراج كان متخصصاً في كل تخصص خاص بالعربية.. وفي الخمسينات ذهب إلى مصر فاحتفل به المجمع اللغوي وضمه، فقام بتصحيح كثير من الكتب في اللغة والأدب، وعجب أعضاء المجمع لسرعته ولعلمه، فقد كان عضواً مراسلاً ولم يكن عضواً أصيلاً، حاولوا الاحتفاظ به ولكنه فنان متمرد، تعرف بالعقاد، فقال عنه العقاد إنه بحر ولكنه متلاطم الأمواج، وفي مرة سأله العقاد لماذا لا يلتزم منهجاً ويرتب هذا العلم.. قال للعقاد: العلم بحر لا حد له.. فإن أردتني هكذا فأنا كما أنا هو، وإن أردتني غير ذلك فأنا لست أنا فأنا أنت، فهل تريدني أن أكون غير نفسي.. وأنشد العقاد:

أراني وذئب القفر السفين بعدما بدأنا كلانا يشمئز ويزعر
تألفني لما دنا وأبغته وأمكنني للرمي لو كنت أغدر

فضحك العقاد وقال:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطير

فقال السراج: عرفتها يا جبار، لقد كنت أقصد الأحيمر السعدي واستحيت أن أذكر بيته القائل:

كفى حزناً إن الحمار من جندل علي بأكناف الستار أمير

هذه الأبيات للأحيمر السعدي.

لقد كان السراج مدرسة لن تعود، عالم اللغة وعالم الروح والبهجة والمحنة، لقد علّم الأجيال كيف تحب اللغة العربية وتدرسها قبل أي جامعة أو مدرسة.

المبارك إبراهيم [١٨٩٨ - ١٩٧٢]

حرية عانقها القيد، وانطلاق أخر به الانطلاق، غريب وهو أقرب الأقربين المبارك إبراهيم راضي ظل الناس يرونه كل يوم ٢ ويمر بهم ٢ ويمرون به ٢ ولكنهم لا يعرفونه.

نشأ بين غرب السودان والنيل الأبيض، وتكتم عن مكان ميلاد وزمان مولده ولم يشر أبداً كيف بدأ يتعلم وأين تعلم، وكأنه البارون كورفو تلك الشخصية التي كتب عنها الكاتب الإنكليزي سايمونز. . . نشأ مبارك في جبال النوبة وتعلم اللغة العربية والحساب والعلوم الأولية في مدارس المبشرين. . ونزح بعد ذلك إلى كوستي وعمل ممرضاً في صباه، واهتمّ بدراسة البيطرة، ومعالجة الحيوان، ولكن حظه العاثر أفقده عمله في الحملة البيطرية، فلجأ للعمل كمحصل للعوائد، وفصل من عمله، فرحل إلى أم درمان ولم يجد أمامه إلا أن يشتغل في المستشفى الأمريكي ممرضاً، ولم يتعرف في تلك الفترة على القراءة، وبدأ يقرأ الأدب العربي والمجلات الأدبية وقد استفاد من كتاب مجاني الأدب للأب شيخو، ومؤلفات اليازجي، ودائرة معارف ولم يشرف على الكتابة، لأنه عشق الغناء والشعر ومتابعة شعراء الأغنية، وتاق ليندمج في بيئة أم درمان، وقد اتّصل ببعض الشعراء المحدثين كمكاوي يعقوب، وعبد الرحمن شوقي وتعرف على (فوز) ثم احترف الغناء وسجل بعض الأسطوانات في مصر في شركة أوديون فكانت تسمى أسطوانات أوديون (المبارك أفندي إبراهيم) وضاقت به الحياة وانسدت الطرق مع أنه نشر بعض شعره في الأهرام، وأبولو، والبلاغ الأسبوعي، وفي منتصف الثلاثينات افتتح مكتبه في أم درمان ودعا الأدباء ليحاضروا

ويتحدثوا في مكتبه، وتوثقت الصداقة بينه وبين التجاني يوسف بشير والهادي العمرابي ومحمد عبد الوهاب القاضي وعبد القادر إبراهيم، وسعى لمجالس السراج فلم يجد قبولاً عند الشيخ وأغلقت مكتبته على أثر محاضرة قدمها أحد المستشرقين عن سيدنا عمر، وهاجمه الشيخ أحمد عثمان القاضي في حضارة السودان. وفي تلك الفترة كان يتعاون مع صحيفة النيل اليومية ويكتب مقالات عن شعراء السودان في مجلة الرابطة العربية في مصر، لصاحبها أمين سعيد، ولما مات التجاني يوسف بشير أسرع بمخطوط ديوانه، وهرع به إلى القاهرة، ونشر بعض المختارات في مجلة الرسالة، ووضعه أمانة في يد الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي، وحبس ناجي الديوان لديه زهاء سبع سنوات ورفض أن يذيعه بين الناس حتى اتهم مبارك بأنه باع الديوان، وذاع اسم التجاني، واعترف ناجي أنه يحتفظ بالديوان، ولكن الظروف لم تمكنه أن يجد ناشراً، وتسلمه السيد علي البرير وطبعه طبعته الأولى.

وفي تلك الأثناء التحق مبارك بدائرة المهدي وأشرف على تنظيم مكتبة السيد عبد الرحمن المهدي ولم يلبث طويلاً في المكتبة مع عمله في جريدة النيل، بل إنه استطاع أن يلتحق بالإذاعة السودانية، وكان أول من قدم ركن الأدب، وأول من قدم حقيبة الفن.

عرف المبارك أسرار حياة الأدباء السودانيين، واحتفظ بما كتبوه، واستظهر قصائد كثيرة لشعراء سودانيين، فقد وهبه الله ذاكرة حافظة، ولو أن أوراقه نشرت لرأيت رسائل بينه وبين حمزة الملك طمبل وحسيب علي حسيب وعلي الشامي وإمام العبد وصالح عيسى السوداني وإسماعيل مظهر، وعبد الرحمن شهبندر.

المبارك إبراهيم هو الوحيد الذي عرف مناسبات قصائد حقيبة الفن، وهو أستاذنا الذي لم يترك أي أوراق في هذا الميدان لأنه خشي الناس أن يصيبوه بأذى غير تسجيلات الإذاعة ولم يلتفت المثقفون لذلك في تلك الفترة، واتّهموا بالأخذ عنه، وليس هذا هو التفوق الوحيد بل إنه عرف أسرار السياسة البريطانية، وتعميد المخابرات للأفراد. وطالما رجوناه أن يكتب مذكراته في هذا الأمر فرفض، وقال إنه سيدين نفسه، أدرك صالون الأجزخانة فضم المبارك إبراهيم فاصطفاه فوضعه في مكان علي كما أن أسعد الأسعد السفير اللبناني أعجب به لأنه كان من أحلاس دهليز

توفيق صالح جبريل، فكم روى وأنشد قصائد لشعراء سودانيين تمنوا لو احتفظوا بقصائدهم، فكان خير راوية، فهو يعرف اختيار الشعر الجيد.

بالرغم من كل الأرزاء التي أصابت المبارك في حياته كان رجلاً كريماً ودوداً لطيفاً محباً لأصدقائه يكتشف المواهب، ويقف مع المحتاجين، فالمشكلة التي عاش فيها أنه لم يكن مفهوماً عند الكثيرين، فقد ثقف نفسه ثقافة عربية أصيلة، وأحب بلاده، وأصبح عالماً بتاريخ البلدان والقرى، وكان من أكثر الناس معرفة بالشخصيات البارزة في المجتمع السوداني، يحقق كل ما يطرق أمامه ويسعى لذلك، فإن كان هنالك أي انتشار للشعر السوداني خارج حدودنا فالفضل يرجع إلى المبارك فهو الذي نشر قصائد الشعراء السودانيين في القاهرة وبيروت، وإن كان هنالك فضل لإحياء حقيبة الفن فالفضل يرجع إلى المبارك إبراهيم، ففي عام ١٩٦٣ وفد دارس من جامعة هارفرد يسأل عن أثر المسيحية في السودان فدلف إلى المبارك إبراهيم، وسأله عن المسيحية في دنقلا فأفاض المبارك وأخبره أن هنالك بقعة تسمى الكنيسة، هذه البقعة كانت مركز التبشير المسيحي، كما أن بلده تنقاسي أصلها تنداسي ومذكورة في أعمال الرسل، وأن الآباء المسيحيين جعلوها منطلقاً لهم لنشر المسيحية، وصار يعدد أسماء البلدان التي كانت مراكز للمسيحية حتى وصل إلى بري، التي سميت على اسم قس إنكليزي اسمه بري.

النور إبراهيم [١٩٠٩ ـ ١٩٧٨]

قرية الكنوز لها تاريخ حافل بحياتنا الفكرية والسياسية وهي تقع على بعد سبعة أميال جنوبي الكوة بالنيل الأبيض، فلما قامت المشاريع الزراعية نشأ مشروع الكنوز الزراعي ومؤتمر الخريجين كان في أوج المجد والتعاون الوطني بينه وبين كل الفضائل، فلم تنخر الحزبية في عظامه ولم تتسرب الطائفية بين أعضائه. ففي عام ١٩٤٢ سارت المسيرة الوطنية من نادي الخريجين بأم درمان واتجهت لقرية الكنوز لتبدأ أول انفتاح على الريف. وسمي ذلك اليوم بيوم القرية. واشترك في المسيرة يحيى الفضلي وخضر حمد وعثمان أحمد عمر وأحمد خير وميرغني عثمان صالح وعبد الحميد أبو القاسم وكثيرون. وكان الذي يرعى مشروع الكنوز الزراعي هو المرحوم الشيخ عثمان صالح الذي جعل من ذلك اليوم محفل من محافل الكفاح الوطني. وافتتحت مدرسة في قرية الكنوز ومركز صحي، ولم يكن في قرية الكنوز حتى عام ١٩٣٢ مدرسة أولية ولا مركز صحي. في تلك القرية التي لم تر النور ولم تعرف العلم ولد النور إبراهيم ونشأ في تلك القرية رواد آخرون في التجارة والزراعة أطلوا على الحياة الفكرية والعلمية من الدويم.

ولما أتمّ النور تعليمه في مدرسة الدويم التحق بكلية غردون واختير ليكون معلماً، وتخرج في عام ١٩٣١ اختاره للعمل معه المرحوم الأستاذ أحمد محمد صالح. واختار المتفوقين من المتعلمين أهل المواهب والقدرات، واختار كذلك زميله المرحوم الأستاذ محمد أحمد سليمان ليعمل معه في مدرسة بور سودان الوسطى. وفي تلك الأونة بدأت إشراقات الثقافة تشع من جديد في المدن بعد الهمود الذي أصاب السودان

عقب إحباط المستعمر لثورة ١٩٢٤، فقلص المدارس وكاد أن يمنع انتشار الخدمات الأساسية، كالصحة والتعليم وتخطيط الشوارع وإقامة المشاريع عقوبة لهذا الشعب الباسل الذي طالب بحقه. وكان من النادر أن يسمح لأبناء الأهالي الغبش أن يتلقوا تعليماً منتظماً. والنور إبراهيم واحد من الأهالي الغبش، فلما اختير معلماً قصد من ذلك أن يواكب سياسة الحكومة ويقف بجانبها. ولكنه كان متمرداً كما كان زميله محمد أحمد سليمان متمرداً. وشاء لهم الحظ ليعملا مع ناظر يحترم الفكر والإرادة. ولم يكن أحمد محمد صالح قابعاً في مدرسته، بل كان مشاركاً في الحياة الاجتماعية والثقافية. فقد قام برأب الصدع الذي نشب على اثر خصومة افتعلها الاستعمار بين النازحين من بلدان السودان الداخلية والمستوطنين في البحر الأحمر. وتكونت جماعة للقراءة والبحث كان على رأسها أحمد محمد صالح ومحمد صالح الشنقيطي الذي كان حينذاك نائب مأمور في بور سودان وحسن عمر الأزهري ومحمد أحمد سليمان والنور إبراهيم وعبد العزيز الكابلي وصالح ضرار وعبد القادر أوكير وحب الله ملاسي، واشترك معه المرحوم الشيخ شوقي الأسد. وشاء الحظ أن يكون القاضي الشرعي الشيخ محمد الأمين القرشي معهم حيث غرست البذور ونمت من تلك الفترة، وتوزع كلهم في مكان مختلف ليلتقوا مرة أخرى في تاريخهم الفكري. فأحمد محمد صالح أصبح الشاعر العظيم، ومحمد أحمد سليمان أصبح من رواد التربية والحرية، والنور إبراهيم تألق شاعراً وأديباً. تنقل النور في مدارس كثيرة ونشر شعره في المجلات المصرية والجرائد السودانية، وبعث للمملكة المتحدة فظن القوم أنه سيهادن. فاختير ليعمل في كلية المعلمات، وكانت الأوضاع تختلف مع الاتجاهات الوطنية الهادفة للحرية. فثار ثورة شهيرة ووقف بالمرصاد للسياسة الاستعمارية. فنقل إلى الأقاليم ليعمل مفتشاً في مكاتب التعليم ولكنه عاد بعد ذلك. وكان قد اختير ليتولى نظارة المدرسة الأهلية الثانوية بأم درمان فساعد على التأسيس المدرسي على نهج جديد بعدما ضمتها الحكومة لوزارة التربية والتعليم. فأول عمله كان اختياره للمدرسين السودانيين الأكفاء. فالمدرسة الثانوية الأهلية بأم درمان اعتمدت في بادئ الأمر على المدرسين المغتربين. فتجربة النور الطويلة في التعليم جعلته ينتقي ويرضى بالمدرسين السودانيين. ووجد النور المناخ الأدبي في العاصمة فشارك في الندوة الأدبية وتعاون مع الإذاعة ونشر أحاديث أدبية وأنشأ كتيبة الشعراء التي ضمت أصدقاءه: المجذوب وحسن عثمان

بدري ومنير صالح ومختار محمد مختار ومحمد محمد علي وكرف وغيرهم. وأصبح النور أميراً للكتيبة. وعنيت بالشعر الفكاهي والتصوير الكركتيري للأحداث.

فكانت الصحف اليومية لا تخلو في يوم من الأيام من قصائد شعراء الكتيبة. خلقت الكتيبة جواً فنياً نشطاً في السودان وكانت اجتماعاتها أشبه بسوق عكاظ، وما من شاعر نظم الشعر منذ عام ١٩٥٨ حتى أخريات الستينات ألا وترى في شعره مشاركة واشتراكاً فيها.

جمع النور ديواناً واحداً في حياته ألا هو ديوان الكتيبة، ولكن هذا الشاعر لم يضع كل اتجاهاته في هذا الديوان. فللنور شعر سياسي وطني لم يرد في ديوان الكتيبة. كما له ترجمات لشعر إنكليزي لم يجد مكاناً في هذا الديوان. وقد كتب النور مسرحيات شعرية استقى موادها من الأحاجي والحكايات الشعبية السودانية. فدراسته للأدب الإنكليزي ومطالعته لأعمال المسرح الإنكليزي أمدته بقدرات فائقة. فقد جعل اللغة الشعرية سهلة وبسيطة في غير معاناة في اختيار الألفاظ، كما صاغ الشعر المسرحي في حوار منبثق عن الأساليب الحديثة وعرف الفرق بين القصيدة المفردة والقصيدة المسرحية. ومثلت بعض مسرحيات النور في المدارس ولكنها لم تطبع. كما قام النور بترجمة بعض المقالات والأبحاث في علم النفس والتربية وكتب بحثاً أصيلاً في التربية.

وللنور اهتمامات أخرى انعكست في شعره فقد كان من هواة الصيد والطرد. وله قصائد خيار في الصيد والطرد. ويكاد أن يكون الشاعر السوداني الوحيد الذي كتب عن الصيد والطرد باللغة العربية الفصحى إذ أن هنالك شعراء سودانيين كثيرين كتبوا الشعر في الصيد والطرد باللغة العربية العامية.

وتقاعد النور في عام ١٩٦٥ ولكنه عمل في المدارس الحرة وتولى الإدارة فيها. فالنور المربي الصارم الحريص الدقيق كان غيره في حياته الخاصة، فهو رجل يعشق الفكاهة ويروي النكتة، وقد كان نجماً من نجوم المجالس الأدبية. إنه قسمة خاصة في تطوير الشعر السوداني والولوج به ميادين جديدة. فمدرسة الكتيبة ما زالت قائمة. فالمرحوم الخزرجي الذي انتزع الإمارة من النور واحد من أساطينها. وكذلك الأستاذ محمد الرشيد الزبير والمرحوم أحمد علي طه والأستاذ أحمد طه الفكي كلهم ساروا على نهج الكتيبة. رحم الله النور إبراهيم لما أسداه وقدمه لحياتنا الثقافية.

بابكر بدري [١٨٦١ ـ ١٩٥٤]

الذين يحبون الحياة، ويحتفلون بها، ويقدمون لها من حياتهم وفكرهم وما يضيف للحياة من بهجة ومسرة ومعرفة، جديرون بأن يحتفل بهم الأحياء، ويذكرونهم لأنهم أضفوا على حياتهم المسرة والنور والصفاء. وهكذا كان بابكر بدري، أحد الأعمدة التي تركزت عليها المعرفة والثقافة في السودان، إنه الرجل المعلم الشاعر الرائد، ومدرسته الأولية في النيل الأزرق في رفاعة كانت مطلع النور وشعلة الإشراق.

ولد بابكر بدري في دنقلا في أسرة من أسر الرباطاب، ونزح صغيراً إلى رفاعة، واختبر الحياة منذ طفولته، يعمل بيديه وبفكره، ويرى الآيات في الآفاق وفي نفسه حتى تبين له الحق، ولما بلغ السابعة عشرة من عمر انخرط في جيش المهدي، وحارب لعدة سنوات جندياً طائعاً مؤمناً، حتى أسره البريطانيون في دنقلا، واستقر وأُخذ إلى القاهرة، وفي القاهرة تلقف العلم وحصل على قدر ملحوظ من المعرفة، وطاف بالمنصورة، واستقر تاجراً في الإسكندرية، وفي هذا المقام نذكر أن بابكر بدري هو المرجع السوداني الأصيل في موقعة توشكي، وأخبار الأمير عبد الرحمن النجومي، طيب الله ثراه، وترك بابكر بدري الإسكندرية، وشخص إلى أسوان. وفي كتابه الرائع «حياتي» يذكر التفاصيل عن رحلاته وأخباره في تلك الفترة، وعاد إلى السودان في عام ١٨٩٨ ولبى نداء الخليفة عبد الله فحمل السلاح وحضر موقعة كرري في شمال أم درمان.. وبعد الموقعة رأى أن يسير في انتقاء هدايته ومهنته، إذ أصبح معلماً.. وفي أثناء معركة كرري جرح جندي بجواره، ساعده وذهب إلى المساعد

المشرف عليه وأخبره أنه وصاحبه لا يقدران على مواصلة القتال، وطلب أن يأذن لهما بالرجوع إلى أم درمان، بقي بابكر بدري في أم درمان حتى سقوط أم درمان، ورأى أنه لا مكان له إلا الرجوع إلى رفاعة ليواصل عمله بالتجارة.. واعتاد رجال الإدارة البريطانية أن يتحادثوا مع التجار والمتنورين الذين يعرفون القراءة والكتابة، وكان بابكر بدري من هؤلاء، فاسترعى نظر المستر ماكهاونن، مساعد مدير النيل الأزرق، فقدمه للكولونيل كورينج مدير المديرية، فتبرع المدير ببناء مدرسة من جيبه ليدرس فيها بابكر بدري، وتعلم في هذه المدرسة مشهورون علماء أجلاء، كالشيخ لطفي والشاعر عبد الله عمر البنا، وذاعت شهرة مدرسة بابكر بدري ونجاح تلاميذها الذين استوعبتهم كلية غردون في قسم المعلمين وقسم القضاء الشرعي، وبرز بابكر بدري في الحساب العقلي، وتعليمه لتلاميذه، فهم يجمعون ويطرحون، يضربون ويقسمون من غير رجوع لقلم ودفتر، وتمرن التلاميذ على ذلك، فنمى فيهم سرعة التفكير والحسم، وما أخطأ واحد في الإجابة... لم يكتف بابكر بدري بذلك بل افتتح مدرسة خاصة للبنات في رفاعة في عام ١٩١٠، وفي يوم من الأيام وفد مفتش المعارف الإنكليزي وأعجب بكتاب بابكر بدري وبتلاميذ بابكر بدري النابهين، وبعد انتهاء المفتش من عمله طلب بابكر بدري منه أن يزور مدرسة البنات التي أقامها في منزله، وكان اسم المفتش الإنكليزي هو المستر جون كروفورت، فلما سمع كروفورت أن في رفاعة مدرسة بنات عجب وصار يردد: مدرسة بنات في رفاعة، مش معقول.. أنت تتكلم جد.

فأجاب بابكر بدري أنها بداية.. وذهب المفتش معه، فألفى اثنتي عشرة بنتاً في الفصل، وبدأ: بنت من هذه؟ فيجيبه بابكر بدري: إنها بنتي.. وكانت كل التلميذات الاثنتي عشرة هن بنات بابكر بدري، ارتدين زياً واحداً، وكن كلهن ذكيات نبيهات.

لم تكلفه المدرسة شيئاً، بل إن المدرسة أصبحت طليعة للنور، وكانت بناتها مثلاً يقتدى في رفاعة وهذا هو السر الذي جعل بنات رفاعة هن رائدات التعليم النسائي في السودان.

وفي عام ١٩١١ اكتظت مدرسة بابكر بدري بالبنات، بنات لسن من صلبه لكنهن من فكره. دخل بابكر بدري التاريخ من أوسع أبوابه فهو رائد تعليم المرأة في

السـودان. . إن الحياة لا تسـتقر والرائد لا يلقي السلاح، لقد نقل بابكر بـدري ليعمل مفتشاً في مصلحة المعارف، فاهتم بـإدخال الحسـاب والقراءة والكتـابة في الخـلاوى، وأشرف على الكتاتيب، وكتب كتاباً في المطالعة لتـلاميذ المـدارس الأولية، وتقـاعد في عام ١٩٢٧ ولكنه بـدأ حياتـه من جديـد، واستمر يعلم ويـدرس حتى افتتح مـدارس الأحفاد فكانت مدرسة الأحفاد والمدرسة الأهلية هما التحدي للاستعمار الـبريطاني، ولم يوقف بابكر بدري حيـاته عـلى إدارة المدرسـة، بل كـان يدرس اللغـة العربيـة في كل أقسام المدرسة، حتى نمت وأصبحت في حياته مدرسة ثانوية عليا، باشر بـابكر بـدري فيها تدريس النحو والأدب العربي.

كان بابكر بدري علماً في الحيـاة السودانيـة، كتب في الصحف، ونظم الشعـر، وعقد الجمعيات الأدبية، وحاضر وعلق عـلى الأحداث، كـما أن رأيه كـان له وزن في الحياة والمجتمع.

إن عمر بابكر بدري لا يقـاس بالسـنين، فقد ظن أنـاس أنه نـاهز المـائة ولكن الأحداث التي ذكرها واشتراكه في الأحداث جعلنا نحدد تاريخ ميلاده في عام ١٨٦١.

أصـبحت الأحفـاد اليوم عـدة مدارس، للبنـات والبنين، كـما أنها ولـدت كليـة جامعية تخصصت في نـوع من المعرفـة تحتاج لـه الفتاة السـودانية، وكـل هذا الفضـل يرجع لبابكر بدري.

المهتمون بالشعر السوداني يجدون قصائد لبابكـر بدري في كتـاب المطالعـة الذي ألفـه، فهو أول من ألف الشـعـر للطفل السـوداني، ولم نعثر إلا عـلى قليـل من شعـره الـذي بث فيه أحـزانه وعـواطفه في كتـاب شعراء السـودان لسعد ميخـائيل، وبعض القصائد في الحضارة وبعض الأبيات في كتاب (حياتي).

إن كتاب (حياتي) الذي نشر بعد وفاة بابكر بدري كان فتحاً جـديداً في الفكـر السوداني، لقد كشف فيه بابكر بدري عن حياته، وقدم اعترافـات تضع هـذا الكتاب في مصـاف كتاب جـان جاك روسـو وكتاب القـديـس أوغسطين، ولا أقـول اعترافـات كازانوفا، فهذا لون جديد في حياتنا، وقد ترجمت بعض فصول هذا الكتاب إلى اللغـة الإنكليـزية بقلم المسـتر اسكوت، ويـوسف بدري، ولكن الكتـاب يحتاج إلى إصـدار

أكاديمي وفهارس وشروح لأن بعض الأسماء أصبحت غير معروفة كما أن مرور الزمن على الأحداث أبعد المسافة التاريخية عن القراء والدارسين، وهذا لا يعيب الكتاب، فالعيب فينا أن بابكر بدري هو الرجل الرائد الشجاع في آفاق العلم وآفاق العمل الأدبي، فقد كشف حياته للناس في وضوح، كما أنه وهب حياته للعلم والمعرفة في وضوح.

باشري عبد الرحمن [١٨٩٧ ـ ١٩٨٣]

الاهتمام والعناية بالثقافة لم تكن مقصورة في يوم من الأيام على الخريجين الذين درسوا في المدارس وكلية غردون. ولكن السوق والمجتمع والحياة كلها زودت السودان برواد في الفكر والثقافة. فعبد الرحمن أحمد سعد غشيم كاتب نشأ في السوق ومحمد عثمان عيسى بن رجاء كاتب وصحفي نشأ في السوق. والريفي والسلمابي وعبد الله رجب وعبد المنعم حسب الله. وكان باشري عبد الرحمن من أوائل الرواد الذين كتبوا في الصحف. ولد بالزيداب وقتل والده وعمره ثلاثة أيام فسمي على اسم والده باشري باشري عبد الرحمن ورحلت أمه به ومعه شقيقه الأكبر وشقيقته في مركب إلى بربر ولا معين لها إلا عزيمتها، فعملت بالتجارة والزراعة، وكانت تستعين على تربية أبنائها بالعمل كما بسطنا.

ووالده هو باشري عبد الرحمن وقيع الله أحد الأبطال الذين قتلوا في الفاضلاب وعلقت رؤوسهم في مدينة بربر، وكانت أسرته من كبار الأسر في قبيلة الجعليين لها الضياع والحدائق. ولما استقرت الأمور بوالدته السيدة آمنة بنت الشيخ عبد الماجد الرقيق الذي كان قاضياً شرعياً وعالماً تلقى دراسته في الأزهر استطاعت أمه أن تشرف على أراضيها، وكان ابنها الأكبر قد تخرج من مدرسة بربر الوسطى وعمل في سكة الحديد، فأشرف على شقيقه باشري الذي تحول من المدرسة الوسطى إلى المدرسة الزراعية. وبعد ذلك ضاق بالحياة في السودان فخرج من السودان في عام ١٩١٧ وذهب إلى القاهرة ولا حول له ولا قوة. ثم سافر إلى فلسطين وهنالك عمل ضابطاً في الشرطة، وتعرف بالسيد أمين الحسيني ومحمد إسعاف النشاشيبي وبأفراد من أسرة

الخالدي. ولما وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني تنبه لهجرة اليهود وبدأ يكتب عنها في صحف سوريا ومصر. فطرد من فلسطين فاختار أن يقيم بمصر. وفي تلك الأثناء قتل السير لي استاك حاكم السودان وسردار الجيش المصري في القاهرة في عام ١٩٢٤ فاعتقل كل السودانيين المقيمين في مصر. وكان البوليس السياسي المصري يصر على أن القاتل هو سوداني، وركز على المرحوم الأستاذ عرفات محمد عبد الله. وكان باشري عضواً في اللواء الأبيض وطردت السلطات في مصر كل السودانيين فعاد باشري إلى السودان في عام ١٩٢٥ وحددت إقامته بمدينة بربر. وفي عام ١٩٢٧ فك تحديد إقامته فعين في مصلحة سكة الحديد ببور سودان وبدأ يكتب في الحضارة ويراسل الصحف المصرية. وضاق بالحظر السياسي ففكر في أن يكون سائحاً فذهب إلى اثيوبيا وارتريا وتشاد وافريقيا الوسطى والصومال، وما من بلد يحل فيه إلا ويلتقي بالمفكرين والساسة والصحفيين. وكان له سجل جمع فيه آراء المفكرين والساسة والأدباء في تحرير العالم العربي. ثم استقر بمصر فترة وكتب في البلاغ عن مآسي البريطانيين. ونشرت له صحيفة اللطائف المصورة بعض آرائه وذكرياته. وتوثقت صلته بالمرحوم الدكتور محجوب ثابت وكل المجاهدين السودانيين الذين اختاروا الإقامة في مصر كمحمود فرغلي والشيخ زكي عبد السيد وفرحات ومحمد سر الختم. وفي تلك الأثناء أخرج كتابه «رحلة ورحالة» في عام ١٩٣٥. ولقي الكتاب ترحيباً وإقبالاً. وأعد كتاباً عن مملكة سن النار وهو عبارة عن صحائف ومقالات كتبها علماء سودانيون ومغاربة عن هذه المملكة وجمعت وحفظت في دار الكتب فحقق هذه الأوراق ولكنها ضاعت في المطبعة في مصر.

عاد نهائياً إلى السودان في عام ١٩٣٦. وصار يكتب في جريدة السودان والحضارة والنيل وعمل فترة بالتجارة وفترة بالزراعة بين الزيداب وعطبرة، ورجع بعد ذلك إلى بور سودان فشارك في الندوات الأدبية والجهاد السياسي وانتظم عضواً في مؤتمر الخريجين وأتاح لأعضاء مؤتمر الخريجين أن يشتركوا مع الجالية الهندية في تكريم البانديت نهرو. واستطاع أن يلتقي بكبراء الشخصيات العربية التي تتوقف بها البواخر في بور سودان. فعمل على تقديم الأمير شكيب أرسلان وهاشم الأتاسي ومحمد أمين الحسيني في أندية بور سودان وهم في طريقهم لإصلاح ذات البين بين الملك

عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى بن حميد الله ملك اليمن في خلال الحرب اليمنية الحجازية.

كانت الحياة تضيق به أحياناً فيعمل في الشركات وفي بعض الأحيان يعمل في السوق. وفي أوائل الخمسينات تفرغ للعمل السياسي وفتحت له الصحف أبوابها وأقام فترة في مصر بعد قيام ثورة ١٩٥٢ لما يربطه من علاقات وصداقة مع الرئيس السابق محمد نجيب. فكرمته مصر وجرى تكريمه في الصحف المصرية، وبدأ بكشف المآسي الاستعمارية في السودان وركز على شمال السودان وعلى شرقه. ولما قامت أول حكومة وطنية ابتعد عن الأحزاب وبدأ يكتب مذكراته. وفي عام ١٩٦١ عمل فترة في شركة ترف بحشم القرية ولكنه لم يبق كثيراً إذ عاوده الحنين إلى بور سودان. فاستقر فترة طويلة فيها وبدأ يهاجم الاحتكارات الأجنبية في التجارة والزراعة. ولم يلتفت إلى آرائه فهاجر إلى المملكة السعودية العربية وصار يواصل كتابة رسائله عن التقدم والانفتاح الجديد في المملكة السعودية.

وفي عام ١٩٧٧ أجريت له عملية في عينه. ففقد البصر وهو يقيم في مدينته بربر ويسافر بين الفينة والفينة إلى المملكة السعودية.

يعد باشري عبد الرحمن مرجعاً لكل الأحداث السياسية منذ الربع الأول للقرن العشرين حتى اليوم، وكتابه عن بربر وأخباره يعد من المراجع النادرة في تاريخ المدن والبلدان. فهذا رجل أمسك بالتعليم وعلَّم فيه وجاهد ووهب نفسه للكفاح، فهو رائد من رواد الرأي والفكرة والعقيدة في تاريخنا الفكري والسياسي.

توفيق أحمد البكري [١٩٠٢ _ ١٩٦٦]

كانوا هم الأمل لشبان الثلاثينات. وكانوا هم الرواد الذين حطموا الصخور، واندفعوا إلى مناهل العلم في الكنانة. الدرديري أحمد إسماعيل، بشير عبد الرحمن، توفيق أحمد البكري، ويعقوب عثمان، هؤلاء هم الذين قادوا قافلة التعليم العالي في السودان. فتوفيق أحمد البكري كان طالباً ممتازاً في القسم العلمي، يتهيأ لدراسة الطب. والدرديري أحمد إسماعيل كان في القسم العلمي ولكنه أعد نفسه لدراسة القانون.

نشأ توفيق أحمد البكري بالقطينة، وتعلم في مدرسة الدويم الوسطى، وهو ينتمي لأسرة بجاوية. والتحق بكلية غردون، واشتهر بثقافته الواسعة واطلاعه الجم في اللغتين الإنكليزية والعربية. واتصلت حياته الاجتماعية مع عرفات محمد عبد الله ومكاوي يعقوب وخليل فرح، وخالد حسن، وتوفيق صالح جبريل، وعمل في الحركة السرية للواء الأبيض، ثم هرب من كلية غردون إلى مصر، وانفرد عندما كان طالباً في الكلية بمركز مرموق في الحركة الأدبية وبالأخص في ميدان الشعر ونشر قصائد في الرائد والحضارة. وفي القصائد الغنائية كان يذكر دائماً كنديم وصديق في شعر خليل فرح وغيره من السمار والندامى. ولما ذهب إلى مصر جابهته الصعوبات فهو لا يملك مالاً ولا سنداً فأقام مع بعض الطلبة السودانيين في الأزهر، وهب الأمير عمر طوسن يتبنى قضية الطلبة السودانيين فكان يصرف عليهم. التحق توفيق بالمدرسة الخديوية بالقسم العلمي ودخل كلية الطب، ولكن ميوله الأدبية وقفت حاجزاً بينه والاستمرار، فتحول إلى دراسة الهندسة ولكن العقبة كانت في طريقه، فاختار أن

يدرس الأدب الإنكليزي في الجامعة المصرية وتخرج في منتصف الثلاثينات. وازداد عدد السودانيين الذين وفدوا للدراسة في مصر فكان أبرزهم فضل أبو بكر وعقيل أحمد عقيل، ومحمد أمين حسين، وعابدين إسماعيل، وعبد النبي عبد القادر مرسال. وقام النادي السوداني في شارع سليمان باشا القديم، وتكفل تاجر سوداني وطني هو المرحوم علي البرير بالصرف على النادي والاهتمام بالطلبة السودانيين، وبعد زيارة البعثة التجارية الاقتصادية الزراعية في عام ١٩٣٥ نشأت روابط صداقة بين التجار السودانيين والشخصيات البارزة في مصر، كفؤاد باشا أباظة، ورشوان باشا محفوظ، وعبد الحميد بك سياحة، وطلعت باشا حرب، والنبيل إسماعيل داود فانضمّوا كأعضاء في النادي السوداني. وكان الرئيس الفخري للنادي الأمير عمر طوسن والرئيس الفعلي المرحوم السيد علي البرير وأمين النادي توفيق أحمد البكري، وتوطدت صلات توفيق بالأدباء في مصر ونشرت له كبريات الصحف مقالاته ودراساته بالأخص جريدة السياسة والبلاغ، ولم يتجه أي ناحية سياسية أو حزبية، وأعجب به الدكتور طه حسين، ولما فصل طه حسين من الجامعة، ذهب توفيق إلى منزل طه حسين وأنشده قصيدة مادحة أثنى عليها طه حسين، ولما أعيد طه حسين إلى الجامعة أقام النادي السوداني حفل تكريم لطه حسين، اشترك فيه شعراء مصريون وسودانيون وألقى توفيق كلمة عن فضل طه حسين على الأدب العربي، وفي تلك الأثناء كان توفيق يعمل في وزارة المعارف المصرية في قسم الثقافة، ويتعاون في الترجمة في جريدة الأهرام ويكتب بعض الدراسات الخاصة في الأدب المقارن. وفي عام ١٩٣٩ بدأ توفيق ينشر سلسلة من الدراسة التي كتبها عن الزبير باشا في مجلة الثقافة التي رأس تحريرها الأستاذ أحمد أمين، ولم تسمح السلطات الاستعمارية بإكمال الدراسة لأنها تعرضت لغردون باشا، فعكف توفيق على كتابة مقالات متناثرة في النقد، وازداد نشاطه في جمعية خريجي قسم الأدب الإنكليزي وفي المجلس البريطاني، وفي تلك الأثناء ترجم مهدي الله، كما ترجم عدداً من قصص أوسكار وايلد وكان يكتب بين الفينة والفينة مقالات في جريدة الأهرام، وتقدم في الأربعينات لكلية الصحافة برسالة عن الترجمة فأجيز عنها بدرجة الماجستير وعين مدرساً للترجمة في كلية الصحافة حتى أصبح أستاذاً للترجمة وتقاعد في المعاش وتفرغ للعمل في الصحافة المصرية، حتى توفاه الله في مصر، ونقل جثمانه للقطينة.

إن صـداقـات تـوفيق لكثـير من أبنـاء جيله من الأدبـاء المصريـين أتـاحت لـه الظروف في المجتمع الثقافي وكانت صلاته متوازية مع العقاد وطـه حسين وأحمـد أمين وسـلامة مـوسى وزكي مبارك، كـما أن أنداده كـإبراهيم المصري ومحمـد أمين حسـونة ونقولا يوسف وعلي أدهم وعبد الرحمن صدقي وأحمد فتحي كانوا يكبرونـه ويجلون أدبه وثقافته، ومع الأسف لم يجمع ديوانه ولم تجمع دراساته في كتب، وقد حاول مع زملائه حسين منصور وبشير عبد الرحمن إخراج صحيفة باسم الرائد ولكنهـا لم تعمر طـويلاً، حـاولت تلك الصحيفـة التعبـير عن الإرادة السـودانيـة والأمـاني التي سعى نحـوهـا السودانيون المقيمون في مصر. ولم يشترك توفيق في أي علاقات سياسيـة مع الأحـزاب السـودانية، وعـرضـت عليه كثـير من الأحزاب أن يعـود إلى السـودان لـيرأس تحـريـر صحف تلك الأحزاب لكنه التزم الحيدة ورفض، حتى إن السيـد عبد الـرحمن المهدي قابله وأوضح حاجة السودان لرجوعه فاعتذر لأنه أصبح رجلاً أكاديمياً . . . برع توفيق في الحديث والشعر، فهو من خير المتحدثين الذين يستمع لهم الناس، فإلمـامه الـواسع بالأدب والتاريخ وشؤون الفكر والسياسة، ولمحـاته وآراؤه كـانت جديـرة بالتـسجيـل، وقد تعلم الفرنسية والألمانية وأجاد هاتين اللغتين بجانب تعمقـه في اللغة الإنكليـزية، كما أنه درس اللاتينية وترجم عنها بعض النصوص شعراً ونثراً.

ولتوفيق كثير من القصائد في الحضارة وأبولـو والثقافـة، فهو شـاعر مجيـد ولكنه مقل، ولكن أعماله النثرية كثيرة في ضروب من فروع الأدب. وتميز أسلوبـه بالسـلاسة والترابط والدقة والكلمة الراقصة السهلة والجودة في الإبانة والتعبير سواء أكان ذلك في النثر أو في الشعر، ولكن قـدراته في النهـاية تلخصت في عمله في الـترجمة، فكـان خير المترجمين الفنانين، هكذا كان توفيق أحمد البكري الكاتب السوداني الذي قضى معـظم حياته في مصر ومات بها، وكان من رواد الثقافة والفكر في السـودان.

توفيق صالح جبريل [١٨٩٧ ـ ١٩٦٨]

شاعر الدهليز وكاهنه، ولد بأم درمان لقبيلة تنتمي للكنوز الذين انحدروا من كنز الدولة، وكان والده يعمل في الحكومة المصرية أولاً، ثم عمل في حكومة الحكم الثنائي، وترعرع توفيق في أم درمان، وقد سماه أبوه بتوفيق تيمناً بالخديوي توفيق لأن جده كان يعمل في حاشية الخديوي توفيق، وقد سخر توفيق من ذلك بعدئذ، وأسمى ابنه عاصماً ليعصمه الله من الطغاة والمستبدين، ودخل توفيق مدرسة العرفاء وتخرج مدرساً في المدارس الأولية في عام ١٩١٧، ولكنه كره التدريس ورجع إلى السوق، وتاجر في المواشي، ودخل في عالم غريب، ثم التحق بمدرسة الإدارة، وتخرج نائب مأمور، وتقاعد نائب مأمور، وكره أن يسمى شاعر المآمير كما كانت صحيفة الحضارة تلقبه. تنقل في أماكن كثيرة، بعضها مغمور في غرب السودان وفي جبال النوبة وبعضها معلوم كالدامر وكادقلي وأم روابة ولم يأبه بذلك، فقد كان هو الحكومة وهو السلطة وما عداه ليس بحكومة أو سلطة يدير حياته شاعراً ويعمل وهو شاعر ويعاشر الناس وهو شاعر ويستقبلهم في مكتبه وهو شاعر، لذلك لم ينظر في أمره، ولم يبحث في ترقيته.

تلقى مبادىء العروض وقرأ دواوين الشعراء على أحمد محمد صالح الذي تخرج من كلية غردون في عام ١٩١٤ وكانت حلقته تضم عابدين الخانجي وعبد الرحمن شوقي ومكاوي يعقوب وخليل فرح وحسن بدري، عشق شعر المتنبي واستظهر عيون الشعر العربي وأدمن مراجعة الحماستين وافتتن بشوقي وبشارة الخوري وراجع الشريف الرضي ولكنه تماسك عنه مستنداً على البحتري والمتنبي.

ومنذ أن استيقظ الشعر في قلبه عانق الحرية وكره الاستعمار ونفر من الإنكليز وجاهر بعدائهم، وكان من الأوائل الذين اشتركوا في اللواء الأبيض، كما كان سر الختم صالح جبريل والشلالي وصحبهما الكرام، ولما استعرت الحملات تطارد الوطنيين الأحرار إبان ثورة ١٩٢٤، أقسم ومعه نفر من زملائه، ومنهم بشير جار النبي ألا يقدموا وطنياً للاستعمار فيكون ضحية لإخلاصه ولوفائه. ففصل منهم من فصل وصمد منهم من صمد كالكباشي محمد نور وتحدوا الاستعمار، لذلك صوّر في شعره أبطال ثورة ١٩٢٤ ورثاهم، وخلدهم في تاريخ السودان. إنك تلامس اللوعة والحب والصفاء والسمو وتحدي المحن والإيمان بالإنسان عندما تقرأ شعر توفيق في رثاء أصدقائه وأحبابه، فلقد درج أن يزور مقابرهم كل جمعة ويترحم عليهم ويخاطبهم. هذا طرف من شعر توفيق في تخليده وتصويره لهؤلاء الأبطال. ثم ننظر إلى الطرف الثاني وهو يكشف الاستعمار ويهجوه ويسخر منه ويهزأ بأذنابه وعبيده هذه الشجاعة هي بطولة الشعر، فتوفيق هو الشاعر البطل، فإن كان كارلايل قد وضع شكسبير بطلاً في الأدب الإنكليزي فتوفيق هو بطل الشعر السوداني.

ونعود لتوفيق الشاعر مع أصحابه وكان في مجلس من مجالسه عند فوز، كان اللهو هو الظاهر والجد هو الباطن في مجلس تلك الساحرة الملهمة، يذكرنا ذلك بمجالس القادة الرومان في منازل الفاتنات، ويدبر توفيق وأصحابه الخطط لمحاربة الاستعمار وكشفه في مجلس فوز، ومنذ الذي أسماها فوزاً غير توفيق.

اختطف الحب فوزاً منهم، وطاف توفيق كالطائر ينسج عشه في بلدان السودان، فمجالسه في الدامر مع الباقر وقلندر والندامى، هي تحد للآلام والكوارث، وليس هي للراحة والسلام ولكن لراحة الوقفة الثورية، فعلي نور الشاعر يجلس إليه ويوحي توفيق إليه بأن يكون صلباً يهاجم الاستعمار، وذلك في الدامر، وينتقل توفيق إلى كسلا فيلتقي بعلي أرباب، وعلي باخريبة، ومحمد عثمان يس، وأحمد خير، فيتدفق شعره ويسمو إلى سماء الفن والخلود، ويصعد إلى الحرية مع صحبة الجمال، وقد فعل ذلك كله محمد عثمان يس في كتابه عن ذكرياته مع توفيق.

وينقل توفيق إلى أم روابة فيجعلها جنة يحج الناس إليه فيها، لقد كان شعره هو حياته ووجوده، يستأنس الناس به لأنه يضيف الكثير إلى حياتهم وينقلهم إلى دنيا الحب،

لا يستجدي حبهم، ولكن حبهم له هو الذي يستجدي شعره. ويعود توفيق إلى أم درمان ليتقاعد، يفتح دهليزه ليهرع إليه الشعراء وعشاق الشعر، وتقام الليالي ويحضرها مختار محمد مختار والسفير اللبناني أسعد الأسعد، ومحمد عثمان يس والمبارك إبراهيم والمجذوب وكلهم يستمعون إليه، إذا ارتجل الشعر أو كتبه، فالأمر سيان، دفق وطيف سماوي لا تتعثر فيه الكلمة ولا تختفي الصورة ولا يعتم الخيال، وهج وشفق وأفق، قرأ الشعر ليحيا للشعر، واختلطت حياته بالشعر، فلا تدري إن كان جسداً أو كان روحاً، لم يعهد بمذاهب الشعر وتصنيفه، فالنقد عنده للشعر هو كل ما يجعل الحياة جميلة، ليرى الناس فيها السعادة والحب، لذلك كان شعره يختلط عند الذين قالوا الشعر في حينه، فالعباسي شاعر صنّاع يصور كمثال ينحت التمثال الجميل، فيعطيك الصورة ويتركك للقصيدة، ولكن توفيقاً هو الشاعر الموحي، يترك شعره عليك ليبلغك الرسالة فترتعش وتطرب فتنذر، لم يتعلم لغة أجنبية، لكنه أحب أن يسمع شعر الشعراء الأجانب، فيترجم له صحبه شيلي وكيتس ولامرتين فيهتز ويدمع، وقف عند قصيدة البحيرة التي ترجمها الزيات عن لامرتين، وكم صاغ قصائد مترجمة... إنه يحس الشعر كما يحس الصيرفي بمعدنه، عرفه الشعر بأنه لا يستطيع النثر أن يعبر عنه.

توالت على توفيق الأمراض وأصابه مرض النقرس فضحك من القيد.. ونسي الدار العياء ودخل دهليزه ليطمئن الأحياء أن الحياة بالرغم من الألم هي جميلة، لقد كان توفيق إنساناً نادراً ينام الناس عن جمال الحياة فيوقظهم، ويغفلون عن الحرية فيحررهم، وينكرون الحق فيحق الحق وينسون القيم فيذكرهم بالوفاء والحب والمودة في الموت والحياة.. رحم الله توفيق صالح جبريل العبقري الذي عاش الحياة والجمال وعبد الحرية والحب والفرح.

جبرائيل بيطار [١٩٠٧ - ١٩٨٠]

يرجع تاريخ عائلة بيطار إلى مدينة حلب بسوريا، وقد نزح بعض أفراد هذه الأسرة في بادئ الأمر إلى مصر. وفي القرن التاسع عشر، ومصر كانت ملجأ السوريين الهاربين من نير الاستبداد العثماني، وقد أفاض جورج أنطونيوس وألبيرت حوراني في الحديث عن النهضة الثقافية التي أرسى دعائمها السوريون في مصر، فالسوري كان تاجراً بقدر ما هو أديب متعلق باللغة العربية والشعر العربي. وعندما غزت بريطانيا السودان باسم مصر وفد عدد من السوريين ليعملوا في المرافق المختلفة في مواقع الوظائف التي لا يشغلها المصريون، وقد التحق ميشيل بيطار بالعمل في الحملة ودخل السودان في عام ١٨٩٧.

وبعد أن ترك العمل في الحملة أصبح تاجراً متنقلاً يعمل في الأقمشة ثم تحول إلى تجارة المحصولات. واستقر ميشيل بيطار بأم درمان التي كانت مجمع وملتقى السوريين وافتتح دكانه أمام جامع أم درمان.

وولد جبرائيل بالسودان وبعثه والده لتلقي دراسته في مصر، فاستطاع أن يلم بمحصول وافر في شؤون التجارة والأعمال المكتبية، كما أنه درس اللغتين الإنكليزية والفرنسية ورجع وهو في الخامسة عشرة من عمره يساعد والده في الأعمال التجارية، وحتى عام ١٩٢٣ كانت أم درمان أشبه بقرية ناشئة تنتظم في أحياء وقد نشأت فيها أسواق متخصصة، بعضها للمحصولات وبعضها للصناعة وبعضها للفحم والأخشاب وقد حصر ذلك جاكسون في كتابه (أيام ومسالك السودان).

وتوفي ميشيل بيطار وساءت الظروف الاقتصادية والتجارية في السوق السوداني. وكان دكان ميشيل بيطار قد توفر على العمل في المنسوجات والمحصولات السودانية وبعض أصناف الواردات، وتوفي ميشيل بيطار ببيروت في عام ١٩٢٥.

ازداد السوق السوداني فقراً بعد إجهاض ثورة ١٩٢٤. واتخذ البريطانيون سياسة جديدة في أسلوب الحكم والاقتصاد فشجعوا التجار السوريين غير المتعلمين لينفردوا بأنواع خاصة من الاحتكارات، بالأخص في المحاصيل السودانية وفتحوا الباب لليونانيين للعمل في تجارة الخمور والبقالة، ومكنوا الشركات البريطانية للسيطرة على الوارد والصادر. فوجد جبرائيل بيطار نفسه في موقف صعب، فالسوري المتعلم لا مكان له إلا في الوظيفة. فالتحق جبرائيل بمصلحة الأشغال كاتباً حتى ارتقى إلى وظيفة باشكاتب، وكان في تلك الأثناء يتصل بالمثقفين السودانيين ويتبادل معهم الكتب ويجلس معهم في حلقات النقاش.

وكان بيت كافوري هو كعبة المثقفين، فأبناء كافوري تلقوا دراستهم الجامعية بجامعة أكسفورد. كما أن وزارة المالية والداخلية حفلت ببعض السوريين الذين تلقوا دراستهم بجامعة بيروت الأمريكية، وبعدما فزع المصريون واستعانت السلطات البريطانية ببعض السوريين ليدرسوا في كلية غردون. في هذا الوسط الثقافي التقى جبرائيل بيطار بمعاوية محمد نور وميرغني حمزة ومحمد أحمد محجوب ومحمد صالح الشنقيطي وإبراهيم بدري وغيرهم، وبالرغم من أن جبرائيل بيطار كان رجلاً متحفظاً وقليل الاختلاط إلا أن الثقافة والمعرفة فتحت أمامه النوافذ ليلتقي بطليعة المثقفين السودانيين الذين يقرأون اللغة الإنكليزية. ومطالعات جبرائيل بيطار تعددت في مناحيها ولكنها تخصصت في دراسة السودان والاهتمام بمشكلاته في العمران والاقتصاد والسعي نحو التخطيط لاستنباط مرافق ومصادر جديدة للبناء الاقتصادي. استقال جبرائيل بيطار من عمله في غضون الثلاثينات. وقد تعرف قبل ذلك برجل أعمال بريطاني ألا وهو المستر بوكسول، وعمل معه لفترة سكرتيراً لأعماله.

بدأ بوكسول أعماله في السودان في عام ١٩٢٤ برأسمال صغير، واختار العمل في تجارة الصمغ، فالسودان ينتج خمسة وسبعين في المائة من محصول الصمغ في العالم.

تزوج جبرائيل بيطار في عام ١٩٣٤ وقد تحسنت أعماله، ولكن رأسمال بوكسول لم يزد حتى وفاة بوكسول عن مبلغ خمسة آلاف جنيه. كتب جبرائيل بيطار عدة دراسات عن الإمكانات الاقتصادية للإسراع بزيادة العائد النقدي للسودان، إذ رأى أن القطن والسمسم والفول لا يكفي عائدها للتنمية.

اهتم جبرائيل بالرؤية المستقلة ليوفر للسودانيين مجالات أوسع، وخاطب في ذلك الغرفة التجارية، وأسهب في أحاديثه في اجتماعات أعضاء الغرفة التجارية حتى استطاع أن يجعل الصمغ سوقاً عالمياً. والدرس الذي لقنه جبرائيل بيطار للأجيال هو أن الاقتصاد ليس ربحاً واستهلاكاً ولكنه تنمية وضبط وربط للسلوك المعيشي المنعكس من توفير احتياجات المواطن من أجل موازنة الدخل والمنصرف مع إتاحة الفرصة للتنمية والارتقاء في مستوى المعيشة.

كان جبرائيل بيطار هو الرائد الأول للدعوة للتنمية، لذلك تبنى الدعوة للتبشير بالتحديث وبالتنمية. وفي عام ١٩٥١ اشترى مصنع صابون في أم درمان وطوره ونقله إلى الخرطوم بحري في عام ١٩٥٣. وكان جبرائيل بيطار عضواً في المجلس البلدي بالخرطوم فتعاون مع السيد داود عبد اللطيف في تخصيص أماكن للمنطقة الصناعية في الخرطوم. واختير عضواً في مجلس جامعة الخرطوم. ونادى بأن يتصل التعليم الجامعي بالتنمية والتحديث. وكثيراً ما كان يرفض أن يرى خريجي الجامعات موظفين في مكاتب الحكومة. وبعد ذلك نرى جبرائيل بيطار يستدعي يونانياً متخصصاً ليجري دراساته في صناعة السكر في منطقة دنقلا في جنوب السودان، ولكن حكومة الفريق إبراهيم عبود اختارت منطقة الجنيد.

تميز جبرائيل بيطار بتمسكه بدينه، فكان يذهب كل صباح إلى الكنيسة الكاثوليكية ويؤدي صلاته ثم يعرج إلى مكتبه حتى الثالثة مساء ويكر راجعاً للمكتب في الساعة الرابعة والنصف. ولم تكن له في صدر حياته مسلاة غير تربية الخيول وإشراكها في السباق. ولكن بعد ذلك تخلى عن هذه المسلاة والتفت إلى المشروعات الخيرية فخصص مبلغ خمسة آلاف جنيه سوداني لمساعدة الطلبة والتلاميذ في كل مرافق التعليم في السودان، كما أنه قدم تبرعات كثيرة للمدارس الأهلية وجانها. كانت لجبرائيل بيطار مكتبة ضخمة أهداها لجامعة الخرطوم.

ذلكم هـو جبرائيـل بيطار الكـاتب الكبير الأديب الـذي وهـب حياتـه لـدراسـة التنمية والاقتصاد في السودان. لذلك كان رائداً عظيماً لا ينسى تاريخ الفكر السـوداني دوره، فقد امتزج بهذه الأرض وعمل جاداً ومخلصاً على توفير الخير والسعـادة لأهلها فهو جدير بهذه اللفتة المتواضعة التي خطها هذا القلم.

جوزيف لطيف صباغ [١٩١٠]

غربة وحنين، وألفة ومودّة، تمتزج فيها الطفولة والكهولة، نبع الفن في روحه، فتلقاه أزلياً، ولد في النهود في بطن الغرب في السودان، وحمل رضيعاً إلى عطبرة، فلم يفطمه ماء النيل، لأنه ما زال يطعم من اخلاده، فالنيل الخالد مزج روحه بفنه، كما كانت أرواح أسلافه الذين نشأوا بحلب، في سوريا. وحلب هي منارة الفن، وقدس الشعر، ومحراب الغناء، ومعبد الموسيقى، ففيها من الذوق وإبداعه، ومن الفن إشراقه، ومن الجمال نوره وناره. وأهل حلب يصبحون على الإيقاع والأنغام، ويحيون على الطرب، هكذا كان حالهم منذ تفتحت أعينهم على النور، ولحلب موسيقاها التي لم تتأثر بالموسيقى التركية، ولكنها ورثت الموشحات الأندلسية، وحفظت الإيقاعات العربية منذ عهد الأمويين، والشهباء هي المليحة الحسناء التي ترجع أصول شاعرنا إليها، وشاعرنا اسمه يوسف في شهادته، ولكن الناس عرفوه باسم البيت فكان جوزيف، ذلك الشاعر الذي أصبح واحداً من روادنا هو جوزيف لطيف صباغ..

وفد جده الشيخ صباغ إلى السودان في القرن التاسع عشر، وأقام فترة في أم درمان، ثم اتجه إلى غرب السودان تاجراً يعمل في الأقمشة، ولما سقط السودان في أيدي الحكم الثنائي، كان الشيخ صباغ قد أصبح مواطناً ليس له غير السودان وطن، فسوريا عانت في تلك الفترة العسف والهوان، يعيش فيها الطغيان العثماني، يشنق من يشنق، ويسجن من يسجن وينفى من ينفى فهاجر الكثيرون من أبنائها إلى مصر أولاً ثم إلى السودان، وفر من فر إلى الأمريكتين ولكنهم لم يتخلوا عن عروبتهم بل تغنوا بها وأشادوا بأمجادها، فالعرب السوريون لم يفصلهم دين، فليس هنالك مسيحي ينعزل عن أخيه المسلم، وليس هنالك مسلم ينشق عن أخيه المسيحي، فالشعراء

السوريون المسيحيون يتغنون بالإسلام ويحتفلون بالمولد وبالأعياد الإسلامية، ليس عن رياء ولا مداراة، بل هي طبيعة العربي التي جعلت مارون عبود يكني نفسه بأبي محمد، وبولس سلامة يكتب الملاحم عن أمجاد الإسلام.

وما من سوري هاجر إلا كان زاده الأدب العربي والشعر العربي، وشب جوزيف لطيف صباغ فوجد أمامه خزانة كتب أبيه بها كتب الشوامخ من الشعراء والأدباء العرب، وتلقى تعليمه الأوسط بمدرسة عطبرة وكان ناظرها المرحوم الشيخ علي أبو قصيصة، فأخذ عنه النحو والصرف وأجادهما، ثم انتقل إلى مدرسة الأقباط الثانوية بعطبرة، وحتى إذا ما أكملها ذهب إلى مصر ليدرس في كلية الآداب، ولكنه عاد في مطلع الحرب العالمية الثانية، واستقر بعطبرة، وقد اشتهر منذ صباه بالشعر والموسيقى، ونشرت له قصائد في الحضارة وملتقى النيلين والسودان والنيل ومجلة أم درمان والفجر، وكان يوقع قصائده في الفجر بثلاثة أنجم. والتقى في عطبرة بالشيخ الطيب السراج وأخذ عنه العلم، وتوثقت علاقاته مع محمود أبو بكر الذي كان يعمل حينذاك في مصلحة سكة الحديد، ومع محمد عثمان محجوب، ومحمد عثمان عبد الرحيم شاعر ظلال النخيل ومصطفى أبو شرف، وكان يحج إلى الخرطوم وأم درمان، فتوشجت عرى الصداقة بينه وبين التجاني يوسف بشير، وفي تلك الفترة كان جوزيف لطيف صباغ يعمل معلماً في مدرسة البنات الإنكليزية يدرس اللغة العربية، ثم انتقل بعدها إلى مدرسة الأقباط يدرس اللغة الإنكليزية. وما من شاعر في السودان ذاع صيته إلا خطب جوزيف وده ومحبته، فكان خلف الله بابكر من أصدقائه، والمحجوب والمجذوب. وأقام فترة في أم درمان، وهنالك توطدت صلاته مع الشيخ أحمد حسين القلباوي الذي كان من أبرز الشبان حينذاك، كما كان يزور المجذوب في بيت والده الشيخ محمد المجذوب جلال الدين بالموردة.

وظهر جوزيف هادياً للعلم والتعليم يسهر على نشره بين العمال والمواطنين الذين أغلق بابه أمامهم، فكان يدرس في دار العمال الإنكليزية ويساعد الشبان والمهتمين بالأدب والشعر بتوجيهه، وعرف في تلك الفترة بشاعر الشباب السوري، مع أنه ساهم في كل حركات النهضة الفكرية والوطنية، وفي مرة من المرات صحب فرقة من فرق كرة القدم إلى شندي فالتقى هنالك بيحيى محمد عبد القادر وكان ضيفه في منزله، فألفى عند يحيى عبد القادر مجلة سورية هي مجلة الضاد، ففرح بذلك وبدأ

يكاتب مجلة الضاد في سوريا، فعرف في سوريا كما عرف في السودان. درس جوزيف الشعر العربي القديم والشعر العربي الحديث، والعجيب أنه لم يألف شعر شوقي ولم يتأثر به، كما أنه لم يحتفل بشعر المتنبي، لأنه يكره الهجاء والمدح، ويرى أن الشعر أمانة نفس، وصدق روح، فإن لم يؤمن الشاعر بما يكتبه فليس هو بشاعر، واشترك جوزيف في مؤتمر الخريجين مع أن الجنسية السودانية كانت غير معروفة، والذين انحدروا من جذور سورية أو مصرية أو أي جذور عربية أخرى لم يعدهم الحكم الثنائي بين السودانيين ولكن جوزيف لطيف صباغ رفض ذلك وانشق عن قانون المستعمر. وفي عام ١٩٤٤ ألقى قصيدة وطنية في عطبرة، فنفته السلطات إلى حلفا، فلم يكترث، وهو الذي اشترك في المهرجان الأول والثاني والثالث، ولما قامت الأحزاب في السودان وقف مع الفكر الاستقلالي وصار يدعو لاستقلال السودان. ووقف ينادي بالوحدة الوطنية عندما قامت الانشقاقات، ونشبت الخصومات وأصبح شعره آذاناً يذكر أن الخلاف بين أصحاب دعوة الحرية هو هزيمة للحرية.. وأبدع جوزيف في شعره الوطني السياسي الذي عف فيه عن السباب والشتائم، وذهب إلى الأبيض وقد أصبح تاجراً، وهناك وجد منبره في جريدة كردفان والتقى بمرضي محمد خير مرة أخرى وعزيز التوم، ومنصور عبد الحميد وأقاموا عكاظاً للشعر في عروس الرومال.

أجل إن أول ديوان لجوزيف لطيف صباغ هو ديوانه «الخطوة الأولى»، وتميز في هذا الديوان بالشعر الوجداني، وقد نشر بعض الشعر في مجلة أبولو، فتعرف عليه النقاد المصريون، عندما ظهر هذا الديوان في عام ١٩٣٨، فكتبت عنه مجلة الصباح ومجلة الأسبوع والمجلة الجديدة والبلاغ.

هذا الديوان قد نفد ولم يُعد طبعه ولكننا إذا تابعنا شعر جوزيف في تلك الفترة نجد أنه قد امتاز بصدق العاطفة، وقدرة في السبك وتجرد من كل ما يشوب الشعر الوجداني والعاطفي من تدخل وإدخال لفلسفة أو نظرية، فهو يتدفق بالإحساس، بالأخص قصائده الرائعة عن تلك الموسيقية التي عرفها في عطبرة، كما أننا نلاحظ ثورته الوطنية، وحبه للسودان، وفتن بجمال الطبيعة والحياة في السودان، ولما كان جوزيف موسيقياً، وكان في شبابه يغني ويحتفل بالنغم لا تدهش أبداً لقدرته في التلاعب والمقدرة الفائقة في الاستحواذ على الأبحر العربية، لذلك ترى سمة نادرة بين

الشبان الشعراء في استخدامهم للعروض العربية، ولكن جوزيف استطاع أن ينظم في كل الأبحر.

أما ديوانه الثاني المخطوط والذي اسمه «صدى الذكريات» فهو شعر وطني وسياسي، كما أنه مليء بالشعر الوجداني العميق.

وقد توفرت لجوزيف لطيف صباغ كل أدوات اللغة، كما أن روحه المشرقة وطبيعته الغنائية أسبغت على شعره الصادق لوناً تميز به دون غيره ألا وهو البساطة والعمق، هذا الشاعر الذي تأرجحت روحه بين الغربة والحنين صار أكثر التصاقاً بوطنه السودان. وأوضح وطنيته في ديوانه «صدى الذكريات» فهو لا شك قمة من قمات الحركة الثقافية في السودان منذ خمسين عاماً، وهو من الأوائل الذين أيقظوا الديوان الوطني ودافعوا عن الحرية، وبشروا بالاستقلال، لذلك كان مكانه بين رواد الفكر السوداني غير منكور، فهو وإن اختفى اسمه اليوم بين القراء، إلا أنه ينعم في كل يوم جديد، ويضيف فيما ينظمه إلى حياتنا، فتحية وتجلة للشاعر المبدع جوزيف لطيف صباغ.

حسن أحمد خليفة [١٨٨٩ ـ ١٩٥٢]

العبابدة هم صلة وثيقة بين صعيد مصر وشمال السودان وشرقيه جعلوا مراكزهم ورئاستهم في دراو في مديرية أسوان ولكنهم تنقلوا في جوف السودان واستقر فرع منهم ببربر وهم المليكاب وآخرهم الشناتير، ورحل فرع منهم إلى دنقلا واختلطوا بقبائل الأمرار الذين يرجع نسبهم إلى عمارة بن ياسر، وتكاثفوا في النيل الأبيض، كما نزح بعضهم إلى دارفور.

وينتسب العبابدة إلى الزبير بن العوام وقد احتفظوا بسماتهم وملامحهم ولم يندمجوا في المجتمع المصري، بل كانوا أكثر التصاقاً بالسودان وصاهروا الجعافرة والعقلين والحربياب وعاشوا بين الكنوز وقد لقن بعضهم رطانة الكنوز ورطانة البشارين، وقد كانوا سادة الصحراء، يتاجرون في الإبل والخيول، وعرفوا بالشهامة والشجاعة. وفي منتصف القرن التاسع عشر اشتهر حسين باشا خليفة الذي كان سيد الصحراء الممتدة من بربر إلى صعيد مصر، وقد بدأ حياته حارساً على الصحراء يذود عنها قطّاع الطرق ويتقاضى على ذلك مرتباً من الخديوي توفيق، حتى اصطدم ببركة العبادي وحارب الحكم التركي، وبعد ذلك آلت إلى حسين خليفة المشيخة ورقي لدرجة البكوية. ولم يكن حسين باشا خليفة يعرف القراءة والكتابة ولكنه كان قوي الذاكرة باتاً حاسماً يحكم بين الناس بالعدل وقد أصبح مديراً لبربر ودنقلا. ونصح غردون عند رجوعه لاستعادة السودان أن يتخلى عن هذه المهمة ويعود أدراجه، لأن غردون عمد لسلاح الترهيب والتخدير، وكانت الخرطوم محاصرة وجيوش الإمام المهدي مسيطرة عليها، وتوفي حسين باشا في ظروف غامضة يقال إنه سُمم ويقال إنه حُرق.

وخلف بعده أربعة من الأبناء من زوجة واحدة هم أبناء السيدة زينب الشافعية وهم: عبد العظيم وأحمد وصالح ومحمود وقد أنعم عليهم بالبكوية من الدرجة الثالثة أثناء حكم الخديوي عباس الثاني.

استقر عبد العظيم ببربر وكان ناظراً للعبابدة وقد تزوج أكثر من زوجة، وعمل على جلب أبناء إخوانه إلى السودان، ومن أشهر أبنائه صالح وحسين بك الذي كان مفتشاً بالسودان ومحمد بك الذي كان نائباً بالبرلمان المصري وعبد العظيم الذي كان مدرساً بكلية غردون وأحمد عبد العظيم الذي كان مهندساً وعثمان عبد العظيم الذي تخرج من كلية غردون، وبعد إلغاء الإدارة الأهلية بقي ابنه إسماعيل عبد العظيم عمدة للعبابدة ببربر وحامد.

وفي العبابدة شعراء بارزون أشهرهم إبراهيم العبادي، وشاعرات أبرزهن حلوم، وقد جمع ديوانها. وصاحبنا الذي نتحدث عنه في هذه العجالة هو حسن أحمد خليفة. تعلم في كلية غردون ولكنه لم يتمم دراسته فاختير للعمل في الإدارة حتى ترقى إلى مرتبة مأمور، وقد كتب ثلاثة كتب وكتاب صغير عن تاريخ العبابدة في السودان وهو مطبوع، والكتاب الآخر عن تاريخ السكك الحديدية في السودان. ميزة حسن أحمد خليفة أنه شاهد عصر. لم يعمد أبداً للتحليل وتعليل الأشياء كما أنه لم يتخذ لنفسه فلسفة يخضع لها الأشياء، بل إنه صوّر الأشياء والأحداث كما شهدها وكما سمعها. فكتاب «من زوايا التاريخ السوداني» يعرض حالات الرضا والسخط والمؤامرات التي حيكت للتطويح بحكم الخليفة، ويوضح التهيؤ والاستعدادات للانقضاض على حكم الخليفة. فحسين باشا خليفة بايع المهدية في بادئ الأمر ثم ابتعد عنها. ومن المؤسف أن هذا الكتاب محفوظ وقد كان في محفوظات قصر عابدين وهنالك نسخة في دراو.

أما كتابه عن تاريخ السكك الحديدية فهو هام. إن الذين تعهدوا ودلوا على سير الخط الحديدي من حلفا إلى كريمة كانوا من قبيلة العبابدة. وكذلك واصل العبابدة إرشادهم في مد الخط من كريمة إلى أبي حمد إلى بربر لأنهم كانوا بدأوا يسيطرون على صحراء العتمور. ولم يكتف حسن أحمد خليفة ففصل طرق مد الخط الحديدي إلى الأبيض. فالأبيض كانت سوقاً للماشية والعبابدة يعملون في تجارة الماشية

وبيعها وتسويقها وترحيلها إلى مصر. ثم نرى حسن أحمد خليفة يكتب عن مد الخط الحديدي من عطبرة إلى بورتسودان، فالعبابدة كانوا تجاراً يعملون بين سواكن وبربر وهم خبراء في معرفة هذا الطريق. واقترح حسن أحمد خليفة مد خط حديدي مباشر ما بين المتمة وسواكن ويرسم معالم هذا الطريق. وفي هذا الكتاب قد اقترح مد خط ما بين أم درمان إلى دنقلا محازياً للنيل ورسم منحنيات ونقاط هذا الطريق ومواطن المياه ولكن لم يُلتفت إلى رأيه. وأوضح أن المسافة ما بين أم درمان والفاشر تستحق خطاً حديدياً. إلا أن إدارة الحكم الثنائي رفضت ذلك. وأبان في هذا الكتاب أن هنالك طريقاً قصيراً ما بين جبيت المعادن وأسوان وأن هنالك طريقاً واضحاً ما بين حلفا والواحات.

قدم هذا الكتاب لسلطان سكة الحديد، وكان المدير المستر إميلي فاحتفظ بالمخطوط وشكره. وانتدب حسن أحمد خليفة بعد ذلك ليعمل في عدن وحضرموت ولكنه لم يطق البعد عن السودان. فرجع إلى بربر وأقام في حديقته يزرع الفواكه ويجري تجارب في الموالح ويراجع كتب التاريخ السوداني ويعلق عليها ويثبت له تجاربه في هذا الميدان. إننا لا نستطيع أن نعد المرحوم حسن أحمد خليفة مؤرخاً، ولكنه جامع مواد أساسية في تاريخ السودان، قد أفاد من معلوماته الدكتور ريتشارد هل والسير هارولد مكمايكل والدكتور هولت.

وكتب بعض الفصول عن وينجت ولي استاك والسلاطين والمفتشين والمدراء الذين عملوا معه. كما اهتم بأنواع النخيل في منطقة بربر، ولكنه لم يرق للدرجة التي وصل إليها القاضي الفاضل المرحوم الشيخ عبد الله أحمد يوسف. كما عني بقرى بربر وأحيائها وسكانها وقبائلها وفصّل ذلك في كتاب محفوظ عن تاريخ بربر تقصى فيه أخبار الأسر، بالأخص الميرفاب والرباطاب والمناصير والانقرياب والمواليد والأشراف وأرجع أصولهم إلى منابعها.

كان المرحوم حسن أحمد خليفة يحيا حياته في نظام. يمتطي حماره في الصباح بعد أن يتفقد حديقته ويذهب إلى سوق بربر تتبعه كلابه ويعود بعد ذلك إلى منزله. وقد كان قاضياً في المحكمة الأهلية عند تقاعده في المعاش. وقد عرف بسخريته وصراحته واهتمامه بالإنسان والذكريات.

وقد ترك كل أعماله مخطوطة ولم ينشر منها غير كتاب صغير عن تاريخ العبابدة في السودان. وقد تزوج مرتين من بنتي عمه المرحوم عبد العظيم بك خليفة ولم يخلف أطفالاً، وما أحرانا أن نجمع مخطوطاته ونحققها لأنها سجل هام في تاريخ السودان. رحم الله هذا الرائد الجاد الدؤوب.

حسن الطاهر زروق [١٩١٦ _ ١٩٨٠]

الموت كشف للحياة ولولا الموت ما كانت الحياة.. حسن الطاهر زروق الآن أمام الحقيقة والتاريخ حر طليق يقرأ كتابه أمام الأجيال: فهاوموا اقرأوا كتابيا!!

الطاهر زروق، أبوه، كان رجلاً من الأثرياء فهو سر تجار الخرطوم بحري في عام ١٩١٢ م. وبقية أسرته كانت ببربر. عمه مختار زروق تاجر يتنقل بين الدامر وعطبرة وبربر والعاصمة. والأسرة ميسورة والبيوت مفتوحة وواسعة والأصول ممتدة إلى أسوان بصعيد مصر. وحسن كان الذكر الوحيد بين شقيقاته. والتجارة هي القدر الملموس فيها الصعود والهبوط، والثراء والعدم تحركها الصدفة، وينفتح في أعماقها صندوق الدنيا. تدهورت حالة الطاهر زروق وكان أمله في حسن. حسن التلميذ يرتدي الملابس الجميلة الغالية وأبوه يطل عليه في المدرسة، ينفحه بنقود كسبها في سحابة يومه ويعود فيصحبه إلى البيت. حسن يقرأ الصحف والمجلات والكتب، والمال القليل الذي يكسبه الطاهر يدفع جله لحسن.. حسن يُقبل في كلية غردون طالباً مميزاً، مثقفاً، أنيقاً، لطيف الحديث. وأبوه يقطع المسافة من أم درمان بالمركب، ويعبر كوبري الخرطوم بحري بقدميه يحمل له أطايب الفاكهة.. وفي الكلية تعرف بالأدباء والشعراء من جيله وانكب على قراءة الأدب الحديث والآداب الغربية وتخرج مدرساً وكان الوقت وقت الأزمة ولا مكان للمدرسين في مدارس الحكومة. جمال محمد أحمد الدرديري محمد عثمان، وحسن الطاهر زروق يطرقون أبواب المدارس الأهلية ويعملون عامين ثم تجود عليهم الحكومة فتعينهم في مدارسها الوسطى في الخرطوم الوسطى، وناظره الشيخ أحمد البشير الطيب وضابط المدرسة محمد أحمد عبد القادر،

وينقل إلى أم درمان وهناك يتعرف المثقفون على قدرات حسن، وهو يلازم حلقات الأدب والنقاش في شيخ الأندية. أصدقاؤه مبارك زروق ومحمد أحمد عمر وعبد الرحيم الأمين. ويبدأ حسن الكتابة فتنشر له مجلة الثقافة المصرية التي يرأس تحريرها أحمد أمين. مقالاته كافتتاحية يكتشف الاشتراكية الفابية. ويجلس مع حسن أحمد عثمان، الكل يستعير منه كتب سيدني وب وباتريس وب ولاسكي وكول. ويقرأ كتاب برتراند رسل عن الاتحاد السوفياتي ويؤمن بالاشتراكية الفابية دون غيرها. ويقدم له محمد إبراهيم خليل كتاب العالم الجديد الشجاع لألدرس هاوسكي فيتأكد عنده أن النظام المطلق الذي لا يأتلف مع الجماهير بل يصوغ الإنسان مجرداً من الإحساس والشعور والإرادة هو اغتيال للحياة. ويُنقل إلى بورتسودان، وهناك يتعرف إلى شاب إنكليزي اسمه روجرز تطوع في الجيش وترك دراسته في أكسفورد إبان الحرب العالمية الثانية فيزوده بمؤلفات تولستوي وأندريه جيد فينكب عليها ويتقدم منها إلى ديستويفسكي. وقد أصبح كبير العائلة معه شقيقاته وأبناؤهن وهو الوالي المسؤول.. حلقاته ثقافة وعلم وموسيقى معه أصدقاؤه القليلون ويُنقل حسن في أوائل عام ١٩٤٦ إلى العاصمة، والعراك السياسي شديد، وحسن في انتهائه كان لا يرى غير مؤتمر الخريجين تنظيماً ولكن المؤتمر قد نفذ إلى جوفه الشقاق وأحباب الأمس وأصدقاء الطفولة والشباب تنكروا إلى تلك العلائق وانفضوا وكأنه لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يستتر سامر، خربوا بيوتهم بأيديهم وبأيدي المؤمنين.. لم ير حسن إلا أن ينضم إلى الاتحاديين، ولكن الاتحاديين انشقوا شق النوى وانشطار الذرة. انفجرت قواهم، فكان منهم الاتحاديون الأحرار. والاتحاديون الأحرار جعلوا من أنفسهم أولاً وثانياً.

استطاع حسن أن يغزو دنيا السياسة، ودخل في وفد السودان الذي ذهب إلى مصر وكتب مقالاً في صيف عام ١٩٤٧ م في جريدة البلاغ منددا بالاستعمار وهو مدرس، فلما عقد له مجلس تأديب قضى بفصله. فتقدم للمدرسة الأهلية ورئيسها عمر إسحق فقبلته في حناياها. وبدأ يكتب ويدافع عن الاستقلال فما كان من السلطات الاستعمارية إلا أن حرمته من العمل بالتدريس. وتحقق الاستقلال ودخل حسن أول برلمان سوداني في ممثلي الخريجين وباشر كتاباته في جريدة الصرخة وكان قبلها يعمل في صحف لا تتفق مع مبادئه كالوطن والسوداني، حسباناً للقمة العيش.

وانتهى البرلمان عام ١٩٥٧ م وخرج حسن يبحث عن قوته، فلا طريق للقوت حينذاك فعمل فترة في جريدة الزمان في عام ١٩٥٨ م، وكانت السلطات أبعدته فاختفى حتى قيام ثورة أكتوبر وكتب عدداً من القصص القصيرة وترجم بعض الكتب. وانتخب مرة أخرى في برلمان عام ١٩٦٥ م ولكن أبعد من اليساريين. وجاءت ثورة مايو فاستبشر وعمل ولكن هاجر بعد ذلك بعيداً. إن حسن الطاهر زروق فنان وكاتب. والفنانون والكتّاب هم زاد الأمة وتراث الشعب لا ينضمون للأحزاب لأنهم فوق الأحزاب. لهم أفكارهم وقد تلتقي أفكارهم في جزئياتها مع بعض الإيديولوجيات ولكن لا تسيطر عليهم الإيديولوجيات. لم يتسنم حسن مركزاً قيادياً في التنظيم اليساري. فقد أشهر قلمه ليحارب الأمية السياسية والطائفية والحزبية والجهل والفقر والمرض ولم يجد من يتفهمه لأن الجميع كانوا منصرفين للعمل الحزبي والارتباط الطائفي. ونفذ إلى قلبه المرض فذهب إلى مصر، فهناك أصدقاؤه عبد الرحمن الشرقاوي والخميسي ولم يمكث كثيراً فعاد، ولم يجد ما يحقق طموحه فذهب إلى العراق ومات فيه.

حسن في الأصل قصاص وناقد وليس كاتباً سياسيًّا فقصصه القصيرة تختلف عن اتجاهات كتّاب القصة في السودان إنه أشبه بتشيكوف وإن كانت ملامح الكاتب الإنكليزي كوبارد تظلله. تهمه الأحداث والرموز في انفعالات شخوصه. ولا يعمد إلى أية لغة تخالف لغة الواقعية ولا يزيد على ما هو كائن إلا ليعبر ويوضح ما سيكون.. لا ينقل الحدث نقل المبشر بمذهب أو الداعية لفكر بل ينظر في حياة الأشخاص كما ينتظرون هم في حياتهم ومن ثمة لم ترق قصصه لليساريين لأنها لا تحمل دعوتهم.. وعندما يكتب حسن القصة تحس أنه طرف في معاناة أشخاصها، بل إنه يهدم الركن الحاجز ويجعل القارىء شريكاً في المعاناة فقراءته لأبن وبيراندلو وبالأخص الأخير جعلته يتخذ هذا الأسلوب، وحبه للموسيقى العالمية وفرت له سبل الإيقاع في الفواصل. فاللغة عنده مذابة في البناء وليست أصلاً. لذلك لا تحس أن له قاموساً لغوياً فقد تكفيه الحركة والإشارة والإيماء مع أنه لا يعتمد على الرمز. ويرد ذلك لمعرفته بمذاهب الواقعية. ويمكن أن تصور أقاصيصه وترسم أو تلحن كأوبريتات.. إعجابه وتقديسه لفاجنر وبيتهوفن وأم كلثوم شحنه بالموجات الشعورية

التي انعكست في تصويره فهو ليس عاطفياً ولا رومانتيكياً لكنه شعوري يريد من قرائه أن يشاركوه.

لم يهتم بدراسة الأدب الغربي القديم ولم ينظر في التراث الشعبي السوداني، لكن حقيقة الفن تزلزله وتهز نفسه طرباً فيسرد الذكريات في أم درمان والخرطوم بحري.. قال إنه يتمنى أن يكتب قصصاً مستوحاة من الحقيبة.

يذكر تلاميذ حسن أنه أخذ بأيديهم إلى عالم القراءة والثقافة، فقد كان يدرس التاريخ واللغة الإنكليزية والترجمة ويستعين بالمجلات الأدبية الراقية في اختيار قطع الترجمة ويشرح المفردات ويبتعد عن الحوش والمهجور.

إن تآكل العبقرية السودانية مرض يصيبها في الحياة قبل أن تموت فلا بد من مقومات للاستمرار، فكل الذين حملوا الأقلام حطمتهم أقلامهم.. فالطريق وعر وشاق.. لا عزاء غير الذكرى والاعتراف. قد يختلف أناس مع حسن الطاهر زروق في حياته ولكنهم لا يختلفون فيه بعد موته. حسن هو رائد القصة الواقعية وداعية الثقافة بين تلاميذه في المدارس.. اليوم وقد غادرنا فنحن نحييه ونترجم عنه.. رحم الله حسن الطاهر زروق.

حسن طه [١٩١٤]

الانتفاضات الشعبية لا يصيبها الإحباط، وإن تبدو أن القوى المضادة لها قد انتصرت عليها وأهمدت صوتها. فثورة عام ١٩٢٤ وثورة عبد القادر ود حبوبه وثورة السحيني وثورة سامبو كلها حلقات متصلات وإن كان المؤرخون دائماً يرددون أن بعد كل ثورة يظهر بونابرت جديد.

فحسن طه محمد علي شاعرنا الذي نتحدث عنه اليوم أدرك ثورة عام ١٩٢٤ وهو صبي حدث وأهلته كفاءته أن يواصل دراسته حتى يلتحق بكلية غردون في الثلاثينات. وقد بدأ الشعب السوداني يسترد عافيته النفسية، وإن كانت أمية الحرف قد سيطرت على البلاد من أقصاها إلى أقصاها وقلص الاستعمار المدارس وأشاع بين رجال الإدارة الأهلية أن التعليم يضر بمصالحهم ويجعل الزمام ينفلت منهم وخطط التعليم ليقدم للإدارة البريطانية ما يحتاجون له من أيد تعمل وعيون تراقب وترصد، وأغلقت المدارس كما أغلقت مدرسة نواب المآمير. ولكن في تلك الآونة أشرقت مجلة النهضة السودانية لأن البريطانيين أحسوا أن الشبان السودانيين بدأوا ينشرون شعرهم وكتاباتهم في مجلة العصور وفي السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي، ورجع إسماعيل الأزهري من جامعة بيروت فأرسى قواعد أول جمعية للآداب والمناظرة في كلية غردون. فالأمية السياسية لم تكن فاشية لأن مصالح الشعب كلها التقت في محاربة الاستعمار ولم تنشأ طبقات طفيلية بين السودانيين. فالاقتصاد كان في أيدي الأجانب من سوريين ويونانيين وأرمن وفي أيدي الشركات البريطانية التي احتكرت المحاصيل وإن كانت بعض الأسر السودانية استطاعت أن تنافس المستعمر في هذا الميدان، إلا أن الاستعمار عمل بطريقة التوازن كيلا يتيح لسوداني أن يغتني أو يصل رأسماله إلى

المليون جنيه، وشجعت بعض المتمسودنين في هذا المضمار. ولكن الشباب السوداني أحس بذلك وانعكس هذا الأمر في الأغاني، بالأخص في شعر إبراهيم العبادي وفي قصيدة يوسف مصطفى التني «في الفؤاد ترعاه العناية». وكان طلبة كلية غردون يعارضون قصائد الغناء بقصائد وطنية حماسية. في تلك الأثناء نشأ جيل حسن طه ونشأ معه محمود الفضل ومبارك زروق ومصطفى أبو شرف وحامد حمداي ومحمود أبو بكر ومحمد عثمان محجوب وكوكبة من الرواد سنذكرهم في غير هذا المقام بالتفصيل. هذه الفترة التي بدأت منذ عام ١٩٢٧ حتى قيام المؤتمر في عام ١٩٣٧ كانت هي الأساس الفكري الرصين الذي قاد حركة التحرير الوطني من غير إيديولوجيات وانتماء طائفي وتمزق حزبي. وبدأ شاعر القمر حسن طه ينشر شعره، وكان شعره في البدء وجدانياً ثم تحول إلى شعر جماعي وطني. والتحق حسن طه أول ما التحق بسكة الحديد ليكون مفتشاً، ثم اختير ليكون نائب مأمور، وترك الإدارة في الأربعينات ومارس مهنة التدريس. وأصدر في تلك الفترة ديوانه «هتاف الجماهير»، كان هذا الديوان بياناً ثورياً صور فيه آمال الشعب والأمة وأمانيه ومسار ثورته وتحدث عن الكادحين الذين سيقودون النضال متى اكتظت بهم الشوارع نظر بعض المثقفين لذلك الديوان بميزان النقد الفني لأنهم تاقوا أن يقدم لهم حسن طه نماذج فنية في قوالب مجلوة، ونقدوا الديوان على ضوء المقاييس الفنية ولكنهم نسوا أن حسن طه كان يخاطب الضمير الوطني ويتحدث للجماهير ولم يقصد مخاطبة الصفوة. هذا الشعر الذي يقدمه حسن طه وحسن نوري ومبارك المغربي والناصر قريب الله وجعفر حامد البشير كان تصويراً للوعي السياسي وهو يؤرخ لحقبة هامة في حياتنا السياسية الفكرية. فالشعر الوطني كان هو اللغة التي تخاطب الشعب السوداني، لذلك كان الشعراء السودانيون يتألقون في ألفاظهم ولا يتعالون بأساليب باهرة يحوطها التجديد ويزينها الفن المتسامي.

أجل إن حسن طه هو صوت هادر في معركة الحرية والتحرير. ولما انقسم المؤتمر كان حسن طه في جانب الأشقاء ثم في جانب الوطني الاتحادي ودخل حسن طه في الانتخابات ليصبح نائباً في الجمعية التأسيسية بعد ثورة أكتوبر.

لم يطمع حسن في الكراسي ولم يسع إليها لأنه شاعر معلم رجع بعد ذلك ليعمل وما زال يعمل بالتدريس بعد التقاعد.

فلننظر إلى ما قدمه حسن طه. استطاع حسن طه أن يروض لغة الشعر، ولم يسف بها إلى أسلوب المخاطبة اليومية، بل إنه سما بها إلى إثارة الوجدان الوطني والعاطفة والمشاركة. ولم يعتمد على المحسنات البديعة والتزويق، لكنه عرف كيف يخاطب الجماهير بلغة الشعر وهذا أمر صعب جداً أن تمارس الفن في صدق في مخاطبة الجماهير. امتاز شعر حسن طه بالبساطة الأصيلة غير المتكلفة، فقد كان في إمكانه أن يعمد إلى الألفاظ العامية لكنه ابتعد عن تشويه وابتذال اللغة وصب شعره في أبحر تتناسب مع السماع والقراءة، فكان بحر الكامل والرجز والخفيف والبسيط من أهم الأبحر التي نظم بها.

لم تكن قصائده طويلة ولم تكن قصيرة لأنه قصد بها الجماهير ومن ثمة كان ديوانه قد سماه «هتاف الجماهير» نظم في تلك الفترة التي كان حسن طه يخاطب الجماهير. شعراء كثيرون أجدرهم بالملاحظة الطيب محمد خير وحسن مدثر وبابكر شمام وسليمان أبو قصيصة، ولكن شعرهم لم يجمع، كما أن جانب الفردية والعناية بمقاييس الفن وضح عندهم أكثر من السعي نحو التجاوب الجماهيري. ومن ثم كان شعر حسن طه ظاهراً منفرداً في هذا الميدان.

قد نستعرض قصائد كثيرة كتبها هؤلاء الشعراء الذين أطلق عليهم حداة الاستقلال، ولا يستطيع الناقد أن ينكر مزاياهم ولكنهم كانوا في الغالب فنانين أكثر منهم جماهيريين. فعندما نرجح ميزان الفن تخلد قصائد كثيرة في مراقي الفن وتختفي قصائد كثيرة وشعراء كثيرون ولكن عندما نؤرخ للحياة الفكرية والسياسية نجد أن الشعر الجماهيري له مكانته المرموقة لأنه حلقة هامة في سلسلة تاريخنا.

إن حافظ إبراهيم كان شاعر الجماهير، لذلك كان شعره وثيقة في التاريخ المصري، وكذلك شعر حسن طه إنه وثيقة في سفر الحرية والكفاح.

جوانب النقد التي بدأت توجه للشعراء والكتّاب الذين ينشأون في أزمان تختلف عن أزماننا. يحدد هذه الجوانب خطآن: الخطأ الأول أننا نطبق عليهم مقاييس النقد الفني، والخطأ الثاني أننا ننظر لهم بمقاييس عصرنا. ولكن الإدراك الموضوعي هو أن نضعهم في محكهم وفي عصرهم وننطلق معهم من مسارهم.

حسن عثمان إسحق [١٨٩٦ ـ ١٩٥٢]

ذكر همفري بومان في كتابه «نافذة على الشرق الأوسط» أن بريطانيا لم تنظر للتعليم في مستعمراتها إلا وسيلة تستغلها في إدارة هذه المستعمرات، لذلك خططته في أضيق حيز، فهنالك كتبة ومحاسبون وهنالك مساعدون في وظائف الإدارة الصغرى، وهنالك مترجمون، حتى إن المهندسين لم تتح لهم أن يدرسوا أسرار الهندسة بل جعلتهم ملاحظين ومراقبين للإنشاءات والتصميمات، وكان الإنكليز يحسون بالغيظ عندما يرون شاباً سودانياً يقرأ الإنكليزية أو يكتبها كتابة صحيحة ويشاركهم في قراءة آدابهم وأفكارهم، وكثيراً ما لقي الشبان السودانيون من التعنت والاضطهاد إذا برعوا في متابعة العصر وأفكاره، فبعضهم يتهم بالجنون، وبعضهم يُعاقب بالإهمال، والسعيد منهم من يبقى في وظيفته، ولا يحظى بالترقية، فالمفتشون الإنكليز كانوا يتحدثون باللغة العربية العامية مع الموظفين، ومع المواطنين حتى ظهر السير دوغلاس نيو بولد في أخريات الثلاثينات، وقامت دار الثقافة في عام ١٩٣٩. ففي تلك الفترة ظهر السودانيون في حلقاتها وبدأوا يناقشون ويحاضرون باللغة الإنكليزية، فحسن عثمان إسحق، تخرج من كلية غردون مترجماً ووهب حياته للقراءة والثقافة، فكان يطالع جريدة التايمز يومياً، حتى إن أباه كان يشتريها له من مكتبة فكتوريا في الخرطوم كلما جاء البريد الأوروبي، ويفخر أبوه بذلك، وقد كان تاجراً ويسكن في أم درمان، ولما تخرج حسن عثمان إسحق من كلية غردون استطاع عبر جريدة التايمز أن يتعرف على اتجاهات العصر فبدأ يطلب الكتب رأساً من إنكلترا، ووجه نفسه نحو دراسة المشكلات المعاصرة في التاريخ والسياسة والاجتماع، كما أنه تابع الحركة الثقافية في مصر، وقرأ ما

كتبه أحمد وفيق وأحمد شفق وما نشره الحزب الوطني ودعاة الجامعة الإسلامية في مصر والعالم الإسلامي، فكاد أن يكون متخصصاً في الشرق الأوسط.

عمل حسن عثمان إسحق في المراكز ورئاسات المديريات فلم يتوان في عمله بل إنه عرف بإنجاز أعماله في دقة، وكاد أن يقضي طوال يومه في مكتبه يقرأ ويترجم.

ولما قام مكتب الاتصال العام زود هذا المكتب بخيرة المترجمين في حكومة السودان، فنقل إليه حسن عثمان إسحق، وعبد الله وقيع الله، ومتولي عيد، ومنصور عبد الرحمن وعين فيه إبراهيم أبو عكر، وأشرف عليه المستر أربر ويساعده سوري اسمه الأستاذ ميشيل عيساوي، فكان هذا المكتب يتولى كل الشؤون الصحفية في الحكومة، فهو الذي يعد النشرات اليومية، فكان حسن عثمان إسحق من أساطينه، فطلبة الجامعة الذين يلتحقون بهذا المكتب يشرف عليهم حسن عثمان إسحق ويبدأ تدريسه لهم أولاً، يشترط قراءة النص وفهم النص وعدم التفكير في الكلمات، فالفكرة هي الأساس في الترجمة، والكلمة تأتي بعدها، والخطوة الثانية تقسيم النص إلى أفكار، والخطوة الثالثة قراءة هذه الأفكار ككل ثم الشروع في الترجمة وعدم الالتماس للكلمات في المعجم إلا إذا كانت مصطلحات فنية أو علمية، وتأتي بعد ذلك مراجعة النص المترجم بالنص الأصلي وإدراك إن كانت الترجمة مفهومة ومعبرة.

لذلك كنت تعجب عندما تقارن النصوص بأصولها فلا تجد حذفاً أو إضافة، فحسن عثمان إسحق هو مؤسس مدرسة الترجمة التحريرية. لقد كان في جيله مترجمون، وأشهرهم محمد صفوت، وفرح عبد الرحمن حامد، وعثمان محجوب، وعبد الرحمن عبد الله، وعبد الله وقيع الله. ولكن الترجمة التي استن قواعدها حسن عثمان إسحق هي المحافظة على النص مع إشاعة روح اللغة المترجم لها... ليست هذه هي قيمة حسن عثمان إسحق وحدها بل إنه كان موسوعة في شؤون المديريات ومعرفة أسرار السياسة البريطانية في إدارة الحكم في السودان كذلك عندما ولدت حركة التحرير في السودان كان حسن عثمان إسحق وهو المرجع في كثير من المشكلات، وقد عرف الإنكليز ذلك منذ أن التحق حسن بالخدمة، كذلك لم يتيحوا له فرص الترقي والظهور في الخدمة المدنية، ولم يقدموا له أي نوع من الإغراءات، بل احتفظوا به لأنه كان أميناً ومبدعاً في الترجمة، وفي أثناء الفترة التي شاعت فيها محاكمات

الموظفين وإقامة مجالس التأديب كان حسن عثمان إسحق هو المنقذ لهم، لأن الإنكليز أعدوا قوائم سابقة ووضعوا فيها أسماء بعض الموظفين العاملين في الحركة الوطنية، ورصدوا فيها نشاطهم لتقديمهم للمحاكمة. ففي مجلس تأديب حماد توفيق كان هو وميخائيل بخيت نِعم المعينين له، لأن الإنكليز أعدوا العدة لسجنه وحرمانه من الجنسية فأعد حسن المذكرة الإنكليزية التي كانت هي مذكرة دفاع حماد.

اهتمّ حسن عثمان إسحق بمشكلات الجماهير، ونقل المجلس البلدي إلى الخرطوم، ونبه لضعف وانهيار شركة النور التي هي الهيئة العامة للكهرباء والمياه اليوم لأن الترام كان يتعطل لضعف القوى الكهربائية، فقدم سؤالاً مستعجلاً في ذلك، وكان ذلك في عام ١٩٥٣، فأقر مدير شركة النور أن الشركة لم تجدد ماكيناتها منذ عام ١٩٢٧، وأنها لم تضع خطة للإنارة مع أن الخرطوم بدأت تتوسع منذ عام ١٩٤٨ وقامت فيها امتدادات كثيرة. كما أنه اهتمّ بتصميم المدارس الأولية في الأحياء في الخرطوم وألا يحرم الطفل السوداني من التعليم الأساسي، فقد كان في الخرطوم مدرستان أوليان ومدرسة وسطى واحدة، فطالب المجلس البلدي بالعمل مع مصلحة المعارف بالاهتمام بالتعليم الأولي، ونبه إلى أن التعليم الأساسي من اختصاص المجلس البلدي وكذلك الصحة، وقد نادى بإقامة المراكز الصحية في الأحياء وعدم الاعتماد على مستشفى الخرطوم، وإنشاء مراكز لرعاية الأطفال والأمهات، وكان من المخططين لمحاربة السوق السوداء وإنشاء نظام البطاقات للتموين، حماية للمواطنين، وقفل الطريق أمام الجشع.

نشاطه الثقافي كان في دار الثقافة واشتراكه في حلقات النقاش وفي نادي الخرطوم. ولما ظهرت «الرأي العام» كان من أعضاء ندوتها والمشاركين في هيئة تحريرها.

هذا وجه من الوجوه المشرقة في تاريخنا الثقافي، نخاف أن يُغمر في تقلبات الأحداث، ننبه نحن ونذكر.

حسن عمر الأزهري [١٨٩٥ ـ ١٩٧٦]

غربة في الروح، واقتراب في الغربة، وأمل يائس ويأس آمل، هكذا كانت حياة حسن عمر الأزهري، تخرج مدرساً للغة الإنكليزية والعلوم الاجتماعية وكان من أوائل الصف، واهتم بحركة الكشافة في بادئ الأمر، وأحب الرحلات والجولات، ونال من التقدير ما جعل الحياة أمامه جميلة منذ سني دراسته في كلية غردون، ولكنه كان شاعراً، شاعراً في كل نبض من نبضات حياته، يتدفق شعره إحساساً وتصويراً وتسجيلاً لما يدور في وجدانه وما يتراءى لحواسه، دروسه كانت متقنة، هي مزج من الجدل والهزل والسخرية والحكمة.. وشاءت الأقدار أن يقلب الدهر له ظهر المجن، فاكتفى بنفسه لينكفئ على حزنه وألمه، ولكن طبيعة الشاعر التي تمتزج بالكون والحياة جعلته أشبه بفالستاف في مسرحية شكسبير.

نظر إليه الاستعمار نظرة المستغني عن كفاياته العقلية وجعله مدرساً طوال حياته لا يرقى إلى نصيب من الخطر والدرجة، فجعله ساكناً في مكانه، لكنه تحرك في كل الأماكن، اندفقت في روحه صوفية ظاهرها العبث وباطنها الصرامة والجد.

لم يسأل عن مكانه في الترقي والزيادة في المال لأن مكانه كان تحت الشمس أنصع من مكانه في ليل الغبن والحقد والإهمال، درج أن يدرس لتلاميذه حكايات ألف ليلة وليلة باللغة الإنكليزية، يقرأها لهم في الحصص الأخيرة، ويمثل في إلقائه حركات السندباد ولص بغداد، ويضيف إلى ثروتهم اللغوية ما يقدمه لهم في انفعالات وتأثر بما يقرأه، ويوكل له أن يدرس النحو العربي فيضرب لهم الأمثال بالشعر الطريف والنادر، تحدى كل المناهج، لأنه نهج طريقه وحده فكان المفتشون يجلسون تلاميذ

عندما يزورون فصله، كتب الشعر وعرف به، فكان شعره السهل في كلماته، القوي في ديباجته، المنسوج من أعصابه وتأملاته، غريباً في الشعر السوداني، فهو يصف كما يتراءى له المشهد، فتراه ساخراً، تختلف صور الأحداث في قصيدته عن وجودها القائم، لكنها تلتقي في وجودها الحق، ويسخر فيستخدم الكلمات الإنكليزية كقافية في القصيدة العربية فيحفظ الناس عنه ذلك.

أما شعره الجاد فإنه لم يعمد به للمدح أو الرثاء أو شعر المناسبات بل جعله طريقاً لرؤيته في الحياة. فقصائده قصيرة أشبه باللمسات، ولكن بعض هذه اللمسات قاسية ومؤلمة لأنه يصور الدهر والحياة، فيجعل الحياة مهزلة لا قيمة لها لمن يتمسك بنعيمها.

وكان حاوياً بارعاً ومنوماً مغنطيسياً، فهو أشبه بهنود المايا الذين عرفوا أن هذه الحياة ما هي إلا سحر وسراب، ولعل ذلك هو السبب الذي جعله يدرس السحر ويمارس الحواية.

إذا سألته عن كلمة عربية فتأكد من جده وهزله، فربما أجابك ببيت من صنعه كشاهد على معنى الكلمة، ولكنه لو عرف أنك دارس جاد لأتحفك بالشواهد الصحيحة، فالناس عنده صنفان: صنف يدقق ويبحث عن المعرفة، هذا الصنف قليل، وصنف يجعل المعرفة زينة، وهذا الصنف كثير، وهو الزائف.

قليل من الناس عرفوا حسن عمر الأزهري، فبعضهم استخف به وهذا الغالب الأغلب، وقلة نفذوا إليه، فرأوا رجلاً عالماً متحراً يقرأ ويدرس ويحب المعرفة.

سهر على عقله، وتغذية هذا العقل طوال حياته، فهو يلازم الكتاب، ولا تدري أي الكتب يقرأ وإن فتح لك نفسه لوجدته قد تبحر في التراث وحفظ منه الكثير وأدمن قراءة شكسبير في ذوق وإجلال، وأغرم بقراءة أدباء القرن التاسع عشر في الأدب الإنكليزي، وبالأخص ولتر اسكوت وديكنز.

غربته بين الناس جذبته للألفة بين الكتب، وإهمال الناس له كان سبباً ليعايش الشعر والخيال. طوال حياته كان يعمل مدرساً، حتى بعد أن تقاعد عن العمل في مدارس الحكومة، نعم كان يعمل مدرساً بطريقته، فهو لا يكلف نفسه بتصحيح

الكراسات ولا بمتابعة التلاميذ في مقدار تحصيلهم، لأن فلسفته بنيت على أن الذي يحب المعرفة يلتزم بها ويرعاها. مذهب غريب في ذاك الزمان.

في الحقبة التي ظهر فيها شاعراً ظهر في أفق الشعر، أحمد محمد صالح، عبد الرحمن شوقي، وعبد الله عمر البنا، وعبد الله عبد الرحمن وغيرهم، ولكن لم يتأثر حسن بجو الشعر في تلك الفترة، بل انغلق في طريق مختلف، شعر التصوير الكاريكاتيري، وشعر التعبير عن النفس بالإضافة للشعر الفارغ، وهذا التعبير يقابل التعبير الإنكليزي Nonesense Poetry فحسن عمر الأزهري قد حفظ قدراً عظيماً من هذا الشعر الإنكليزي، كما حفظ ردود الألفاظ والفوازير.

ويسأل الناس كيف يكون لهذا الرجل مقام في الحركة الفكرية السودانية، هل شارك في الأحداث، هل وقف ضد الاستعمار، هل ألف الأناشيد الوطنية والقصائد، لم يفعل ذلك كله، ولكن سخر من الإنكليز، ومن غطرستهم وهجاهم، وتفكه بهم ورفض أن يتابعهم في مذاهبهم، وعرفوا أنه رجل ذكي فأبقوه في وضع ثابت، وليس هذا تبريراً لجعله واحداً من الرواد، فقيمة حسن عمر الأزهري أنه فتح النوافذ الفكرية لمن يريد أن يقرأ ويطلع، فإنه يشرح النص ويترك التلميذ يقيم النص، فإذا ما سأله وضح له المعاني والأفكار.

وثمة أمر آخر، أن حسن عمر الأزهري الذي أدخل الشعر الكاريكاتيري في الأدب السوداني كان أصيلاً في ذلك، لم يقدر أحد أن يقلد حسن الأزهري في ذلك. كما أنه صاغ قصص الخيال والتخيل في الشعر السوداني، فهو أول من كتب حكاية بالشعر العربي في الأدب السوداني، كما أنه لم يسمح لنفسه أن ينساق إلى أي تيار في الشعر العربي، قديمه وحديثه، فإذا سألته عن شوقي عرفت أنه قرأ شوقي واستوعب مراميه، وإذا حاولت أن تقارن قصص الأطفال التي كتبها شوقي شعراً، والحكايات التي كتبها حسن الأزهري شعراً، لوجدت اختلافاً عظيماً، مع أن حسن عمر الأزهري كان من المفتونين بكليلة ودمنة، إلا أنه لم يصغ أيًا من حكاياتها شعراً أو يتأثر بها.

نشر حسن عمر الأزهري شعراً في مجلة النهضة وفي مرآة السودان، وترجم بعض الشعر الإنكليزي شعراً عربيًا. فنحن عندما نقدمه نقدم قمة فريدة في تاريخ الفكر السوداني.

حسن محجوب مصطفى [١٩١٢ - ١٩٨٠]

نشأ ببربر في أسرة لها الصدارة والحسب والنسب منذ القرن التاسع عشر، وقد بايعت هذه الأسرة المهدي وأصبح أفرادها أنصاراً للمهدي، وكان والده محجوب مصطفى تاجراً شهيراً في درافور وتزوج والدته وهي من سيدات قبيلة الميرفاب اللاتي لهن كلمة وصولة، وولد حسن في بيت مجد وعز، وكان منذ طفولته متعلقاً بالشعر القومي السوداني وبالغناء وقد أخذ ذلك عن والدته وجده واجتهد في زمن كان فيه التعليم محصوراً وصعباً وعسيراً، فقبل بكلية غردون، وكان عذب الصوت، سريع الحفظ، وقد وعت ذاكرته قصائد كثيرة من الشعر القومي، وفي نهاية العشرينات ازدهر الغناء السوداني. . وسجلت أغاني عبد الله الماحي والأمين برهان والتوم عبد الجليل وإبراهيم عبد الجليل وغيرهم من الفنانين والمطربين، وكان حسن رحمه الله ذا ذوق فني فاشترك في جمعية التمثيل التي أشرف عليها المرحوم الأستاذ عبيد عبد النور، واتجه الأستاذ عبيد لخلق مسرحية سودانية خالصة كتبت باللغة العامية العربية، ولما ثار طلبة غردون وأعلنوا إضرابهم في نوفمبر عام ١٩٣١ كان حسن في الطليعة ففصل من كلية غردون وحرم كما حرم زملاؤه من المفصولين العمل في وظائف الحكومة فرجع إلى بربر ومعه عدد كبير من أبناء بربر شردهم الاستعمار والأحوال الاقتصادية كانت كاسدة فكانوا يجتمعون في سوق بربر وبعضهم قد احترف التجارة. وفي عام ١٩٣٢ فكر هؤلاء الشباب في إقامة جمعية لهم. . فمثلوا رواية الملك نمر وأنشد حسن قصيدة من الدوبيت نظمها بنفسه، وبعد ذلك رفعت السلطة الاستعمارية عنهم الحظر وسمح لهم أن يتقدموا إلى العمل في دواوين الحكومة فأقسم حسن ألا يعمل في وظيفة تحت الاستعمار وفرضت الحكومة امتحاناً لمن يتقدمون للعمل في الدواوين وهو

امتحان السكرتير الإداري، وقد سمي هذا الامتحان فيما بعد بامتحان الخدمة المدنية وكان المتقدم إذا ما نجح في الامتحان التحريري يمثل أمام لجنة للمعاينة قد ترفضه أو تعينه بمرتب أقل.

ذهب حسن إلى بورتسودان وعلم سمساراً في السوق وأقام في بور سودان مع زملائه مقراً لأبناء بربر أسموه بيت الأمة، ولم يكن حسن موفقاً في التجارة أو في السمسرة، فلما نشبت الحرب الإيطالية الاثيوبية عبر حسن الحدود من مدينة كسلا وذهب إلى أرتريا فأقام فترة يعمل بالتجارة، ولكن حظه لم يكن أحسن من حظه ببور سودان فرجع إلى بور سودان وبعد ذلك عمل في المشاريع الاستوائية.

ولما انقسم المؤتمر إلى أحزاب انضمّ حسن تلقائيًا لحزب الأمة، ففي عام ١٩٤٩ اختير حسن ليكون رئيساً لتحرير جريدة الأمة لسان الحزب فوقف مع قضية الاستقلال ولكن علاقاته مع غيره من المنضوين في أحزاب أخرى كانت علاقة مودة ومحبة مع نقده الناري لأفكار الأحزاب الأخرى ووقف قلمه على معالجة المشكلات في الأقاليم، وكتب عن الزراعة واستثمار الأراضي والأيدي العاملة وتطوير أدائها. . واستطاع حزب الأمة أن يقفز إلى الحكم بائتلافه مع حزب الشعب الديمقراطي فلم يشترك حسن في الوزارتين المؤلفتين في عام ١٩٥٦، والوزارة الثانية بعد الانتخابات البرلمانية الثانية في عام ١٩٥٧. . وقام الحكم العسكري في ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨ وأغلقت الصحف الحزبية فاتجه حسن إلى الأعمال الحرة ولما اندلعت ثورة أكتوبر عام ١٩٦٤ كان حسن من أوائل المؤيدين لها وحضر اجتماعات الأحزاب في سراي السيد عبد الرحمن بأم درمان، ودخل الجمعية التأسيسية وأشرف عليها وأصبح عضواً في الصف الأول في الحزب فعين وزيراً للحكومة المحلية فعالج مشكلات العطش وندرة السلع وأشرف عليها بطوافه على المجالس الريفية المحلية في السودان.

وكان حسن يرى في الطائفية أساساً يمهد للوحدة الوطنية لأن البنية الاجتماعية والاقتصادية مفقودة في مجتمع كالسودان، كما أن وعورة المواصلات وصعوبة الطرق تجعل الاتصال صعباً، فالطرق الصوفية هي التي جمعت بين السودانيين وعلمتهم الإسلام واللغة العربية وإن لم يكن في السودان حكومة دينية أو كهنوتية بل إن الطريق الصوفي هو الرابطة التي تربط بين الأفراد، كما أن العشيرة والقبيلة هي الرابطة

العضوية بين السودانيين وأن هذين العاملين سيمحيان ليس بالقانون والإجراءات والأوامر بل بالتطور والتنمية مع مراعاة الزمن، لأن التنظيرات لا تفيد فتقام المشاريع على حسب الحاجة وليس على خطط نظرية. ورأى حسن في المشاريع الزراعية التي أنشأها الأفراد سبباً من أسباب النجاح الاقتصادي والمنافسة، كما أنها توفر الخبز والطعام للمواطنين. فالانتقال الفجائي من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي، والدعوة إلى اقتصاد قائم على التكنولوجيا يجب أن يكون محسوباً. وضرب بالأمثلة ببلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا وقد كتب مقالاً عن الطفرة التنموية التي أفقدت الاتحاد السوفياتي قوام مرتكزاته في اقتصاديات الطعام، فالاتحاد السوفياتي كان من أشهر البلدان في العالم في زراعة القمح ولكنه بعد ما رسم خططه على التنمية الصناعية في الصناعات الثقيلة والخفيفة فقد مميزاته في الزراعة. وتنبأ أن الاتحاد السوفياتي سيستورد القمح، وحكى أنه في الثلاثينات وفدت باخرة محملة بالقمح الروسي إلى بور سودان وكان ثمن الجوال تسعة قروش منافساً ثمن دقيق القمح الكندي والقمح الاسترالي.

كان حسن رجلاً محدثاً وراوية للشعر القومي السوداني، وكان شجاعاً في مواقفه الوطنية والحزبية، وكان كاتباً لا يستعلي على قرائه باللغة الفخمة والألفاظ المنمقة، بل إنه يكتب كأنه يحكي حكاية ويكثر من ذكر الأمثلة والحقائق.

عانى في أيامه الأخيرة المرض، كما أنه كان يشكو ضعف البصر، وقد ثبت محارباً ومقاتلاً وكريماً مضيفاً وسودانياً أصيلاً، وقد توفي وهو يملك من الدنيا الذكر الحسن والرأي السديد والصراحة والرجولة والمروءة.

حسيب علي حسيب [١٨٩٦ ـ ١٩٦٦]

تحدثنا عن بيت أهل حسيب ومكانه في العلم، فهذا البيت أنجب الدكتور منصور، كما أنجب الشاعر حسيب علي حسيب. وقد ولد حسيب في قرية المكايلاب إحدى قرى بربر وتلقى تعليماً دينياً إسلامياً عربياً، وعمل فترة في المحاكم، ونظم الشعر منذ حداثته فهو أحد أبناء العلماء والعلماء من القضاة الشرعيين والمعلمين، كان نظم الشعر لديهم مسلاة ومراناً فكثير من القضاة نظموا الشعر، وإن لم يشتغل به، فالشيخ أبو شامة عبد المحمود والشيخ أبو دقن والشيخ الطيب هاشم، ولكن الذين برزوا منهم كشعراء قلائل. فحسيب علي حسيب عُرف منذ العشرينات بأنه أحد شعراء السودان وقد اشترك في اللواء الأبيض. وقف معادياً للاستعمار وعانى وعذب في حياته حتى رحل إلى الأبيض والنهود ومارس أعمالاً لا تمت لتكوين الفكر العاطفي فافتتح مخبزاً وعمل بالتجارة.

جد الشاعر حسيب شاعر وناظم وكذلك والده ولكن حسيب امتاز بأنه تفرغ للشعر. فالناظر في شعره يجد أنه قد اطلع على دواوين الفحول وحفظ كثيراً من أشعارهم لذلك تكتشف آثارهم ومجاراتهم وقصائده، فقد استطاع أن ينظم في كل الأبحر والتزم بقواعد العروض فلا تجد في شعره أسباباً بسيطة ولا زحفات. إن هذه القدرة الهندسية مكتسبة من المران الدراسي. وقد يقف في بعض الأحيان على اختيار ألفاظه فيتحكم في الاختيار ويجيده. وفي بعض الأحيان ينطلق مع تيار الشعر فلا يسقط في بئر المطروح والممجوج ولكنه لا يرتفع إلى مراقي السموق التي تجدها في متن القصيدة. وقد تبدو مطالع قصائده ضعيفة ولكن إذا ما سرت في منطلق القصيدة

يبهرك ويمتعك. وقد توهن أواخر قصائده لأنه لا ينظر ويراجع وينقح. وشعره في باديء الأمر كان الشعر الاجتماعي السائد في المناسبات، من رثاء وتخليد للمواسم والأعياد وتحايا الأصدقاء. ولكن بعد سنة ١٩٣٠ أطلق لنفسه العنان متميزاً بالسخرية والفكاهة ونظم فيما يعن له بدون النظر لدواعي الحياة الاجتماعية وإن كان في بعض الأحيان يبعث الذكريات في المواسم.

نشأ حسيب في جيل الأوائل من الشعراء السودانيين كالشيخ عبد الله محمد عمر البنا، وعبد الله حسن كردي، وعبد الله عبد الرحمن، والشيخ محمد الأمين القرشي، وحافظ الأمين وعبد المجيد وصفي، فهو لم يمت بجيل أحمد محمد صالح، ومكاوي يعقوب، وتوفيق صالح جبريل، وعبد الرحمن شوقي. ثقافة حسيب العامة اكتسبها من الصحف والمجلات العربية وقراءة الأدباء المصريين، كما أنه اهتم بدراسة التاريخ العربي، قديمه وحديثه، وراجع أمهات الكتب في الأدب العربي القديم وقد علا صوته في الفترة التي تجدد فيها شباب الشعر العربي، ولكنه لم يطرق باب التجديد. وإن نظر في شعر شوقي وحافظ وربما اهتم بديباجة هذين الشاعرين. ولا نجد أثراً لشعراء عرب آخرين غير عبد المحسن الكاظمي ومعروف الرصافي. لعله في الفترة الأخيرة في حياته اتجه للشعر العراقي بعدما سيطرت الحركة المجددة على الشعر العربي في مصر بعد وفاة شوقي وحافظ. فكان الفريد في تلك الفترة يحمل لواء الشعر العربي على أكتاف الزهاوي والكاظمي والرصافي والشبيبي.

مزاجه في الشعر يعكس روح رجل ساخر فكه في فترته الأخيرة حتى وفاته. وقد سهل عليه التعبير الراقي في كثير من الأحيان لكنه يرتجله لأنه عالج مشكلات الحياة اليومية في شعره في الأربعينات والخمسينات. أما ما كان ينظمه في المناسبات فكان في هذه الفترة رائعاً ومكتملاً في لفظه وفي جرسه لأنه درج أول ما درج على الشعر الخطابي. وقدراته الهندسية في العروض أتاحت له أن يعرف مواضع الاستحسان عند السامعين فأجاد في ذلك، وله القصائد الطوال والقصائد القصار، ولم يكرر نفسه في شعره ولم يفتن بكلمات تتردد فتختصر قاموسه اللغوي فهو واحد من الشعراء الصناجة. والشاعر الصناجة هو الشاعر الذي يرصد الأحداث ويخاطب الجماهير، وكل شعرائنا بدأوا منذ مطلع القرن حتى الأربعينات يخاطبون المحافل والجماهير، من ثمة فهم موقظو الأمة ومحركو المشاعر. فالشعر عندهم هو الطريق للحرية وإلى

الاستقلال وقد تركه بعضهم بعدما تقدم بهم العمر أو حولوه إلى مضارب أخرى كالشيخ محمد الأمين القرشي والشيخ مدثر علي البوشي.

فللشعر مناخ وأجواء، وقل أن تجد واحداً منهم قد تفرغ له ما عدا الشيخ البنا.

والدارسون للشعر السياسي في السودان كمحمد محمد علي لا يغمطون حسيب علي حسيب حقه، وكذلك الدارسون للشعر السوداني كالدكتور هدارة لا ينسون حسيب علي حسيب فهو شاعر من شعراء الحرية والنهضة، وكل الذين اشتركوا في دفع المسيرة في حياتنا كان أغلبهم من الشعراء والكتّاب. فحسيب واحد من رواد الفكر السوداني ومن ثمة كان من أهم ما تقوم به أن تنبه لجمع ديوانه وطبعه، ونحن اليوم قد سرنا غايات مجيدة من الوعي الفكري واليقظة فنحن مطالبون بذلك.

حسين أحمد عثمان الكد [١٩٠٥ _ ١٩٦١]

كثير من العلماء يقولون إن العبقرية تتوارث، وان الأشقاء والتواءم تكون درجة ذكائهم متساوية، ولكن الظروف التي تحدث التفاوت، وإن كان الداروينيون ينكرون ذلك بالرغم من أن داروين توارث ذكاءه عن أسلافه، وتوماس هكسلي أورث ذكاءه لأحفاده، فحسن أحمد عثمان المعروف بحسن الكد وشقيقه حسين الكد قد ظهرا في محيط الثقافة السودانية كمؤثرين هامين ولكن لكل منهما اتجاهه الخاص، فحسن اهتم بفلسفة السياسة والعلوم الاجتماعية، وشاركه حسين في ذلك إلا أن حسين عني بالأدب والشعر، ووثق علاقاته مع الأدباء والشعراء، وروى عنهم ورووا عنه، ومال للكتابة وعالج كثيراً من الموضوعات الثقافية في لغة حبية، وارتبط بمثقفي بيت المال وجمعيتهم الأدبية، فطبيعة نفسه المنبسطة جذبته للناس وجذبت الناس له، أما حسن وإن لم يكن انطوائياً إلا أنه فضل الانصراف للقراءة والدرس، ثم إذا تبقى له وقت جلس مع خاصة من المثقفين يناقش معهم مسائل غير مطروقة كاختلاف آراء الفلاسفة في الخير والشر والغاية والوسيلة، أما حسين فيغشى الأندية والأسواق ويشارك في الحياة الاجتماعية ويحب أن يدعو أصدقاءه في منزله، ويسمر معهم، ويقبل دعواتهم فهو منطلق النفس، محب للعشرة.

تخرج حسين من كلية غردون وعمل محاسباً في حكومة السودان، وتنقل في مصالح مختلفة، ولم تكن الوظيفة لديه غاية، فالحياة هي غايته، فقد عرف بحسن الأداء والقدرة في إنجاز عمله، ولم يلتفت لرؤسائه ويتودد لهم، فكان المحاسبون يجدون الفرص في كثير من مرافق التغيير الوظيفي، فأحمد متولي العتباني كان محاسباً،

وإسماعيل العتباني كان محاسباً، وداود عبد اللطيف كان محاسباً، وكثير من الإداريين كانوا محاسبين، وقد رأت الإدارة البريطانية فيهم مزايا تؤهلهم ليعملوا في مرافق مختلفة وأتاحت لهم فيما بعد أن يدرسوا المراجعة والمحاسبة في المعاهد البريطانية، أما حسين فقد وهب حياته للثقافة، فكان من أصدقاء حسين شريف والمعجبين به، وقد اتصل به وهو في أول مراحل حياته، من أصدقاء الطيب السراج ومن خلصاء أحمد محمد صالح، رأى في الثقافة صلات بينه وبين الآخرين، وتمتع بذاكرة نادرة، فهو يذكر الأحداث بتاريخها وساعتها ويرويها لأنه شارك فيها.

وقد كان حسين الكد وحسن الكد من الأوائل الذين التفتوا للاشتراكية، وتعلقوا بها وتكونت حلقتها من مكاوي سليمان اكرت وإبراهيم عثمان إسحق وإبراهيم يوسف سليمان، فكنت تراهم يحتفلون بجريدة الاستيسمان ومؤلفات سيدني وباتريس وب ولاسكي وكول، ويقرأون في المذاهب السياسية ويدينون الفاشية والنازية، ولم تك لهذه الحلقة أية صلة بحلقة ادوارد عطية الذي كان يفخر أنه اشتراكي فابي، بل إن حلقتهم تكونت من منابع وطنية، فقد أثرت الأزمة الاقتصادية في السودان ولم تأخذ الحكومة الاستعمارية إلا حلول التخفيض والاستغناء عن الموظفين وتطبيق فرص التجارة، وكان المستر فاس قد اتخذ سياسة قاسية ليضغط المصروفات، وكم من موظف استغنى عنه، وكم من موظف أحيل للتقاعد، كما أن أعداداً عظيمة من التجار قد أعلنوا إفلاسهم. فمن هذا المنطلق اعتنق هذا النفر الاشتراكية. ويقول حسين أحمد عثمان إنهم لم يخلطوا أبداً بين الماركسية والاشتراكية مع أن كتاب رأس المال كان من الكتب المتداولة بين مثقفي تلك الفترة، كما أنهم لم يتأثروا بكتابات سلامة موسى، وإسماعيل مظهر، ولم تجذبهم الاشتراكية الوطنية في ألمانيا وإيطاليا.

فقد ناقشت هذه الحلقة البطالة والزراعة في السودان التي اعتمدت على محصول نقدي واحد هو القطن، وسخروا من استيراد الذرة من الهند، مع أن أراضي السودان شاسعة والزراعة المطرية والنيلية قادرة على إنتاج كميات هائلة من الذرة، ونقلوا واحداً بعد واحد في مديريات السودان، ولكنهم في كل مديرية أو مركز كانت تتبعهم أفكارهم وكتبهم وصحيفة الاستيسمان.

وكـان أكثرهم اقتنـاعاً حسـين الكد، لأنـه يبسط النظريـات ويسرد الـواقـع في حـديث ظلي، فلم يجـد الحظوة في الـوظيفـة، كما أن أخاه حسناً لم يجـد الحـظوة في الوظيفة.

صـلات حسين الكثـيرة جعلته يـدرك طبيعـة المجتمـع السـوداني، فكـما أسس الصندوق الشايقي تحت رعاية اللواء حامد صالح باشا الملك، انتقد تأسيس رأس المال القبلي وقال إنـه لا يسايـر طبيعة نمـو المجتمع السـوداني الذي لن يـركض كما أراد لـه الاستعمار، كما أن السودان الشايقي سيفتح ثغرة، فكل أفراد قبيلتـه ستعمل في إنشـاء مؤسـسة لها فلا تتم الوحدة الوطنيـة، وهذا سيسـاعد الاستعمـار لا سيما والسـير (جون مافي) حاكم عام السودان إبان الأزمة قد شد من أزر القبلية. ووظف النظار والشيـوخ ليـوقفوا حـركة التـطور، فهذه اللفتـة أوضحت مدى قـوة بصيرتـه، ومات الصنـدوق الشايقي.

كان حسين الكد من أبرز أعضاء نادي الخريجين بأم درمان، لم يغـب عنـه ليلة، اشترك في مؤتمر الخريجين والطواف لجمع مـال التعليم لإنشاء المـدارس الأهلية، وكـان مجلسـه في النادي عامراً حياً، فقدرته على إدارة الحديث والنقاش كانت عفويـة لا يتبين إلا المطلع الباحث مدى ثقافته فهو لا يستشهد بآراء المفكرين ويذكـر أسماءهم، ويـرد المستمعين ليقرأوا المؤلفات، بل كان يعرض الرأي ويقدم الآراء الأخرى التي تعارضـه أو تؤيده، لذلك قدر أن يحرك أفكار مستعصية فيسألونه ماذا يقرأون، كما أنه كـان لا يبخل إذا سألته عن أمر أن يكتب لك في توسع، فإنني قد أفدت منه كثيراً وأعـانني في كثير من مشاكل تاريخ الثقافـة في السـودان، وقـد اتصلت به أقـل من اتصالي بشقيقـه حسن.

كان ابنه المرحوم طه حسين الكـد وهو أديب يحتفظ بكثـير من أوراقه وقـد ربط بيني وبـين والده، فـانتقلت إلى مجلسـه. فشـدني إليه علمـه باللغـة العربيـة وأسرارهـا وقراءته للأدب العربي القديم والحديث واطلاعه الواسع في اللغـة الإنكليزيـة، فقلت له إن السـير دوغلاس نيوبولد قـال: قد كفـانا الله شر ولـدي الكد، فلو كـانا يكتبـان لخربا بيتنا، قال لي: كل الإنكليز قد ابتعدوا عني وعن شقيقي لأننا اكتشفنا أنّ الإنكليز لا يحبون الذين يقرأون آدابهم وثقافتهم.

ولما تقاعد عمل فترة في جريدة الصحافة كمراجع لحساباتها، لكنه لم يستمر لأنه يحب أن يدير عمله بنفسه، فدخل مراجعاً لأعمال التجار، وكانت ليلة وفاته يسمر ويقرأ مع أصدقائه وقد داهمته عربة في حي الملازمين وصدمته فمات في التو والحين.

هذه خطوط سريعة عن حياة أحد الرواد، ولتمنيت لو كان طه حياً ليكتب عنه الكثير.

حسين ملاسي [١٨٩٦ ـ ١٩٤٦]

كسلا وسنكات وسواكن كلها مشارق للوحدة الوطنية، فكم أخرجت هذه المشارق رجالاً خدموا السودان، ولكن التاريخ تجاهلهم.

فمن في هذا الجيل يذكر أحمد بك أرتيقة ومن يعرف محمد بك عواض، ومن الذي تعرف إلى السيد عمر الصافي، ومحمد بك أحمد، ومحمد الأمين ترك، وعوض الكريم الشناوي، وعبد العزيز يحيى، والمجاذيب في طوكر، تاريخ السودان مليء بالبطولة والأبطال، ولكن النعرات الضيقة هي التي تحجب الناس بعضهم عن بعض، كان الناس قديماً يعرفون بعضهم ويقدرون بعضهم، ويهتمون بأخبار بعضهم، لأن الناس كانوا قد تعلموا من أجل العمل، ويؤكدون معاني الحياة من أجل الحياة، ولكن الناس عندما انصرفوا إلى السلطان والجاه، والسعي نحو ذواتهم، انطمست الحقائق، وشاعت الفوضى، فالعظماء يولون ليضيفوا للحياة، ويسعدون بذلك، حياتنا اليوم قامت على أكتاف رجال مجهولين لهذا الجيل، وقليل من الناس تشوقهم أخبار الأجيال السابقة، ويظنون أنهم مكتفون بمن هم أمامهم ومعهم، وحسين ملاسي هو أولاً رائد المسرح في البحر الأحمر، ولد بسنكات، وتعلم في سواكن، وانصهرت أسرته في السودان، ولم يعرف له أهلاً غير السودان، والتحق بخدمة سكة الحديد في عام ١٩١٠ كاتباً وهو لما يصل إلى الخامسة عشرة من عمره، وعمل بين بورتسودان والخرطوم ونوقشت صلاته بأبناء جيله من المثقفين والمتعلمين، فكان من أصدقائه الدرديري محمد عثمان وميرغني حمزة وأحمد محمد صالح وصديق فريد ومحمد علي شوقي وغيرهم. وعاش فترة في الخرطوم واشترك فيها في المسرحيات

التي مثل فيها فؤاد شفيق الكوميدي المصري، كما أنه شارك في كل الحركات الثقافية في شيخ الأندية بأم درمان ومقهى يعقوب في الخرطوم، وكلوب الشيخ أمين في الخرطوم، وتنقل بعد ذلك بين عطبرة وبورتسودان.

في عام ١٩٢٧ أسس أول فرقة تمثيلية في بورتسودان، وانضمّ هذه الفرقة عبد المجيد أحمد والد الممثل حسن عبد المجيد، ومحمد عبد الرحمن جاد الله وحسب الله ملاسي، وآدم نميري، ومحمد أحمد سليم، ومحمد مصطفى رضوان، وجميل وليدي، وهاشم الليثي، مثلت الفرقة: تاجر البندقية، والفارس الأسود، والذبائح، وروميو وجوليت، وأمير الريف وغيرها. . وكان ملاسي من المؤسسين لنادي المستخدمين في بورتسودان ثم من المؤسسين لنادي السواكنيين.

عُرف حسين ملاسي بأنه مخرج متمكن يستطيع أن يختار الممثلين مع أنه كان يشترك في التمثيل ولا يختار لنفسه دور البطولة، بل إنه يعمل على أن يكون البطل مطابقاً للشخصية.

ولما نُقل إلى عطبرة نقل معه هذا الاهتمام، وأشرف على إخراج رواية تاجوج في النادي السوداني في مطلع الثلاثينات، وعاد في منتصف الثلاثينات إلى بورتسودان، فعمل في الوفاق وجمع الشمل، وكان من أوائل الذين باركوا حركة المؤتمر وعملوا تحت لوائها، علماً بأنه كان من كبار الموظفين في الحكومة آنذاك، لكنه لم يكترث لذلك، وفي أخريات الثلاثينات نقل الدرديري محمد عثمان ليكون قاضياً مدنياً في بورتسودان فانتعشت حركة المؤتمر، وكان الدرديري يشجع الشبان ليعملوا في صفوفها ويستقطبهم ويبارك خطواتهم بالرغم من أنه لم ينضم إلى المؤتمر لأن مركزه الحساس يمنعه أن يخوض معارك سياسية.

وفي أوائل الأربعينات أحس أهل بورتسودان أن أبناءهم لا بد لهم من أن يجدوا حقهم من التعليم، فالمدرسة الوسطى واحدة، وقد مزقت أوصالها أيام الحرب العالمية الثانية، والمدارس الأجنبية تتوقف بالتلميذ عند مواصلة تعليمه، إن لم يكن أهله من القادرين، وفي تلك الأثناء قامت بجانب مدرسة بورتسودان الوسطى المدرسة المصرية لصاحبها القس البروتستانتي سعد بسطا، ومدرسة الأقباط الأرثوذكس ومدرسة الكاثوليك، ولم تكن هناك غير مدرسة واحدة ابتدائية للبنات، وإن كانت تلك

المدارس الأجنبية قد اختارت التعليم المشترك، فتشاور حسين ملاسي مع زملائه في لجنة مؤتمر الخريجين، واتفقوا جميعاً أن تقوم مدرسة أهلية، لا سيما وقد قامت مدارس أهلية في واد مدني وفي الأبيض وفي عطبرة تحت رعاية مؤتمر الخريجين، واتصلت لجنة المؤتمر بالسيد محمد السيد البربري وجماعة من التجار، فتبرعوا بإقامة المدرسة، وكان لطيب الذكر السيد محمد السيد البربري، القدح المعلى في ذلك إذ أنفق عليها كثيراً. وانتخب حسين ملاسي رئيساً للجنة، وتفرعت اللجنة إلى لجنة إدارة ولجنة فنية، وكان حسين ملاسي المشرف على اللجنتين، ففي اللجنة الفنية انتخب حامد أحمد حمداي، وخضر حسن سعد وخليفة عباس العبيد، وعمر باشري، واختير محمد أحمد سليمان ناظراً للمدرسة، وقد استقال من عمله من مدرسة أم درمان الثانوية، واستطاع حسين ملاسي أن يتدرج بالمدرسة فقد أنشأ فيها قسماً ابتدائياً وقسماً أوسط، ومدرسة ثانوية تجارية صغرى. ولئن كان الدرديري محمد عثمان هو الراعي الروحي لحركة التعليم في بورتسودان، فحسين ملاسي هو المهندس، وعبد القادر أوكير هو المخرج الذي أفلح في إقناع الإدارة البريطانية بالسماح لقيام المدرسة الأهلية الوسطى، واشترك حسين ملاسي في إقامة الأسواق الخيرية لإنجاح هذه المدرسة وعاونه كل تجار بورتسودان من يونانيين وأقباط وهنود، وبعض سيدات الأسر في هذه الجاليات وقفن على مساعدة الأسواق الخيرية التي عملت في جد على استقطاب المواطنين لتشجيع التعليم الأهلي.

وجدير بالذكر أن حسين ملاسي هو الأخ الأصغر للمجاهد علي ملاسي الذي قاد حركة عام ١٩٢٤ في بورتسودان، ووطنية حسين ملاسي تختلف في نشر الوعي والعلم، فقد كان يتمثل بأفكار جمال الدين الأفغاني في أن يحطم الاستعمار بالحكمة والعقل.

وأصيب حسين ملاسي بمرض السكري في سن مبكرة، ولكن ذلك لم يفت من عزمه ونشاطه وجهاده، لقد كان قارئاً مميزاً في اللغتين العربية والإنكليزية، وعرف بالاستقامة والعفة المهيبة وصدقه، مما جعل الناس يثقون فيه، كما أن وطنيته الصادقة وتفوقه في عمله جعله موضع الاعتبار والإجلال. وقد توفي عند مشارف الخمسين، بعد نوبة دامت يوماً ونصفاً في مستشفى بورتسودان.

حسين منصور [١٩٠٨ ـ ١٩٨٣]

كان التعليم في السودان قائماً على تخطيط استعماري، هدف إلى خدمة أغراض الاستعمار فقد كان استثماراً لتسيير الحكم، فهناك قدر معلوم لأبناء الموظفين، وقدر ضئيل لأبناء المزارعين والتجار وقدر محدود لأبناء الأعيان، وكثير من الآباء وجدوا صعوبة في تعليم أبنائهم فمحمد منصور لم يجد بداً إلا أن يبعث ابنه لمدرسة ثانوية في القاهرة، وقامت المظاهرات في عام ١٩٢٤، واشترك حسين في الكفاح السياسي، فلم يجد أبوه وسيلة إلا أن يرجعه إلى أم درمان وفي أم درمان عكف حسين على القراءة والمطالعة في الدرس وتوفر على الأدب العربي، واتصلت حياته بكثير من العلماء والأدباء والشعراء وبالأخص محمد أبو بكر عليم الذي شرح رسالة ابن زيدون، وتفتقت عبقرية حسين منصور وتعرف عليه طلبة المعهد العلمي وجذبوه إلى المعهد فعين مدرساً للرياضيات والأدب العربي، وتتلمذ عليه التجاني يوسف بشير ومحمد عبد القادر كرف وعبد القادر شيخ إدريس وحسين حمدنا الله، وأدخل حسين مقاييس النقد الحديث وثار على طريقه شرح الشعر والاعتماد على علم المعاني والبيان فلم يتخذ منهج ابن قتيبة ولا الآمدي ولكنه تقدم على منهج المرصفي في منهجه الذي اتخذه في الوسيلة الأدبية، وكان شرحه للشعر إبداعاً وفناً، لم يعرفه المعهديون، وإحاطة حسين بعلوم اللغة وبالأخص النحو والصرف وثورته على المناهج القديمة في تدريس هذه العلوم حركت سخط بعض الشيوخ، وحسين حريص جداً بالأخص في التطرق لعلوم البلاغة، فكان الطلبة يسألونه أن يطبق مقاييس البلاغة على القرآن فيقول لهم إن القرآن هو أساس البلاغة فلا تطبق عليه معايير البلاغة، فأسكت بذلك المتربصين، وكان الشيخ أبو القاسم هاشم والشيخ أبو دقن، يشدان من أزره، واصطدم حسين

مع الشيخ أحمد عثمان القاضي رئيس تحرير الحضارة، كما أنه نقد الشيخ عبد الله عبد الرحمن في كتابه «العربية في السودان»، وصار حسين يتصل بطلبة كلية غردون ويحركهم ضد الاستعمار. فقد ألقى يحيى الفضلي قصيدته السينية في الكلية فعوقب، ولما توفي الشيخ أبو القاسم ضاق المعهد بحسين فهاجر إلى مصر، وحتى تلك الفترة لم تذع غير قصائده، وكتابه عن بشار بين الجد والمجون، الذي يعد من أول المصادر عن بشار، والتحق حسين بالمجمع اللغوي في قسم التحرير والتحقيق، وكان من زملائه محمود محمد شاكر يحقق ويبحث حتى أخرج ديوانه «الشاطئ الصخري» الذي كان حدثاً أدبياً في عام ١٩٣٩ صور فيه الأدباء من العقاد إلى ناجي، وهجا من هجا، وصودر الديوان في السودان، وحتى تلك الفترة لم يوطد حسين أقدامه في عالم الأدب في مصر وإن كان قد عرف بين المحققين الذين أثروا التراث العربي. ووقف للاستعمار البريطاني بالمرصاد وحارب السراي في مصر، وكان أول من مس الملك فاروق وناصبه العداء والكراهية، وفي عام ١٩٤٢ أخرج «الرائد» مع توفيق أحمد البكري وبشير عبد الرحمن ولكنها لم تعمر. وعكف على تحقيق ديوان التجاني، فكشف فيه الكثير من الأسرار، ولكن ألغيت الطبعة، وأخرجت طبعة غيرها، وقرأ العقاد ديوان حسين منصور مع محمود محمد شاكر وعثمان علي، فأعجب به في عام ١٩٤٣، وسأل عنه، فقدم له، وكان العقاد قد اختلف مع الشيخ أحمد محمد شاكر في نسب لفظة أم إلى أموي فصححه أحمد محمد شاكر بأنها أمي، فلما سمع حسين بذلك، ناصر العقاد واستشهد بالبيت الشهير الذي جاء فيه:

الياس أبي، وخندف أمهتي.
فأصل أم هو أمهه.

وبدأ العقاد يُعنى بحسين، وترقى حسين في المجمع اللغوي بعدما تأكد لأعضاء المجمع قدرة حسين وثقافته، ولكن حسين هاجم وزارة الوفد في عام ١٩٤٤، وصورها في أسلوبه الساخر، ثم عرج بعد ذلك يكتب في جريدة البلاغ المسائية مقالات عن الاستعمار البريطاني في السودان، ولما تحركت الوفود السياسية السودانية إلى مصر أبان حسين خطل الأحزاب السودانية وتهافتها على السراي الملكي، فرأت فيه هذه الوفود خصماً، فشجعه ذلك أن يزيد من ضراوته، لذلك لما استقل السودان، لم يكن لحسين أي صديق في الأحزاب فسره ذلك، فهاجم كل الأحزاب وكل

الاتجاهات، لم يصبر حسين على أذى أو ضيم، لذلك أطلق على نفسه الحسين أبو الضيم المنصور، وسجنته مراكز القوى في مصر فأطلق سراحه عبد الناصر، ولما اعتقل أشيع أنه مات ولكنه كذب ذلك في قصيدة شهيرة.

إن حسين منصور هو الرائد الأول في تدريس العلوم الحديثة في المعهد العلمي، كما أنه الرائد المحقق للنقد العلمي المبني على الأصول وعلى المراجعات، وقبل حسين منصور كان النقد الأدبي، إما استلطافاً أو استخفافاً، وقدرة فهم حسين منصور للشعر العربي القديم لا يجاريه فيها إلا الأستاذ محمود محمد شاكر العالم الفنان المحقق، واليوم نجد بيننا شعراء وأدباء تخرجوا من المعهد العلمي ودرسوا الأدب العربي في مدارسنا وكانوا خير ذخيرة في هذا البلد: امام دوليب وكرف ويوسف الخليفة وكامل الباقر وعبد القادر شيخ إدريس ومحمد محمد علي وكثيرون غيرهم، إنهم من ثمار حسين محمد منصور.

ولا يفوتنا أن حسين قد تعلق هو وشقيقه محمود منصور بالتمثيل والمسرح ولكن حسين اقتصر بعد ذلك على ضبط الكلمات والتلقين.

حماد توفيق حماد [١٩٠٦ _ ١٩٨٠]

عفة وأمانة، وطهارة نفس، وكبرياء روح، وصفاء قلب، وسمو وقناعة، ذلكم هو السياسي السوداني حماد توفيق حماد، ولد في أسرة هاجرت من مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر وأقامت بواد مدني وعملت بالتجارة والزراعة، تلقى تعليمه بكلية غردون ودرس المحاسبة وتخرج ليعمل في الحكومة، واهتم بدراسة الاقتصاد والمالية وشارك في الجمعية الأدبية في نادي واد مدني، وكان من أول الملبين لدعوة مؤتمر الخريجين وترأس في فترة من الفترات هيئة تحرير مجلة المؤتمر وكتب فيها، ولما تفرعت الأحزاب من المؤتمر كان هو رأس حزب الاتحاديين، واشترك في وفد السودان وقاد المظاهرات وفصل وعوقب لحرمانه من المعاش فتفرغ للعمل السياسي وأنعم عليه الملك فاروق برتبة البكوية فرفضها. ولما تم ائتلاف الأحزاب الاتحادية اندمج حزبه في الحزب الوطني الاتحادي في عام ١٩٥٣ ورشح نفسه في الانتخابات منافساً للمرحوم الأستاذ عبد الرحمن علي طه ممثل حزب الأمة فطعن فيه حزب الأمة في دائرة الحصاحيصا بأنه ليس سودانياً وطعن في الأستاذ عبد الرحمن علي طه أنه ليس سودانياً بل هو اثيوبي، وتلكم كانت حيل الأحزاب. فعبد الرحمن علي طه سوداني مؤثل النسب، وعمارة الحاج طه قائمة كقرية بالنيل الأزرق منذ العهد البعيد. وحماد سوداني ابن سوداني ابن سوداني، وفاز حماد بالدائرة. وكانت تلكم هي أول انتخابات برعايته تجري في السودان. ونال الحزب الوطني الاتحادي الأغلبية، وكان ترشيح رئيس الوزراء من البرلمان فرشح المرحوم السيد «ميرغني حمزة المرحوم السيد» الرئيس إسماعيل الأزهري وثنى الترشيح. وألف المرحوم السيد الرئيس إسماعيل الأزهري الوزارة فكان حماد أول وزير للمالية والاقتصاد في السودان الحر المستقل.

نشأت الخلافات في الحزب الوطني الاتحادي وانقسم إلى حزبين فخرج السيد علي عبد الرحمن الأمين الضرير والمرحوم السيد ميرغني حمزة كما خرج المرحوم السيد محمد نور الدين والمرحوم السيد حماد توفيق.

وحل نظام ١٧ نوفمبر الأحزاب وعيّن حماد مديراً للبنك الزراعي في عام ١٩٥٨ واستمر مديراً له حتى عام ١٩٦٢ وخرج منه ولم يتقاض معاشاً عن خدمته.

عرف حماد الفقر ولكنه لم يعرف الحاجة، ولم يمد يده لأحد. زرع الأرض بيديه وباع ثماره بنفسه واستغنى عن مسرات العيش منذ أن فصل من وظيفته.

ولما خرج من البنك الزراعي افتتح لنفسه دكاناً، وما كان من أهل التجارة ففسدت تجارته، ورجعت الديمقراطية والأحزاب بعد ثورة أكتوبر عام ١٩٦٤ ولم تلتفت لحماد ولم تقرر له معاشاً، وجاءت ثورة ٢٥ مايو عام ١٩٦٩ وقد بلغ الكبر بحماد وهو ذلك الرجل الأنيق قد غير ملابسه إلى جلبات رخيص الثمن ليقوى على مطالب العيش، وكان يستقل الحافلات، وازدحام العاصمة بالسكان قد جعل الحافلات مكتظة، فتراه واقفاً كالأبله الخالد يمسك بعصا الحافلة وهو لا يشكو ولا يتبرم لأنه وهب حياته للشعب وهو واحد من أبناء الشعب.

تبدلت الدنيا وأصبح المجتمع استهلاكياً ولحماد أطفال، وهو الراعي والحارس لهم، يكدح صباح مساء ليوفر لهم التعليم والخبز والحياة. وفي مرة حل العيد فرأى أحد التجار حماد فأقبل عليه وقال له: لماذا تتوارى عنا ونحن أصدقاؤك.. اجلس.. فجلس حماد ففتح الرجل خزانته وقدم له مبلغاً من المال فرفضه حماد فأقسم الرجل يميناً أن هذا المبلغ دين وبعد لأي وجهد قبل حماد النقود.

لم يتزلف حماد لأي سلفة، بل كان صاحب الرأي المستقل، ولم يشك لأحد ولم يفاخر بأمجاد ولم يطالب أن يذكره الناس، فالناس في العالم الثالث تموت عندهم الذاكرة في الحاضر فينسون الأنبياء ويعملون على تجاهلهم فإذا ماتوا ذكروهم.

رأى حماد أن دور حزبه قد انتهى فنفض يده عن العمل السياسي، ولكنه كان يهتم بالتنمية والإنشاء والعمران ويقرأ الصحف المحلية والعربية والإنكليزية ويستمع للإذاعات.

لم يشأ في يوم من الأيام أن يسيء إلى سمعة رفيق درب ولم يذكر أحداً بعيب بل كان وفياً مع اختلافه معهم.

إن حماد وإبراهيم حسن الملاوي ويحيى الفضلي وعلي عبد الرحمن لم يطالبوا بحقوقهم في إذكاء نار الحرية والكفاح من أجل الاستقلال، كما لم يطالب غيرهم من زملائهم. ولكنه التاريخ الذي هو ضمير الأمم سيذكر أبداً هؤلاء الرواد والبشر لا يندمون أبداً، وصانعو الحياة يعرفون ذلك ويعلمون.

حمزة الملك طمبل [١٨٩٧ ـ ١٩٥١]

ينتسب حمزة الملك طمبل لعائلة الملك الشهيرة في دنقلا، ولكن والدته من أصل مصري في أسوان، وقد تلقى تعليمه في مدرسة المواساة الإسلامية الابتدائية في أسوان، وكان من مدرسي هذه المدرسة عباس محمود العقاد، ولما أكمل دراسته رجع إلى السودان، فاختير ليكون نائب مأمور، لكنه انصرف للأدب والشعر، لم تكن ثقافته الغربية واسعة، لأنه لم يطلع على أسس النقد الأوروبي والشعر الأوروبي إلا من خلال الترجمة، لكنه تأثر بما قرأه للعقاد والمازني وشكري والسباعي، فلم يطل النظر في ديوان الشعر العربي القديم، بل أهمله، وجعل مبدأ الشعر العربي من مدرسة الديوان، وقرأ للشعراء السودانيين المعاصرين، وطبق عليهم مقاييس العقاد وما تأثر به العقاد من دراسته لنقاد الأدب الإنكليزي في القرن التاسع عشر، ولم يحاول حمزة الملك طمبل أن يوسع قاموسه اللغوي، بل إنه طوع اللغة والمفردات للتعبير عن آرائه وعواطفه ونشر بادىء ذي بدء شعره في الحضارة وفي الأهرام والبلاغ الأسبوعي، وكاتب العقاد وزاره مراراً في مصر.

يعده بعض مؤرخي الأدب السوداني رأس النقاد للشعر السوداني، وذلك لأنه أول من حاول أن يحلل القصيدة ويرد خيالاتها وظلالها إلى معنى الشعر وهدف الشعر، ولكن مرارة قلمه وهجومه على من ينقدهم جعلته ناقداً ذاتياً بالرغم من المقاييس والحجج التي يدلي بها. فكتابه عن الأدب السوداني هو توجيه ومقدمة وتدوين للشعر والشعراء، فإن دل فإنه يدل على وعي أدبي مبكر لم يكن معروفاً في تلك الفترة.

توثقت بينه وبين أحمد محمد صالح ومكاوي يعقوب وعبد الرحمن شوقي صلات حميمة، ولم ير في غيرهم من الشعراء الآخرين ما يأبه به. كما أنه اتصل بدعاة التحرير

والانعتاق من الحكم الأجنبي وبالأخص عبيد حاج الأمين وعلي عبد اللطيف، لكنه تفرغ للشعر والأدب أكثر من تفرغه للعمل السياسي. فكراهيته للإنكليز كانت كراهية شخصية لم تجعله يتخذ الموقف الإيجابي ليساند الثورة عياناً بياناً وإن كان الثائرون أصدقاءه.

لا شك أن صلته مع خليل فرح وعابدين الخانجي هي الأقوى لأنه كان يحب الشعر والغناء والبهجة والمسرة، فهذه الصلة مع هذين العلمين ربطته بتوفيق صالح جبريل، فتوفيق شاعر الحادثة والواقعة والفرحة والبهجة ومخلد الزمن، التقى مع حمزة الملك طمبل شاعر الطبيعة، فحب الطبيعة ووصفها، لم يكن إلا عرضاً في الشعر السوداني، فحمزة الملك طمبل هو الذي عبد الطبيعة ووصف مناظرها ومشاهدها، وصفها وصف العاشق الولهان، على نقيض العباسي الذي وصفها ووصف الليث الهزبر الذي يعذبه بسوطه ويوفر السيف المصقول... وفي مجالس توفيق وخليل فرح، وعابدين الخانجي ألهم حمزة خليلاً كثيراً من الرؤى والمشاهد وحكى لهم عن ذلك، والحجة والمرجع في ذلك الأستاذ أحمد إسحق شداد.

إن كان أحمد محمد صالح ومكاوي يعقوب وعبد الرحمن شوقي تغذوا بالشعر ليعبروا عن عواطفهم، وتوفيق صالح جبريل ليحكي عن حياته، فحمزة الملك طمبل هو الذي استنطق الطبيعة السودانية في الشعر السوداني، وجعل لها مكاناً... وارتفع حمزة الملك طمبل بالهجاء إلى التصوير الكاريكاتيري، وقيل إن الشاعر العربي الوحيد من القدامى الذي أحبه حمزة الملك طمبل هو ابن الرومي.

لم يلبث حمزة الملك طمبل كثيراً في الوظيفة، بل تركها وأقام في قصره بدنقلا وظل يتردد على أسوان والقاهرة. وقال العقاد إن حمزة الملك طمبل لو واصل القراءة والدرس لكان من أعظم النقاد، ولكنه كان يضيق بالشعر والأدباء الذين لا يساقون لمزاجه... وسألنا العقاد: أتقرأ شاعراً لا يروق لك؟ قال: أقرأه لأتعلم منه كيف راق للآخرين. فمثلاً لا يعجبني مهيار الديلمي وأفضل عليه الشريف الرضي، فإنني أقرأ مهياراً لأتعلم كيف استطاع أن يفوق أستاذه في صياغة بعض قصائده.. وأقرأ شعراء كثيرين وذكر بعض الشعراء المصريين... وهم عابثون بالشعر... فحمزة كان يجب عليه أن ينظر إلى الشعر من بابه الواسع.

. . . بعدما ترك حمزة الوظيفة خمد صوته، ولم يسمع منه إلا لماماً. . . وتنبه إليه محمد المهدي المجذوب، ومنير صالح في مقالاتهم، التي كانوا ينقدون فيها الشعراء، الأول بتوقيع الشعبي والثاني بتوقيع شهاب، وكان ذلك في عام ١٩٤٠ في جريدة السودان وبعد ذلك درسه النويهي في كتابه الاتجاهات الشعرية في السودان.

هنالك خاصية في شعر حمزة الملك طمبل هي إيقاع الكلمات الذي يؤكد الإيقاع الباطني للموسيقى، فالتناغم ليس أصلاً في نظم حمزة الملك طمبل ولكنه اللفظة الصوتية المندمجة بالإحساس، لذلك قد تختلط الأبحر والأوزان في شعر حمزة الملك طمبل، فالعرضيون يدركون بعض الخلل في شعر حمزة الملك طمبل، ولكن هذا لا ينقص من قيمته.

فحمزة قد منح الآفاق لنقد الشعر على مقاييس، وأيقظ المشاعر لترنم الطبيعة وتعشقها.

لم ينقد أحد شعره في حياته لأنهم خافوا من هجائه الذي قام على التصوير الكاريكاتيري. . . ألا رحم الله هذا الرائد الكبير.

خضر حمد [١٩٠٨ ـ ١٩٧٠]

المدارس الفكرية التي انتشرت في أم درمان هي التي دفعت حركة الثقافة المثمرة في السودان، وقد اشتهرت بعض هذه المدارس لأن المنتمين لها قد برزوا في المجتمع السوداني، فخضر حمد ابن حي أبي روف كان من الشهيرين الذين اشتركوا في جمعية أبي روف الأدبية، هذه الجمعية ضمت حسن أحمد عثمان الكد، وحسين أحمد عثمان الكد، وإبراهيم عثمان إسحق ومكاوي سليمان اكرت، وإبراهيم يوسف سليمان وإسماعيل العتباني وأحمد محمد خير والهادي أبو بكر إسحق وعبد الله ميرغني.

توفر هؤلاء النفر على دراسة الأدب العربي القديم والحديث، واطلعوا على الفكر العربي باللغة الإنكليزية، كما أنهم أقاموا حلقات نقاش الكتب، وكتابة مقالات عن الكتب التي تقرأ في انفراد واتصلت هذه الجماعة بالشيخ عمر إسحق الذي كان ملماً بالتراث العربي، ومعاصراً للأحداث في السودان، كما أن أبا الطيب السراج قد جذب بعض أفرادها إلى مجالسه، وكذلك محمد أبو بكر عليم، كان خضر حمد من المثابرين المجاهدين في سبيل المعرفة والحرية، وقد بدأ مقالاته وهو موظف قد تخرج من كلية غردون من قسم المحاسبة بدأها في حضارة السودان ووقعها بإمضاء طوبجي، وتابع نشاطه في جريدة السودان لصاحبها الشيخ عبد الرحمن أحمد.

انفرد بأسلوب عربي منقح مرصع بالمفردات العربية الدقيقة التي أخذت من القديم البلاغة، ومن الحديث الفكرة وقد تأثر خضر حمد في بادىء الأمر بالجاحظ ثم خلص لنفسه عندما اتصلت الجمل في أسلوبه بالأفكار والمعاني، وطاف بزيارة الأقطار العربية، فاتصل بمصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي والقاياتي في مصر،

وحج إلى بيروت وتعرف على شيوخ العرب والبيان فزار ميخائيل نعيمة وتعرف على أمين الريحاني، وذهب إلى سوريا وجلس مع محمد كرد علي، ومعروف الأرناؤوط، وشفيق جبري، كما أنه لما مات شوقي لم يجد شاعراً بعده إلا بشارة الخوري وساجل في ذلك في جريدة كوكب الشرق.

وفي مطلع الأربعينات كان خضر حمد من أقطاب مؤتمر الخريجين وقد وهب حياته للعمل الوطني والسياسي فاستقال من وظيفته في مصلحة المالية، وحاول التجارة لكنه استغنى عنها بعد حين، ولما أنشئت الجامعة العربية تقلد وظيفة في أمانتها بالقاهرة وقد كان من أقطاب حزب الاتحاديين، ولما عقدت اتفاقية السودان في عام ١٩٥٣ واندمجت الأحزاب في حزب واحد بارك خضر حمد هذه الوحدة وظل يعمل تحت لوائها. وقدر موقفه كل الذين اختلفوا مع بعضهم لأنه كان داعية سلام للوئام والائتلاف، ولما نشب الحكم العسكري انصرف لأعماله التجارية لكنه كان من عتاة المعارضين واجتمع حوله شبان يعملون من أجل إرجاع الديمقراطية، بالرغم من أنه كان من أنصار التقية، واعتقل مع المعارضين.

ولما عادت الديمقراطية انتظمت الصفوف واختير خضر حمد عضواً في مجلس السيادة، وفي تلك الفترة ظهرت العلة تنهشه فصبر عليها في إيمان ورضا.

إن خضر حمد هو الذاكرة الواعية لمسيرة الحركة الوطنية، عضو في جمعية أبي روف وفي مؤتمر الخريجين وفي الحياة الحزبية.

لقد كتب أحمد خير في كتابه «كفاح جيل» رصد فيه قسمات الكفاح الوطني، وكتب عبد الرحمن علي طه كتابه عن الحركة الاستقلالية ونشر طرفاً من مذكرات السيد عبد الرحمن المهدي في جريدة النيل، كما كتب الدرديري محمد عثمان مذكراته، وكتب محمد عبد الرحمن النجومي كتاباً باللغة الإنكليزية عن وصاية عظيمة، فإذا رجعنا إلى هذه الكتب وإلى مذكرات خضر حمد يمكننا أن نقارن بين وجهات النظر المختلفة ونستخلص فيها تاريخاً لحياتنا السياسية.

إننا عندما نتحدث عن خضر حمد إنما نتحدث عن أحد أعمدة الوحدة الوطنية، فخضر كان من المتمسكين بوحدة الكلمة في السياسة السودانية، وكان لا يرى في

الأحزاب إلا التفرقة والشتات، وحاول في كثير من الأحيان أن يمد حبال الوصال بين الاستقلاليين والاتحاديين ولكن دعوته لم تجد لها أذناً صاغية.

إننا إذا درسنا تاريخ النثر الفني في السودان نجد أن هنالك كتّاباً برعوا في التعبير بأساليب بليغة عربية محكمة، فخضر حمد هو أحد من أولئك المبدعين وليس هو وحده الفريد، بل إن هنالك عبد الرحمن أحمد سعد والشيخ سيد أحمد الفيل والشيخ عمر إسحق، إن هذه تذكرة لدارس الأدب السوداني.

إن خضر حمد هو الرائد الذي كشف أسرار السياسة البريطانية في السودان، ودعم ذلك بالوقائع والأحداث، فقد أخرج كتابين في أذيال الأربعينات، الأول عن مآسي الإنكليز في السودان والثاني عن جنوب السودان، فلو كانت الحياة السياسية في السودان تعنى بالدراسة والتخطيط في تلك الفترة لتجنب السودانيون الكثير من المحن والكوارث السياسية لأن خضر حمد رسم الخطوط الرئيسية لمؤامرات الاستعمار.

لا أظن أن المعاصرين يقدرون أن يفوا خضر حمد حقه فهو رجل والرجال قليل، وله صحبة الأمجاد الكرام، كالمرحوم يعقوب عثمان والمرحوم عبد الله ميرغني والمرحوم الدكتور فضل بابكر والمرحوم إبراهيم يوسف سليمان وإبراهيم عثمان إسحق، فهذه الحلقة ومن بقي منها أدام الله عليهم العافية والسعادة لهم بتاريخ فترتهم وإبراز معالمها، فالتاريخ السوداني في حاجة لذلك، والأجيال القادمة تطالبنا بذلك.

خلف الله بابكر [١٩٠٩]

النبوغ كالبحر والنهر لا بد لهما من مجرى، وكذلك النبوغ لا بد له من مجرى ومصب، فكثير من النابغين تبدد نبوغهم، فحرقوا به، واحترقوا به، فلا بد للقريحة النابغة أن يكلؤها التيسير والفتح، والمتصوفة هم أول من كشفوا ذلك فلجأوا لله، يطلبون عونه، فالله هو المنقذ، وصاحبنا كان نابغة في مدرسته، مميزاً ولكن لا بد من الوجه والاتجاه، والمدارس والمدرسون يخطئون عندما يصنفون تلاميذهم، ويفرضون عليهم تخصصاً لا يوافق قدراتهم وكفاياتهم، لذلك كان رجال العلم والفن يتخذون مهنة تدر عليهم الرزق، فكان منهم العطار، والزجاج، والنساج، والغزال، والحداد، وكل ذلك ليحتفظوا بمواهبهم، وينموا هذه المواهب، وقد اختير خلف الله بابكر ليدرس الطب، ولكنه تخرج متخصصاً في الصحة، ولا سبيل غير ذلك لأن التعليم في عهده حصر في مهن تحتاج لها الإدارة البريطانية، وفي جيله كثير من الأطباء والمهندسين تابعوا مسيرة مواهبهم، وتخرجوا متخصصين، ولكنهم عرفوا في تاريخ الثقافة السودانية بهذه المواهب، ولم يعرفهم التاريخ الفكري بغير ذلك.

نشأ خلف الله بابكر في بيت من بيوت العمراب، والعمراب أهل علم وحفظ ودراسة، كما أنهم أهل تجارة ومال وعمل، تقاسم فريق منهم التجارة، وتقاسم فريق آخر العلم والدراسة، فكان من نصيب خلف الله بابكر الشعر، كما كان نصيب أحمد حسين العمرابي، والهادي العمرابي التاريخ. إن أول ناظر لمدرسة وسطى سودانية كان هو الشيخ عبد الرحيم حامد، فقد تبوأ هذه الوظيفة في عام ١٩١٢ بمدرسة أم درمان.

إن نشأة خلف الله بابكر في بيت علم هي التي وجهته نحو الأدب والشعر، وكان خلف الله، أو خلف من جيل المحجوب، وحليم ومحمد عشري ومعاوية، فهم الرواد الذين ثقفوا أنفسهم، وعلموها، وكانوا جادين في الدراسة، مسؤولين أمام ضمائرهم، وخرج خلف الله إلى الحياة يعمل ضابطاً في مصلحة الصحة، وتنقل في أرجاء السودان، وامتزج بالمجتمع السوداني وشارك في كل الحركات الوطنية، ولما نشأ مؤتمر الخريجين كان خلف من رواد الدعوة والعمل لإنشاء المدارس الأهلية، كما كانت له وجهة نظر سياسية جاهر بها، لذلك برز اسمه بين الاتحاديين، والاتحاديون في بادئ أمرهم مثلوا صفوة المثقفين الذين أرادوا الانفلات، والبعد عن الطائفية، وكانوا أشبه بجماعة لا تحاول استقطاب القواعد الشعبية، بل يعملون لضم المتعلمين والمثقفين، ولكن الأحوال السياسية والظروف التاريخية حولتهم فيما بعد وجعلتهم يعملون كما يعمل أهل روما.

يهمنا في هذا المقام خلف الله الشاعر فهو الباقي لنا، خلف هو شاعر المقطوعة في الأدب السوداني، حقاً لقد كان هنالك شعراء غيره مارسوا شعر المقطوعة، كالدكتور محمود علي حمدي، ومرضي محمد خير، ولكن المقطوعة في شعر خلف هي الصورة الواضحة في الأدب السوداني، فخلف، وما أخاله كان موسيقياً كالدكتور حمدي، ولكنه هو الذي استطاع أن يقسم ويوزع اللحن في المقطوعة الشعرية، وفي تلك الفترة التي ظهر فيها خلف كانت المقطوعة هي الذائعة في الشعر العربي، فالدكتور إبراهيم ناجي كان شاعر مقطوعات، وعلي محمود طه المهندس وحسن كامل الصيرفي وشفيق المعلوف، وأغلب شعراء المهجر، ولكن خلف لم يتأثر بالمقطوعة السائدة حينذاك، لو تتبعنا مساره لوجدنا أنه تأثر بالشعر الإنكليزي في القرن التاسع عشر، وبالأخص شيلي وكيتس ووردثورت وشعراء البحيرة، ولعله حتى في دراسته للشعر العربي اختزن منه في مخيلته التقسيم الموسيقي للقصيدة وتوزيعها لمقطوعات. ونرى أثراً للمتنبي في شعر خلف، ولكنه يبتعد عن المبالغة والمجازفة والاندفاع، فهو شاعر هادئ ليس في شعره رعدة وشقشقة، تنساب ألفاظه في صور ميكروسكوبية، ينظر لبواطن الكلمات واتساقها مع حركة العاطفة، ويسير بحساب دقيق، لذلك لا يختل الوزن في الأبحر التي ينظم فيها، ولا يشعر القارئ أو السامع باختلاف البحر عن الغرض الذي نظم فيه، وأمامنا عدد من قصائده، فنجد أنه يختار بحر الخفيف

والكامل والبسيط، ومجزوءات الطويل، والمترادف، ولا يعمد للرجز، وفي بعض الأحيان يستخدم بحر الوافر، ولا ترى تكراراً في صوره، ولا في رؤاه ولا في كلماته، فبعض الشعراء يكررون بعض الألفاظ كأنها لصيقة بهم، ولكن خلف تراه جديداً في كل مقطوعة من مقطوعاته، وترى اللغة جديدة، وإذا قارنا خلف بميهان، نجد أن خلف لا يتعب ولا يكد في انطلاق بناء القصيدة، بل إن البناء في قصيدته يبرز كأنه مرسوم في صورة بيانية، وليس يعني هذا أن المقطوعة عنده قائمة على نموذج مسبق، لكنها مبنية على تخطيط، جانب الوعي الشعوري فيه مركوز على هندسة البحر، لكنه متحرر في جيشان العاطفة، فجانب الحذر عند خلف ملحوظ في هندسة بناء القصيدة، وعلى النقيض تجد ميهان، مع أنه مهندس يتحدى القواعد المرسومة ويزيد وينقص في حركة البناء، وحمدي لا يهتم البتة بالانضباط البنائي، وإن كان يعوض ذلك بالتقسيم والتوزيع الموسيقي، وإشاعة الظلال الممتدة من روحه.

في فترة خصوبة عطاء خلف ظهر التجاني يوسف بشير فلون المقطوعة وأدخل فيها الفكر والفلسفة، ومزجها بالثقافة، ولكن خلف مع أنه كثير القراءة متعدد الاطلاع أبى أن يخلط شعره بأي عوامل أخرى، فكان شعره مصفى ومنتقى، فهو شاعر الصدق العاطفي، لذلك ترى قواه تخور إذا ما حاول أن ينظم شعراً في المناسبات أو حتى في الليالي التي يسمر فيها مع صحبه، ولست أدري ما الذي جعل خلف فريداً في هذا النوع، ولعله كذلك ضنين بشعره إلا لتصوير لواعج نفسه.. الشعر عند خلف مسلاة وتزجية ذاتية لحياته، لذلك لم يعرج عن مساره العاطفي إلا عندما نظم شعراً في بناته، فجعل ابنته سهيرا قصيدته الكبرى، فإذا قارن قصيدته عن ابنته سهيرا وقصيدته عن ابنة الخباز، نجد في القصيدتين جانب الأبوة أوضح وأبرز، فهو يحب ولا يتغزل، الحب امتداد واكتفاء، والغزل تشتت وحيرة.

هنالك جانب نراه بارزاً في شعر خلف الله، غير هندسة البحر والموسيقى، ألا وهو أنك لا تحس بوطأة اللغة في شعر خلف، فاللغة عنده غير محسوسة في اللفظ لأن اللفظ هو معنى وصورة، على نقيض شعراء المقطوعة في شعر الدكتور حمدي، إنك تحس باللغة وتتلمسها بأصابعك، ولعل ذلك راجع إلى أن الدكتور حمدي طبيب، فالعضو عنده مكمل للوظيفة.

نشر خلف في النهضة، والفجر وجريدة النيل، وجريدة كردفان، وجريدة الرأي العام، فالشعر الذي نشره قليل، ولكن المتتبع لشعره يجد أن خلف مكثر، ومتطور بالأدلة، إن هنالك تجدداً وتطوراً مع كل قصيدة، فهو ضنين بشعره، وإن حفظه أصدقاؤه، إن خلف الله بابكر الشاعر النابغة لم يكتف بالشعر دوراً في حياتنا الفكرية والثقافية، ولكنه شارك في الأحداث السياسية، فكان أول وزير إعلام في ثورة أكتوبر، كما كان وزيراً في ثورة ٢٥ مايو، لم يكف عن العطاء ومواصلة السير، فعمل في هيئة الصحة العالمية، وبرز في كثير من المواقع، ولكنه في الباقي والخالد هو شاعر نابغة حرر العاطفة في شعرنا السوداني المعاصر.

داود عبد اللطيف [١٩١٠ - ١٩٨٩]

حديثنا عن دأود عبد اللطيف ليس بالحديث السهل، وقد اختلف الناس فيه.

دأود ذلك الرجل القصير القامة، المعتدل الصورة الضخم الرأس، النشيط الحركة، الضاحك الساخر، السريع الكلمات، تراه فتعجب لسرعة خاطره، وقوة ملاحظاته، وقدرته الفائقة اللماحة في استبيان الأشياء، فقد تستهين به في بادئ الأمر، ولكن إذا ما سرت معه شوطاً انبهرت أنفاسك وبدأت تصغي إليه، حتى ولو كان حديثه موجهاً ضدك، لأن جانب الفكر فيه يصقله بالحجة، فهو نوع من البشر لا ترمى إليه الجماهير، لأنه واضح لا يغلف حديثه ولا يزينه، ولكنه يكشف ويكاشف، فخير وصف له أنه مفكر سياسي، وأستاذ للسانه، لذلك لم يكن سياسياً جماهيرياً يقود الأفكار الحزبية، ويهتف للشعارات، لقد نشأت عند ظهوره جماعة من الساسة متنوعة متعددة، فمدرسة الشيخ سيد أحمد الفيل والشيخ عمر إسحق امتدت في حوار بين (تلاميذ) ومدرسة محمد علي شوقي ومحمد صالح الشنقيطي انحصرت في طائفة، هو كل قوامها وكل تلاميذها تسع، لمن يريد أن يستظل بالشمس والنور، أما دأود عبد اللطيف فهو قبس أخذ عنه الاتحاديون والاستقلاليون والمستقلون يسعون إليه ولا يسعى إليهم لأن تعدده وامتداده لم يتوقف عند نفر أو أنفار وحتى الذين استعانوا به لم يقدروا أن يجعلوه يستظل بهم ويتوقف عندهم حبيساً رهن إشارتهم، لأنه لم يرد لهم أن يكونوا رهن إشارته، هذا الاستقلال في الفكر هو الذي ميز دأود عن غيره، وجعل له مكانة وجعل منه شخصاً مهيباً، لا يحاول أحد احتواءه. نشأ دأود عبد اللطيف في حلفا القديمة، وكما يؤكد التاريخ هي حارسة هذا القطر، يتحطم عندها كل غزو ويمر

بها كل غزو، ولكنها تبقى كما هي ويبقى أهلها كما هم، فالتماسك العضوي التاريخي والأنثربولوجي لم ينشأ من المدينة ولكنه نشأ من أهلها، فكلهم متحدون في لغتهم، ومشاعرهم وعاداتهم وقيمهم، يمتصون كل هجرة وافدة، ويصيغونها في أقاليمهم وإن عرفوا العشائر التي استوطنت معهم، وفصلها السيد كبارة في شجرة أنساب، فدأود خرج من بين أهله المتماسكين صلابة، ترفده الحضارة النوبية القديمة التي هي أساس حضارة السودان، وهي التي خطت الصورة الواضحة للسودان في القديم، وقد ذكرها هيرودتس في تاريخه، وأشار إليها بليني في أوراقه قبل الميلاد، وتحدث عنها ابن الأثير وابن بطوطة ومن قفا طريقهما من مؤرخي الحضارة الإسلامية.

وتعلم دأود في مدرسة حلفا الابتدائية، والتحق بكلية غردون عام ١٩٢٨، وهنالك عاش أصداء وسهادير الدفعات التي سبقته من الموهوبين، كمحمد أحمد محجوب ومعاوية محمد نور ومحمد عشري الصديق وعبد الله عشري الصديق ويوسف مصطفى التني ومحمد زكي مصطفى وحسن أحمد عثمان الكد وحسين أحمد عثمان الكد، والكليه وقد انفتح شبابها على عالم جديد بعد رحيل المدرسين المصريين ووصول المدرسين السوريين، وإن كان جوها قد شاع فيه الإرهاب، ووريت فيه الثقافة العربية الوافدة من مصر، وحرمت قراءة الصحف والمجلات المصرية وعين المستر يودل شرطة لمصادرة الثقافة المصرية العربية، فهي مع ذلك كانت حافلة بأئمة من أهل الفضل والعلم،من أساتذة اللغة العربية من السودانيين. فكان هنالك الشيخ أحمد البشير الفضل والشيخ المصري والشيخ الأمين وغيرهم بجانب الأساتذة السوريين الذين لقحوا الفكر العربي بالفكر الغربي، كادورد عطية، وحنا خباز، الذي ترجم جمهورية أفلاطون، وظهر دأود مناظراً ومناقشاً في كل حلقات الفكر والأدب في الكلية. ظهر الشيخ أحمد البشير الفضل يقول له: إنني أعجب لماذا تهتم بالأدب العربي وتجادل فيه؟ وقد يضيق به أساتذة اللغة العربية، ولكنهم يحترمون آراءه. وأراد دأود أن يكون مدرساً، ولكنه قد وضعت أمامه المصاعب، وحاول الهندسة وحاول الطب وحاول الهروب إلى مصر وحاول دراسة القانون، وشاء الحظ أن يتخرج محاسباً، وينقل إلى مديرية حلفا عام ١٩٣٣ فيلتقي بالشيخ محمد أحمد المرضي الذي تخرج قبله بأربع سنوات عاملاً قضائياً في المحكمة الشرعية واتصل الود بينهما، وأصبحا نجمين لامعين في مجتمع حلفا، ونقل دأود بعد ذلك إلى مديرية بربر

ليعمل في عاصمتها الدامر، وكان رئيس الحسابات أحد المستوطنين من غير السودانيين وحاول ذلك الرئيس أن يبعده عن منطقته ولكن لم يستطع، فوجد هنالك حسن أحمد عثمان الكد الذي كان يعمل محاسباً ومحمد عشري الذي ترك الهندسة واختار أن يعمل مترجماً كما كان توفيق صالح جبريل الذي كان لقبه الرسمي حضرة المأمور. وفي تلك الفترة من الثلاثينات كان السودان على موعد مع القدر فكل الشبان يقرأون ويثقفون أنفسهم، وينصرفون عن اللهو وعن بدوات الشبان، وكان الخريجون يراسلون بعضهم ويوجهون بعضهم البعض ويشيرون إلى الكتب الجديدة، والخرطوم قريبة. فهنالك القطار الشهري الذي يتيح لموظفي عطبرة والدامر أن يسافروا إلى العاصمة كل نهاية شهر، فيلتقون ببعضهم ويحملون الكتب الجديدة، كما أنه كانت في عطبرة نهضة أدبية فكرية، فسكة الحديد قد استنبطت نظام المكتبة المتحركة. كما أن بعطبرة كانت هنالك مكتبة للصحف والمجلات يديرها الطاهر الحلاق، وكان بعطبرة إبراهيم حسن المحلاوي وصالح محمود إسماعيل وصالح مصطفى الطاهر ومحمود الفضلي ومحمد عمر إدريس وغيرهم.

ففي تلك الفترة اهتم دأود بقراءة الفكر العربي واشترك في مكتبة كتب اليسار، فكان يصله كل شهر كتاب جديد، وله صديق زميل هو حسن أحمد عثمان الكد اشتهر بسعة اطلاعه وشمول فكره وتعدد ثقافته، فاشترك الاثنان في وضع دراسة لجمع شمل الخريجين في مؤتمر أشبه بالمؤتمر الهندي الذي قاده غاندي ونهرو وكريشنا مينون وعدد من مثقفي الهند ولم يرفع دأود الدراسة مع صديقه حسن أحمد عثمان الكد بل إن حسناً أرسلها إلى صديقه أحمد خير المترجم حينذاك فلم يتفق خير معهما لأنهما رأيا أن يستعينا بالطائفة في جمع شمل السودانيين في مؤتمر يقوده الخريجون، وكان ذلك أول عمل إيجابي لدأود، وبعد عام أخرج أحمد خير دراسته عن تكوين مؤتمر الخريجين في عام ١٩٣٨.

وفي تلك الفترة كان السير هارولد ماكمايكل يسلط رجاله على خنق الفكر والإرادة بين الشبان السودانيين، ويضيق بالثقفين ولكن كان المستر بريدين ودوغلاس نيوبولد يحاولان الاستعانة بالمثقفين السودانيين، لذلك وجدت فكرة قيام المؤتمر صدى طيبا في مديرية النيل الأزرق. وأحس البريطانيون أنهم لو أهملوا طلائع المثقفين في السودان فربما تؤثر رياح جديدة تفد من مصر وتستولي على كل شيء، لذلك راجعوا

أنفسهم وبدأوا يصرفون للشبان السودانيين، بحضهم في الحياة والفكر إلى الحد الذي لا يتعارض مع حكمهم للبلاد. فافتتحت مدرسة الإدارة مرة أخرى وأنشأت مدرسة الحقوق واهتموا باستقطاب المبرزين في هاتين المدرستين، واختير دأود في مدرسة الإدارة، مع أنه كان يجاهر بعداوته للاستعمار، وتخرج في عام ١٩٤١ وعمل في مركز شندي، فهناك التقى بمحمد أحمد محجوب العامل في القضاء المدني، وود عيسى زيادة المدرس في المدرسة الأولية وحسن نجيلة المدرس كذلك في المدرسة الأولية، ووديع حبشي ومحمد حاج حسين، فأصبحت شندي مركزاً من مراكز الإشعاع الفكري، أهلها للتعليم، لا سيما ومؤتمر الخريجين قد اشتد ساعده وجاهر السودانيون بقيام المدارس، ورأى أهل شندي أن أبناءهم يحاصرون ليعملوا في العاصمة ولا تزدهر التجارة، ولا يقوى أحد على الزراعة، ولا تعمر لأن مواطنيها يخرجون عنها طلباً للرزق. فالحلقات التي كانت يدار فيها النقاش بين هؤلاء النفر أيقظ فيهم الوعي، فقام مصنع للصابون، واهتم المواطنون بالفواكه والزراعة، فكان الشبان المثقفون في تلك الفترة يحجون إلى شندي ليقابلوا محجوباً ودأود ونجيلة، فجمال محمد أحمد يقضي جزءاً من إجازته مع دأود وعبد الإله أبو سن وإبراهيم عمر الأمين.

تنقل دأود من مراكز الإدارة حتى أصبح ضابطاً لمجلس بلدي الخرطوم. ففي تلك الفترة قدم دأود مشروعاً لتجميل العاصمة واستثمار أراضيها، فأنشئت الدرجة الأولى، وكانت القطعة ومساحتها ١٦٠٠ متر تباع بسبعة جنيهات، ولما تم نقل أكثر من أربعين ألف مواطن إلى الأحياء الجديدة في الخرطوم (٣) والسجانة، كان صاحب الملك يعطي أرضاً والمستأجر يعطى أرضاً، بأسعار مخفضة، وحددت القطعة بمائتي متر، والمتر الواحد بخمسة قروش، وأنشأ كوبري المسلمية، ودفع المجلس البلدي تكاليفه التي كانت ثمانية وعشرين ألف جنيه لأن سكة الحديد اعتذرت عن المساهمة، وقام بأكبر معجزة هي إنشاء المنطقة الصناعية بالخرطوم... وفي تلك الأثناء كان دأود نجماً لامعاً في المجتمع العاصمي يدير النقاش والحوار في دار الثقافة، والحياة السياسية اضطربت في الأحزاب والتنظيمات، ولكن دأود أضحى في منأى عن الالتزام فكلهم يسعون إليه، وجاء الاستقلال وترقى دأود مديراً للاستوائية فنبه للأخطار في الجنوب ولكنهم لم يستمعوا إليه حتى وقعت الواقعة. وقام بعد ذلك الحكم العسكري، وكان دأود مديراً لمديرية كسلا فاختلفت وجهات نظره مع الحاكم العسكري ونقل رئيساً

للجنة التوطين، إذ تمت الاتفاقية لنقل أهالي حلفا عن موطنهم، وتكونت لجنة التوطين من دأود رئيساً وحسن علي عبد الله وكيل الداخلية عضواً، وحمزة ميرغني وكيل وزارة المالية عضواً، ووديع حبشي وكيل وزارة الزراعة عضواً، وكان رأي دأود أن ينقل أهالي حلفا إلى منطقة الخوي، للتجانس الثقافي والجغرافي بينهما وبين منطقة حلفا، ولكن مقرر اللجنة كان وزير الداخلية حينذاك أحمد مجذوب البحاري فرفض ذلك، وأحيل دأود للمعاش براتب شهري قدره سبعون جنيهاً فدخل عالم الأعمال الحرة وعمل في الجرارات والهواء السائل حتى سقط النظام العسكري، وفي عام ١٩٦٦ اختير دأود وزيراً للشؤون الاجتماعية، فأصدر قانون الصحافة والصحفيين في عشرة أيام وذلك راجع لخبرته الواسعة التي استفادها من عمله كمساعد لوزارة الداخلية في الشؤون السياسية، ولاتصاله بالصحافة السودانية، فقد كان صديقاً لجريدة الأيام وأحد الذين يشتركون في تقديم الرأي، وقد دخل لجريدة الأيام عن طريق صديقه جمال محمد أحمد الذي ارتبط بصداقة مع بشير محمد سعيد. فدأود اللماح كان يعرف ماذا يريد القارئ السوداني حتى إنه لما نشرت جريدة الرأي العام ثمانية وثلاثين مقالاً في الرأي العام عن الهند ارتفع توزيعها، وبدأت الأيام نشر مذكرات السيد إسماعيل الأزهري ففاقت بتوزيعها أي صحيفة أخرى، فهرع إليه أعضاء جريدة الرأي العام يطلبون الرأي والمشورة منه، فأشار على جريدة الرأي العام أن تترجم كتاب دنكان عن طريق السودان للاستقلال.

لم يكتب دأود كثيراً، غير أنه قدم بحثاً عن الشيالة باللغة الإنكليزية أعجبت به مدرسة العلوم السياسية والاقتصادية بجامعة لندن وأشادت به، فهنالك نسخ منه في تلك المدرسة، وقد كتبه باللغة الإنكليزية.

إن دأود اختار منذ النصف الثاني من الستينات أن يتعد عن العمل السياسي ليتوفر عليها الشبان، وحط طريقه في عالم الأعمال والاقتصاد، وعندما خرج في وظيفة الحكومة فقيراً مكلولاً ذا عيلة، له ستة أطفال، فشق طريقه بجهد واجتهاد، ولكن دأود صاحب الرأي والحجة والفكر، له مكانه في تاريخ المجتمع السوداني، فتوجيهاته ونظراته وسخرياته ونقداته لها الرواة والحفاظ، فهذه الصورة القلمية هي مدخل وليست هي المرجع الوافي، فإنني أرسم خطوطاً ليكملها الباحثون ويجلوها العاكفون على كتابة التاريخ، فدأود واف كاف، فحزب الأمة قد عينه وزيراً عام ١٩٦٦، إلا

أنـه كـان وزيـراً لكـل السـودانيـين، فقـد كـان ملجـأ للضعفـاء والمستغيثـين ونصـير الصحفيـين وراعي الفنانين، فهو أول من قام بـرعايـة الشباب، فـالباحث في صحف تلك الفترة يرى تنفيذه السريع لكل الأمور من غير دعاية أو ضجة. . فالرجل صاحب القرار، كان دأود، لأن دأود صاحب الفكر والفكرة.

الشيخ زكي عبد السيد [١٨٩٨ - ١٩٣٤]

صمود مقاتل، وإيمان تحدى الدنيا وتجاوزها إلى دار القرار، ومنطق ينبع من الواقع ليزدهر في الفكر، وصفاء وقناعة وصبر وجهاد؛ ذلكم هو الشيخ زكي عبد السيد.

نشأ في بربر وتعلم في قسم القضاء الشرعي بكلية غردون، واشتهر بالحجة والخطابة والإلمام الدقيق بالأحداث السياسية ومتابعة الصحف ومناقشة ما يكتب فيها مع إلمام جيد باللغة العربية والإنكليزية وتعفف وتعالٍ على الحكم البريطاني، وقد وضع تحت المراقبة في المناطق القريبة من الخرطوم. وقد اشترك في اللواء الأبيض منذ قيامه واختار له الأعضاء خارج الخرطوم، وكانت له معرفة فاحصة نادرة بالرجال، لذلك كان أصدقاؤه يحبونه ويجلونه وقد توثقت علاقاته بعلي عبد اللطيف ومحمد سر الختم وتوفيق صالح جبريل وبشير جار النبي وحسين شريف وعبد الرؤوف الخانجي وعثمان بشير نصر ومدثر البوشي والتقوا جميعاً إخوة وأشقاء يلتقون مع عبيد حاج الأمين قبل ثورة عام ١٩٢٤ وعرفات محمد عبد الله كاتبها ومفكرها.

ولما هبت الثورة في الخرطوم كان الشيخ زكي عبد السيد قاضياً شرعياً في سنار، فترك سنار وذهب إلى واد مدني، وقاد المظاهرات في واد مدني، وألقي عليه القبض بعد نهاية المظاهرات التي بدأت بعد صلاة الجمعة وخطب في المصلين، فخرجوا من الجامع يهتفون بسقوط الاستعمار، وكان المأمور ضابطاً عسكرياً مصرياً فأرسل للشيخ زكي عبد السيد وقال له: يا شيخ زكي أنت رجل من رجال الشرع والدين والإسلام يدعو إلى طاعة الله والرسول وأولي الأمر فيجب عليك أن تطيع الحكومة. قال له

الشيخ زكي: أهكذا علمك الفقهاء الشكليون أن تأخذوا الحرف وتترك الجوهر، فالدين الإسلامي ما أفسد فهمه بين الناس إلا تفسير الحروف. اذهب وأخبر من علمك ذلك وقل له: قال الله في كتابه العزيز: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾. وقل له: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾.

وذهب المأمور وقد كتب هذه الآيات وترجمت لمدير المديرية، فألقي القبض عليه في التو والحين على الشيخ زكي عبد السيد وحوكم بالسجن ثم فصل من العمل. فهاجر إلى مصر ويبدأ يكتب في الصحف المصرية، يهاجم الاستعمار البريطاني، وقد رفضت صحف حزب الوفد المصري وصحف الأحرار الدستوريين أن تنشر مقالاته. والغريب العجيب كانت مقالاته تنشر في المقطم، وهي صحيفة وقفت مع دار المندوب السامي وفي الأهرام وهي صحيفة تمتعت بثقة كل حكومة تتولى السلطة في مصر، كشف عن مآسي الحكم البريطاني في الجنوب، وفي مقال نشر له في عام ١٩٢٩ بالأهرام أشار إلى أزمة التعليم في السودان وذكر أن كلية غردون تعترف باللغة العربية، إذ تجعلها اللغة الثانية بعد الإنكليزية.

التفت الحزب الوطني للشيخ زكي عبد السيد وأوصدت السراي الملكية أبوابها في وجه المجاهدين السودانيين فرحات وعرفات محمد عبد الله ومحمد سر الختم وزكي عبد السيد ولكنها أوعزت للأمير عمر طواشن أن يرعى الطلبة السودانيين بشير عبد الرحمن ويعقوب عثمان والدرديري أحمد إسماعيل وتوفيق أحمد البكري وبشير محمد خير. وفي تلك الفترة كان بعض الضباط السودانيين بدأوا يرحلون إلى مصر وقد رفضوا أداء القسم للحاكم العام، لأنهم أدوا القسم لملك مصر، وهم: محمد عبد الله النجومي وأحمد عقيل وسيد شحاتة وسيد فرح وعبد العزيز عبد الحي زين العابدين عبد التام، وجاء بعدهم ضباط سودانيون آخرون، فاضطرت الحكومة في مصر أن تستوعبهم في البوليس أو في خفر السواحل، ونتيجة لذلك عين الشيخ زكي عبد السيد قاضياً في بلدة عنيبة بالنوبة، كما عين المهندس محمد سر الختم وهو من أبناء دنقلا بمنطقة خزان أسوان.

لم يكتف زكي عبد السيد بالوظيفة، بل إنه شارك في الأحداث في مصر، وكان عضواً عاملاً في النادي العربي العقيلي بشارع عبد العزيز بالقاهرة، ووطد صلاته مع عبد الرحمن عزام والدكتور عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين وصالح حرب وطارق بك الافريقي وعزيز باشا المصري والأمير شكيب أرسلان والسيد علي الغاياتي ورفض أن يبايع أي حزب من أحزاب ذلك العهد في مصر فلما تولى محمد محمود باشا رئاسة الوزراء بدأ يهاجمه في صحف الحزب الوطني، ولما تبوأ إسماعيل صدقي باشا كرسي الوزارة كان من أشد المعارضين له.

أزعج وجوده في مصر الإنكليز وقدمت له وكالة حكومة السودان كل الإغراءات ليعود ويعوض عن سجنه وعن وظيفته التي فقدها بعد المحاكمة فرفضه، وما من سوداني كان يفد إلى القاهرة إلا وكان زكي عبد السيد يعرف مكانه ويلتقي به ويحدثه عن طغيان الاستعمار البريطاني في السودان. وفي عام ١٩٣٠ احتفل زكي عبد السيد بخليل فرح الذي وفد إلى القاهرة للعلاج وجمع كل أعضاء اللواء الأبيض، وغنى خليل قصائده الوطنية في تلك الحفلة. وفي نهاية الحفل كان الشيخ زكي عبد السيد يبكي ويقول لخليل فرح: حليلك يا خليل لا أنت بتحضر الاستقلال ولا أنا، تراك قربت من الموت، يمكن ما تفوت الشلال وتموت لكن إن نحنا متنا ترانا عملنا حاجة لأولادنا ما ينسونا وكل ليل ليهو آخر.

وغنى خليل فرح «ما هو عارف قدمو المفارق» كانوا كلهم يرددون: عاش سوداني الحبيب.

مات خليل ومات محمد سر الختم، وفي الأدب السوداني مرثيتان خالدتان لمحمد سر الختم، الأولى للشاعر توفيق صالح جبريل، والثانية للشاعر الأستاذ عبد القادر إبراهيم تلودي، أتمنى أن تنشر وتذاع مرثية الأستاذ تلودي.

الشيخ زكي عبد السيد يعد من الكتّاب السودانيين السياسيين الذين دافعوا عن قضيته وآمنوا بمبدأ وماتوا في سبيل هذا المبدأ. كان رحمه الله يتوضأ على شاطئ النيل ليصلي صلاة المغرب وفجأة دفعه إنسان داخل النهر فمات غرقاً في عشيته. رحم الله الشيخ زكي عبد السيد الكاتب السياسي، المجاهد الشهيد.

سليمان كشه [١٨٩٢ - ١٩٦٥]

التجارة ربطت السودان ببعضه. والتجار في السودان كانوا هم رسل الحضارة، وكانوا المبشرين بالوحدة الوطنية. وسواكن وبربر والمتمة، كانت هي مراكز الإشعاع منذ القرن السابع عشر، حتى إن الرحالة الأوروبيين عندما زاروا السودان عرفوا هذه المناطق، فبركهارد، وبروس، وسبيك كتبوا عن هذه المناطق في القرن التاسع عشر، التجارة كانت تتطلب الكتابة والقراءة، لذلك كانت طبقة التجار هي الطبقة المتنورة، وسليمان كشه نشأ في بيت تجار، وكان جده تاجراً ووالده كان تاجراً، وقد استقر والده فترة في بربر، وما زالت آثار منزله باقية وهو من الجامع والسوق في بربر، وقد اشتراه المرحوم محمد القباني، وتنقل سليمان كشه بين رفاعة وواد مدني والحصاحيصا وسواكن. وعمل مع المرحوم أبو فاطمة بكاش الذي تعلم التجارة على يديه كونتو ميخالوس في سواكن. وتعلم سليمان كشه في مدرسة واد مدني الوسطى، وعرف بسعة اطلاعه وظرفه وإلمامه بالحياة السياسية والاجتماعية في السودان وكانت له غدوات وروحات بين بور سودان وسواكن، واتصلت حياته مع المثقفين والمتعلمين من الموظفين. وامتدت هذه العلاقات بين كل كبار التجار في كوستي وتندلتي وسنار، وأم روابة والغبشة والقضارف، كما أن رأيه كان مسموعاً وساعد في حل كل المشكلات التي تمس الحياة في السودان بعد الحرب العالمية الأولى، وعرف بأناقته، فكان تارة يرتدي الثوب البجاوي، وتارة يرتدي البدلة الافرنجية، وتارة يرتدي القفطان والعباءة، كما اشتهر بكرمه وظرفه، فكان الناس يتوقون إلى أسماره وأحاديثه. ومنذ عام ١٩١٧ اتصل بالجمعيات السياسية السرية وقلم المخابرات يراقبه عن كثب، وهو تاجر ثري، وله مصالح متصلة بالسلطة وهو يكتب في الصحف الذائعة حينذاك التي

هي الرائد وحضارة السودان وقد انضم عضواً مؤسساً في نادي الخريجين بأم درمان. فمنذ قيام هذا النادي وما من حفل إلا كان خطيبه، وما من ندوة أدبية أو محاضرة إلا كان هو المتحدث فيها. . . وبعد ذلك انتقل إلى منطقة الجزيرة، وعمل في تجارة المحاصيل. ولما تأسست جماعة اللواء الأبيض كان من المؤسسين لهذه الجماعة، وقد اكتشفه البريطانيون وصارحوه أنه معلوم لديهم، فاختار أن يمد الجماعة بالتبرعات ويساعد أعضاءها، فخصص مبالغ للطلبة الذين كانوا يسعون للهرب إلى مصر، وهو صاحب الفضل في سفر بشير عبد الرحمن، وهو من أبناء كسلا إلى القاهرة، وكذلك توفيق أحمد بكري، وكانت له مجالس مع خليل فرح وتوفيق صالح جبريل، ومكاوي يعقوب، وإبراهيم المقبول، ومحمد أحمد البربر وعبد الرحمن جميل، ونشبت ثورة عام ١٩٢٤ وهو في رفاعة، فاسمه ورد مع المشاركين في إمداد صندوق اللواء الأبيض بالمال، ولكن لم تثبت الشبهة، واستمر مع المرحوم مجذوب بركة والحاج عبد اللطيف في مساعدة الأسر التي حوكم أولياؤها، وكان يتنقل بين أم درمان وواد مدني وبورتسودان وفي عام ١٩٢٧ انتقل إلى سنجة وتفرغ للمحصولات، وازدهرت تجارته ولم ينس أن يزور بورتسودان وأم درمان، ويلتقي بإخوان الصفا، وقد لاحقته عيون المخابرات ومدت له في حبل الصبر، وحتى إذا ما طغت الأزمة العالمية وبدأت تجارته تتهاوى في الخسارة، وهو صابر على هذه النكبات، فذهب فترة إلى القضارف، وركز على منطقة القضارف والسوكي، ولكن المحاصيل هوت أسواقها، ولم يعد هنالك نفع في مسايرة السوق العالمي، فرجع إلى العاصمة وتفرغ للعمل في سوق الوساطة التجارية، ولكن الحال لم يكن أحسن مما كان في الأقاليم فرأى أن يصدر في عام ١٩٣٢ مجلة «مرآة السودان»، ووهب حياته للصحافة، وأتاح الفرص للأدباء والشعراء أن يظهروا مواهبهم، ونظراً لما كانت له من علاقات احتفل الموظفون بهذه المجلة وساعدوه في جمع الاشتراكات، ولكنه كان يناقش مشكلات حيوية في الاقتصاد والتجارة، وينتقد الاحتكارات والامتيازات التي أسبغها الاستعمار على التجار ورجال الأعمال الأجانب، وخطة الحكومة الاستعمارية في السودان، طبقاً لما خططه السير جون مافي، تركزت على الاستغناء عن الموظفين، وتخفيض الصادرات وغمر الأسواق بالبضائع الإنكليزية، ومحاربة البضائع اليابانية وإتاحة الفرص للشركات الأجنبية، كجلاتي هانكي، وكونتو ميخالوس وكوتس ودارس وتركو، ومركنتايل، وجيمس لينج وكبار التجار الأجانب، أن يعملوا في الصادر والوارد، وفي تلك الفترة كادت تمس

السودان مجاعة فاستورد الذرة من الهند، ففضح أساليب الإنكليز وأوضح لهم أن السودان قادر على إمداد أهله بالذرة والقمح، وأن الأراضي لو استصلحت لدرت الخير على السودان، وأن الزراعة المطرية لو خططت ووزعت الأراضي لما كان السودان في حاجة لاستيراد الطعام، وتربص الإنكليز به ودبروا له مكيدة، وحاكموه وأرادوا أن يذلوه، وخرج من سجنه وهو في أشد حالات الانهيار، وقد انفض الصحب من حوله، وعانى حياة قاسية منذ عام ١٩٣٥ حتى استقل السودان، فأخرج مرآة السودان واستعاد عافيته، ولم تستمر المرآة في الصدور، لأن أحواله المالية لم تمكنه من ذلك، ولما حدث انقلاب ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨ وأصدرت جريدة الثورة أتيح له أن يكتب فصولاً ممتعة تحت عنوان «سوق الذكريات» نشرها فيما بعد في كتاب، كما كتب عن الخرطوم وتاريخها ونشر ذلك في كتاب، وكان بين الفينة والفينة يمارس التجارة، ويعاود اتصالاته برفاعة والقضارف، واستقر نفسياً ووضحت مكانته في الحياة الثقافية، ولكن الأجل فاجأه على أثر علة لم تمهله غير أيام.

إن سليمان كشه كان طرازاً من الموهوبين الذين قدموا للسودان خدمات جليلة في شتى المجالات، فهو كاتب جيد العبارة، يرتفع بها في بعض الأحيان إلى درجة البلاغة، فمحفوظه في التراث الأدبي كان ثراً واطلاعه الواسع على أمهات الكتب وافتتانه بالأسمار والأحاديث أتاح له أن يتعرف على الكلمة المناسبة. فقد حكي عنه أنه كان يقتني مكتبة عامرة ضمت كل الكتب التي انتشرت في العالم العربي منذ مطلع القرن بجانب دواوين الشعراء العرب، كما أنه قرأ بعض الكتب الإنكليزية، ولكنه أهمل اللغة الإنكليزية منذ العشرينات إذ إنه يعتز باللغة العربية ويرى أن تجويد اللغة العربية أولى من الاهتمام باللغة الإنكليزية، وقيل إنه ما من مجلة عربية أو صحيفة إلا كان يقتنيها، ويقرأها، فأصدقاؤه كانوا أدباء متمكنين، كأحمد محمد صالح وتوفيق صالح جبريل ومكاوي يعقوب وعبد الرحمن شوقي وحسين شريف. إن دعوته للقومية السودانية لم تكن وليدة الصدف، بل إنه كان يدافع عن كل ما هو سوداني ويتمنى الخير للسودانيين، لذلك كان أبداً يتوق لصحافة سودانية، امتيازاً ومالاً وروحاً ومبدأً وأفكاراً، ويعلم أن الجمهور يقوّم الصحافة لخدمته ويساندها بالأفكار والمال.

جاء سليمان كشه غريباً مميزاً ومات في صمت بلا ضجة، إنه من أبناء الحركة الثقافية في السودان الذين تدين لهم الأجيال بالفضل والعرفان.

شفيق مينا (زهير) [١٩٠٧ ـ ١٩٧٠]

الموجة الأدبية كانت مدار حياة المتعلمين السودانيين، فالقراءة والشعر كانا المقومين للروح والتعبير، وشفيق مينا أحد شباب تلك الفترة الذين تعلقوا بالشعر والأدب، نشأ في عائلة سودانية في دنقلا، وتلقى تعليمه في كلية غردون، ولم يكن للمتعلمين حينذاك إلا أن يتصلوا ببعضهم، ويتبادلوا وجهات النظر فيما يقرأون ويكتبون، ونادي الخريجين بأم درمان كان المعقل والكعبة، والسلطة الاستعمارية أرادت للخريجين أن يجتمعوا في مكان واحد، لأن المراقبة كانت سهلة، والذي يتتبع التقارير السياسية يجد أن قلم المخابرات اعتاد أن يرصد النشاط اليومي للخريجين، حتى إن القصائد كانت تترجم إلى اللغة الإنكليزية، والأغاني كانت تتابع وتحلل. ففي تلك الفترة بدأ شفيق مينا ينشر شعره تحت توقيع زهير، لأنه كان معجباً بشعر البهاء زهير الشاعر المصري الرقيق، وليس زهير بن أبي سلمى.

كان هناك شعراء من الأقباط السودانيين وأشهرهم صالح بطرس وقد عالج شعرهم الأحداث. فشعره يختلف عن شعراء تلك الفترة لأنه شاعر مصور رقيق الحاشية صريح العاطفة لدرجة لم يعتاد عليها ناظمو الشعر ومقارنوه في تلك الفترة. والدارس لشعره يدرك أنه قرأ الشعر العربي ويلمح أثر اللورد بيرون وكيتس بين أبياته، كما أنه تأثر ببعض قصائد فيكتور هيجو.

اللغة التي صاغت قصائده جديدة في الشعر السوداني، الكلمة مختارة مموسقة، الصورة حسية، العاطفة ملتهبة صريحة، الأثر المسيحي واضح، والبحر قصير فيه التفعيلات بارزة، والبساطة تطغى لدرجة البراءة.

لا شك أنه اطلع وقرأ شعراء المهجر، ونظر كثيراً في شعر مطران ولكنه اتفق مع مطران في ذرة تحسس الجرس والابتعاد عن التغلف وطي الخطرة واللفتة، هذه السمات كانت ظاهرة في الشعر السوداني الحديث، فشفيق مينا كتب شعره وكأنه يكتب رسائل غرام، أفتن القراء بما يكتبه زهير، وحفظوا عنه الكثير. ولم ينس شفيق الأحداث الوطنية فشارك فيها في كل المناسبات ووصف الطبيعة وكأنه ابن خفاجة، لقد التفت للشعر الأندلسي، بل إن الشعر الأندلسي كان هو ملهمه، ففي تلك الفترة ظهرت دراسات في الشعر الأندلسي وعناية به. فالدكتور أحمد ضيف، كتب الكتاب الرائد عن الأدب الأندلسي. وكامل كيلاني نشر محاضراته عن الأدب الأندلسي، فالتواشيح لم تعرف في الشعر السوداني إلا في المدائح، ولكن شفيق مينا هو الذي اتخذها أساساً لشعره.

لا تنفك تعجب كيف استطاع شفيق مينا أن يشق طريقه كشاعر مجدد يعلو صوته في تلك الفترة، بينما كان هناك شعراء قد أرسوا قواعدهم كأساس للشعر السوداني، إن هذا يرجع إلى حركة الهدم والتجديد التي حمل لواءها اثنان هما: الأمين علي مدني وحمزة الملك طمبل، فشفيق مينا قد سبق ميهان وخلف الله بابكر وبالأخص قصيدته الأخيرة التي عنوانها ابنة الخباز.

لقد كشف شفيق مينا عواطفه وأباح بها في وقت كان التزمت فيه شائعاً، حتى أننا لو نظرنا لقصائد مكاوي يعقوب، وأحمد محمد صالح نجد أنهما شاعران عاطفيان لكنهما أخفيا الأثر الذاتي للعاطفة، وجعلا التعميم دون التخصيص هو مدار أشعارهم، أما شفيق مينا فقد خصص وفصل وأوضح وأبان، ويسأل الناس كيف ولماذا انتهج شفيق مينا ذاك الطريق؟ كان شفيق مينا شاباً يحب الحياة وتحبه الحياة، احتضنه الحب قبل أن يحتضن الحب، فنشأ في صراحة وحرية يقول ما يريد، ويحب الناس ما يقول. هذه الثقة بين الحبيب والمحبين هي التي أطلقت عرائس الشعر لشفيق مينا فعندما ندرسه نرى أننا نستمع لإنسان يخاطب إنساناً، لذلك ننعطف نحوه لندرك ما يقول الاثنان.. شعر النفس كان مطلوباً عند النقاد وكان محرماً عند الشعراء فاستباحه شفيق مينا.

لم يطبع ديوانه، ولكن الأستاذ حسن نجيله قد أشار إلى بعض قصائده في ملامح من المجتمع السوداني وما زال ديوانه مطوياً عند ابنه إميل في الخرطوم.

إن هؤلاء الشعراء الذين نشأوا في أسر مسيحية سودانية اندمجوا بلا تفرقة في الحياة السودانية، ولم يكونوا أقلية مبتعدة، لأن ذلك العصر ربط بين الجميع. فالسلام الاجتماعي والتقاليد السودانية الأصيلة كانت هي السائدة، وكان الناس يتمتعون في حياتهم مع الجماعة، لذلك كان الشعر مشتركاً، فبرز منهم صالح بطرس وجوزيف لطيف صباغ وعزيز اندراوس، والذي يقرأ الحضارة والرائد يجد الأسماء الكثيرة، إن الشعور المشترك كان هو القاسم المشترك.

فشفيق مينا هو رأس مدرسة العاطفة الرومانسية في الأدب السوداني وليس غريباً أن يكون الرائد الأول في هذا المضمار.

عمل شفيق مينا في أنحاء كثيرة في السودان ووصل إلى أعلى درجات المحاسبين، وتقاعد في الستينات، وقد أصبح رب عائلة يسعى لإسعادها، وهجر الشعر ومات في اليوم التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٠، وكم حاولنا أن نحصل على مخطوط ديوانه، ولكنه أصر أن يكون ديوانه هو السر لا يذيعه، أعدكم أن أقدم لكم بعض قصائده الوجدانية الساحرة.

صالح بطرس [١٨٩٢ ـ ١٩٣٤]

التفت السودانيون في مطلع القرن العشرين حول مجتمعهم الجديد بلا فروق بينهم. وكان المتعلمون هم أكثر الناس ألفة ومودة وعلاقة واتصالاً مع بعضهم، لا فرق ولا تمييز في الدين وفي الأصل. بل إن السودانيين كانوا جميعاً يحيون في وحدة نفسية وتماسك اجتماعي، فأعياد المسلمين هي أعياد المسيحيين، ومناسبات ومحافل المسيحيين هي كذلك مناسبات ومحافل المسلمين. وكان كثير من الأقباط السودانيين قد درسوا الخلوة وحفظوا القرآن، كما أننا نعرف خلوة بولس في أم درمان، كما كان المسيحيون السودانيون يقرأون القرآن ويحفظونه ويمتحنون في مادة الدين في المدرسة الأولية والمدرسة الابتدائية حتى عام ١٩٢٤ عندما اختط الاستعمار طريقاً جديداً يفرق بين المسلمين السودانيين والمسيحيين السودانيين ويعمل جاداً على هذه الفرقة. فكثيراً من العائلات المسيحية في دنقلا سنجة والأبيض وعطبرة وبربر وأم درمان كانت متوشجة الصلات مع غيرها من السودانيين، ولكن في ثورة عام ١٩٢٤ كان للأقباط دوراً عظيماً ومساهمة ملحوظة. فقد اشتركوا اشتراكاً بارزاً. فشاعرنا هذا الذي نتحدث عنه هو صالح بطرس من أهل المسالمة بأم درمان نشأ في بيئة سودانية خالصة، فتعلم في مدرسة أم درمان الوسطى وقرأ القرآن ودرس الأدب الغربي وعمل في مصلحة البريد والبرق، يطالعنا من شعره قصيدته في المولد النبوي الشريف وقصائده في الهجرة النبوية فشأنه في ذلك شأن شعراء المهجر، أغلبهم مسيحيون ولكنك تعجب لقصائدهم في المدائح النبوية وفي الأعياد والمناسبات الإسلامية.

فصالح بطرس شاعر قد أخفى اسمه، ولم يذكره غير سعد ميخائيل في كتابه «شعراء السودان» وحسن نجيله في كتابه «ملامح من المجتمع السوداني».

لا شك أنه كان في تلك الفترة عدد من الشعراء المسيحيين السودانيين، وكان شفيق مينا وكان حبيب سلامة وسعد ميخائيل وغيرهم. ولكن صالح بطرس وشفيق مينا كانا الشاعرين المتميزين في تلك الفترة. فدراسته للغة العربية ومعرفته لدقائقها جعلته شاعراً مطبوعاً في سبك عبارته. وبالطبع كان الشعر حينذاك هو الغناء والأفراح والعزاء في الأحزان. ولم يكن الشاعر السوداني إلا متصلاً بمجتمعه، كما أن الشعر كان ترجمة لما يدور في المجتمع. من ثمة، من الخطأ أن نلوم شعراء تلك الفترة ونقول إنهم شعراء مناسبات.

فالشعر العربي كله منذ النهضة العربية الحديثة حتى الثلاثينات كان شعراً جماعياً، ما عدا بعض القصائد التي انتشرت في شعر شوقي وحافظ وولي الدين يكن ومكاوي يعقوب وحمزة الملك طمبل. وقد لخص هذه الظاهرة الشاعر أحمد شوقي في حفل مبايعته أميراً للشعراء وعما قاله:

كان شعر الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقي على أشجانه

فصالح بطرس شاعر سوداني تأثر بالأحداث التي كان لها أثر في مجتمعه، وانفعل بها، فله قصائد وطنية ووقفات في كل مناسبة من المناسبات يذكر فيها مجد العرب والإسلام والحضارة العربية.

الدارس لشعر صالح بطرس يجد أنه قرأ الشعر العربي وتأثر بالبحتري إلى حد، وبالمتنبي إلى حد كبير، وإن كنت ترى أنه لم يؤسره الشعر العربي في عصور مختلفة، ولكن تأثره بهذين الشاعرين واضح وبيِّن. فهو من التابعين لحركة النهضة التي قادها محمود سامي البارودي. والشعراء الذين كان لهم الصوت المدوي في جيل صالح بطرس هم: شوقي وحافظ ونسيم والكاشف. فخليل مطران كان نسيج وحده لأنه أخذ من أساليب الشعر الفرنسي. لذلك فالدارس للشعر السوداني لا يجد أثراً لخليل مطران في الشعر السوداني.

الدراسة التي أقمناها على شعر صالح بطرس ليست بالسعة التي تجعلنا نضع هذا الشاعر في مكانه المناسب لأننا حصلنا فقط على خمس عشرة قصيدة، وكلها قصائد مناسبات ومواسم. بهذا القدر المحدود نجد أن صالح بطرس أكثر الشعراء

السودانيين في تلك الفترة تمسكاً بصحة اللغة والعناية بالوزن والوضوح في الصورة والعمل على الإثارة العاطفية والحماس. فقصائده ليست بكافية ولكنها منبهة وموقظة.

جانب التعبير الشعري في إبراز الصورة فيه انتقاء وجهد ملحوظ كما أن الانطلاق قائم على تحديد هادف للغرض الذي كتب القصيدة من أجلها. فالحشو غير مطروق، مع أن صالح بطرس قد أطال في كثير من قصائده. والإطالة في بعض الأحيان تزلف الشاعر إلى مهاوي الحشو، وتجد في شعر صالح بطرس مسحة من الوقار والصرامة، كما تحس بالحزن والرنين. والأبحر التي نظم فيها صالح بطرس هي أبحر متعددة، ألا وهي الطويل والكامل والبسيط والخفيف والوافر. وليس هذا حكماً نهائياً لأن عدد القصائد التي بين يدينا لا يجعلنا الآن نذكر ذلك. قوة السبك في متن القصيدة التي يطلعها صالح بطرس ترجع إلى دراسة ونظر وتبصر في الشعر العربي. فهو يتحاشى الغريب والحواشي من اللفظ، ولكنه يتعلق بالكلمة الموسيقية الهادرة..

الفترة التي أقام فيها الشاعر صالح بطرس برز منها البنا وعبد الرحمن شوقي والكردي وأحمد محمد صالح والبوشي وحسيب علي حسيب، إلا أن قصائد صالح بطرس كانت تحفظ، إلا أن سليمان كشه في الكتاب الذي جمعه بعنوان «زهر الربيع» اهتم بشعر صالح بطرس.

انقطع صالح بطرس بعد العشرينات ومع مطلع الثلاثينات عن النشر. ولكن الذين يهتمون بدراسة الشعر السوداني سيجدون أنه قد ترك مجموعة من الشعر لم تنشر وهي بخط يده، كما أن الصحف السودانية السيارة، كالحضارة، وملتقى النيلين، والرائد، وفي كتاب آخر عبارة عن مختارات من الشعر العربي وألفه سعد ميخائيل تجد قصائد ومقطوعات لصالح بطرس.

كان صالح بطرس رجلاً شجاعاً ووطنياً اشترك في ثورة عام ١٩٢٤ وكتب قصيدتين يحث السودانيين على اليقظة ويبارك ثورة الأحرار.

إننا مع هذا الجهد المتواضع في تقصيّ أخباره وشعره ننبه الدارسين للاهتمام، فهو واحد من رواد نهضتنا ومن أبناء هذا الوطن الأبرار.

صالح عبد القادر [١٨٩٥ - ١٩٦٨]

عندما يذكر صالح عبد القادر المبارك، يذكر الناس ثورة عام ١٩٢٤، فهو أحد أبطالها ومجاهديها.. درس صالح عبد القادر ليكون مدرساً للغة العربية في كلية غردون ولكنه تمرد على الجبة والعمامة والقفطان، وخرج قبل أن يكمل دراسته ليعمل كاتباً في مصلحة البرق والبريد. ومصلحة البريد والبرق، كانت ذاخرة بالأدباء والشعراء والمتمردين والثائرين، وصالح عبد القادر كان شاباً متمرداً تواقاً للحرية والتجديد في الحياة، ونقل إلى بورتسودان حيث اتصل بكل المثقفين والمهتمين بالتغيير في الحياة من سودانيين ويونانيين وأرمن، وكان شاباً وسيماً يحب الحياة والأحياء، ويتشوق للمعرفة ويهيم بالجمال، فكان ريحانة المجالس وفارسها.. فتعرف على المذاهب السياسية الجديدة وقرأ في الاشتراكية قبل أن يلتفت لها المثقفون في السودان، وكان له صديق يوناني أتاح له أن يقرأ كتاب رأس المال والبيان الاشتراكي. وأثناء إقامة صالح عبد القادر في بورتسودان تعرف بالملحق التجاري الروسي الذي كان يعمل في جدة.. وينشد خمريات أبي نواس.. وشعره في تلك الفترة كان خواطرياً وإن كان لا يخلو من نقد وهجاء للاستعمار.. وتكوّن اللواء الأبيض وانتظم صالح عبد القادر في اللواء الأبيض، وجند له الأنصار وعقد الاجتماعات وراسل الحادبين على الوطن، ورسم المواقع، وكان معه عبيد حاج الأمين، ومحجوب عثمان وعرفات محمد عبد الله. وصالح هو الذي كان يترجم البيانات والمنشورات ويصيغ النداءات، واتصل بعلي ملاسي الذي كان يعمل في البرق والبريد. وتكونت أقوى شعبية للواء الأبيض في بورتسودان، وهي التي تولى قيادتها علي ملاسي، وحرك فيالقها في المظاهرات التي فاجأت الاستعمار في بورتسودان.

كشف أمر اللواء الأبيض، وقامت ثورة عام ١٩٢٤ وأصيب أبطالها وأعدم بعضهم، وسجن بعضهم، وكان نصيب صالح عبد القادر السجن. وفي السجن لم ينكفئ علي صالح للأحزان، فنظم القصائد الوطنية الحارة الملتهبة، وانكب على الدرس يقرأ ويتعلم، فأضاف إلى اللغة العربية والإنكليزية اللغة الإيطالية إلى معرفته، وترجم منها الشعر والقصص، وخرج صالح من السجن، عاطلاً مطارداً، تنكر له الجميع ولم يجد إلا أن يعمل كاتباً في مجمع تجاري. لم ييأس صالح، ولم يسكت، فبدأ يهدر وينشر قصائده الوطنية، ويكتب رباعياته، فأبو العلاء المعري قد وجد نفسه في صالح عبد القادر، وصالح عبد القادر اكتشف نفسه في اللزوميات.. وفي عام ١٩٣٦ أثار المجتمع السوداني صالح عبد القادر بقصيدته التي نشرها بمناسبة الذكرى الألفية لأبي الطيب المتنبي، وأصابت هذه القصيدة الكثيرين في مكامن الداء.. وكادت أن تقدمه مرة أخرى للسجن، لا سيما وقد كان تحت رقابة مشددة.

مرت السنون وصالح المجاهد يصارع الحياة، وحوله صبية وصبيات، حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية، وصالح كان من أوائل الذين وقفوا ضد الفاشية والنازية، وكره أن تسود، فاستعين به في الإذاعة، معه عبيد عبد النور وصديق فريد.

انتهت الحرب، وتحددت المواقع السياسية فانضم صالح عبد القادر للحركة الاستقلالية، ولم يجد طريقاً يسلكه غير ذلك.. إن هذا الأمر يترك لمؤرخي السياسة السودانية.

ولكن، ونحن نعالج حياة صالح عبد القادر، يعنينا منه الأديب الشاعر دون أي قسمة أخرى من قسمات حياة صالح عبد القادر. عايش صالح عبد القادر جيل البنا وعبد الله عبد الرحمن والكردي والقرشي والبوشي، وسبق أحمد محمد صالح ومكاوي يعقوب وعبد الرحمن شوقي في الذيوع، لأنه عالج موضوعات السياسة والوطنية وكرس حياته لذلك.

إن شعره قد يلتقي في شعر الوطنية مع مدثر البوشي، وحسيب علي حسيب، لكنه يختلف معهما في الأداء وفي التعبير. فصالح اتخذ من القضية الوطنية قضية نفس وقضية روح، لم ير في الحياة شيئاً غير الوطن. لذلك هو العاشق للسودان، وعشقه قد نصيب غيره بالبغض والنفور منه، لأنه يرى السودان هو الحب الأول، وأي مشاركة

في السودان هي شرك وكفر.. لم يكن عنصرياً ولم يكن قبلياً، لكنه كان سودانياً مخلصاً لا يقبل الحل الأوسط في ذلك، فهو إن هجا تذكر من يهجوه وذكره أنه غير سوداني.. ويرجع ذلك لخيبة أمل في ثورة عام ١٩٢٤.

الحياة القاسية التي عاشها صالح لم توقفه عن التجديد في الشعر وإن أوقفته عن التمعن والتأمل في قاموسه اللغوي، فهو قد قرأ المتنبي وأبا العلاء المعري والبحتري وأبا تمام، واكتفى بكتب التراث، لكنه لم يساير التطور الذي طرأ على الشعر العربي، فهو عندما يضيف في مدرسة جاءت بعد حافظ إبراهيم والكاظمي والزهاوي، وقد أعجب بالزهاوي، والزهاوي مهلهل النسج اللغوي، يهتم بالفكرة واللمحة ولا يهتم بجمال الأسلوب واللغة. وصالح قد ارتفع عن هذه الدرجة، فتماسكت لغته وتجمعت أفكاره لكنه أهمل الظلال والهمس في القصيدة ما عدا الرباعيات التي هي روائع شعره، والتي تؤهله إلى أن نصنّفه من الرواد.

كما قلنا إن أغلب الشعراء السودانيين طرقوا الشعر السياسي، إلا أن صالح عبد القادر هو الشاعر السوداني الوحيد الذي توفر على الشعر الوطني ووهب نفسه له، وهذا جانب جدير بالدراسة الجادة، وتفرع من هذا الاهتمام فن آخر جديد عند صالح عبد القادر. فصالح بعنفوان عواطفه وحرارة أحاسيسه كان من أميز شعراء الهجاء في الأدب السوداني، وهنالك مدارس للهجاء؛ منها مدرسة الهجاء الفكاهي التي تزعمها حسن عثمان بدري والنور إبراهيم وإمام دوليب، وهناك المدرسة السياسية للهجاء التي انفرد بها صالح عبد القادر، وكما يبث الشاعر كوامن عواطفه وحبه وأشجانه، فصالح عبد القادر يبث أحزانه وشجنه، وقد استعان بذلك في شعره السياسي. فإذا قارنا بين مدرسة حسين منصور في الهجاء ومدرسة صالح عبد القادر، نجد أن العاطفة والتأثر هما قوام الفن عند صالح عبد القادر، والمقارنة والتباين هي قوام مدرسة حسين منصور.

عمل صالح عبد القادر بالترجمة في وكالة رويتر، ثم انصرف قبل مماته لإدارة أجزخانة العاصمة التي هي جزء من أملاك الأسرة وهاجمه الروماتيزم في سنيه الأخيرة وهو لم ينفك ينشد الشعر وينظمه، وقد انتهى بموته موت أعظم شاعر للثورة الوطنية.

صالح محمود إسماعيل [١٩١٣ ـ ١٩٧٠]

حياة صالح محمود إسماعيل ملحمة زاهية بالكفاح منذ فجر صباه، وتمرده وثورته أصيلة وليدة فكره وجهاده، تعلم في كلية غردون وتخرج ليعمل في حسابات سكة الحديد في عام ١٩٣٦، ونقل إلى بورتسودان، وهنالك التقى مع زملائه المتطلعين نحو حياة جديدة، يبشرون بالحرية ويعملون من أجل الاستقلال، ففي تلك الآونة، كان في بورتسودان أمين التوم، ومبارك زروق وهاشم الليثي، ومحمد حسن عبد المجيد، وحامد حمداي، وهاشم الكمالي، وعثمان المغربي، فحولوا اسم نادي مستخدمي حكومة السودان إلى نادي خريجي مدارس السودان، واقتحموا مقاعد لجنة النادي، وأزاحوا السور الفاصل بين نادي الخريجين ونادي السواكنيين، وبدأ صالح يحث الشبان على المطالعة، وقد اكتشف مكتبة في مصر تبيع الكتب المستعملة بأثمان رخيصة فاتصل بها، وكان يطلب الكتب لمن يريدها لأنه كان ذا خبرة في ذلك، إذ افتتح مكتبة في حلفا قبل أن يرضى العمل في وظيفة الحكومة، كما أنه تمكن من الاتصال ببعض دور الكتب البريطانية وشرع يطلب الكتب منها، وبالأخص دار كتاب اليسار. ضاق به المستعمرون فنقل إلى مدينة عطبرة ليعمل في حسابات سكة الحديد، وقد اعتاد أن يحمل كتبه وصحفه معه إلى المكتب، فنبهه رؤساؤه أن يراعي لوائح العمل، وعقد له مجلس تأديب، قضى بفصله من الخدمة في عام ١٩٣٧، فاتخذ قراراً بينه وبين نفسه ألا يعمل في وظيفة حكومية، ولا يتعاون مع شركة أجنبية، فالتحق بشركة أبو العلا مرة، وتنقل في المشاريع الزراعية في منطقة سنار، وقبيل الاستقلال استقر به الحال في الخرطوم فأنشأ مكتباً للمراجعة، ولم ينفك يكتب في الصحف ويوجه الجمهور ويوضح المشكلات، ولما ظهرت جريدة الأخبار

كان له باب أسبوعي تحت عنوان «أصداء» يعلق فيه على الأحداث وينقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية. ولما سقط النظام النيابي واستولت حركة ١٧ نوفمبر على الحكم كان أول ما قام به إيضاح الفساد السياسي والاجتماعي الذي دعا للحكم العسكري، ونبه الحكم العسكري إلى الأخطاء التي يجب أن يتجنبوها، ودعاهم لإلغاء الألقاب التركية كرتبة باشا وبك، فاستجابوا له، وظل يواصل عمله في الأوساط الاقتصادية، وينظر في منهج الحكم. وفي تلك الأثناء لم يتصل بأي حزب وإن وقف بجانب المعارضة واعتقل كثير من رجال المعارضة، ولكن آراء صالح لاقت الإقبال والترحيب، ولما هبت ثورة أكتوبر برز كأحد أركانها المؤسسين فاختير وزيراً للاستعلامات والعمل، وقد أصبحت وزارة للإعلام، فكان أول عمل قام به إنشاء مجلس الآداب والعلوم والفنون، ولكن هذا المجلس لم يتبوأ مكانه. وفي تلك الأثناء خرج وأصدر جريدة أكتوبر واشترك معه محمد توفيق كبارة، وعبد الوهاب موسى وأحمد الطيب بابكر، وقد انضموا جميعاً للحزب الوطني الاتحادي، ووقفوا إلى جانب اليسار، فأبعدوا بعد حين، فكوّن جماعة ثقافية تعاونت مع اليساريين غير الماركسيين، ودافعت هذه الجماعة عن كل الحركات التحريرية وساندتها. ولم تستطع جريدة أكتوبر أن تواصل سيرها لأن الأعباء المالية والمصروفات أنهكتها، كما أن مكتب المراجعة الذي أداره صالح تدهور لانصرافه للعمل السياسي والاجتماعي. وإلى جانب ذلك اهتم صالح بالدراسات بالمراسلة، إذ أصبح وكيلاً لمعاهد الدراسات بالمراسلة وأصبح وكيلاً لمعاهد الدراسة البريطانية.

تبدلت الأحوال منذ عام ١٩٦٦، فاليساريون الماركسيون اجتمعوا في صعيد واحد، والاشتراكيون رسموا طريقهم المغاير للماركسيين، واليساريون الذين لم يلتزموا بحزب أو جبهة وقفوا مبعثرين، لذلك لم يجد صالح قاعدة تسنده، فالأحزاب السياسية خططت مراميها في صراعها مع بعضها للاستيلاء على السلطة ولم تأبه بأية إيديولوجية أو ميثاق، فوجد صالح نفسه معارضاً لكل هذه الاتجاهات لأن هدفه الذي توفر عليه هو الحرية والتنمية والإنتاج، وكل هذه الأحزاب لم يكن همها إلا الحكم. وضاقت الدائرة بصالح، لكنه لم يتقهقر وما استكان، فحلقته في دار الثقافة عامرة، وبين الفينة والفينة يصدر له مقال في الصحف المحايدة.

وفي عام ١٩٦٨ هاجمته المتاعب وطغى عليه مرض القلب، لكنه بالرغم من ذلك لم يحتجب من الكفاح مرة منفرداً، وتارة مع زملائه، وحاولت بعض الأحزاب أن تضمه إليها كمشير للفكر الجديد لأن شعاراتها التقت مع أفكاره لكنه رفض ذلك.

ولما قامت ثورة ٢٥ مايو عام ١٩٦٩ رحب بها لأنه طبقاً لأفكاره السياسية، فوقف ضد الطائفية والقبلية والحزبية.

آمن صالح بحقوق الإنسان في النقد وفي التعبير وحارب الفساد والتسيب واستغلال النفوذ والسيطرة والرشوة والاستغلاء وإيجاد الطبقات المميزة التي تستفيد من أوضاعها، عاش صالح على الكفاف، فرأسماله الجهاد والصبر فلم يقبل في يوم من الأيام إعانة أو مساعدة من أية جهة، ولم يعتنق ولم يدافع عن رأي لا يؤمن به، ولم يكن يستجدي الجماهير، أو ينشد التأييد منها لأنه كان معلماً، واعجب صالح في بادىء الأمر (بنكروما) ولكنه لما رآه حاد عن طريقه هاجم ذاك الانحراف، وزار تنزانيا وشدته أفكارها: الجماعة والاشتراكية التعاونية ومحاربة الفساد وتوفير الخبز والشعير: ولم يتخاذل صالح في يوم من الأيام في أن يراجع آراءه وينقد نفسه ويوضح الحواجز التي جعلته يظن غير ما هو حقيقي.

تمتع صالح بمحبة الجميع واحترام الجميع، لأنه كان صادقاً ومخلصاً، لم يجر وراء الحكم والجاه وظل متمسكاً بأفكاره لا يحيد عنها حتى توفي.

عابدين الخانجي [١٩٠٣ _ ١٩٥٦]

ومن ذلك الأستاذ الذي روى عنه الأستاذ حسن نجيله كما روى النعمان عن أنس أنه عابدين الخانجي الذي عاصر الحركة الأدبية منذ مطلعها في السودان وساهم وأبلى بلاءً حسناً في حركة التحرير الوطني. ولد عابدين الخانجي ببربر في عام ١٩٠٣. وعائلة الخانجي ذات أصول وفروع عربية، فهناك الخانجية في مصر والخانجية في سوريا ولبنان والخانجية في المغرب. ولفظ الخانجي مشتق من التركية ومعناه صاحب الخان. والخان هو النزل، وفي لغة هذا الزمان هو الفندق. وفي رواية أخرى ترجع كلمة الخانجي في الفارسية للتاجر صاحب الدكان.

فقد وفد الخانجية إلى السودان تجار حرير وقماش وكانوا من الأثرياء، وتصاهروا مع أسرة خفاجة، وقد كانت من أغنى الأسر في الخرطوم وأم درمان، وتوزعوا في أنحاء السودان فبعضهم أقام بالقضارف وبعضهم استقر ردحاً من الزمن ببربر وبعضهم اختار واد مدني موطناً، ولكن أغلبهم استقر بأم درمان. وواصل عابدين تعليمه بمدرسة أم درمان الوسطى وقضى عامين بكلية غردون وبعد ذلك سلك طريقه في الوظيفة، وتعرف في تلك الفترة بأحمد محمد صالح وتوفيق صالح جبريل وعبد الرحمن شوقي، وامتدت دائرة أصدقائه وكانوا كلهم يعنون بالأدب والمطالعة والثقافة واتفقوا جميعاً في كراهيتهم للاستعمار، وكانوا يجتمعون سوياً يسمعون للخليل. فخليل فرح كان شاعراً وأديباً. توفرت لعابدين الخانجي مشاركات وذكريات كانت زاده في الحياة والفكر. فقد عرف وحقق كل قصيدة غنائية وأدرك مناسباتها وحضر حفلها، كما صاحب الشعراء والأدباء واستبطن طرائقهم في الكتابة

والنظم وسبر أغـوارهـم. فذاكـرته الحيـة المصورة هي التي أمـدت شيخنا نجيله بـالمادة الأولى من كتاب ملامح من المجتمع السوداني.

اشتهر عابدين الخانجي بأنه قارئ ممتاز ألم بالأحداث الفكرية والسيـاسة، كـما أنه كان عاشقاً للشعر والغناء. فكـان الشعراء الفنـانون يـرجعون إليـه. وتقول بعض الروايات إنه ألف كثيراً من الشعر الغنائي الذي نحله الآخرين. ولكن المشهود له أنه شارك في بناء بعض القصائد الغنائية. وأحب عابدين الخانجي الحياة كما أحب الحرية والفن والجمال. ويذكـر أهل سنجـة أن بيته كـان محفلاً ومنتـدى يهرع لـه الأصحاب للاستماع للفونوغراف والمسامرة، ويتناقشـون في السياسـة والثقافـة، وكانت السـلطات تراقبه لأنه كان من سدنة ثـورة ١٩٢٤ فقد آمن بتحـرير الســودان ورفض أن يرتـدي القبعـة ولازم الـطربـوش رأسـه، ولـه صـورة أخـذت لـه في مصر وبجـانبهـا صـورة فوتوغرافية لـسعد زغلول. إنه لم يتنكـر لمبادئ ثـورة ١٩٢٤ لأنه مـا سعى إلى منصب ولا تساءل عن رفد، بـل سـاهـم إيـماناً وتصديقاً وإرادة. وله صورة مع الثائر حسـين شريف وعثمان بشير نصر، وصور مع الشيخ زكي عبد السيد ومحمود فـرغلي ومحمـد سر الختم وتوفيق صالح جبريل. لقد كان وفياً للحرية وكانت الحرية وفية لـه. وكان وفياً لأصدقائه،وكان أصدقاؤه يقدرونه ويجلونه، واستقال فترة من الحكومة وعمل بالأعـمال الخـاصة ولكنـه عاد مـرة أخرى. وقـد ازدهرت حيـاته عنـدما انتشر الـوعي الوطني، واستبشر عندما هبت رياح الحرية والاستقلال. فكنت تـراه بالـرغم من المرض الـذي أصابه أكثر تفاؤلاً وحماساً من الشبان.

إن عابدين الخانجي كان هـو المرجـع الحي للحركـة الفكريـة في السودان منـذ العقـد الثاني للقـرن العشرين حتى قيام مؤتمـر الخريجين، فلولا ذكريـاته وانـطباعـاتـه وأوراقه لما استطعنا أن نلم بمسـار الحركـة الفكريـة في السودان منـذ بدايـة القرن حتى الأربعينات.

ما من أديب أو شاعـر أو كاتب آمن بـالحريـة والحق والجمال وإلا كـان صديقـاً لعابدين الخانجي. وعندما نقل إلى أم روابـة كان الأدبـاء والشعراء يحجـون إلى منزلـه ويعرضون عليه أعمالهم وينصتون لرأيه. إن أوراقه الخاصة لم تنشر حتى الآن ولكنها لا شك تحمل الكثير عن أسرار الحركة التحريرية في عام ١٩٢٤. من المفارقـات الغريبـة

إن السلطات كانت تنتدب عابدين خانجي إلى الأماكن النائية في مواسم الاحتفالات الرسمية كيوم ١٧ يناير وهو الذي وافق زيارة الملك جورج الخامس للسودان ويوم جلوس الملك حتى في أيام المولد، إذ كانت تتهمه أنه يسلط من ينزع العلم البريطاني من الأماكن التي كان يرفع فيها، وقد حدث ذلك عندما كان يعمل في أم روابة وصادف الاحتفال يوم ١٧ يناير. وقد انتدب، ولكن في يوم الاحتفال كانت الأعلام البريطانية منزوعة فلم يهتم عابدين لأنه كان بعيداً، فقد كان ينشر مبادئ الحرية وكراهية الاستعمار في أي مكان ينقل له وكان له حواريون.

كتب عنه المستر هاكسوريث مدير كردفان فقال: إننا استطعنا أن نروض الكثيرين من الذين وقفوا معارضين لنا واشتركوا في اضطرابات عام ١٩٢٤ ولكنا لم نجد سبباً واحداً نخطف به عابدين الخانجي. فقد كان صلباً ومتماسكاً في أخلاقه وسلوكه وليس ثمة طعن فيها، كما أنه موظف جاد دؤوب يلتزم باللوائح والقوانين. فكراهيته للحكومة هي المشكلة التي لم نستطع أن نعالجها.

الدكتور عبد الحليم محمد [١٩٠٥]

الدكتور عبد الحليم محمد، رجل يعرفه أبناء هذا الجيل، طبيباً ورجلاً لامعاً في ميدان رعاية كرة القدم، ولكن هذا الأمر وإن كان التاريخ سيسجله، إلا أننا ننظر لحليم بمنظار يختلف عما يألفه الناس في حليم، إننا نرى في حليم رائداً من رواد الفكر والثقافة في السودان، قدم العطاء، وفتح النوافذ فلم تُغلق، وترك بصمات حية.

نشأ عبد الحليم محمد في كنف أسرته المعروفة الهاشماب، فهي أسرة اهتمت بالعلم والدين وشارك في صنوف من المعرفة في هذه البلاد، فوالده رحمه الله كان قارئاً أديباً شاعراً، وجده الأمير محمد عبد الحليم وابن عمته محمد أحمد محجوب، رفيق دربه وزميل حياته، وأحمد يوسف هاشم ابن عمه وصديقه، وكانوا يسمون الفرسان الثلاثة، انفتحت حياة حليم على الأدب والثقافة، وانتظم منذ صباه في جماعة من رصفائه الأدباء، وكونوا جمعية الهاشماب، من محمد أحمد محجوب، وعبد الحليم محمد، ومحمد عشري الصديق، والدكتور زكي محمد مصطفى، وعبد الله عشري، ويوسف مصطفى التني، ومرضي محمد خير، وعوض الله مرسال. عنيت هذه الجمعية بالفكر الحديث، والدعوة للتجديد في الأدب والحياة، وعالجت مشكلات المجتمع السوداني وأطلت على الفلسفة والعلم والفن، ومارست النقد على أسس علمية وفلسفية، وجذبت إليها الكثير من الشبان، وقدمتهم إلى ميادين البحث والمعرفة، فاتصل بها هاشم الكمالي، وعبد الحفيظ هاشم، وكان يرتاد مجالسها نفر من المستوطنين السوريين كمايكل كافوري، وادوارد عطية وغيرهما.

وكان أثرها بارزاً في مجلة النهضة في الثلاثينات وفي شيخ الأندية بأم درمان،

ونادي الخريجين بالخرطوم، كما أنها اهتمت بالأدباء والمفكرين الذين كانوا يزورون السودان، فيجتمعون بهم ويدعونهم، فقد اجتمعوا بالدكتور محمد حسين هيكل عندما زار السودان عند افتتاح خزان سنار، وأقاموا حفلاً للكاتب العالمي إميل لودفيج في الفندق الكبير، أبانوا فيه وجهات نظرهم في الحكم والسياسة، كما أن حليماً والمحجوب كانت لهما غدوات وروحات ومساجلات مع رواد صالون السيدة أمينة خليل، حيث كانت تناقش مشكلات الثقافة والمجتمع السوداني.

كان الأطباء السودانيون هم أسس الثقافة والفكر، والتحرر في نهضتنا الفكرية، فهم الذين هيأ لهم القدر أن يتلقوا دراسات جامعية دون غيرهم في السودان عند بداية البعثات في التعليم الجامعي، لذلك كنا نلاحظ بينهم الشعراء كعلي أرباب، ومحمود حمدي، والفنانين كمختار محمد محمود، والمحدثين المثقفين، كالدكتور زكي مصطفى، والمترجمين كمنصور علي حسيب، ورواة الشعر ومحققيه، كالدكتور محمد حسن أبو بكر، ودعاة التجديد والانعتاق كالدكتور إبراهيم أنيس، ولو أردنا أن نحصي عددهم وننشر عطاءهم لاحتجنا لصفحات كثيرة.

إن فترة التكوين الأدبي والفكري للدكتور حليم، قد انكشفت لنا في الكتاب المشترك الذي خرج للناس تحت عنوان «موت دنيا» للمحجوب وحليم، فهذا الكتاب يغنينا عن الحديث عن تكوين حليم الفكري والأدبي بعد مجلة النهضة ظهرت مجلة الفجر، فكان حليم قد أطل على الأدب السوداني كأول كاتب أقصوصة ملتزمة بالقواعد والأسس الفنية، وكان الناس قبله يعالجون القصة كحكاية أو نادرة، فحليم هو الذي وضع أساس القصة السودانية القصيرة، وشاركه في ذلك الدكتور محمد عبد الله أبو شمة، وإن كان سبقهما معاوية محمد نور في كتابه الأقصوصة، إلا أن أقاصيصه كانت نابعة من ذكرياته وسوانحه، ولم تصل إلى المسافة التي ينطلق فيها المجتمع السوداني في جوانب المشكلات العامة، ما عدا قصته «محزونة بتوتي» والقطار يعدو.

عبد الحليم محمد نظر في المجتمع السوداني، وعن طريق الممارسة والتجربة والمعاناة والاتصال اليومي وصل إلى طرح المشكلات والمحاولة لعلاجها، وأسلوبه تعمد البساطة والتجرد مع الإمعان في التحليل والتشريح والحذر والدقة في استخدام

الكلمات، حتى إنك ترى الشخصيات عارية، وتحس بالهدف الذي رمى له عبد الحليم في كتابه الأقصوصة.

شغف عبد الحليم بالمشكلات الاجتماعية وملاحظة التغيير في المجتمع السوداني، فبابه الثابت في مجلة الفجر، تحت عنوان «شؤون» كشف فيه التناقض والعلل والادواء الاجتماعية التي زحفت على المجتمع السوداني.

وتولى عبد الحليم فترة رئاسة تحرير مجلة المؤتمر، وهو رجل يُعنى بتنظيم الجماعات والمنظمات ورصد ما يدور فيها وإكمال النقص والوصول إلى صيغة موحدة.

برع عبد الحليم في التصوير النفسي والباطني من غير أن يتدخل في عرض الأحداث، لكنه في النهاية لا يخفي هدفه، ولعل مهنة الطب، وعمله في الطب الباطني قد ساعدا في تضمين كتاباته هذه الخصائص.

جعل عبد الحليم محمد المجتمع طريقه في العمل، فشارك في الفكر السياسي، وخطا في واقعية وتدرج في كل المراحل السياسية والوطنية، فلم يكن متطرفاً ولم يكن مترمتاً، فعقله العلمي حسب الدرجات، ورفض القفز، لذلك عليه أن يسير في دبلوماسية هادئة، وهو إن كان من أنصار الحركة الاستقلالية، إلا أنه كان مستقلاً في فكره، وقد دخل السياسة من دائرة الوطنية ورفضها من باب الحزبية، وتحددت شخصيته فكان أقرب للمستقلين، وعمل في كرة القدم كرئيس للرابطة جعله ينظر إلى اللعب وأحكامه قبل أن ينظر للاعبين، فاهتمامه بالقاعدة وأحكام القاعدة وتنفيذها كان هو الغاية. واختير حليم عضواً في مجلس السيادة بعد ثورة أكتوبر، ولم يظل يتمسك بالعمل السياسي أو يصبو إليه، لأن نظرته كانت أوسع في عمله في المجتمع.

مواصلة العمل الفكري في بلاد العالم الثالث تبدو هواية، ولا تدوم إلا فترات قصيرة، ولكن حليم واصل أكثر من ربع قرن في هذا المعترك، والروابط التي كانت تدفع أبناء جيله قد تأثرت بالزمن والأحداث، لذلك لم يسمع صوته أبناء هذا الجيل.

يعد حليم ركناً من أركان مدرسة الفجر، وأساساً من أسس بنيان القصة القصيرة في الأدب السوداني، فمجموع ما كتبه من أقاصيص وخواطر يكفي لكتاب يصور لنا إنتاج هذا الرجل، كما أن مقالاته في النيل ومجلة المؤتمر كلها تؤرخ له وتحدد مسار فكره وأدبه وفنه.

عبد الحميد أبو القاسم [١٩١٥ ـ ١٩٨٤]

تحت سماء أم درمان، حيث الصفاء والمحبة والسلام، وبين أحضان أسرة عريقة امتدت ونما فيها العلماء والشعراء والأدباء والكتّاب، والحرف فيها أصل من أصولها والكلمة معنى من معانيها، نما وترعرع الشاعر المهندس عبد الحميد أبو القاسم ابن شيخ العلماء الشيخ أبي القاسم هاشم. وعندما ولد كان فارق العمر بينه وبين أبيه أربعة وخمسين عاماً، إذ ولد أبوه في عام ١٨٦١، وولد عبد الحميد في عام ١٩١٥ وكان والده في تلك الفترة قد أنشأ المعهد العلمي وبرز أبناؤه الكبار في الحياة معلمين ورجال دين.

تلقى عبد الحميد تعليمه الأولي والأوسط بأم درمان والتحق بكلية غردون في عام ١٩٣١، وفي صيف عام ١٩٣١ كانت الأزمة الاقتصادية قد مست السودان في كل مرفق من مرافق وجوده، حتى إن البريطانيين لم يجدوا منفذاً إلا أن يستغنوا عن الموظفين ويحيلوا بعضهم للمعاش ويبعدوا من بقي من الموظفين المصريين لأن الأزمة كانت عالمية، وأخيراً قررت السلطة البريطانية في السودان أن تخفض مرتبات خريجي كلية غردون في جميع الأقسام، فاجتمع الطلبة في أم درمان في ودنباوي بقيادة مكي المنا الذي أصبح وزيراً فيما بعد وكان في قسم المهندسين، وأتاحت لهم العطلة الصيفية أن يدرسوا الأوضاع لينفذوا الإضراب بعد انقضاء العطلة. وتمت لقاءات بين طلبة العاصمة المثلثة وطلبة الأقاليم، وتكونت الهيئة التنفيذية تحت اسم سري هو الزعفران ضمت الهيئة التنفيذية ممثلين من كل الفصول وكل الأقسام.

قررت الهيئة التنفيذية الخروج في إضراب في الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٢٤ نوفمبر عام ١٩٣١

أفزع ذلك البريطانيين، وكان السكرتير الإداري متغطرساً، تخصص في اللغة العربية والدراسات السودانية، ألا وهو السير هارولد مكمايكل الذي أصبح فيما بعد حاكماً لتنجانيقا ثم مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين وعمد لتنمية الحركة الصهيونية ومناصير اليهود.

اشترك عبد الحميد في هذا الإضراب وقد وقف والده شيخ العلماء الشيخ أبو القاسم هاشم مع الطلبة، إذ أعلن أمام الأدباء الذين اجتمعوا في منزل السيد عبد الرحمن المهدي بالعباسية أن على الآباء أن يردوا الإنكليز عن هذه السياسة المتعسفة ويراجعوا أنفسهم في هذا القرار الجائر.

في هذا المناخ الحر العابق بالعلم والدين تربى عبد الحميد أبو القاسم وشارك في النهضة الأدبية في كلية غردون وعرف كشاعر من شعراء الشباب، وكان من أصدقائه المهتمين بالأدب المرحوم السيد عبد الله عبد الرحمن نقد الله الذي أصبح وزيراً فيما بعد، واللواء أحمد عبد الله حامد الذي صار وزيراً فيما بعد ومن جيله بين أبناء الأسرة كان هناك الشاعر المرحوم الأستاذ عبد الحفيظ هاشم والفنان المخرج المرحوم الخير هاشم.

استأثر عبد الحميد بلهب الشعلة المتقدة في روح الأسرة فكان حر الرأي لا يحتمي بعصبية أو قبلية، فاشترك في مؤتمر الخريجين وأطل على المنابر الفكرية منذ تخرجه في عام ١٩٣٥ حيث التحق بمصلحة المساحة، ولم يستمر كثيراً في العمل الحكومي فعمل مهندساً في عدة مواقع وعاصر عدداً من المشاريع الهندسية والسكنية في السودان.

وكان منذوراً للأدب والشعر فأسهم في إعداد مجلتي الفجر والسودان الجديد في أول عهديهما، وعندما ظهرت الأحزاب اتجه نحو الأشقاء، ولكن عندما رجع الدكتور عبد الوهاب زين العابدين بعد إتمام دراسته رأى الدكتور عبد الوهاب أن حزب الأشقاء مع نفوره من الاستعمار وابتعاده عن البريطانيين وعن الغرب لا بد من خطط وإيديولوجية ليمضي في طريقه ولا يتوقف في المرحلة التي انطلق منها، فدخلت المبادئ

الماركسية، ليس فقط في حزب الأشقاء، بل انضم شبان يساريون إلى كل الأحزاب السودانية. فراق ذلك لعبد الحميد أبي القاسم فانتهج نهجاً ماركسياً ولكن لم يستمر في ذلك المنهج فعاد إلى الحزب الوطني الاتحادي. وفي غضون تلك الفترة نشر قصائد كثيرة ومقالات في الأدب والنقد، وكاد أن يبتعد عن الجو السياسي، لأن الحزب الوطني الاتحادي حدد مسيرته ورتب صفوفه.

لم يستغل عبد الحميد شعره في الدعاية السياسية أو التهليل والتكبير للزعماء السياسيين، بل كان شعره وجدانياً وعاطفياً كأنه لم يتأثر بالفكر اليساري. أما مقالاته فكانت تمحيصاً ومراجعة للأفكار والمذاهب في الأدب. فقد تتبع هو وصديقه أحمد عبد الله حامد إنتاج المدرسة الحديثة في السودان التي كان قوامها محمد أحمد محجوب ومحمد عشري الصديق وعبد الله عشري الصديق ويوسف مصطفى التني ومرضي محمد خير فرداً في متابعتهما لإنتاج هؤلاء الرواد الأصول إلى ما كان قد كتبه النقاد والأدباء الإنكليز. وشعر عبد الحميد له طابعه الخاص، فهو مرحلة متقدمة لم تتأثر بمدرسة شوقي ولا شعر حافظ ولا بالشعراء العرب الذين اشتهروا في تلك الفترة كالزهاوي والرصافي وشفيق جبري وبشارة الخوري. ومع أنه نشأ واستوى على قدميه في ميدان الأدب في تلك الفترة التي شاعت فيها الرومانتيكية في الأدب العربي لما كانت تبشر به مجلة أبولو، إلا أنه لم يتأثر بتلك الحركة، بل كان شاعراً تجاوز الكلاسيكية والرومانتيكية وحدد طريقه في واقعية ملموسة لم يخف فيها الجمال والأناقة في الأسلوب لأنه صدر عن نفسه.

ويكاد أن يكون هنالك تقارب بين شعره وشعر الأستاذ حسين منصور مع فرق أن الأستاذ حسين منصور طغت عليه في بعض الأحيان ثقافته اللغوية ودراساته ومتابعاته في الأدب العربي القديم عند استخدامه لبعض الألفاظ، وقدرته العروضية في تنظيم قوافيه التي تفاجئ القارىء، ولا يستطيع أحد أن يتم قافية بيت من أبيات حسين منصور، وذلك راجع لتقننه وإدراكه لعلم الصرف. أما قوافي عبد الحميد أبي القاسم فالتسنيم طابع من طباعها.

هذه الفئة من الشعراء في الأدب السوداني هي قلة يضاف إليها أحمد المبّارك عيسى ومهدي أبو بكر ومحمد أحمد الإمام وقد نظموا الشعر طواعية استجابة للنفس

والروح، فعبد الحميد أبو القاسم هو النموذج المكمل لهذه القسمة في الشعر العربي السوداني.

عاود عبد الحميد الحنين للشعر فنظم ونشر بعض القصائد في الستينات. ولكنه بعد ذلك تفرغ للهندسة فأصدر مجلة المهندس في عام ١٩٦٤ وعاونه في تحريرها الأستاذ صلاح مازري.

ثقافة عبد الحميد ليست ثقافة المتخصصين في الأدب ولكنها خلاصة ذوق واختيار ومتابعة. وقدرته اللغوية هي ثمار مطالعات في الشعر العربي القديم ومدارسة لمذهبه. فقد كان من الممكن أن يتألق في سماء الشعر العربي السوداني لأن شعره لا يمثل مرحلة بل إنه قادر على الاستمرار والنمو، وقد انفرد بالتمرد على الأوضاع الأدبية السائدة في ميعة شبابه وفجر عمره، لذلك نعده من الرواد الذين رسموا طريقاً في الفكر السوداني.

الشيخ عبد الرحمن أحمد [١٨٧١ ـ ١٩٦٩]

تعلم الشيخ عبد الرحمن أحمد في الأزهر، والتحق بعد رجوعه بمصلحة المعارف فدرس في مدينة بربر، وتزوج هناك، وتنقل في مدارس كثيرة حتى عمل في كلية غردون، وكان في خلال العطلات المدرسية ينتدب للعمل في حضارة السودان، ولما تقاعد أنشأ جريدة السودان التي كانت تصدر مرتين في الأسبوع في يوم الاثنين وفي يوم الخميس وكانت أوسع جرائد السودان انتشاراً.

فتح عبد الرحمن أحمد صدر جريدته لناشئة الأدباء فكنت ترى قلم طوبجي وحربي وغشيم وعبد الله رجب وعبد الرحمن عبد الله ومحمد عمر إدريس وعبد الله الأحمدي، وتقرأ مقالات المراسلين من الأقاليم من تندلتي وشوركيلة وسنكات والنهود وأخبار الرياضة، وتقرأ عن القادمين والمسافرين. فالصفحة الأولى كانت للإنتاجية وبعض المقالات والأخبار الهامة، والصفحة الثانية للأخبار المحلية، وقد بدأ يحيى محمد عبد القادر نشاطه الصحفي في جريدة السودان. والصفحة الثالثة للشعر والأدب ورسائل المكاتبين من الأقاليم والصفحة الأخيرة لأخبار رويتر، وقد رفض أي إعلانات لا تتفق مع سياسة جريدته، ولكن إعلان الزمبوك وحبوب الكحة وعابدين عوض وأجزخانة لندن كانت من الإعلانات الدائمة. ففي الفترة التي كانت تصدر فيها جريدة السودان كانت جريدة الحضارة مستمرة، وجاءت في تلك الأونة جريدة النيل ولكن مع ذلك كانت جريدة السودان أوسع الجرائد انتشاراً. والنعي كان يصدر بالمجان في جريدة السودان.

عبد الرحمن أحمد عُرف بالكياسة واللباقة في كتاباته فهو ينقد ولا يسيء ويكشف الخبايا ولا يدان. . أحب الشبان جريدته لأنها كانت وطنية ولا تعبر عن رأي الحكومة ولا تساق لها. . اهتمت بالإصلاح ونقلت شكاوى المواطنين، كما أنها حافظت على شرف اللغة العربية، فلغتها سهلة وصحيحة ليست بها شنشنة. ومع أن الشيخ عبد الرحمن أحمد عالم لغوي متمكن وحافظ، إلا أنه خاطب الجماهير عامة وجذب المثقفين خاصة، ولم يمدح الحكام ويشيد بعدل البريطانيين وإن كان بعض الشعراء ينشرون في جريدته قصائد يهنئون فيها الحكام ويذكرون السعادة التي يرفلون فيها من جراء الاستقرار والرفاهية، فليرجع الدارسون لهذه الظاهرة.

اهتم قلم المخابرات بجريدة السودان، حتى إن ادوارد عطية عندما زار بورتسودان في عام ١٩٣٧ كان يسأل الموظفين السودانيين: هل يفضلون الحضارة أم النيل أم جريدة السودان. فدهش عندما رآهم كلهم يفضلون جريدة السودان فقال لربما لأن الشيخ علي السواكني هو مدير الجريدة فأهله يحبون الجريدة من أجله.

فتحت جريدة السودان بابها للقصة القصيرة سواء إن كانت مترجمة أو موضوعة، فمن أوضح القصص المترجمة قصة ترجمها عبد الله رجب في ديسمبر عام ١٩٣٦ وبعض القصص التي ترجمها جمال توفيق بدري عن الفرنسية. ومن أعظم المقالات المسلسلة مقالات الأستاذ حسن رشيد تود مدير ملجأ القرش عن المدينة البيضاء (سواكن).

ومن الشعراء الذين ظهروا في جريدة السودان محمود أبو بكر وجوزيف لطيف صباغ وجورج حجار.

كان عبد الرحمن أحمد ينتقي الجيد ويشجع الشبان بإرسال خطابات لهم ليزيدهم ثقة بأنفسهم، لذلك كانت دراسات عبد الرؤوف فهمي سمارة عن الاقتصاد، تجد مجالاً في جريدة السودان، كما أن المقالات الزراعية تجد التبويب الجيد، ولم يكن لجريدة السودان مراسلون في الأقطار العربية، ولكن كان يكتب لها سودانيون من الحجاز وسودانيون من القاهرة. ومن أغرب الأشياء كان بعض الشعراء يبعثون قصائدهم للصحف الثلاث فتنشرها الصحف الثلاث، ومن هؤلاء الشعراء علي أرباب وعبد الله حسن كردي.

وفي الأربعينات لما ضاقت الصحف بالرقابة انتهجت جريدة السودان منهجاً أدبياً فأكثرت من نشر المقالات في النقد وقصائد الشعر وقرأنا نقائض الكردي في جريدة السودان رداً على نقائض صالح عبد القادر في جريدة النيل واستمتعنا بمقالات إبراهيم عمر الأمين عن وقفات بين أبيات العقاد.

حقاً لقد كان الشيخ عبد الرحمن أحمد معلماً خاصاً في هذا البحر اللجيّ ، وهو صاحب أول جريدة وطنية ينشئها فرد واحد. لقد تفوقت هذه الجريدة على ما عداها، إنك لا تحس في روح الجريدة أي افتعال أو حذر أو اندفاع نحو طائفة أو مركز نفوذ، بل إن الحق كان مع عبد الرحمن أحمد. وفي الأربعينات عندما نظر السودانيون في تقرير مصيرهم كانت جريدة السودان هي السند والعضد للأحرار، فقد بدأت سافرة تلعن الاستعمار، جاءت الصحافة الحزبية فشغلت الناس عن منبر من المنابر العظيمة التي ربت جيلاً وعلمته أن يتمسك بكرامته ويحب وطنه وذلك بفضل المعلم الأستاذ عبد الرحمن أحمد.

علي عبد اللطيف [١٨٩٧ - ١٩٣٧]

إن اتفاقية عام ١٨٩٨ التي أبرمت بين بريطانيا ومصر عندما تم افتتاح السودان باسم مصر كانت موضع جدال ورفض بين أوساط المثقفين في مصر والسودان. وقد وقف الحزب الوطني في مصر يهاجم هذه الاتفاقية، وينشر آراءه في جريدة اللواء والمجتمعات الدولية، وكان رأي المثقفين في مصر مناوئاً لهذه الاتفاقية. وعلي عبد اللطيف الذي نشأ في مصر وتعلم فيها، تشبع بالآراء الثورية التي ترفض الحماية والاحتلال. فلما نقل ليعمل ضابطاً في السودان رأت السلطات الاستعمارية أن تحوله للإدارة ليعمل نائب مأمور، وقد اهتم بصيد الأفيال في بادئ الأمر وتعرف على تجار سن الفيل وريش النعام، واستطاع أن يعمل في هذه التجارة، فتيسرت أحواله المالية، وعرف بالأناقة وسحر الحديث، كما أنه عني باقتناء الكتب ودراستها، فلما كان يعمل في واد مدني كانت كل الصحف المصرية والإنكليزية ترسل له، ففطن البريطانيون أنه قد تفرغ لهذه الهوايات والاستمتاع بالمطالعة، ولكنه كان كبير النفس، مهيباً، لا يخاف من رؤسائه فاصطدم مع المفتشين البريطانيين، واحترمه الضباط المصريون الذين يعملون في الإدارة، وكان يلتقي بهم في القاهرة، إذ اعتاد أن يقضي إجازته السنوية هناك ويأتي حاملاً بعض الصحف والكتب التي حظر تداولها في السودان، ويستعين ببعض أصدقائه المسافرين فيحملون هذه الحقائب الحاوية على الكتب والصحف المحظورة.

وعندما كان نائب مأمور في واد مدني التقى بمفتش عسكري إداري بريطاني وكان يمتطي صهوة جواده فطلب منه المفتش أن يترجل ويحييه فرفض علي عبد اللطيف، فأحيل للمحاكمة، وحكم عليه بستة أشهر سجناً.

وفي تلك الاونة كان على صلة وثيقة بطليعة الكفاح الذين كونوا جمعية الاتحاد السوداني وهم: عبيد حاج الأمين، والأمين علي مدني، وإبراهيم يوسف بدري، وتوفيق صالح جبريل، وسليمان كشه، وعثمان محمد إبراهيم، وعابدين عبد الرؤوف الخانجي، وعبد الله خليل، ولكنه رأى أن هذه الجمعية لا تستطيع أن تؤدي مهامها لأن البريطانيين دسوا بين أعضائها الموالين لهم، وانكشف أمرها، وما إغماض أعينهم عنها إلا الرضاء.

وفي يوم ١٩٢٢/٤/٢٦ وفد اللورد الليني إلى الخرطوم واستعدت السلطة البريطانية لاطلاعه على آراء السودانيين فاختارت زعماء القبائل والعشائر والطرق الصوفية ورؤساء الجاليات لاستقباله وتقديم الولاء للبريطانيين، وشكر بريطانيا على الاستقرار الذي تم في السودان بفضل حكمها الرشيد، وعاد وفد اللواء الذي ذهب في عام ١٩١٩ يؤكد العدل البريطاني، فرأى علي عبد اللطيف أن لا بد أن يواجه الموقف، ففكر في إنشاء جمعية اللواء الأبيض، ويفتح كل النوافذ لمن يريد أن يشترك في هذه الجمعية من عسكريين مصريين وسودانيين ومدنيين ومسلمين وأقباط، وجعل شعار الجمعية وحدة وادي النيل، وجعل شعارها علماً أبيض رسم عليه نهر النيل من منبعه إلى مصبه، واشترك معه في هذه الجمعية عبيد حاج الأمين ككاتم لأسرارها وعرفات محمد عبد الله وكل المؤسسين لجمعية الاتحاد السوداني.

وفي تلك الأثناء بدأ البريطانيون يتحدثون عن المسألة السودانية، وتبنى إثارة هذا الموضوع السيد حسين شريف، وكان رأيه توفيقياً في أن يتنازل أقوى الشريكين للآخر في حكم السودان، فرد عليه علي عبد اللطيف بمقال لينشر في الحضارة السودانية التي كان يملكها المؤيدون للسياسة البريطانية. وهنا تختلف الآراء، فرأي يقول إن رئيس تحرير الحضارة المرحوم السيد حسين شريف كان يطلع مدير المخابرات على كل ما يرد للصحيفة ليجيز نشره أو رفضه، فاطلع عليها المستر والاس ورفض نشرها، فنشرت في جريدة الأهرام بالقاهرة، ورأي يقول إن مدير المخابرات اقتحم دار حضارة السودان وصادر المقالة قبل نشرها.

قبض على كاتب المقال علي عبد اللطيف وحكم عليه بالسجن سنة كاملة، وفي تلك الأثناء كانت جمعية اللواء الأبيض تعمل على إرسال وفد إلى القاهرة يقف مع

الحكومة المصرية في مطالبها باستقلال مصر والسودان كدولة واحدة، تطبق الدستور على البلدين وإجراء انتخابات عامة، ولكن السلطات البريطانية رفضت قيام وسفر هذا الوفد، وكتب عبيد حاج الأمين مقالاً بتاريخ ١٦ يوليو عام ١٩٢٤ منددأ بهذا التعسف الاستعماري، وفي تلك الأثناء كانت فروع اللواء الأبيض قد اكتملت في العاصمة المثلثة وعطبرة وبورتسودان وواد مدني وكوستي وتندلتي وسنار والأبيض.

وقامت مظاهرة المدرسة الحربية المسلحة في أغسطس عام ١٩٢٤، وقد اغتيل السير لي استال حاكم السودان وسردار الجيش المصري في السودان، وأقيلت وزارة سعد زغلول وفرضت عقوبات وتعويضات على مصر، وسحب الجيش المصري، وسقط ضباط ثوار وظل ضابط هو عبد الفضيل الماظ وهو يدافع عن حصنه حتى سقط، وقدم ضباط سودانيون للمحاكمة، كما قدم ضباط مدنيون، وطرد الموظفون والمدرسون المصريون، وأعدم الضباط: سليمان محمد وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم.

أما علي عبد اللطيف فقد أبقي في السجن، واتهمته السلطات البريطانية بلوثة في عقله وكان ينقل بين سجون مختلفة، ولا يسمح لأحد بمقابلته، ثم نقل إلى القاهرة وأودع مستشفى الأمراض العقلية، ولما مات لم يعلن عن وفاته.. رحمه الله.

عبيد حاج الأمين [١٨٩٨ ـ ١٩٣٢]

من الصعب تتبع سير الثائرين الذين قادوا مسيرة الكفاح السياسي والفكري في السودان، فالوثائق البريطانية قد أساءت إلى سمعتهم، كما أن المعلومات التي جمعت عنهم أوردها مأجورون كانوا يحاولون إرضاء السلطات البريطانية، فالمعلومات التي تقصيناها عن عبيد حاج الأمين رحمه الله استقيناها من المرحومين الأستاذ الشاعر الكبير توفيق صالح جبريل والمرحوم السيد بشير جار النبي، كما أننا رجعنا إلى السيد أحمد مدثر الحجاز، والسيد باشري عبد الرحمن.

تعلم عبيد بكلية غردون واختير أن يعمل في قلم الترجمة والسلك الكتابي بمصلحة البرق والبريد، ونشأت بينه وبين عرفات عبد الله، ومحجوب عثمان وصالح بطرس وأحمد عثمان القاضي وسليمان كشه علاقات فكرية وثقافية، فكان قارئاً مطلعاً وحافظ للشعر، ومترجماً بارعاً، وقد اتسم بالسلوك الحسن، والتفاني في العمل والسعي والجد لتثقيف نفسه، وما لبث أن برز في نادي الخريجين الذي كان يعبر عن أجنحة الطائفية والتشييع للأفراد.

وانضم لجمعية الاتحاد، ولكنه رأى بثاقب فكره أن هذه الجمعية قد ضمت بعض المشبوهين فنبه أصدقاءه: عرفات محمد عبد الله، وتوفيق صالح جبريل، وعبد الله خليل أن هذه الجمعية قد طواها البريطانيون تحت إمرتهم، فاتصلوا بالشيخ حسب الرسول فطمأنهم أن رجال الطرق الصوفية من قادرية وسمانية سيقفون معهم في جهادهم.

وفي تلك الأثناء قدم لهم عبد الله خليل ضابطاً سودانياً شجاعاً متحمساً هو علي عبد اللطيف، وكان علي عبد اللطيف معجباً بحركة التحرير الإيرلندية ويتقصى أخبارها، كما أنه تابع كل حركات منطقة البلقان، التي وقفت ضد السيطرة التركية، وكان يضع صور راندولف وهندبرج في منزله، وتكونت حركة جديدة تحت اسم اللواء الأبيض، وكان من شروط هذه الحركة ألا تقبل طلبة كلية غردون لأن البريطانيين كانوا يُحكمون الرقابة عليهم ويفتشون أمتعتهم وكراساتهم، كما لا يقبل أي رجل من رجال العشائر والقبائل، ولكن يفتح الباب أمام التجار والموظفين.

وقام عبيد حاج الأمين بتنظيم لكل أعضاء جمعية اللواء الأبيض وحصر مراكزها في العاصمة والأقاليم، وكان يتحاشى الحديث عن الحركة في المكتب، ولا يحاول أن يجند الموظفين الذين يعملون معه، وجعل لكل مركز في الأقاليم رئيساً يجمع الاشتراكات، وكانت الاشتراكات ترد للشيخ مجذوب بركة والشيخ حاج الشيخ عمر، وأهدى عبد الله خليل مطبعة من البالوظة لجمعية اللواء الأبيض.

وبدأت جمعية اللواء الأبيض تذيع منشوراتها باللغتين الإنكليزية والعربية، وتفاجيء البريطانيين بهذه المنشورات التي يجدونها أمامهم في مكاتبهم، واتهم عرفات بترجمة المنشورات لأنه كان مجيداً للغة الإنكليزية، ولما عرف أعضاء جمعية اللواء الأبيض أن البريطانيين يتربصون به، عملوا على تهريبه إلى القاهرة. واغتيل السير دار السير لي استاك باشا في القاهرة، وقامت مظاهرة المدرسة الحربية، وانكشف أمر جمعية اللواء الأبيض في الأقاليم ووصلت السلطات إلى الأسماء، وفتش منزل عبيد حاج الأمين فاكتشفوا السجلات، وحاول المستر والس رئيس قلم المخابرات أن يغري عبيد حاج الأمين بإفشاء أسرار الجمعية، وقدم له بعض أهله لينقذ نفسه، ولكن عبيد رفض وقال لهم: «إنكم عندما تحاكمونني تحاكمون أنفسكم».

وأقيمت محكمة عسكرية، فرأت أن تسجن عبيد وترسله إلى سجن توريت.

ومنع أهله من زيارته، وفي السجن استطاع أن يسرب بعض رسائله إلى أصدقائه ويصف الأحوال السيئة التي فرضها البريطانيون عليهم في السجن.

ورفضت الحكومات المصرية أن تتوسط لإطلاق سراحه وسراح زملائه، كما رفض أن يقوم أهله بتقديم التماس للسلطة البريطانية الحاكمة لإطلاق سراحه،

وأصيب عبيد بالحمى السوداء وقضى نحبه وهو في ميعة العمر وزهرة الشباب. إن عبيد حاج الأمين، هو أول من استطاع أن ينظم حركة سرية في السودان، تدافع عن حريته وتطالب باستقلاله.

وهكذا انطوت صفحة بطل عُرف بالأمانة والكتمان وعزة النفس والشجاعة، إنه معلم من معالم وجودنا الفكري والسياسي وحافز لكل الأجيال التي تعمل من أجل الحرية والكرامة.

السيد عبد الرحمن المهدي [١٨٨٥ - ١٩٥٩]

إن كان السيد علي الميرغني رضي الله عنه قد احتمت به قلعة الصمت، فالسيد الإمام عبد الرحمن المهدي رضي الله عنه فإنه قد فتح بينه وبين الناس كل النوافذ، كان ملجأ الضعيف، وغوث الملهوف، وكان عون الناس على الرزايا، ما كان المال له، بل مال الجميع، وما كان بيته قصراً بل كان داراً لكل من يغشاه، ما قال لا لمن قصده وما تنكر لمن وقف ضده، كان أباً للجميع.

ولد بعد وفاة أبيه، فأمه ابنة السلطان إبراهيم قرض، عرف اليتم صغيراً، وتفتح على الحكم الثنائي الذي نكل بأبناء المهدي وأبناء الخليفة، وجعل سلاطين باشا راعياً لهم.

وقف منه الاستعمار موقف العداء فكان يمتطي حماره الهزيل في أم درمان، وتدفع له الحكومة خمسة جنيهات في كل نهاية شهر، صبر والحكم الثنائي يحارب تعاليم المهدي ويناديه الإنكليز بالشيخ عبد الرحمن.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى رأى الإنكليز أنهم يحاربون خليفة المسلمين، ألا وهو سلطان تركيا، فلا بد لهم أن يبعدوا العرب المسلمين عن تركيا، فسلوك الحكم التركي كان مسيئاً وظالماً للعرب، لذلك توددوا للعرب فساندوا الشريف حسين في مكة وشجعوا أبناءه على نشر مبادئ الثورة العربية يحاربون في سبيلها، فيصل هناك في جبهة سوريا، وعلي في الإحساء والعسير، وعبد الله على أطراف فلسطين، والخديوي عباس الثاني قد عُزل، وشجعوا الإيطاليين في ليبيا، والفرنسيين في المغرب وفي الريف، فالسودان يجب أن يبتعد عن الحكم التركي والإمام المهدي هو الزعيم

الإسلامي الوحيد الذي تغلب على الحكم التركي، وعرف كل مساوئه وأدرك كل أخطائه، هذا هو السيد عبد الرحمن بن المهدي، فلا بد من أن ينظروا إليه نظرة التجلة والاحترام، وأتاحوا للسيد عبد الرحمن أن يعمل ليكسب، فذهب إلى أبا، فهنالك زرع وحصد، وتكوّن وفد السودان في عام ١٩١٩، انضم إليه السيد عبد الرحمن، وقد حمل سيف أبيه ليذكر الإنكليز أن المهدي باق، وكان السيف أمانة مستودعة لدى السيد عبد الرحمن حامد، فأهداه السيد عبد الرحمن للملك جورج الخامس، وظن الإنكليز أن ابن المهدي قد استكان وسلم، ولكن لهذا السيف إشارة، ما حل عند إنسان إلا دعاه مرة أخرى إلى أهله حتى يتسلمه من هو أهل له.

وجاء اللورد الليني إلى السودان في عام ١٩٢٢ فالتقى بالسيد عبد الرحمن، وقد عرفت بريطانيا مكانته، ومنحته لقب فارس، وتوهمت أنه واحد من حماة الامبراطورية... بعد ذلك انفسحت للسيد عبد الرحمن مكانته في المجتمع السوداني، فكان أحد أصحاب امتياز جريدة حضارة السودان مع السيد علي الميرغني والشريف يوسف الهندي.

ازدهرت زراعة السيد عبد الرحمن المهدي ودرت مشاريعه الخير الكثير، وتألق السيد عبد الرحمن، فساهم في تشييد المعهد العلمي ورعايته والمدرسة الأهلية الوسطى وملجأ القرش، وشارك في كل المشروعات الحيوية، وكان له رأيه في كل الأحداث، وعندما زارت البعثة المصرية الاقتصادية السودان كانت موضع حفاوة وتكريم السيد عبد الرحمن المهدي، ورأى فيه المصريون صديقاً، وتودد له حكام تلك الفترة، وأرادوا أن يربطوا بينه وبين الملك فاروق، وأنشأ السيد عبد الرحمن المهدي جريدة النيل فكانت أول صحيفة سودانية يومية، وكانت جريدة السودان الأولى، وكان شعارها: لا طوائف ولا أحزاب ولا شيع، السودان وطننا، الإسلام ديننا.

فتح السيد عبد الرحمن بيته للأدباء والشعراء والكتّاب المفكرين ورأى فيه المثقفون منارة، فكانوا يجتمعون في منزله كل جمعة ينشدون الشعر ويتحدثون عن الفكر، وأقام مكتبة كبرى جعل المبارك إبراهيم أميناً لها، كان من خلصائه السيد محمد صالح الشنقيطي والسيد محمد علي شوقي والسيد إبراهيم بدري والسيد عبد الله خليل والسيد إبراهيم أحمد، وتشط شباب الأنصار، والسيد عبد الرحمن اهتم بتعليم

التلاميذ في المدارس الوسطى وكلية غردون، ويُعنى كذلك بالنوابغ السودانيين ويتتبع أخبارهم ويدعوهم إلى منزله، وما من مؤسسة في السودان إلا وكان السيد عبد الرحمن أول المساهمين فيها.

لم يعرف السيد عبد الرحمن معارضين أو مؤيدين لحزبه، فكثير من معارضي حزب الأمة كانوا موضع رعاية السيد عبد الرحمن المهدي.

أحب السيد عبد الرحمن الأطفال، فما زار بيتاً إلا لبّى أمنيات أطفاله، فقد حدث أن زار بيت أحد السودانيين، وكان طفلهم يتمنى أن يكون عنده ببغاء، ففي اليوم التالي أرسل لهم السيد عبد الرحمن قفصاً به ببغاء.

وحدث أن سأل شاباً ماذا يتمنى بعد أن يدرس الطب فقال له: أتمنى أن أفتح عيادة. ومضت خمس عشرة سنة وافتتح ذاك الشاب عيادة، وعلم السيد عبد الرحمن بذلك وفوجىء ذلك الطبيب وقد تخصص في الأمراض الباطنية، أن وقفت عربة بها معدات طبية كاملة، وسألت عن الطبيب وأنزل السائق ومعه العمال معدات العيادة مع رسالة خطية من السيد عبد الرحمن المهدي، وهو يؤكد في تلك الرسالة أنه فخور أن يرى سودانياً يتخصص ويفتتح عيادة، وأنه لا يرى مع وقوف ذلك الطبيب مع حزب يعارض حزب الأمة ما يمنعه أن يقدم له هذه الهدية لأنه لا يرى فرقاً بين السودانيين فكلهم أبناؤه.

ما كان من ذلك الطبيب إلا أن ذهب للسيد عبد الرحمن وشكره، وقال له السيد عبد الرحمن: إنني لا أغريك أن تبتعد عن مبادئك فإنني أقدس حرية الفكر.

ما كان ذهبُ السيد عبد الرحمن وسيلة لشراء الناس، وما كان سلطان السيد عبد الرحمن سيفاً لمحاربة الناس... آمن السيد عبد الرحمن بحرية السودان واستقلاله، وحرية الأفراد واستقلالهم.. كان الشيوعيون يترددون على السيد عبد الرحمن وهم يهاجمونه، فلما التقوا مع حزب الأمة معارضين للحزب الوطني الاتحادي، كان رحمه الله يبتسم ويقول لهم: إننا نؤمن بالقومية السودانية والوحدة الوطنية، وأنتم تنكرون القومية، فما كان منهم إلا أن ترجموا كتاب ستالين عن القوميات... واجتمعوا معه مرة أخرى وأهدوه الكتاب فضحك وقال لهم: إن مجتمعنا لم يصل بعد إلى درجة الرأسمالية فنحن ما زلنا قرويين لا فروق بيننا ولا

امتيازات، وأنتم تحاربون الإقطاع، وليس في السودان إقطاع. أما قرأتم منشور الإمام المهدي، أن الأرض لمن يزرعها اذهبوا وازرعوا الأرض الشاسعة.

لم يغضب السيد عبد الرحمن أي مناوئ له، وقد كان يلوم الصحفيين الذين يكتبون في الصحف الاستقلالية على ممارستهم للهجاء السياسي، ويقول للمرحوم المعلم الأستاذ عبد الرحيم الأمين: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، وانطوت صفحة عظيمة في تاريخ السودان، فالسيد عبد الرحمن وقف مع الأحزاب والمفكرين، وحقق الله أمله واستقل السودان، وقد عانى في سبيل دعوته الكثير، حقاً إنه من أعظم الرواد في حياتنا، رحمه الله ورضي عنه.

عبد الرحمن علي طه [١٨٩٩ ـ ١٩٦٩]

بدأت خيوط الوعي تتماسك وتتضح الصورة الباطنة للاستعمار في السودان بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فالسودانيون وإن أحسوا باستقرار بعد انتفاضات ود حبوبة، علي دينار والسحيمي، وبرزت طبقة الأفندية التي علت على طبقة التجار والمزارعين، إلا أن هذه الطبقة الجديدة الآمنة في رزقها وفي معيشتها رأت أن هنالك طبقة تعلو عليها ألا وهي طبقة الحاكمين. فالحكام لم ينظروا للأفندية إلا آذاناً تسمع لهم، وعيوناً تنظر لهم وأيدي تعمل لهم، فالأفندية مجردون من الفكر والرأي، يأتمرون بما يأمرهم به المستعمر، وقد فطن لذلك الشيخ عمر إسحق وسيد أحمد الفيل والشيخ أبو دقن وأحمد عثمان القاضي فنبهوا الموظفين لذلك، طالبوهم بأن يكون لهم رأي في مسيرة الحياة السودانية، واستيقظ فكرياً في تلك اللحظة جيل جديد قرع له الأجراس السيد حسين شريف. هذا الجيل بدأ بعبد الرحمن علي طه وعوض ساتي والشيخ مصطفى وحسين أحمد عثمان الكد ومكاوي يعقوب، فكان هذا الجيل هو مطلع الوعي الوطني والفكري لأنه أدرك الأمور في منظار سوداني، لا يميل نحو أي شق من شقي الحكم الثنائي، ويمثل هذا الجيل تاريخياً عبد الرحمن علي طه الذي شارك في كل ضروب الثقافة والمعرفة منذ سني الدراسة في كلية غردون، فمثل في المسرحيات وأنشد الدوبيت ونافس في مباريات كرة القدم، وناظر وحاضر، وامتاز بأنه خطيب بارع، فلما بدأت البعثات إلى جامعة بيروت الأميركية استثنى عبد الرحمن علي طه لأنه كان عالماً بكل ما يمكن أن يدرس في كلية غردون، فهو معلم ممتاز للغة الإنكليزية، ومدرك بارع للرياضيات، وأستاذ للتاريخ وعلم الأحياء والجغرافيا والأدب العربي، وكم تاق

في تلك الفترة أن ينال شهادة جامعية، ولكن قدره وضعه مدرساً في كلية غردون ليدرس صنوفاً من المعارف، ويحظى بالترقية على حد سواء مع الجامعيين، ولما أنشئت بخت الرضا عين لها علي حسن ليعمل مع المستر جريفث لكنه اختلف معه، فدرس رجال المعارف أحوال المدرسين الذين يقدرون على العمل المتواصل ومسايرة الآخرين، وإن اختلفوا معهم في آرائهم، فلم يجدوا غير عبد الرحمن علي طه الذي وطد نفسه ليكون تلميذاً خالداً يقرأ ويدرس ويدخل الفصل ويوجه، ونجح عبد الرحمن علي طه، وصحب معه مكي عباس، فكان عبد الرحمن أستاذاً جديراً بهذا اللقب، فعكف وحده يدرس علم النفس والتربية. وفي عام ١٩٣٧ وفدت بعثة اللورد (دي لاوار) للسودان واجتمعت بعبد الرحمن علي طه، وأعجب أعضاؤها به، وقالوا إنه لجدير أن يكون أستاذاً في جامعة أخرى وليس هو الذي يحتاج لدرجة جامعية، وقبل ذلك اعتذر عن الذهاب إلى جامعة بيروت في الثلاثينات وفضل أن يذهب أخوه الأصغر عبد الحليم علي طه مكانه، وأول ما بدأ به عبد الرحمن في بخت الرضا هو تدريس طريقة التفكير المستقيم، والوسائل الصحيحة للقراءة والبحث وطرق التلخيص، ثم عرج بعد ذلك إلى تدريس التربية الوطنية وانتقل بعدها إلى الجغرافيا المحلية وطرق كسب العيش، وعبد الرحمن علي طه موهبة، فهو شاعر ينظم الشعر ارتجالاً، فتجده في بعض الأحيان يدرس بالشعر، ولما نجحت تجربته سعى وجذب الموهوبين من المدرسين للعمل في بخت الرضا، فجاء الشيخ مصطفى الباقر السيد محمد وجمال محمد أحمد والدرديري عثمان ومحمد عمر أحمد والشيخ إبراهيم عمر وحسن أحمد يوسف، وجعل من بخت الرضا منارة طغت على قسم المعلمين في كلية غردون الذي ألغي منذ عام ١٩٣٩ بتقاعد المستر لين، وجذب سر الختم الخليفة إلى بخت الرضا، وجاهد في إتاحة بعثات لهؤلاء المعلمين، يتلقون فيها التدريب والدراسة الكافية للعمل في فروع التعليم المختلفة، وأدخل التربية الريفية وأعاد قسم مدرسي المدارس الأولية الذي ألغي منذ عام ١٩٣٢ فتخرج على يديه عبد اللطيف عبد الرحمن وبابكر محمد أحمد ومحمد عبد الحليم ومحمد خير عثمان وإدريس جماع وغيرهم، وهيأ كل القروض لإنشاء معهد معلمي المدارس الوسطى بدءاً من تدريب المعلمين في دراسات دورية بدأت منذ الثلاثينات ثم عممت في الأربعينات، يتلقى فيها المدرسون محاضرات في التربية وعلم النفس والمناهج، وبادر عبد الرحمن علي طه بتجديد المناهج في المدارس

الأولية وإخراج الكتب المدرسية إذ لم يعرف في المدرسة الأولية غير كتاب المطالعة العربية والمصحف الشريف، فاستطاع أن يوصل الكتاب في كل مادة للتلميذ الذي اعتمد على الإملاء أولاً لكتابة الدرس، والحفظ ثانياً، فحرر التلميذ السوداني من الحفظ والببغاوية ووفر له الحرية الذهنية، ووجه لإخراج سلسلة جيدة لمكتبة الطفل السوداني، وبعد ذلك انتقل إلى المدرسة الوسطى فخرجت كتب المقررات للتلاميذ بعدما كانت الدروس كلها محفوظات، ما عدا كتب اللغة الإنكليزية، هذا العمل الجليل هو المفتاح لتحرير الذهن السوداني.

ولما قامت الجمعية التشريعية أصبح عبد الرحمن علي طه وزيراً للمعارف في عام ١٩٤٩، فقد كان من المؤمنين بالتطور المعادي للطفرة، وبعد ذلك تفرغ للعمل في السياسة وأخرج كتاباً عن السياسة السودانية فهو مرجع لتاريخ مراحل السياسة السودانية حتى الاستقلال، وكان آخر منصب سياسي تولاه هو وزير الحكومة المحلية في عام ١٩٥٧ وانتهى اشتراكه السياسي منذ انقلاب ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨ فأقام في العمارة ود طه، وتفرغ للراحة والاستجمام، فكان تلاميذه يحجون إليه ويواصلونه، وعاش عبد الرحمن علي طه ملء السمع والإجلال موقراً من كل الأجيال لأنه معلم مرشد في الحياة السودانية، ولعبد الرحمن علي طه دراسات ومقالات متخصصة وأوراق وذكريات لم تر النور، فلو جمعت ونشرت لأضافت الكثير في حياتنا الفكرية، وأبناؤه قادرون على ذلك، وقد كان حريصاً على كل ما كتبه، وكان في بخت الرضا طرف من هذه الدراسات، واليوم بعد أن قامت كلية التربية، فطلبتها وأساتذتها قادرون على ذلك.

عبد العزيز الكابلي [١٩٠٥ ـ ١٩٤٧]

كان كثير من الشبان يفضلون العمل بعد إتمام الدراسة الوسطى عندما يقبلون في كلية غردون وبالأخص أبناء البحر الأحمر، ولكن عبد العزيز الكابلي وشقيقه يحيى الكابلي واصلا سيرهما وأتما تعليمهما بكلية غردون، وعاد عبد العزيز الكابلي الأديب الفنان إلى بورتسودان فعمل فترة في مصلحة الجمارك واستقال ليستقر في بورتسودان، لذلك التحق بشركة جلاتلي، ثم ترك العمل ليعود إلى الوظيفة الحكومية.

عُرف منذ فجر شبابه بحبه للأدب والفن والرياضة والتمثيل، فكان من المعجبين، وقد حفظ بعض روايات شكسبير، كما استظهر كثيراً من المشاهد في الروايات وأدمن قراءة الشعر العربي القديم والحديث، كما كان يعزف على العود الأغاني المصرية والحجازية والسودانية وأحب الرحلات في البحر وصيد السمك وتعلق بالغناء السوداني، فكان صديقاً لمحمد أحمد سرور، وكثيراً ما جاء سرور ضيفاً ليحل في بيت عبد العزيز الكابلي، وما من مرة وفد إبراهيم عبد الجليل إلى بورتسودان إلا كان ضيف عبد العزيز الكابلي. وفي منتصف الثلاثينات قضى الأديب السوداني معاوية نور طرفاً من الشتاء مع عبد العزيز الكابلي في بورتسودان.

إن عبقرية عبد العزيز الكابلي هي عبقرية في فن الحياة، رجل أنيق في حديثه، أنيق ساحر في ملابسه وسمته، وعبقري في سهراته وأسماره، فمن لم يسمر مع عبد العزيز الكابلي تلك الفترة لم يذق للسمر والمؤانسة طعماً، صفاء في الذهن وسحر في اللفظ وجمال في الروح لا يقحم الحديث، ولا يشق في المؤانسة، مجلسه مراجعات في الأدب، يتحدث عن شوقي فتود أن تكتب حديثه، ويغني يا جارة الوادي ويا

شراعاً من وراء دجلة يجري، فتعجب لهذا الفن الثر، ويعرج على إبراهيم عبد الجليل فيعالج في الضواحي وطرف المدائن ويحكي ذكرياته مع إبراهيم عبد الجليل، كان محفوظه من الشعر القومي غزيراً جداً، فحافظته توائم ذاكرته، وبعد ذلك تجده في المجلس يتحدث عن الشؤون العالمية فيدهشك باطلاعه، فهو عندما تراه في الصباح وهو ينزل من القارب البخاري في اسكلة بورتسودان تلمح المانشستر جارديان والتايمز وكتاباً في يده، موفور الصحة، أنيق الملبس، مطمئناً في مشيته وسيجارته مشتعلة في زهو وشباب.

كان عبد العزيز الكابلي رجلاً وحده لأنه فنان، يدلف إليه الشبان يستعيرون منه الكتب والقصص والأسطوانات، فما من أسطوانة لعبد الوهاب أو أم كلثوم أو لفنان سوداني إلا كانت لديه، ولأول مرة نسمع لخليل الأغاني السودانية ومناسباتها، سمعنا ذلك من عبد العزيز الكابلي، لقد عاشر كل الفنانين السودانيين في تلك الفترة، فقد رأينا زنقار عندما دعاه عبد العزيز الكابلي، وشاهدنا عبد العزيز الكابلي ونحن أطفال صغار يلعب كرة القدم، ولكننا لم نكن نسعى لشيء غيره في تلك اللعبة، رأيناه يمثل في عطيل وتاجر البندقية، فكانت ألفاظه جميلة ونبراته المحكمة هي التي جعلتنا نعجب به.

وسمعنا بعد ذلك من هم أكبر منا، إن خير محلل للأدب العربي الحديث، وبالأخص لطه حسين وزكي مبارك والمازني هو عبد العزيز الكابلي، فتهافتنا على مجلسه، فكنا نصغي له ولا نسأله، لأن السؤال يفسد حديثه ويفسد الروعة التي تملأ قلوبنا.

حكى أندريه جيد فقال إن أوسكار وايلد كان أعظم المتحدثين، حتى إن الناقد المؤرخ وليام باتر عندما كان في فراش المرض توسل لأوسكار وايلد أن يجلس إليه، ويتحدث، وقد استمعت لكثير من المتحدثين البارعين في حياتي في الشرق والغرب، ولكنني أذكر عبد العزيز الكابلي المتحدث الفنان، وقد كان محمد أحمد محجوب عندما يحضر إلى بورتسودان ويجلس مع عبد العزيز الكابلي يقول: يا كابلي لا فضَّ فوك تكلم أو غَنِّ إنهما سيان، لم يكن عبد العزيز الكابلي رجلاً عاماً والله لكنه كان من خاصة الخاصة، فالذين سعدوا بلقائه يذكرون هذا الفن الخالد، فهو لا يشتكي الدهر ولا

يحضر على الآخرين ولا يحسد أحداً، لأنه كان يعيش في ملكوت الصفاء والجلاء، لذلك حج إليه كثير من المثقفين من مدن السودان فاحتفل بهم واحتفلوا به، وربما كانت المواهب والطباع تتوارث، فشقيقه يحيى الكابلي كان معروفاً، لم يقل عنه، لكنه ترك بورتسودان في خلال الحرب العالمية الثانية وسكن في سواكن، وقال عنه من عرفوه أنه كان من نفس المعدن والطراز ولكن عبد العزيز الكابلي الحافظ لتراث الأدب الشعبي والفنان والمتحدث والقارئ المتمكن في اللغتين كان جديراً بأن تسجل أحاديثه وأسماره، فهو الذي قدم الفن الغنائي المنبثق من العاصمة إلى بورتسودان، وهو الذي دعا الفنانين إلى بورتسودان فغنوا وربطوا بين أبناء هذه الأمة.

ولا ننسى أن عبد العزيز الكابلي قد أخرج «تاجوج» في الثلاثينات في بورتسودان وأشرف على تمثيلها، وجدير بالذكر أن عبد العزيز الكابلي هو والد الفنان عبد الكريم الكابلي، فإن كان قد فات أبناء هذا الجيل أن يروا فناناً عاش قبلهم فها هم يرون الملامح في عبد الكريم الكابلي.

عبد الفتاح محمد المغربي [١٨٩٨ ـ ١٩٩٠]

العقد الثالث من القرن العشرين، قدم للسودان إشارات اليقظة، ففي ذلك العقد أشعت أطياف الوعي، واستيقظ المتعلمون السودانيون لا سيما والثورة المصرية قد نبهت المتعلمين من نومهم، وأحسَّ الاستعمار بذلك فتبوأ كثير من المعلمين مناصب الإدارة، وكانت تلك المناصب يوضع فيها غير المؤهلين ليضمن الاستعمار ولاءهم. ففي مطلع العشرينات تبدلت الأجواء في سياسة الاستعمار، وإن كان الاستعمار حاول أن يغري المتعلمين أن يلتزموا التقاليد السودانية وألا يحاكوا الغربيين، فانتشرت المكتبات العربية في كل البلدان الهامة، ورقي مدرسو اللغة العربية والدين الإسلامي، وبادر الاستعمار إلى جمع الأعيان وشيوخ القبائل ورؤساء العشائر واستمعت الحكومة لأفكارهم وآرائهم، وإذا رجعنا إلى جريدة الرائد وحضارة السودان نلاحظ أن الحركة الإصلاحية قد وجدت من التشجيع مما يجعلنا نتساءل عن هذا التحول، كما أن مكتب المفتش العام الذي ألغي بعد أن نحي عنه سلاطين باشا عاود نشاطه وسمح للمواطنين أن يقدموا شكواهم ويطعنوا في رجال الإدارة. وفي تلك الأثناء تخرج عبد الفتاح محمد المغربي مدرساً من كلية غردون في عام ١٩٢٢ واشتهر بأنه رجل أديب ورياضي، وقد أحبه تلاميذه لقدرته في إمتاعهم بإلقاء دروسه ومشاركته لهم في الألعاب الرياضية. ولما يمض عامان حتى هبت ثورة ١٩٢٤ فكان عبد الفتاح من المتعاطفين مع هذه الثورة، ولكن تعاطفه لم يكن مرصوداً في أوراق اللواء الأبيض، لذلك لم تستطع السلطات أن تتعرف عليه، وبعث الشيخ عبد الفتاح المغربي إلى جامعة بيروت الأميركية فتخصص في الرياضيات ونال البكالوريوس في الآداب. ولما عاد استقر به المقام في كلية غردون، فشجع قيام الحلقات الأدبية

والثقافية ووجه لقراءة الكتب في الفلسفة والآداب والتاريخ، فكان مرجعاً من المراجع التي يلجأ لها الطلبة، ووقف خلفهم في إضرابهم في الثلاثينات وأوضح لهم الطريق، ولكن أصابته خيبة أمل عندما اتهم بأنه أحد المحرضين... ولما تكونت الجمعية الأدبية كان من المشاركين الدائبين في نشر الثقافة واكتساب المواهب. فقد تعرف على الفنانين والرسامين والشعراء من أبناء الكلية واستمع لهم واستمعوا له، كما أنه كتب في مجلة غردون، وبدأ يقوم برحلات في الأقطار العربية وآسيا الصغرى، وكتب عن تركيا الجديدة، وكانت التجربة التركية مدار النقاش والإعجاب في كثير من البلاد الشرقية ولم تعرف كلمة البلاد العربية حينذاك.

وامتد نشاط عبد الفتاح المغربي إلى الصحف المحلية ولما تكوّن المؤتمر كان عبد الفتاح المغربي من أبرز أعضائه، ولكنه انصرف فترة للعمل لتطوير كلية غردون من مدرسة ثانوية إلى مدارس عليا، ولما تم ذلك أصبح عبد الفتاح المغربي أستاذاً للرياضيات في المدارس العليا، فقد درس عليه طلبة العلوم والهندسة والرياضيات، وكان من أبرز الأساتذة في هذه المرحلة، وتقاعد عبد الفتاح المغربي ولكنه ظل متصلاً بالحركة الوطنية، ولما نال السودان استقلاله اختير عبد الفتاح المغربي عضواً في مجلس السيادة فتحول عبد الفتاح المغربي إلى الأعمال والمنشآت وابتعد عن السياسة الحزبية بالرغم من صداقاته مع كل المعسكرات.

حاول عبد الفتاح المغربي أن يصمم فكرة بناء المنازل عن طريق مؤسسات، ونجح في هذه المؤسسات إلى حد ما، وقامت فكرته على التخطيط لأن الاعمار العشوائي يؤثر في بنية المجتمع، وبدأت هذه المؤسسات إنشاء منازل في حلة كوكو متكاملة بشوارعها وكهربائها ومائها، كما أنها ساعدت أصحابها وأبعدتهم عن القروض لأنها استندت على نظام التقسيط المريح، فهي التي تؤجر هذه المنازل ومن الإيجار تسدد القروض، فالاستثمار قد خفف العبء على صاحب المنزل، كما أنه حاول أن يحل مشكلة الإسكان، كما أنه قدم منازل نموذجية.

والمجتمعات في العالم الثالث سريعة التحول، ولا تعرف التأني، لذلك لم تستمر هذه الفكرة... فانصرف عبد الفتاح المغربي إلى مزرعته، وكاد أن ينقطع عن المشاركة في الأحداث.

عبد الفتاح المغربي ذو ذهن رياضي. في السياسة بشر بعدم الاتصال والاعتراف بالطائفية في مؤتمر الخريجين، وابتعاد المؤتمر عن النعرات القبلية والعشائرية، فنظر إليه المتحمسون لإذكاء حركة المؤتمر وتعميمها في السودان، إنه يريد المؤتمر للصفوة دون إشراك الجماهير، ولكن رأي عبد الفتاح أن الأمية منتشرة انتشاراً عظيماً في السودان والمؤتمر حركة تعليمية وحركة إرساء وتوجيه، توضح الطريقة للمواطنين وليس حركة لاستقطاب الجماهير وجمعها في تكوين حزبي، وكان هذا من الأسباب التي أضعفت المؤتمر وقسمته إلى أحزاب، فمؤتمر الخريجين قام كمدرسة ولم يقم كحزب، لذلك انفض عنه الكثيرون.

لا شك أن عبد الفتاح المغربي المعلم وعبد الفتاح المغربي المرشد وعبد الفتاح المغربي السياسي له قسمة في تاريخنا الحديث، فإننا ندين له بأنه فتح الآفاق ووجه الأفكار لإدراك دقائق الأحداث السياسية ولكن الهرج والمرج في أثناء الثورة الوطنية يخفي كثيراً من الحقائق، والمستقبل كفيل بكشفها. ومع ذلك يبقى ظل عبد الفتاح المغربي موضع التجلة والإكبار، كما كان، منذ ولوجه طرق العمل في الحياة الاجتماعية.

عبد القادر أوكير القاضي [١٩٠٢ ـ ١٩٨٠]

سواكن الميناء الزاهر في القرن التاسع عشر كانت ملتقى حضارات الشرق والغرب، ولكن في الوقت نفسه كانت منعزلة عن الأماكن المحيطة بها. فالذين يسكنون فيها قد يؤثرون في مجرى الحياة ويتأثرون بمجرى الحياة في تلك الأنحاء، ولكنه تأثر متوازن وتأثير محدود، فالأقوام أمشاج من الأمم استوطنوا سواكن تجاراً ورجال أعمال. فبعضهم جاء من البلاد العربية وبعضهم وفد من أواسط آسيا وبعضهم جاء من الهند وسواكن جزء من الامبراطورية العثمانية أضافتها لمصر فبقيت لتحكم باسم مصر، وأنشأت مصر بها مدرسة ابتدائية، وعينت لها المعلمين، كما أن القضاء كان تابعاً لمصر، وطردت الثورة المهدية الحكم التركي، ولكن بقيت سواكن تُحكم باسم مصر، والثوار يهددونها، وعثمان دقنة يشن غاراته ويغزوها. وفي تلك البيئة بدأت معالم الوعي تنتشر بين أهلها، فبايع الكثيرون منهم عثمان دقنة بالرغم من وجود الأسرة الميرغنية في تلك البقاع، وانتشر أنصار المهدية بين أهلها، فبدأت تدخل الحياة السودانية وتبتعد عن عزلتها، وكان الأنصار في سواكن يقرأون ويكتبون، وقد ارتقى عندهم الحس الحضاري، وأدركوا أنهم ينتمون لبلد واحد هو السودان، وعند ازدهار ذاك الوعي نشأ إبراهيم علي مرزوق، وإبراهيم محمد حمو، ومدني يحيى وآل الصافي، وآل بعشر، وآل بازرعة ومحمد صالح ضرار وكاظم، فالانشطار في البيئة السياسية حتمي، فبعضهم اتجه نحو المهدية وكان ذاك اتجاهاً جذرياً تقدمياً في رفضهم للحكم التركي والاستعمار البريطاني الذي استقر في سواكن ومصر. وبعضهم وقف ضد المهدية ولم يؤيد الحكم التركي. وفي تلك البيئة التي سبقت ميلاد عبد القادر محمد أوكير تبلورت روافد الثقافة في سواكن فاهتم أثرياؤها بالمكاتب واقتناء الكتب، وعقد

الندوات الأدبية، فما من بيت وإلا رأيت فيه أمهات المراجع، في التراث العربي، فهناك الأغاني، والأمالي وعيون الأخبار وأخبار الحكماء، وتفسير الطبري، والبيان والتبيين، والعقد الفريد. وسقط السودان بعد ذلك في يد الحكم الثنائي، وعادت سواكن جزءاً من السودان، وقامت مدرسة سواكن الابتدائية في زهو وافتخار، فالحكومة كانت تختار الأكفاء من الأساتذة، فقد درس فيها الشيخ أحمد عثمان القاضي والشيخ البشير الفضل والشيخ محمد مجذوب جلال الدين والشيخ عبد الله عبد الرحمن والأستاذ محمد حسن دياب، وكان نظارها في بادىء الأمر أساتذة مصريين أكفاء، منهم عبد الله العربي، وقد اهتموا بتدريس الترجمة، كما أن اختيار التلاميذ قام على موازين دقيقة، فأبناء الموظفين يقبلون لأن الحكم الثنائي اهتم بخلق طبقة متصلة بالوظيفة كابراً من كابر، فهؤلاء الأبناء لهم الأولوية، أما أبناء الشعب من البسطاء فحظهم موقوف على ذكائهم، وتزكية الإدارة البريطانية في الاختيار، فحظي منهم القليل ومن القليل برزت قلة، واستطاعت أن تشق طريقها إلى الثقافة والمعرفة، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ عبد القادر محمد أوكير القاضي، نشأ عبد القادر بسواكن وتعلم في مدرستها الابتدائية، وتفوق على أقرانه، وعرف بإجادته التامة للغتين الإنكليزية والعربية، والتحق بعد ذلك بكلية غردون، ولما تخرج عمل مدرساً في مدرسة بورتسودان الابتدائية، أي المتوسطة بلغة اليوم، وقد استمر زمناً طويلاً منذ تخرجه وحضر المرحوم عمر سليمان، والمرحوم أحمد محمد صالح، الأستاذ حمزة فتحي، والمرحوم أحمد البشير الطيب، حتى انتدب للعمل في عدن عام ١٩٣٦. وفي تلك الأثناء برز عبد القادر أوكير محاضراً وكاتباً ومترجماً، فقد ألقى محاضرة عن القديم والحديث في عام ١٩٣٤، واستمع إليها المرحوم الأمير شكيب أرسلان والمرحوم هاشم الأتاسي، وهما في طريقهما للوساطة بين اليمن والسعودية، وطربا لما سمعاه، حتى أن الأستاذ الشاعر الكبير عبد الله عمر البنا شده إعجابه بسحر حديث أوكير فمدحه في التو والحين بقصيدة عامرة الأبيات، وقد كان الأستاذ البنا مدرساً بمدرسة بورتسودان الابتدائية حينذاك ونشرت المحاضرة في حضارة السودان.

وشارك الأستاذ أوكير في تأسيس نادي مستخدمي حكومة السودان، وأدار المحاضرات والمناظرات حتى تأسس نادي السواكنيين فأشرف على جمعيته الأدبية، وفي عام ١٩٣٥ وفد الدكتور شمس الدين عبد الحق، وهو هندي مسلم، وبدأ سلسلة

من المحاضرات عن الإسلام باللغة الإنكليزية، فتولى ترجمتها على الفور الأستاذ أوكير وأعجب بما في الأمر أن الدكتور شمس الدين عبد الحق يلقي حديثه بالإنكليزية ويذكر الأحاديث النبوية بالإنكليزية، والأستاذ أوكير يترجم الحديث ويعيده إلى أصله، ما عدا الآيات القرآنية التي كان الدكتور شمس الدين عبد الحق يذكرها أولاً بالعربية، فينبري الأستاذ أوكير فيترجمها إلى الإنكليزية، لأن الذين حضروا تلك المحاضرات لم يكونوا كلهم ناطقين بالعربية، ودامت المحاضرات أسبوعاً، والمدينة كلها تتحدث عن أوكير وعن قدرته الفائقة، ففي بورتسودان عاش في تلك الفترة الأستاذ حبيب سلامة مترجم طاغور، والأستاذ شاهين وهو لبناني تخرج من الجامعة الأميركية، والمستر لي الذي عرف بالشيخ لي، وحضر المحاضرات المرحوم محمد حسن كامل، كل هؤلاء أثنوا على مقدرة أوكير في الترجمة والصياغة.

عُرف الأستاذ أوكير باختيار الكلمة المناسبة في إيجاز كمترجم، وبالأمانة والدقة، فعهد إليه أن يترجم كثيراً من مطبوعات الحكومة حينذاك، واختير ليدرس اللغة الإنكليزية في كلية غردون مع الأستاذ أحمد محمد صالح، فتدريسه للأدب الإنكليزي لم يقم على شرح النصوص والكلمات، بل على إجلاء الصور والتركيز على رصد الشخصيات، فهو لا يملي ولا يكتب مذكرات، ولكنه يوضح الشكل والمضمون، وقد ألم بنظريات النقد، لكنه لم يستخدمها كأساس، لأنه يرى في تزيينه الذوق الفني، الطريق في إدراك الحس الفني، وقد يقارن بعض الصور بما يتفق معها في اللغة العربية، فهو ينقل الطالب في يسر رقيق إلى ما يحيط النص ثم يتركه يجد التفسير بنفسه، فهو يرى الأدب هبة وتذوقاً وحساً قبل أن يكون علماً تُرسم له القواعد، وإذا رأيته يدرس ظننت أن يستأنس ويؤانس، وقد تفوت على غير الحصيف إشراقاته. ونقل أوكير في الأربعينات ليعمل مفتشاً للتعليم في مديرية كسلا التي كانت تضم إليها بورتسودان، فعمل أولاً على توطين البدو، وفتح مدارس لهم، ونشر التعليم بين الذكور والإناث والاهتمام بتدريس اللغة العربية بين البجة، وبذلك كان من أوائل العاملين في تأسيس الوحدة الوطنية بفتح هذه النافذة في منطقة البجة، واستطاع أن يكسب ود الشيوخ والنظار في تلك الجهات واستعان بأبنائهم الذين أحبوا التعليم واندرجوا في صفوفه، وبعضهم قد تفوق وبرز في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية. وكان أهل البحر الأحمر لا يحبون الانتقال من منطقتهم ولا يرغبون البتة في

مواصلة الدراسة بعد المرحلة الوسطى فشجعهم ومهد لهم، فكان أول طبيب في هذه المنطقة هو المرحوم الدكتور طه بلية وبعده الدكتور طه بعشر، وكان من أوائل المدرسين، عبد الله محمد سليمان وضرار صالح ضرار ثم جاء الغيث بعد ذلك. وهل ننسى فضل عبد القادر أوكير علينا وقد علمنا، ووجهنا ونحن صبية صغار درسنا عليه الجغرافيا والتاريخ، فحديثه عن تاريخ السودان القديم وترجمته الفورية لقصة سواكن، تلك المحاضرة التي ألقاها الدكتور بلوس في الثلاثينات، كل هذه أشعلت في عقولنا نيران النهم نحو اقتناص المعرفة، ويعتبر عبد القادر أوكير الحجة الباقية في تاريخ البجة وحياتهم الاجتماعية والسياسية، فإن كان المرحوم محمد صالح ضرار قد كتب عن قبائل البجة وأنسابها العربية وربط بينها وبين التاريخ الإسلامي، فأوكير هو المرجع في بيئة البجة الثقافية والاجتماعية وهو الذي أبعد عن هذه المنطقة العنصرية والانطلاق الإقليمي، فتربى حامد أحمد حمداي الأديب المعروف بين يديه.

إن تاريخ الثقافة والمحاضرة في السودان يدين لعبد القادر أوكير بالكثير، إذ إنه رائد من رواد السودان الحديث، فقد ولد في عام ١٩٠٥ وتخرج من كلية غردون في عام ١٩٢٤ وكان من زملائه المرحوم الأستاذ علي حسني، والدكتور زكي نجيب محمود، الذي درس في كلية غردون، والمرحوم حماد توفيق، وعمل كما ذكرنا آنفاً بالتدريس وكان آخر مناصبه في التعليم توليه وظيفة الملحق الثقافي لجمهورية السودان بمصر ثم تقاعد في المعاش وعمل فترة مديراً لمصنع الكرتون ثم مديراً لمدرسة باوراث الثانوية العليا.

عبد الله حسن كردي [١٨٨٣ ـ ١٩٥٤]

الثقافة العربية واللسان العربي والدين الإسلامي، كل هذه العناصر كانت هي الأسس الرئيسية التي جمعت شمل السودان العربي الافريقي، فما من عربي مسلم إلا واستطاع أن يمتزج في الوجود الحضاري للسودان وأصبح جزءاً منه، وليس هذا القول تعصباً بل هو الحقيقة التاريخية الماثلة في الحياة السودانية، فعبد الله حسن كردي نشأ أسلافه في كسلا وتنقلوا بين سواكن وطوكر وسنكات وبورتسودان وكان في بداية حياته يفاخر بأنه كردي وأنه من الفاتحين الحاكمين، فالذي ينظر في ملف خدمته يجد هذا الترفع، ولكن بعد عام ١٩٠٨ نجده يصل إلى الاطمئنان بسودانيته وعروبته ويدافع عن العرب وعن الإسلام وعن حرية السودان.

نشأ عبد الله حسن كردي في منطقة كسلا وتلقى طرفاً من التعليم الابتدائي ولكنه عكف على قراءة علوم اللغة والدين الإسلامي، ودرس دواوين الشعراء الفحول في الأدب العربي وشغف بالتاريخ الإسلامي وتعلق في مطلع حياته بالخلافة الإسلامية وعمل في المراكز والمديريات في كثير من أنحاء السودان حتى طاب له العمل في دامر المجذوب فهنالك توثقت علاقاته مع المجاذيب ونشأ ود عميق بينه وبينهم، فطبيعة نفسه صوفية مترفة، وروح شعره إسلامي عربي، ومحفوظه في التراث ثر ومتقي، وكان الشيخ محمد مجذوب جلال الدين رحمه الله من أعز أصدقائه، وتعرف على أبنائهم عبد الله الطيب المجذوب ومحمد المهدي المجذوب وكان قبل ذلك قد اشتهر بقصائده الموسمية في ذكرى الهجرة والاحتفال بالمولد ووداع الأصدقاء ومدح الأولياء والتعبير عن سوانحه وخواطره، وكان في إبان شبابه يقضي الصيف في سنكات

ويزور بورتسودان في الشتاء، يغشى أهله وأنسباءه، فعلاقة الرحم والنسب بينه وبين أسرة محمد حمو في بورتسودان معروفة، وعلاقة القربى بينه وبين أهل الكردي في طوكر كانت مؤثلة ولكنه بعد الثلاثينات انقطع عن زيارة البحر الأحمر، عدا زيارات لسنكات في أوقات الصيف.

تميز عبد الله حسن كردي كشاعر بالديباجة العربية الخالصة والفحولة في اللفظ والفخامة في العبارة، فأداؤه مجود مدروس يتقصى فيه آثار الأقدمين، فمن يقرأ قصائده يرى روح الشريف الرضي ومهيار الديلمي، ولا شك أنه تأثر بالبارودي، فقد حفظ مختارات البارودي ووعى كثيراً من الحماستين، حماسة أبي تمام وحماسة البحتري. وقد قرأ كتب التاريخ العربي واحتفل بالبطولة الإسلامية، فثقافته حددتها طبيعته الفنية وموهبته الشاعرة، لذلك انحصر في هذا الميدان دون غيره، وإن كان من المهتمين بقراءة الصحف والمجلات العربية ومتابعة الأحداث العالمية والإسلامية، فالجيل الذي نشأ فيه كان جيلاً عربياً إسلامياً، والشعراء الذين برزوا في جيله هم: عبد الله عمر البنا وعبد الله عبد الرحمن ومحمد الأمين القرشي وحسيب علي حسيب وحتى الذين جاءوا بعدهم كعبد الرحمن شوقي ومدثر البوشي وصالح عبد القادر وأحمد محمد صالح ومكاوي يعقوب وتوفيق صالح جبريل، مع أن بعضهم تلقى ثقافة غربية، إلا أن هذه الثقافة لم تنعكس في شعرهم، ولم تظهر إلا في الجيل الثالث إلى حد محدود في شعر محمد أحمد محجوب ويوسف مصطفى التني ومحمد عشري الصديق ومرضي محمد خير.

وإذا قارنا شعر الكردي بمعايير ذلك العصر نجد أن شعره أكثر نقاء وأعظم صلة بالروح العربية الإسلامية من كثيرين، وحتى مطلع الجيل الثاني لم يكن محمد سعيد العباسي قد ظهر وتبوأ مركزه في مملكة الشعر العربي الخالص، فإذا قارنا الكردي بالعباسي نجد تشابهاً، إلا أن العباسي يتألق حسناً وجمالاً احتفالاً في سبكه المحكم وألفاظه التي تطاوع المعنى، ولا يقوم المعنى إلا بها ولا تقوم إلا به. فالكردي يندفع مع حبه ولا يلتفت للتبديل والتغيير والبناء، فطبيعة العباسي الموسيقية وقدرته على الإنشاد هي التي أتاحت له هذه الميزة، غير أن الكردي توفرت له ملكة الإرسال فهو صاحب القصائد الطوال، فلو تهيأ له أن ينظم الشعر القصصي لوصل إلى مرتبة أحمد محرم الشاعر المصري الذي نظم الإلياذة الإسلامية.

كان الكردي رحمه الله يبتعد عن الندوات والمجتمعات، فمجاله مع الخاصة، برغم ذلك اشتهر وذاع صيته وتعرف عليه السيد محمد الخليفة شريف، وكان محباً للشعر وراوية له، فاهتم بشعره، وإن كان الكردي لا يعتنق أي فكر سياسي يصله بالأنصار، ولم تدم هذه الصلة كثيراً، فشعره كان ينشر في جريدة صوت السودان لسان حال الختمية. تعاقبت خصومة بينه وبين الشاعر صالح عبد القادر، هجا كل منهما الآخر، سجل الأدب السوداني بتحفظ هذه النقائض. كما أن الكردي كان يعارض قصائد معاصريه من الشعراء السودانيين العرب، وقد عارض قصائد شوقي في الخلافة الإسلامية وسقوط الدولة العثمانية وبكى على سقوط السلطان ويلدز.

وإذا نظرنا إلى شعره في العشرينات لا نجد له مشاركة في التيار الثوري ولكنه في الأربعينات وقف ضد الاستعمار وأظهر مشاعره نحو الحرية.

وللكردي ديوان كانت تحتفظ به ابنته رحمها الله كاملاً وقد بوبته وكانت تعرف مناسبة كل قصيدة. وفي عام ١٩٦١ حصلت من ابنيه على قصائد له لم تنشر، فالكردي ينظم الشعر منذ عام ١٩٠٥ حتى وفاته، وهو ينظم قصيدة في رثاء السيدة مريم الميرغنية في عام ١٩٠٤. فحري بالمحققين عندما ينشرون ديوانه أن يعوا هذا الشعر، فكثير منه مخطوط غير منشور، وقد كتب الدكتور عبد الرحمن الخانجي مقالاً وثائقياً عن الكردي في مجلة الدراسات السودانية، كما أن أحد الدارسين قدم عنه رسالة الماجستير. فالكردي ظاهرة لها وزنها في الأدب السوداني فهو واحد من رواد الثقافة السودانية الذين أفسحوا الطريق للنور والمعرفة والأمل.

عبد الله خليل [١٨٩٢ ـ ١٩٧١]

الأسر المهاجرة من أقاصي صعيد مصر لها أواصر وقربى في شمال السودان، وأسرة عبد الله خليل هي من الكنوز الذين لهم أقارب في بربر وحلفا وفي دنقلا.. وكان والد عبد الله خليل تاجراً يتنقل بين مديريات أسوان وبربر وأم درمان، وتلقى عبد الله خليل تعليمه الأوسط بمدرسة بربر الوسطى، ومن زملائه المرحوم السيد عبد الله بكر والمرحوم السيد زين العابدين صالح أبو قاضي.

التحق عبد الله خليل بكلية غردون في قسم المهندسين وفي الوقت نفسه ألحق بالمدرسة الحربية وعرف بنشاطه الاجتماعي وصداقته مع المثقفين وحبه للغناء والطرب فهو الذي اكتشف التوم عبد الجليل كما اكتشف عبد الله الماحي.

ولما تكونت جمعية الاتحاد في الخرطوم كان عبد الله خليل من أعضائها، وهدف تلك الجمعية هي إنصاف السودانيين وتأهيلهم للمناصب التي كان يشغلها المصريون والسياسيون، وقامت بين الضباط السودانيين تنظيمات سياسية تدعو لطرد الاستعمار فاختير عبد الله خليل ضابط اتصال بين الوطنيين المكافحين وهذه التنظيمات. واتصلت هذه التنظيمات بجماعات وطنية تحريرية في مصر، ولما وفد السيد عمر الخواص في عام ١٩٢٢ اتصل بعبد الله خليل الذي قدمه إلى الشيخ حسب الرسول، فبارك الشيخ حسب الرسول الفكرة واتصل بكل مديريه في المدن والقرى واستدعى الحاكم العام عبد الله خليل وهدده ورجع الشيخ عمر الخواض إلى مصر.

نشبت ثورة عام ١٩٢٤ ولم يكن اسم عبد الله خليل مدرجاً في سجلاتها ولكنه كان مسؤولاً عن المال، كما كان الفريق إبراهيم عبود مسؤولاً عن توزيع المنشورات، وأقيمت المحاكم العسكرية فدافع عن بعض المتهمين كصديق.

بعد ذلك نشب أنصار اللواء الأبيض ومنعت السلطات والأحزاب المصرية أن تتصل بهؤلاء المناضلين أو تقديم المساعدة لهم، ومن طرف ثانٍ حاولت السلطات الاستعمارية البريطانية أن تستعمل بعضهم وتخلق لهم وظائف، وسلك بعض ضعاف النفوس في التودد للبريطانيين.

منذ ثورة عام ١٩٢٤ حتى الثلاثينات عكف عبد الله خليل على القراءة في اللغتين العربية والإنكليزية واتصل به بعض الشبان المثقفين في الثلاثينات كالمرحوم الأستاذ مبارك زروق والمرحوم الأستاذ محمد أحمد عمر والأستاذ يوسف مصطفى التني وكانت لعبد الله خليل آراء في السياسة والاقتصاد ولم ينكر أبداً دور مصر ولم يأسف على ما لقيه من الأحزاب المصرية.

لم يكن عبد الله خليل من المنتظمين في حركة الأنصار ولكنه كان يرى أن الموقف السياسي يتطلب الحنكة وعدم الاندفاع فالاستقلال هو الغاية.

أصبح عبد الله خليل نجماً بارزاً في حزب الأمة وانتخب أميناً عام لحزب الأمة ولم يفقد علاقاته مع كل رجال وشبان الأحزاب بل كانوا يجتمعون في منزله ويقيم لهم المآدب ويستمرون معه كما كانوا يلجأون له عند الشدائد.

وقد فتح عبد الله خليل بيته لكل الوافدين وربى الكثيرين الذين أسبغ عليهم من عطفه وماله وأتاح لهم سبل العيش والتعليم، وبعضهم تخرج من الجامعات وشغلوا وظائف عليا في الدولة.

دخل عبد الله خليل الجمعية التشريعية وأصبح زعيمها ووزيراً للزراعة، ولما تمت اتفاقية القاهرة وأجريت الانتخابات الأولى ورشح عبد الله خليل نفسه فاختار أم كدادة في غرب السودان ونجح ودخل أول برلمان سوداني.

ولما تم استقلال السودان ائتلف حزب الأمة مع حزب الشعب الديمقراطي وترأس الوزارة عبد الله خليل. وفي أثناء حكمه قامت أزمة حلايب فحلها بالحكمة،

كما أنه وقف مع مصر في العدوان الثلاثي وكان الرئيس المصري عبد الناصر يحترم عبد الله خليل مع اختلافه السياسي معه، وكان صديقاً ودوداً له ولما استولى العسكر على الحكم في ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨ اتهم عبد الله خليل بتدبير الانقلاب ولكنه أوضح أنه اشترط أن تكون هنالك حكومة عسكرية مؤقتة لمدة ستة أشهر وبعد ذلك يعود الحكم المدني.

ومنذ قيام الحكم العسكري حتى انتهائه في عام ١٩٦٤ عانى عبد الله خليل من الاعتقالات والحبس التحفظي وبعد ذلك ركن إلى الراحة، وقضى شيخوخة جليلة وقورة يحج الناس إلى بيته ويستأنسون برأيه وكان يرى أن لا حل لمشكلات السودان إلا في الوحدة الوطنية والعمل المشترك، فالأحزاب لا تخدم الأغراض ولا تؤدي لرفاهية هذا الشعب.

عبد الله عبد الرحمن [١٨٩٠ ـ ١٩٦٤]

كانوا أربعة يحتلون ساحة الشعر يتوق شوقاً لشعرهم القارئون والسامعون، لأنهم عودوهم على أصواتهم: البنا، الكردي، عبد الله عبد الرحمن والقرشي.

البنا لم يصمت أبداً والكردي ظل يغرد حتى ألمت به المنية، وعبد الله عبد الرحمن تعدى الحدود إلى عالم العروبة، والقرشي يذكر الناس بأمجاد الإسلام والحرية.

شاعرنا عبد الله عبد الرحمن سليل آل الضرير، أسرة اشتهرت بالعلم والدين، والفكي الأمين الضرير نظم الشعر ونشر شعره في جريدة الوقائع المصرية وفي جريدة الجوانب. وعبد الله عبد الرحمن الحفيد لازم الشعر ولازمه الشعر واجتاز الحدود فنشرت له مجلة الرسالة قصيدة في مقطوعات عن جمال السودان كما نشرت له الصحف المصرية كثيراً من القصائد في كثير من المناسبات السياسية.

تلقى عبد الله عبد الرحمن تعليمه الأولي في بيته ثم التحق بكلية غردون وتخرج من قسم المعلمين وعمل في المدارس الابتدائية والمدارس الوسطى وفي كلية غردون.

اشتهر عبد الله عبد الرحمن بكتابه «العربية في السودان» الذي خرج في أواخر العشرينات وأثار نقاشاً وسجالاً حتى مطلع الثلاثينات واشتبك حسين منصور مع عبد الله عبد الرحمن في جدال انتهى بحسين منصور لهجاء عبد الله عبد الرحمن والشيخ أحمد عثمان القاضي. هذا الكتاب هو دراسة جادة للألفاظ العامية السودانية ورد هذه الألفاظ إلى اللغة العربية الفصحى. ولقد استفاد من أبحاث عبد الله

عبد الرحمن السير هارولد ماكمايكل كما استفاد منه المستشرق هيلسون الذي كان يعمل مدرساً للتاريخ في كلية غردون وعلقت أمهات الصحف العربية على هذا الكتاب كما أثنت عليه دورية مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن.

نسي الناس بعد ذلك أن عبد الله عبد الرحمن لغوي متمكن حتى عينه المجمع اللغوي بالقاهرة عضواً مراسلاً.

هذه الدراسة للعامية السودانية وعلاقاتها مع اللغة العربية الفصحى لم يسبق عبد الله عبد الرحمن أي باحث لها، بل إنه هو الذي وضع الأساس لهذه الدراسات حتى أكملها الدكتور عون الشريف قاسم في قاموس اللغة العامية السودانية.

لم يتابع عبد الله عبد الرحمن دراساته في اللغة ولكنه انصرف لقول الشعر، وتعرض شعره لكثير من النقد في الثلاثينات ولكن الأساس الذي اعتمد عليه النقاد هو أساس سياسي لأن عبد الله عبد الرحمن كان من دعاة وادي النيل وقد طبع ديوانه في القاهرة كما أن المجلات الأدبية المصرية أطرت شعره وأشادت به بينما في السودان شعراء لم تلتفت لهم الصحافة الأدبية في مصر.

لم يحفل عبد الله عبد الرحمن بالفن في الشعر ولم يستعن بالأخيلة والصور.. بل إنه سار في طريق التعبيرية والسرد، كما أن براعته في النظم مكنته من الوصف الفوتوغرافي المجرد في بعض الأحيان من الظلال. التزم في شعره صحة اللغة، والقدرة على تطويع الكلمات ليصل إلى القارئ. فشعره أشبه بالعمارة، فيها صلابة البناء وقوة النحت، لذلك كان يختلف عن البنا الذي تمكن من التلاعب بالألفاظ، وإشاعة مسحة من الفكاهة الخفيفة. ولكن عبد الله عبد الرحمن لازم مذهبه، فإنك لا تستطيع أن تقارنه بأبي العلاء المعري الذي اختفى وراء صلابة شعره ليعبر عن آرائه، فأحكم ذلك. فطبيعة عبد الله عبد الرحمن لم تخبِّئ فكرة أو رأياً ولكنها جمعت شتات الأشياء في لوحة قامت بين فن التصوير وفن النحت. لذلك لم يكن شعر عبد الله عبد الرحمن ينتمي إلى شعر الخطابة والفخامة حتى لو ألقاه غيره لأنه جمع المعاني أولاً ثم أحاطها بهذا القالب الشعري.

هنالك موضوعات يعالجها الشعر ويختص بها، وهنالك موضوعات يعالجها النثر وهي وقف عليه، فلننظر في «ديوان الفجر الصادق» لعبد الله عبد الرحمن فنجد أن الموضوعات كلها تقليدية، احتفال بمناسبة، رثاء، وصف، جهاد وطني، وغير ذلك.

لم يخرج عبد الله عبد الرحمن من دائرة الشعر، ولكن هل استطاع أن يملأ مساحة هذه الدائرة. إنه استطاع بقدر ما مكنته نظرته وثقافته، فلا لوم عليه ولا تثريب ولكن المقاييس الجمالية تظلم عبد الله عبد الرحمن لأنه حافظ على الدقة في التعبير عن الأشياء حتى جرد الكلمات وجعلها معاني أفكاره ولم يرفع معاني الأفكار إلى الفلسفة فهو علم أولاً، اتخذ الشعر طريقة للتعبير ولكنه تفوق على الشعراء العلماء بحماسته وعاطفته في قصيدته، واتسم بالصدق. والصدق الفني يختلف عن الصدق الفكري، فالصدق الفني هو الذي يتجاوز الأبعاد الثلاثة إلى أبعاد أكثر، والصدق الفكري هو الذي ينحصر في الأبعاد الثلاثة، فمن ثمة كان صدق عبد الله عبد الرحمن صدقاً فكرياً والشعر لا يقبل الصدق الفكري ولكن عبد الله عبد الرحمن استطاع أن يروض الصدق الفكري في تجاربه مع المجتمع والتعبير عن مشكلات وقضايا المجتمع والاهتمام بمسائل الساعة.

هذا الضرب من الشعر كان مألوفاً في الأدب العربي الحديث فمنذ مطلع القرن حتى الأربعينات. نجد مثلاً في مصر محمد الهراوي وشاعر البراري ومحمد الأسمر، وفي العراق أحمد الصافي النجفي وبهجت الأثري، وفي فلسطين خليل سكاكيني وفي سوريا خليل مردم بك وفي لبنان كثيرون. فعبد الله عبد الرحمن كان واحداً من هؤلاء الذين يحملون هموم الجماهير ويعبرون عن هذه الهموم. فهو شاعر نفسي وشاعر طبع، وإن كانت أدواته هي انعكاس مشاعر الجماهير. ولا ننسى أنه معلم ولكن هناك معلمون كثيرون ولكنهم تخطوا ذلك الحاجز.

أجل لا ننسى قصائد عبد الله عبد الرحمن في الوحدة الوطنية ووحدة الصف، ولا ننسى كفاحه وغناءه للحرية، ولا ننسى مشاركته في المهرجان الأدبي، وفي أعياد أيام التعليم. لقد ساهم في كل المناسبات الوطنية، وشارك، وضحى، ولم يكف عن العمل حتى إنه لما تقاعد في المعاش انتظم يدرس ويكسب قوته، وكان يتحف الصحف بقصائده، ويشترك في الندوات الأدبية. إن عبد الله عبد الرحمن له مكانته في حياتنا الفكرية بوصفه أول من نبه للجذور العربية العميقة في حياتنا. وربط بين العامية السودانية واللغة العربية الفصحى مما جعل الأمير شكيب أرسلان يثني عليه ويثني على منهج بحثه. لقد عاش حياة الشاعر والعالم الذي اعتمد على نفسه وأطل على المجمع اللغوي كعالم مثبت ومرجع فريد.

عبد الله محمد عمر البنا [١٨٩٠ ـ ١٩٨٥]

تجود في مجلس واحد قراها وكذلك تجود تسعين أمثالها هي قافية كحد السنان تبقى ولا يذهب من قالها من هو هذا الرجل. لقد وصفه الشاعر العربي القديم حين قال:

قليل التشكي للهموم تعيبه　　　كثير الهوى حتى النوى والمسالك

سما إلى النجم فكيف إليه نطول، منيع يرد الطرف وهو كليل، هو الأعلى الذي يظن لك الظن كان قد رأى وقد سمعا. هذا هو أستاذنا عبد الله عمر البنا، ليس في الشعر قديم وحديث. بل الشعر هو الشعر، والجمال هو الجمال. أما جاءك خبر الشاعر لونجفلو الذي طُلب منه أن يصف شلالات نياجرا فوقف مشدوهاً أمامها وقال: نياجرا نياجرا واكتفى بذلك لأن جمال الشلالات أسكت عرائس شعره.

جلس أراغون وايلوار ونيرودا ليلة في باريس يقرأون أشعار شكسبير وهومير وراسين وجوته وفي كل مرة يقرأون قصيدة في الليالي الثلاث التي غابوا فيها عن هذا العالم. كانوا يرددون هذا هو الشعر وجلسوا بين القوم لا يتكلمون وقد رأوا درجات الشعر بنظم نيرودا قصيدة في ذلك لم أر ترجمة لها إلا ما كان يعلمه الشاعر البنا لتلاميذه من شعر للأقدمين عندما كان يدرس الأخطل فيهتز التلاميذ لذلك:

شربنا فمتنا ميتة جاهلية　　　مضى أهلها لم يعرفوا ما التشهد
ثلاثة أيام فلما تنبهت　　　حشاشات أرواح لدينا تردد
حيينا حياة لم تكن من قيامة　　　علينا ولا حشر أتى فيه موعد

الشاعر البنا هو الشاعر السوداني الوحيد الذي تأتى له أن يحفظ روائع شعر العرب ويروي هذا الشعر ويشرحه. درس البنا على يد الشيخ بابكر بدري في رفاعة. ويذكر بابكر بدري أنه ما قرأ قصيدة إلا استظهرها البنا، والتحق البنا بكلية غردون وتخرج مدرساً يعلم اللغة العربية والحساب والجغرافيا والعلوم الإسلامية، وكان قسم المعلمين الذي درس فيه البنا يخرج منه القضاة والمدرسون. ووالد البنا كان رجلاً من رجال الدين والشريعة وكان كذلك شاعراً. وقد ظهر شعر البنا ووالده في ديوان واحد عندما كان البنا شاباً. واشتهر البنا في مطلع حياته بقصيدتين هما: أم اللغات وقصيدته عن الهلال.

البنا ليس شاعراً واحداً بل هو ثلاثة شعراء: شاعر البادية، وهو في رأي النقاد الشاعر الأصيل، فإن كان للبادية في السودان شاعر فهو البنا، ويختلف البنا عن الشاعر المصري محمد عبد المطلب، إنه لا يقلد بل يصدر عن طبيعة نفسه لأنه يعيش في البادية ويفضلها على غيرها، ويذكرنا هذا بالشاعرة ميسون حين قالت:

لبيت تخفق الأرواح فيه	أحب إلي من قصر منيف
خشونة عيشتي في البدو أشهى	إلى نفسي من العيش الظريف

كثير من المعاصرين العرب أحبو البادية وكتبوا فيها شعراً، كمحمد توفيق علي ومحمد عبد المطلب وخير الدين الزركلي، ولكن طبيعتهم لم تكن بادية، أما البنا فهو ذو طبيعة بدوية. كذلك استطاع أن يعبر عن البادية وعن أحوالها ويصور نفسه. فهذا الشعر عند البنا فهو لم يتكلفه ولم يطلبه منه الحال في المدينة. والشاعر الثاني هو شاعر المدينة، فالبنا شاعر المدينة شأن شعراء العرب منذ الجاهلية حتى العصر الحديث، تأثر بالأحداث ولا يرى شيئاً آخر غير هذا التأثر فإذا حللنا هذا الشعر ودرسناه على ضوء أحداث أهل المدن لأنكره كثيرون ولنظر إليه آخرون بمنظار الشعر والفن، فلا نسقط هذا الشاعر لأن إطلالته على المدينة كانت وهو غريب عنها. أما الشاعر الثالث فهو البنا الإنسان الساخر الذي يرسل الشعر ارتجالاً ويصف فيه الناس والأشياء ويتميز هذا الشعر بالسخرية والمزاح، فهو شعر لا يؤذي ولا يسيء إلى أحد، بل إنه يُضحك ويسلي، والبنا يسقط هذا الشعر من حسابه ولا يدونه لأنه لو أراد أن يتحدث بالشعر لقدر على ذلك.

ظهر البنا في الفترة التي نظم فيها الشيوخ الشعر، كالشيخ أبي القاسم هاشم ومحمد الأمين القرشي وعبد الله عبد الرحمن والشيخ محمد مجذوب جلال الدين والشيخ أحمد العاقب، فقد كان الشعر عند كثير من الشيوخ تعلة وتكملة زينة، ولكن البنا تابع مسيرته في الشعر فناً وتجديداً، وأكثر من قول الشعر، ولكنه هو من خير نقاد الشعر في الأدب السوداني، ولا أبالغ إن قلت في الأدب العربي، يعرف الصحيح والزائف. كذلك كان لا يعترف في جيله للشعراء إلا لأحمد محمد صالح ويسميه الأمير.

استمر البنا ردحاً من الزمن يعلم في المدارس الابتدائية والوسطى وقد كان شقيقه المرحوم اللواء علي البنا قد سجن في ثورة عام ١٩٢٤، فما من مناسبة رسمية إلا ونظم البنا قصيدة وذكر فيها أخاه حتى أطلق سراحه، ونقل البنا في مطلع عام ١٩٣٦ ليدرس في كلية غردون واختير بعد ذلك ليدرس في كلة الآداب حتى تقاعد عن العمل الحكومي. كان يحن للتدريس ليدرس في مدرسة الأحفاد الثانوية.

الذين تلقوا العلم على البنا ينقسمون إلى فريقين: فريق لم يتعلق بجذور الأدب واللغة، وفريق أحب الأدب العربي واللغة العربية لأنه قد يدرس كل المنهج المقرر في أسبوعين ويطبق القواعد، سواء كان في النحو أو الصرف أو البلاغة طوال السنة حكايات من أدب العرب وشرح وإملاء وقصائد من عيون الشعر العربي وذكر شواهد، لا يهتم بالعمل الكتابي إلا في النادر. وحصص البنا كانت مزجاً بين الجد والهزل، وما من تلميذ قيد الشعر الذي يرويه البنا في عام دراسي إلا وخرج بآلاف الأبيات. وفي المدارس الوسطى كان يختار السنة الأولى ويفاجئ تلاميذه بإملاء لقصيدة بها همزات. فقد فخر تلاميذه في مدرسة بور سودان الوسطى في مطلع عام ١٩٣٥ حين دخل وأملى عليهم في أول حصة لهم هذه الأبيات:

كأني لم أركب جواداً لـلذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبإ الزقّ الرويَّ ولم أقل ... لخيلي: كرِّي كرةً بعد إجفال
فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليلاً من المال
ولكنني أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

إن البنا علم فريد في تاريخ الفكر السوداني، فهو شاعر النهي في المدينة وشاعر يعرف طبيعة الشعر. فقد حفظ للغة العربية أمجادها فإن كان عبد الله الطيب قد امتاز

بمعجمه اللغوي صاغ فيه شعره، فالبنا امتاز بروح اللغة العربية، فهو لم يعمد للغريب والمهجور والجاهلي، ولكنه طوّع اللغة العربية إلى الحياة في القرن العشرين وهو جالس في البادية ولم ينس أبداً أن يخرج بين الفينة والفينة إلى المدينة.

البنا عالم في اللغة وفي فنونها وعالم في الأدب العربي لا يلجأ إلى مذاهب المحدثين وإلى قواعدهم ولكنه يعتمد على النص وشرح الصور والألفاظ والتعبيرات، ولقد تخرج على يديه الألوف واستفاد من شعره الكثيرون، فهو قمة في تاريخ حياتنا الفكرية.

عبد الله ميرغني [١٩٠٩ ـ ١٩٦٤]

الحديث عن مدرسة أبي روف شهي وطلي، فهذا هو واحد من أبناء هذه المدرسة. فعبد الله ميرغني عالم يختلف عن حسن أحمد عثمان الكد، وخضر حمد وإبراهيم يوسف سليمان وأحمد خير. فكل واحد منهم قد اتخذ لنفسه طريقاً في الفكر والحياة.

عبد الله ميرغني محمد هو ابن تاجر من كبار تجار المحصولات في السودان، وأسرته تنتمي للدناقلة، وقد عمل أبوه هو وابن عمه عثمان صالح في المحصولات في الحصاحيصا والكاملين. وكانت تجارة المحصولات هي أرقى أنواع التجارة حينذاك، وتلقى عبد الله تعليمه في كلية غردون، وعمل في الوظيفة الحكومية لأن الوظيفة كانت حينذاك أرقى الدرجات في الحياة الاجتماعية، وانصرف للمطالعة والدراسة، فحياته كانت ميسورة، وكان له أصدقاء كثر من المهتمين بالثقافة والأدب، منذ أيام الطب في كلية غردون. كما أن منزله حفل بالكتّاب والحديث عن الثقافة والأدب، وكان عمه من المساهمين في إنشاء الصحافة السودانية، وكتب عبد الله بعض الخواطر في حضارة السودان أيام صباه وشبابه واستطاع أن يخرج من دائرة العاصمة ويطوف في أوروبا ويتعرف على حضارتها ومدنيتها، كما أنه راسل أصدقاءه من السودانيين فيما وراء البحار، كيعقوب عثمان، وفضل بابكر، وتاق أن يلتحق بالجامعات البريطانية، وفي خلال أيام الحرب العالمية الثانية استقال من وظيفته، واختار العمل بالصحافة فخلف الأستاذ إسماعيل العتباني في رئاسة صوت السودان، وقد كان من الواقفين مع الاتحاديين، فالأحزاب السودانية نبعت من صداقات ومعاشرة حياتية في بادئ الأمر ولم تقم على أسس إيديولوجية، وإن كانت هنالك وجهات نظر، إلا أن هذه الوجهات

لـو درست ونقحت لما وجـدت اختلافـات في الجوهـر، لأن عامـل التجربـة والممارسـة والمعاناة السياسية لم يكن متوفراً للناس ليرصدوا الأشياء.

وصوت السـودان في تلك الفترة كانت لـطائفة الختمية وهي التي تشرف عليها، وكـان يكتب فيها الـدكتور أحمـد السـيد حمـد، والأستـاذ محمـد أمـين حسـين، إلا أن عبد الله ميرغني عندما ترأس تحريرها كانت جريدة الجميع، مـع أن الصحف الحزبيـة قد ظهرت تدافع عن أحزابها في تلك الفترة.

اعتـاد عبـد الله مـيرغني أن يكتب افتتـاحيـة صـوت السـودان، ويغـوص في المشكلات السياسية ولكن بأسلوب موضوعي لا يتطرق للأشخـاص ولا يهاجم، فهـو دقيق جداً في اختيار كلماتـه، لذلـك كان المهتمـون بالسيـاسة يقـرأون مقال عبـد الله ميرغني مرات ومرات لأنه قد يلمح ولا يكشف، كما أن اتصاله بكل المعسكرات جعله يكوّن رأيه الخاص ويدعو إلى ما يوجه الفكـر السياسي العـالمي للاستقـلال من غير أن يشكك في الدعوة الاتحادية، فهدفه كان الغاية ولم يكن الـوسيلة لذلـك احتفظ بمكانـه مع أصدقائه الاتحاديـين.

واستقال عبد الله ميرغني من صوت السودان وخلفه محمد أحمد السلمبـابي فسار في نفس الخط الذي انتهجه عبد الله ميرغني، الدعوة للاستقلال مع تجنب الاصطدام مع الدعاة للاتحـاد، مهد عبـد الله ميرغني بمقـالاته لتمسـك الجهود بـالاستقلال بعـد اتفاقية القاهرة ١٩٥٣ حتى إن الاتحاديـين قبلوا أن يعلنوا استقـلال السودان التـام من البرلمان من غير تمسك بالاتحاد. وبعـد ذلك انتقـل عبد الله مـيرغني إلى الاستقلاليـين ومارس العمل الحزبي واشتغل فـترة بالصحـافة والكتـابة، ولكنـه انصرف إلى مطابعـه والعمل بالتجارة.

كثـير من الذين عملوا بـالسياسـة والصحافـة في السـودان بـدأوا حياتهم أدبـاء، وعبد الله ميرغني بدأ حياته أديباً يتحـدث عن الشعر، والكتـاب، ويحلل الكتب ويقرأ في الفكر الغربي، وقد كان لذلك ميدان في الثلاثينـات، إلا أنه بعـد ذلك انصرف إلى السياسة، وكان يطلع ويتـابع الحـركات السيـاسية في دول العـالم الثالث وفي افـريقيا، ويتحـدث عن تغيـير مسار الاقتصـاد السـوداني، فقـد تنبأ بـالأزمـات الاقتصـاديـة في السودان لأن السـودان يهمل الزراعة، وهي السلاح الـواقي ضد كـل الكوارث، وقـد

امتلك مشروعاً زراعياً، ولكن شباب السياسة في ذلك الوقت، كانوا يرون في الزراعة تخلفاً، ويرددون أن المجتمع الزراعي لا يصل إلى مراقي الحضارة والتقدم، وقد كتب عن مستقبل الزراعة في السودان، ولم يحاول أن يدخل في مشاريع صناعية لا تتصل بالزراعة والأرض.

في أوائل الستينات نبتت فكرة الصناعة والإعمار وتشييد المنازل والعمارات، فكان عبد الله ميرغني يردد: ماذا يكون مستقبل الريف والأقاليم؟ سينزحون إلى العواصم فتضيق بهم ويختل الميزان الاقتصادي، لا بد أن نهتم بالأقاليم والريف فهي مصدر الخير والرخاء، وقد وقف فريداً في تلك الفترة لأنه رفض إشراك المؤسسات الأجنبية التي كانت تعمل في السودان في تمويل المشاريع الزراعية، وقال إن السودانيين تحرروا سياسياً فلا بد أن يتحرروا اقتصادياً فربطهم كأجراء بالشركات القائمة يعطل تقدمهم.

لا شك أن عبد الله ميرغني كتب بعض المذكرات والذكريات، وله أوراقه الخاصة التي عالجت شؤون الحياة في تلك المرحلة، ولكن كل هذا لم ينشر بين الناس، فلو وهب أحد الشبان حياته لجمع كل ما يتعلق برواد الثقافة والنهضة في الثلاثينات لأخرج لأبناء هذا الجيل، تاريخاً يهتدون به، فالتاريخ هو تمحيص وموعظة وإشارات للمستقبل.

عبد النبي عبد القادر مرسال [١٩١٨ ـ ١٩٦٢]

يقولون إن لم يمت بالسيف مات بغيره ولكن هل قالوا من لم يمت بالشعر مات بغيره. صاحبنا هذا عاش للشعر ومات بالشعر، تألق ذكاء منذ طفولته وفرشت أرضه بالرياحين منذ نعومة أظافره. وكان طفلاً وحيداً عند والديه، فأبوه ضابط عريق عتيق في الجندية وأمه من شمال الوادي، وفر له أبوه كل مسرات الحياة وبعث به إلى أرقى المدارس في القاهرة وهيأ له كل ما يحتاج إليه. ولكنه صار شاعراً والشعر منذ قديم الزمان في أرض العرب وافريقيا كان محنة قبل أن يكون نعمة. فامرؤ القيس أراد ملكاً فمات فأعذر، والمتنبي الذي صاح في الآفاق:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي ما أبتغي جل ما يسمى

وغيره وغيره.. وهكذا كان الشاعر عبد النبي عبد القادر مرسال. ظهر نجمه بازغاً منذ الثلاثينات وسار في طريق لم يسلكه شعراء ذاك الزمان. فشعره لم يكن شعر المواسم والمحافل ولكنه شعر النفس والعاطفة والوجدان. عبد الحرية والجمال. والحرية قيد إذا انفلت أصبح فوضى. والجمال نور وضياء إذا استبيح أصبح ناراً ولظى. وعبد النبي إنسان لا يعرف التوسط. تطرف حتى اختلف عن جادة الطريق، وسما حتى تلاشى، وأعطى حتى أصبح عطاء للموت والاحتراق. تعثرت به الطرق في السنة الخامسة في نهاية دراسته الثانوية، لا عن عجز فكري ولا خمول ذهني، ولكن عن قصد أراده له الله ليغرد تغريد البلبل الذي أقبل على الشوك لينغرس في قلبه لتكون الورود بيضاء ووروداً حمراء قانية من دم فؤاده. وكان يعاوده الحنين للرجوع إلى القاهرة يستنشق فيها شبابه وصباه ويبكي على أطلال عمره، واستقر موظفاً في إدارة الجيش

الإنكليزي بالخرطوم ثم بالكاتدرائية الإنكليزية. وهو لا ينفك يكتب الشعر ويلتقي مع الشموس في مطالعها وهو يحيي الليل سهران يجفف ظلمته بتأملاته وابتهالاته وإغراقه في بحر الدنان. أتاح له القدر أن يقرأ كثيراً في العربية والفرنسية والإنكليزية وأن يلازمه الكتاب يقظان ونشوان. واستظهر ديوان المتنبي وحماسة البحتري، وحفظ قصائد بايرون وكيتس بالإنكليزية وكثيراً من شعر فكتور هيجو وألفرد دي ميسيه، وأظنه لم يقرأ غير الشعر لأن حديثه كان أبداً عن الشعر. نشرت له الصحف والمجلات المصرية كثيراً من شعره كما نشرت له الصحف السودانية كثيراً من شعره، وشارك في موكب الحرية والاستقلال واحتفل به في بيته وبين رفاقه.

لم يكن دخوله إلى عالم الشعر عن دراسة للعروض ولمذاهب الشعر ولكن حباً في الشعر وتلهفاً على الشعر الجيد الجميل. فهو ينظم كيفما اتفق له في الروي والوزن والبحر الذي يروق له، وقد يتغنى بشعره وينشده ولا يتكلف أبداً. ولكل قصيدة عنده مناسبة في النفس وفي حياته فهي ترجمة ذاتية له. وشعره إما عبادة للجمال وإما هجاء لقبح وإما سوانح وخواطر. يتفاوت شعره فيصل في بعض قصائده إلى مرقى السمو ويعلق بعد ذلك بين الأرض والسماء كالطائر الذبيح. كلماته فخمة ومعانيه أحاسيس. وميدان قصيدته هو التأمل والشعور بما يختلج في نفسه، لذلك كان شعره بداية لشعر النفس والذات. فالتجاني يوسف بشير رسم لوحات ونقش اللوحات. ومرضي محمد خير سرد حكايات. والتني ترجم لحياة قلب وحب. ولكن عبد النبي عبد القادر مرسال كتب ترجمة حياته من غير النظر إلى ما حوله وكأنه كان نخلتي حلوان.

أصدقاؤه في مطلع شبابه كانوا زملاءه في القاهرة: قيلي أحمد عمر وعابدين إسماعيل وعبد اللطيف الخليفة وفضل بابكر. ولكن بعد ذلك تبدلت الصفحات فابتعد عن إخوان الفكر والفن، واختار له مكاناً في سوق الخرطوم، يلتف حوله من يعرف قيمته فيسمع منه شعره، وفي بعض الأحيان يفيء إلى الإذاعة فيقرأ بعض هذا الشعر. وله نقائض مع بعض الشعراء ومساجلات ولكن لم تدم طويلاً لأنه انقطع عن الشعر. أثر الشعر الإنكليزي والفرنسي في قصائده الطويلة التي تحكي عن لياليه محسوسة ملموسة وبالأخص أثر فيكتور هيجو وبايرون. وهذه القصائد لم تنشر لأنها تجاوزت المائتي بيت. ولم تنشر إلا مقطوعاته القصيرة. وكان حريصاً على الاحتفاظ بهذه الكراسات، فهو يجدد شبابه بالنقل كل عام إلى كراسات ناصعة جميلة.

لم يهتم أن يتعرف عليه الوسط الأدبي، وإن عرفه بعض الشعراء في العاصمة.
فهو قد رأى في الذين ينظمون الشعر في جيله غير مخلصين. فالشاعر في رأيه يجب أن يتفرغ للشعر ولا يعنى بغيره. وخمرياته لم تشبه خمريات أبي نواس أو الخيام ولكنها حياة وإحياء للنشوة والمتعة. لم يتأثر بالشعر العربي الحديث وكأنه لم يكن عنده شيئاً. نظر في شعر شوقي فأحب عنده تمسكه بالقديم. وأعجب بالجارم لموسيقاه. وابتعد عن حافظ لملامسته لواقع الأحداث. وأنكر على أبي شادي الشاعرية والشعر لأنه نقل الشعر إلى النثر. إغلاقه نفسه على نفسه أضر به. فمكانته هو جهاده في سبيل الحرية. وإيمانه بحرية السودان. وفي كثير من المواسم والمناسبات يذكره الناس لأنه ذكرهم في المواسم والمناسبات. ولكن شعره العاطفي الوجداني لم يلتفت له أحد حتى اليوم، فهو المبتدأ لشعر النفس وبعده جاء الخبر. فلو جمع شعره لعرف قدره. غنى والشوك في فؤاده فتغنى له النور والحب والشعر.

عبيد عبد النور [١٨٩٦ - ١٩٦٢]

لن أقول كما قال ت. س. اليوت في رائعته «أغنية حب» (ليس هذا ما عنيته أنه لم يكن كذلك إطلاقاً). إنني أعني كل كلمة أقولها بل إني أردد قول الشاعر العربي:

لا تـظلمـوا المـوتى وإن طـال المـدى   إني أخـاف عـليكـمـو أن تـلتـقـوا

التاريخ فنـاء صعب. والكتابـة عن الشخصيات من أصعب الأشيـاء. والتجرد يكلف النفس فـوق طاقتهـا. فنحن بشر، والبشر كلهم أخـطاء، فليكن لنـا الـظاهـر كتقية، شأننا شأن الشريعة. أما الباطن فعلمه عند الله. فإننا عندما نتحدث عن رواد الفكر السوداني نقدم الخير الذي أسداه إلينا ونمجد هذا التراث الذي ورثناه عنهم. فلو نظرنا مثلاً إلى ابن خلدون وقرأنا تاريخ حياته ومبايعته لتيمورلنك لما احتفظنا له بمكانته في الفكر العربي. فهذه القسـمة التي نصوب عليها الضوء هي زبدة مـرمانـا في الكتابـة عن رواد الفكر السوداني. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمـل مثقال ذرة شـراً يره. ولكن الحسنات تمحو السيئات. فما من رجل بـارز إلا له أخـطاؤه ولسنا مـوكلين بمحاسبته عن هذه الأخطاء. ظلم عبيد عبد النور في حياته كما ظلم الشيخ أحمد عثمان القاضي وظلم الشيخ إبـراهيم عبد الـرازق. والظلم من شيم النفـوس ولكن ما كـان ربك بظلام للعبيد. نشأ عبيـد عبد النـور في أسرة تنتمي للرباطـاب. فهو يلتقي مـع أسرة آل بـدري وآل شبيكة. وهي من الأسر المعـروفة في المجتمـع السـوداني. وتلقى عبيد عبد النور تعليمه في كلية غردون وتخرج معلماً وهو من الرعيل الأول من المعلمين الأفنـدية. وقـد عمل المسـتر يودل عـلى تغيـير ملابس المعلمـين من البدلـة إلى الجبة. فتحول عبيد إلى شيخ كما تحول كل المعلمين، ما عدا أحمد محمد صالح وعمر سليمان.

واهتم عبيد منذ فجر حياته بالأمثال والحكايات السودانية والتاريخ، كما أنه برع في التمثيل المسرحي والإخراج. وعمل عبيد فترة في المدارس الوسطى ثم بعث في أول فوج إلى جامعة بيروت الأمريكية فدرس الآداب والتاريخ وكان له نشاط اجتماعي وعربي ملحوظ في جامعة بيروت. فكان خطيباً مفوهاً ومحاضراً ومحدثاً كما أنه عرّف بالسودان الشباب العربي وأكد مكانة السودان لدى العرب وألقى قصيدته الوطنية «يام رشيريش قودي الرسن وقولي فليحيا الوطن».

واشترك في تمثيل كثير من الروايات الوطنية مع زملائه الطلبة هناك. ورجع إلى السودان وهو شديد الحماس للقضايا الوطنية والاهتمام بالحرية. فساء ذلك البريطانيين وبدأوا يترصدون خطواته ويتجسسون على أعماله. فكان أول من شرع في تدريب الطلبة على التمثيل والإلقاء. وانفتح على نادي الخريجين بأم درمان فمثل فيه بعض الروايات التي كتبها بالعامية السودانية وأبان فيها عورات المجتمع فلم يوافق ذلك مزاج البعض، ودعا الجمهور الذي لا يريد أن تنكشف المعايب والزلات. وكان هنالك فريق آخر يقدم مسرحيات عن البطولة وعن النفوس الخيرة يقوده صديق فريد وإسماعيل فوزي في العاصمة المثلثة يرفده فريق حسين ملاسي في بورتسودان وفريق آخر في عطبرة. وشكا الناس من صراحة عبيد واستهجنوا كشفه للعيوب ولكن وقف معه الشيخ أبو القاسم هاشم.

وفي الكلية أوكل لعبيد تدريس التاريخ والتربية الوطنية، ولما كان متميزاً في اللغتين العربية والإنكليزية والترجمة منها كان يستعان به في مكتب السكرتير الإداري. وقد عرف الإنكليز مواهبه وخطورته وتأثيره على الشبان لذلك أقاموا الحواجز والجسور بينه وبين طلبة الكلية. وكانت دروسه من أروع الدروس، فهو ساحر الأداء، فنان في تقسيماته للدرس، جاد ومحقق في معلوماته وعلمه، فأكبره الطلبة وأفادوا منه كثيراً. ولكن هذا الإحباط الذي نجم عن مطاردة الإنكليز لمواهبه لم يمكنه من أن يتسلم القيادة الفكرية والروحية، وكثيراً ما كان ينتدب للعمل في جريدة حضارة السودان، ومقالات وافتتاحيات الحضارة كانت موجهة توجيهاً رسمياً فيقوم بصياغته. وكان عبيد عبد النور من أعمق العارفين بروح الشعب السوداني والعاملين على حريته وتحريره. ولكن الإنكليز عطلوا هذه الطاقة ولم ينصفوه في درجته الوظيفية ولم يقدروا

جهوده لأنهم يعلمون أن طبيعة هذا الرجل تنم عن حبه لبلاده والعناية بشبابه والعمل على تحرير الأفكار.

حجزت مواهب عبيد في هذا القفص الحديدي ومرت به السنون حتى اكتهل، ولم يجن ثماراً من وظيفته ولكن البذور التي غرسها ورواها بفكره ودمه أثرت في الشباب السوداني حينذاك. فأسلوبه الطلي في الكتابة وفكره المتفتح في العلم ونظرته الخالصة للحق والمعرفة غذت طلبة الكلية مع بعده وبعدهم عنه. وقد كان من زملائه عبد الرحمن علي طه والشيخ مصطفى وهما من أوائل الخريجين الذين درسوا في كلية غردون. وقد نالا حظاً في الترقية ولم ينلها عبيد عبد النور. فعلى كتّاب التاريخ ألا يظلموا عبيد عبد النور لأنه كان من أول المعلمين الذين درسوا التاريخ الإسلامي والعربي السوداني في كلية غردون، وقد درس التاريخ الإسلامي والعربي باللغة العربية وعرّف طلبة كلية غردون بالثقافة والحضارة العربية الإسلامية.

إن هذا الدور الذي لعبه عبيد عبد النور في الفكر السوداني لا يستهان به. فقد كان المستشرق هيللسون يدرس التاريخ الإسلامي باللغة العربية ويعتمد في ذلك على آراء المستشرقين. ولكن عبيد رجع إلى المؤرخين العرب والمسلمين وصحح كثيراً من الأخطاء والغلط. وتدريس التاريخ أمانة. فقد كان عبيد أميناً وعارفاً بقداسة التاريخ الإسلامي والتاريخ السوداني. فلولا جهود عبيد لما عرف الشباب السوداني حينذاك عظمة التاريخ العربي وعظمة التاريخ الإسلامي. فقد جعل عبيد حياته وقفاً على إصلاح كثير من الأخطاء في تدريس التاريخ.

وتقاعد عبيد بعد ذلك في المعاش وأسس مدرسة دار الأمانة فجعلها مدرسة نموذجية، لأن ميزة عبيد أنه عاشق وعالم بالتربية. وشارك عبيد في كثير من الندوات التربوية، وكتب آراءه في المناهج بعد الاستقلال. وشارك عبيد في مؤتمر الخريجين ووقف مع قضية الاستقلال. ولم يكن عبيد صارخ الحزبية لأن هدفه هو استقلال السودان وحريته. ولا ننسى أن في كلية غردون كانت هنالك منافسات بين المعلمين السودانيين. وكانت السياسة البريطانية ترسم طرقها في اختيار المعلمين وتوجيههم ولا تسمح لهم أن يوضحوا أحجامهم وقدراتهم الفكرية والاجتماعية، فظلمت عبيد عبد النور كما ظلمت غيره، وبعدما رجع السيد إسماعيل الأزهري من الجامعة

الأمريكية في عـام ١٩٣٠ كسر الحاجـز وظن البريـطانيون أنهم قـادرون على مـراجعته استنـاداً على أنـه حفيد المفتي الشيـخ إسماعيـل الأزهري وأن الـبريطانيـين حاولوا أن يجعلوا الطريقة الإسماعيلية درعـاً وقائيًا إزاء الأنصار والختمية. ولكن السيد إسماعيـل الأزهري هشـم لهم كل خططهم.

وللتاريخ، عندما كان عبيد عبد النور يدرس تاريـخ الفترة التي قضـاها أقـطاب الختمية في بارا أشـار للاختـلافات بـين الختمية والإسـماعيلية ورجـح كفة جـانب على جانـب. فأثار ذلك نقاشاً حسم بأن لب توجيه تاريـخ السودان هـو تجاوز الاختـلافات السـابقة. وفي اليـوم الثاني بـدأ عبيد عبـد النور بمقـدمة عن تكـوين تاريـخ بريـطانيـا والحروب الأهلية وخلص منها بأن التاريخ البشري يهـدف دائماً نحـو الوحـدة الوطنيـة والحرية وهذا معنى الحرية.

عرفات محمد عبد الله [١٨٩٧ ـ ١٩٣٦]

بدأ الوعي الفكري والوطني يسري في الحياة السودانية في غضون الحرب العالمية الأولى فكان هنالك فريق يقف مع الخلافة الإسلامية العثمانية، ويعارض الخلفاء، وفريق يقف مع الثورة العربية وحق العرب في تقرير المصير. وفي تلك الفترة اكتملت لعرفات محمد عبد الله ورفقائه السياسة التي اختلفت عن ذينك الاتجاهين. وهبت رياح جديدة. فقد اشتعلت الثورة المصرية فغيرت المفاهيم لدى الشباب السوداني وقامت ثورة أكتوبر قبلها في عام ١٩١٧ في روسيا، وكان عرفات قد ترك كلية غردون وعمل مترجماً في مصلحة البريد والبرق وكانت تلك المصلحة تعج بالأدباء والشعراء كصالح عبد القادر ومحمود أنيس وصالح بطرس وعثمان محجوب وعبيد حاج الأمين. وكانت الصحف تراقب وتصادر من مكاتب البريد، فكان هؤلاء يقرأون الصحف المصرية والصحف الإنكليزية ويطالعون كل يوم نشرة رويتر التي يلتقطها التلغراف.

ونشأت صلات فكرية وسياسية بين هؤلاء الشباب، وكان صالح عبد القادر قد ترك قسم المعلمين بكلية غردون ليعمل مترجماً في البريد وتسنى له أن يتعرف على بوادر الثورات ويرصدها، وبالأخص الثورة الروسية. ونقل صالح عبد القادر إلى بورتسودان فتوثقت صلاته بعلي ملاسي، وشاء له أن يتعرف على الملحق التجاري الروسي في جدة. وحتى أوائل العشرينات لم يقم حاجز بين روسيا والبلد المسلمة بل كانت هنالك علاقات تجارية وسياسية لم تتوثق إلا بعدما منعت الدول المستعمرة للبلدان العربية قيام هذه العلاقات.

وكان عرفات ملماً بكل التيارات المعاصرة متفقهاً في اللغة الإنكليزية قديراً في الترجمة فارتبطت بينه وبين أحمد محمد صالح علاقة ود وتجاوب فكري جمعه بها عثمان محجوب. وتفرعت هذه العلاقة فاتصل بمكاوي يعقوب، وعبد الرحمن شوقي، وخليل فرح، وتوفيق أحمد البكري، وبشير عبد الرحمن، ثم امتدت هذه العلاقة بجماعة اللواء الأبيض فكان عرفات هو الذي يكتب المنشورات ويترجم البيانات، وأحس الإنكليز بخطر عرفات ولكنه أسرع واختفى، إذ ذهب إلى مصر. وكان في جماعة اللواء الأبيض مآمير سودانيون وضباط سودانيون. وأوكل للمرحوم بشير جار النبي تفتيش بيت عرفات، فهيأ له سُبل الهرب، ولما جاء وقت التفتيش أخبر زوجة عرفات أن تعد لنفسها دخاناً، وكانت بين أوراق عرفات بعض المنشورات فأسرع بشير جار النبي بها لزوجة عرفات التي حرقتها في حفرة الدخان. فلما هم الضابط البريطاني أن يدخل على السيدة حذرت بشير جار النبي أن هذا مناف للعرف الإسلامي والعادات السودانية. خرج الضابط البريطاني ولم يجد أي أثر للاتهام. وهنالك في القاهرة اغتيل الحاكم العام للسودان والسردار للجيش المصري السير لي استال باشا فألقي القبض على عرفات، وحاول البوليس السياسي أن يلصق التهمة بعرفات ولكنه أنقذ. بعد ذلك حاول عرفات أن يجد له مكاناً يعمل فيه في الصحافة المصرية ولكنه لم يصلح فانتقل إلى سيناء وعمل مترجماً في شركة البترول البريطانية هناك، ثم هاجر إلى جدة، إذ عمل في شركة جلاتلي وأصيب بالربو، فنقل إلى الخرطوم. فأول عمل بدأه وهو موظف في شركة جلاتلي هو إصدار مجلة الفجر في عام ١٩٣٤، وقد كتب عرفات قبل ذلك في الحضارة والرائد والنهضة. فحددت مجلة الفجر الرؤية السياسية لمستقبل السودان ونادت باستقلال السودان عن الحكم الثنائي، فأغضب الدولتين واستكتب عرفات في الفجر محمد عشري الصديق ومحمد أحمد محجوب وعبد الحليم محمد ويوسف مصطفى التني ومرضي محمد خير، وفتحها للشباب المتطلع الواعي فعالجوا قضايا الطائفية والقبلية، ونقدوا الكتب التي كانت تكتب عن السودان وقدموا ملخصات لها وكانت افتتاحية الفجر تكتب باللغتين العربية والإنكليزية، وقد شارك في كتابة هذه الافتتاحية مرضي محمد خير وخضر حسن سعد ومعاوية محمد نور.

واهتمت مجلة الفجر بنقد الحياة السودانية، بالأخص في الباب الذي كان ينشر تحت عنوان (شؤون). كما كانت تحلل الأحداث السياسية العالمية وتكتب عن الحركة

الأدبيـة. وقـد شـارك في هـذا البـاب التجـاني يـوسف بشـير، كـما عنيت بـالشؤون الاقتصـادية. وكـان أبرز الكـاتبين عبـد الرؤوف فهمي سـمارة ويـوسف التني ابن عم الشـاعر يوسف مصطفى التني. امتاز عرفات بأنه كان خـير محرر للمجـلات الثقافيـة، فكان يوجه وينصح. ولكن الافتتـاحية كـان دائماً هـو كاتبهـا باللغتـين، وقد حـاول عرفات أن يكتب القصة ولكنه ركز على الهدف الأخلاقي والمعنى الاجتـماعي، لذلـك كانت قصة أماثيل، ولكنه ترك القصة وبابها لعديد من الكتّاب أبـرزهم معاويـة محمد نور وجمال توفيق بدري والدكتور عبد الله أبو شمة والدكتور عبد الحليم محمد.

أسلوب عرفات أسلوب المعلم فهـو معبر واضـح العبارة لا يبحث عن الكلمات الـبراقة ولا يسف في استعـمال الكلمات السوقيـة، وأفكاره منـظمة تعلو عـلى الأسلوب الصحفي وتبتعد عن لغة الإنشاء. لا تجد عجمة ولا غموضاً في أفكاره، مع أن قراءته كلها كانت في اللغة الإنكليزية. وتفاقم المرض على عرفات في عام ١٩٣٥ ولزم سريـر المستشفى في عام ١٩٣٦ ومات في صيف ١٩٣٦ واستمرت الفجر بعـد وفاتـه وأصبح الأستاذ أحمد يـوسف هاشم رئيسـاً لتحريـرها، لكنهـا احتجبت في عام ١٩٣٨. وقـد بذرت بذور الفكر السياسي الواضح في الحياة السـودانيـة وكشفت النقاب عن كثير من المشكلات حتى تسلم مؤتمر الخريجين الراية وأصدر مجلة المؤتمر برئاسة تحرير حماد تـوفيق حماد.

إن عرفات محمد عبد الله هو رائد الفكر السياسي المستقـل البعيد عن الـطائفية والحزبية والتعليمية.

عثمان هاشم [١٨٩٧ - ١٩٨١]

هنالك بيوت عريقة في السودان اشتهرت بالعلم والدين، وقد شهد لها بذلك الأولون والآخرون في تاريخ الفكر السوداني. وشاعرنا الذي نتحدث عنه في هذا المقام هو ابن القاضي محمد أحمد هاشم الابن الأكبر للشيخ أحمد هاشم قاضي الخرطوم وبربر. والشعر واللغة لازمتان من لوازم العاملين في تعليم الدين الإسلامي. وقد كان والده ينظم الشعر وله مخطوطة اسمها خزانة الآداب ومنح الأسرار للطلاب ومهبط الصلاة والفوائد ومركز الخيرات والعوائد.

وقد نظم القاضي محمد أحمد هاشم نسب الأسرة الذي نبدأه من الشيخ أحمد هاشم بن محمد بن علي الشهير بقمر، فقال في هذه الأرجوزة:

ابن محمد سليل أحمد بن علي عارف مسترشد
فهو الشهير فيهم بقمر سماه شيخه مدير النظر
أعني به حامد ذاك البين رب المعارف النقي المنقد

ويقصد بحامد الشيخ حامد أبي عصا العمرابي الذي كان يدرس في جبل أم علي. في هذا الجو العلمي الديني نشأ عثمان هاشم ابن قاض وحفيد قاض وعمه قاض. ودرس عثمان هاشم بمدرسة بربر الوسطى واشتهر بجمال خطه في الثلث، فسمي بين أقرانه عثمان الثلث. عمل عثمان هاشم فترة في حكومة السودان ولكنه اشترك في ثورة عام ١٩٢٤ واختار بعد ذلك أن يعمل بمصر. وقد نظم الشعر في صباه وتابع النظم ولم يتوقف عن قول الشعر.

انقادت لعثمان هاشم الجزالة والسلالة، فشعره يخفق بالموسيقى الشجية، وأبحرها هي أبحر الخفيف والبسيط والكامل والمتدارك. وله قصائد في الطويل والوافر.

وقد قرأ الشعر العربي في دراسة ومراجعة فكان دائم النظر في شعر المتنبي والبحتري والشريف والبارودي وشوقي، كما أنه راجع أمهات الكتب في الأدب العربي، واستقرت حياته في هدوء وسكينة، ولكن حنينه للسودان وذكرياته شغل حياته وفنه. فقصيدته التي يصف فيها العودة بالقطار للخرطوم من عيون الشعر العربي. وقد شهد لها الكثيرون بأنها رائعة من الروائع. كما أن قصائده في الرثاء هي بكائيات فيها أسى ولوعة، فإنه لا يرثي إلا أحباءه وأصفياءه. لذلك لم يلج باب المناسبات والمنافسات فقد نأى بشعره عن الزيف والتقليد فهو يكاد أن يكون شاعر نفس وليس بشاعر صنعة. ولكن الظروف الاجتماعية والمناخ الثقافي جعله ينتظم في دائرة الشعر المطروقة حينذاك من وصف وحنين وغزل وشعر سياسي. وقد نزح إلى القاهرة في سن مبكرة جعلته يعاصر التطورات التي مست الشعر العربي، فأثرت فيه التيارات الحديثة، فصفا شعره وأصبح شعر مناجاة وبث ووجدان، وقد عمل في وزارة الري في القاهرة ولكنه كان يعود إلى السودان في إجازته السنوية ويسجل ذلك في حولية فيها الذكريات وفيها الوصف وفيها الرثاء، وهي تكاد تشبه السيرنادة. وجذب ابنيه معه في مصر فكان ابنه الأكبر صلاح مغرماً بالتاريخ فدرسه في جامعة فؤاد وتخصص في تاريخ الشرق الأقصى وترجم كتاب كراتشوفسكي عن الأدب الجغرافي عند العرب من الروسية. وعمل بعد فترة سفيراً في وزارة الخارجية، لأنه كان يجيد الفارسية ولغات الشرق الأقصى بالإضافة للإنكليزية والألمانية والفرنسية. أما ابنه الثاني فقد درس العلوم العسكرية وأصبح فريقاً في الجيش السوداني. والثالث درس الاقتصاد وعمل مدرساً في جامعة الخرطوم ولكن صادفته رصاصة طائشة في يونيو عام ١٩٧١ فتوفي في ميعة الشباب.

سما عثمان هاشم بأسرته كما سما بشعره، لذلك كان شعره مجوداً أنيقاً. ونظم قصة تاجوج فأبدع في نظمه.

إن عثمان هاشم من الجيل الثاني من شعراء السودان في هذا القرن ولكنه لا يشابه واحداً منهم فهو لم يحترف الشعر كما أنهم لم يحترفوه. واختلف عنهم في أنهم

أكثروا من الشعر في المناسبات والمحافل، أما هو فقد جعل شعره السياسي شعر كفاح واستنفار، فجيله هو جيل أحمد محمد صالح ومكاوي يعقوب وعبد الرحمن شوقي وتوفيق صالح جبريل وشفيق مينا وحافظ الأمين وعبد المجيد أحمد وصفي.

إن كان حافظ الأمين قد درس الشعر وجعل له مكاناً علياً فعثمان هاشم قد عرف كيف يعبر بصدق عن نفسه بالشعر، فحياته الاجتماعية اختلفت عن حياة أولئك الشعراء من جيله. فقد كانوا أكثر ظهوراً وتألقاً في المجتمع، لكنه حجب نفسه عن المجتمع ولم يطلق لنفسه العنان، لم يشارك أو يشتغل بالعمل السياسي، وإن كان من أكثر الذين أحبوا مصر وتغنى بها، إلا أن ذلك لم يدفعه لأن ينضوي تحت لواء أي حزب من الأحزاب الاتحادية. هذه صورة موجزة عن هذا الشاعر المبدع نتركها للباحثين لإكمالها.

الدكتور علي ارباب [١٩٠٢ ـ ١٩٦٨]

الدكتور علي عثمان ارباب، شاعر من شعراء الطليعة، الذين دخلوا إلى عالم الشعر من أبواب المعاناة والشعور بالألم من الاستعمار، ذلكم جيل توفيق أحمد البكري وتوفيق صالح جبريل وشفيق مينا وحافظ الأمين ومدثر البوشي، ولكن لكل واحد من هؤلاء سماته الخاصة، وانفراده، فإنك لا ترى ما يجمع بين الصديقين غير كراهية الاستعمار، ومكافحة رجاله.

بعض هؤلاء الشعراء، وهبوا حياتهم للشعر، وقرأوا دواوين الشعراء، ودرسوا فنونه، وبعضهم اكتفى بقريحته وموهبته، لم يزد إلا ما زاد له في الحياة من زاد عاطفي وإحساس بالألم، وكان من هذه الطبقة الدكتور علي ارباب، والدكتور محمود حمدي وعلي نور شاعر المؤتمر توفرت لهم أدوات الشعر، فلم ينظروا في شعر غيرهم، فلذلك أصبحوا تياراً خاصًا في الشعر السوداني، ولكل منهم خصائصه المميزة، فعلي ارباب شاعر الانفعال بالزمان والمكان، ومحمود حمدي شاعر لحظات الاطراب والفرح، وعلي نور شاعر الأحداث. فالشعر عندهم طريق للتعبير عن حياتهم، لذلك لزموا ساحاته حتى مماتهم.

ولد علي ارباب في أسرة عريقة من أسر السواراب، فوالده الأمير عثمان ارباب كان قائداً من قواد المهدية، ذكره المؤرخون في كتبهم، وأشاد به المؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم والأمير عمر طوسون... ودرس علي ارباب الطب، ولم يكن حينذاك مجال للتخصص، لكنه اختار أن يعمل في قسم طب العيون، وأجرى كثيراً من العمليات مما جعله يطالب بأن يتخصص، فأبعد إلى الأقاليم فازدادت كراهيته

للاستعمار، فانصرف لكتابة الشعر وتربية الخيول والعناية بغرس الزهور وتنسيقها، ووهب حياته لمعالجة الناس، ولا يتقاضى أجراً ولا يرفض نداء واجب العمل في الأرياف والبوادي، فتوشجت علاقاته بأهلها وعشق الصيد في البراري وبارك قدره، وباركه قدره. وفي الخمسينات بعث للمملكة المتحدة ليدرس الصحة العامة وينال شهاداتها، فأذهل الأساتذة بمعرفته الواسعة وخبراته في طب المناطق الحارة وعجبوا كيف لم يستفد منه في بلد كالسودان، وعند وداعه ألقى قصيدة باللغة الإنكليزية وسجلت هذه القصيدة وكتبت في تلك الكلية التي كان يدرس فيها، وزاد إعجاب الأساتذة بهذا الشاعرُ الذي ينظم الشعر بالإنكليزية، وعاد علي ارباب إلى السودان فظل يترقى في مراحل الطب الإداري حتى وصل إلى درجة مساعد وكيل الصحة، وتقاعد في المعاش بعد ذلك. . وحاول أن يعمل في ميدانه، فافتتح عيادة في شندي، ولكن حبه للشعر، ومعالجته بالمجان للمرضى جعلته يتجه إلى القضارف في مطلع الستينات، وأغلق عيادته كذلك في القضارف ورجع للخرطوم، فعمل فترة في شركة أدوية كمستشار.

أحب علي ارباب الطبيعة والفجر، فكان يستيقظ مهما بلغ منه السهر قبل انبلاج الفجر، ويتأمل السماء والنجوم، ويطرب لغناء الطيور ويكتب الشعر في تلك اللحظات، ويخرج من منزله إلى عمله، ثم يجلس مع أصدقائه حتى مغيب الشمس ويعود بعد ذلك إلى منزله، ليجلس في حديقته. . وفي كل نبضة قلب من نبضات قلبه بيت شعر. في بداية حياته كان ينشر شعره ويهتم بجمعه وتبويبه، ولكنه بعد ذلك كان يكتب الشعر في أي ورق أمامه، ويضعه في جيبه، وقد يضم أبيات القصيدة إلى بعضها أو لا يضمها، إذ إن ما كان يروقه ويهمه كتابة الشعر وقول الشعر، والجلوس مع الشعراء والأدباء. ما من حادثة مرت في حياته إلا سجلها شعراً، رثى الخيول، والأشجار والأصدقاء، وصف الجبال والصحاري والغابات، خلد الأماكن والمنازل والمجالس في شعره، لذلك كان يضن بنشر شعره في الصحف.

في بعض الأحيان يجلس وحيداً وأمامه أوراقه وأشياؤه، فلا يفسد عليه الأصدقاء والخلان مجلسه، تراه وقد لبس بدلته ورباط عنقه وتأبط كتبه وصحفه كأنه على موعد لدرس أو محاضرة، ولكنه في الحقيقة كان دائماً على موعد مع روية الشعر.

لم يكلف نفسه البتة أن يناقش في أصول الشعر وفي طبقات الشعراء ومذاهب النقد، مع أنه درس المتنبي دراسة وافية وحفظ المعلقات، واستظهر الحماستين، لكنه لم يتأثر بكل هؤلاء، وإن كان في بعض الأحيان يذكر أبياتاً من شعر شكسبير. ويكتفي بذلك. لم يأسره كل هؤلاء، ولم يصدر عنهم كأنه لم يعرفهم، وإذا نظرت في شعره الأول تجد أنه يستخدم بعض الكلمات الغريبة التي طرقها الشعراء الجاهليون والشعراء الإسلاميون ولكنه تخلص من ذلك. وأغرب ما في الأمر أنه استطاع أن ينظم في كل أبحر الشعر العربي، ولم يلجأ للمجزوءات والمقطوعات. وقد تلاحظ كذلك تداخل الأبحر في بعض الأحيان في قصائده، ولا تستطيع أن ترده إلى الوزن والأسباب لأنه يقول لك إنني أحسست بذلك وعبرت في هذا القالب، فليس أمامي مفر لأبدله، فإذا أبدلت كلمة أسقطت الشعر، لذلك كان أصدقاؤه الشعراء يتحاشون مناقشته في ذلك، وقد يدعوهم فينشدون قصائدهم، فلا ينقد القصيدة في جزئياتها، ولكنه يحيا في جو القصيدة، فإن أعجبته قال هذا هو شعر جميل، وإن لم تعجبه سكت عن التعليق.

وكان أحب الشعراء السودانيين إليه محمد المهدي المجذوب ومختار محمد مختار ومحمد محمد علي، فعندما يسمع شعر المجذوب يطرق يردد أبياته، وسُئل ما رأيك في هؤلاء الثلاثة... لم يزد إن قال إنهم شعراء.

حرصه على تذوق الشعر جعله متحفظاً في النقد والرأي.. وقلما كان يستشهد بشعر غيره حتى الشعراء الأولين، لكن الذي يرجع إلى أوراقه التي رتب فيها قصائده تجده يشير في الهوامش إلى بعض أبيات الشعر العربي التي عارضها أو ضمنها في قصيدته.

لم تر العاصمة رجلاً انتظم في مواعيد حياته والانصراف بحياته للشعر والفن غير علي ارباب، لم يشك دهره وما عاتب حظه، ولا طلب الترقي، ولا جرى وراء الرجال والأحزاب، لأنه كان رجلاً حراً يحس بالحرية ويمارسها ويبتعد عن الدسائس والمؤامرات، ويكره التعصب والإذلال. رأيه في الناس ابتعاده عن شرورهم، وأخطائهم فإنه لم يعظ، ولم يقدم الحكمة لغيره، بل جعل الحكمة في حياته فكانت حياته حكمة.

إن ديوان علي ارباب غير مجموع، ولكن أوراقه محفوظة، فهـذا التراث يجب أن يجمع كما يجمع ديوان علي نور وحافظ الأمين ومدثر البوشي والقرشي.

إن مؤرخي الأدب السـوداني لم تتوفر لهم هذه المصـادر، وهذه الســطور لا تكفي للتقيـيم والدراسة، بل نحن نذكر، والذكر ينفع المؤمنين

علي البرير [١٨٩٧ ـ ١٩٧٢]

نشأ في أسرة معروفة من تجار الماشية وتلقى تعليماً أولياً ثم عمل بالتجارة في أم درمان، وقد اتجه نحو العمل العام فثقف نفسه وشارك في ترسيخ الأندية بأم درمان وساهم في المواسم الثقافية والاجتماعية، كما جد في خدمة كل المشروعات الإصلاحية كتأسيس المدرسة الأهلية وعاون في ازدهار المعهد العلمي وبناء المساجد، وأنشأ ملجأ القرش، وكان عضواً بارزاً في مجتمع العاصمة، وتوسعت أعمال أسرة البرير فافتتحوا مكاتبهم في شارع الموسكي بالقاهرة، ومثل أسرة البرير السيد علي البرير في ذلك المكتب.

استقر علي البرير منذ مطلع الأربعينات بالقاهرة واتصل بالبيوت التجارية ورجال الأعمال المصريين وجمع كلمة السودانيين وتعاون معهم في تأسيس أول نادٍ للسودانيين بالقاهرة، ألا وهو النادي السوداني بميدان سليمان باشا. انتخب علي البرير رئيساً لهذا النادي وتوفيق أحمد البكري أميناً له، وبدأ النادي السوداني يعرف المجتمع المصري بالسودان.

وانتظم في عضوية هذا النادي نفر من الأعلام والأعيان في مصر، وبالأخص رجال الأعمال والتجار والساسة. وبعد ذلك بدأ علي البرير يعمل على توفير كل سبل الطمأنينة والاستقرار للطلبة السودانيين، إذ كان أغلبهم يدرسون في مدارس خاصة ولا تقدم لهم الحكومة المصرية أي عون ما عدا القلائل الذين حظوا برعاية الأمير عمر طوسون كالدرديري أحمد إسماعيل وبشير عبد الرحمن وتوفيق أحمد البكري ويعقوب عثمان وبخيت محمد عمر، أما ما عداهم فكانوا يعاونون. ولم تكن هنالك بعثات

مخصصة أو منح تقدم للسودانيين، بل كانت المساعدات تقدم فردياً. ففي عام ١٩٣٧ قبل أول فوج من الطلبة السودانيين في المدارس الثانوية المصرية بعد تتويج الملك فاروق الأول، كما أن الجامعة المصرية فتحت أبوابها للطلبة السودانيين منذ تلك السنة وأصبح للسودانيين نسبة خاصة في المدارس الثانوية في القاهرة التي هي: السعيدية وشبرا وحلوان، كما أن بعضهم كان يقبل في أسيوط وسوهاج والمنصورة.

لم تكن في تلك الفترة أي اختلافات سياسية أو عقائدية بل كان كل السودانيين أخوة. واتسع المجتمع السوداني وازدهر واستوعب الضباط السودانيين في القوات المصرية كما أن الكلية الحربية المصرية فتحت أبوابها للسودانيين فكان من أول السودانيين الذين التحقوا بها المرحوم عبد الرحيم محجوب ومحمد أحمد أبو دقن.

رأت وكالة حكومة السودان أن هذا التدفق والانفتاح على الثقافة والتعليم في مصر سيضر بمصالح البريطانيين في السودان. فقامت الفتن والاختلافات في أول الأمر في النادي السوداني. وتنحى علي البرير عن عضويته وعن رئاسته ورجع إلى السودان ومكث فترة فيه، ثم عاد في عام ١٩٤٠ ووهب وقته وماله لتنظيم إلحاق الشبان السودانيين بالمعاهد والجامعات المصرية فازدادت أعدادهم في كل المعاهد ووفر لهم سبل السكن والإعاشة والمعونات وقبلوا في الداخليات، وأسس بيت السودان للطلبة الجامعيين.

وفي تلك الأثناء بدأ الوعي السياسي بين السودانيين وظهرت الأفكار اليسارية، فانضم بعض السودانيين إلى المنظمات اليسارية قبل أن تتقسم الحركات الماركسية في تنظيمات. فأخرج علي البرير مجلة السودان الشهرية وأسند رئاسة تحريرها للدكتور بشير البكري يعاونه الدكتور أحمد السيد حمد وأحمد الطيب عابدون ومحيي الدين صابر وأنعم على علي السيد البرير بلقب البكوية. ولكن الأحزاب السودانية قد نشأت وكان حزب الأشقاء قد رأى أن القضية لا يمكن أن تحل إلا في القاهرة. وعلي البرير كان هو الممثل الوحيد للسودان في القاهرة، ولم يشأ أن ينتظم في أي حزب سوداني كيلا يوسع شقة الخلاف بل رأى أن يدخل مجلس النواب المصري وتقدم للانتخابات فعملت كل الجهات المعنية من السودانيين أن تسقطه ولكنه لم يستكن فتفرغ لميدانه المختار وهو رعاية الجالية السودانية بمصر فأتاح للسودانيين أن ينالوا منحاً فوق الدراسة الجامعية في بريطانيا وفرنسا.

بعد ذلك كوّن مؤتمر الخريجين مكتباً خاصًّا بأم درمان لاختيار البعثات وتقديم المنح تخلى السيد علي البرير عن ذلك وتفرغ للعمل العام من غير انحياز لأي فريق أو حزب. ونشبت الثورة في مصر عام ١٩٥٢ فكان علي البرير موضع الثقة والإجلال من حكومتها.

تم استقلال السودان بعيداً عن وحدة وادي النيل ودبت جفوة مفتعلة بين مصر والسودان، وأقصي اللواء محمد نجيب عن رئاسة الجمهورية ولكن الحكومة المصرية كانت ترى في السيد علي البرير الرجل غير الرسمي الذي ترجع له في كل الأمور، وحسبه أول سفير رسمي للسودان في مصر.

إن العمل الذي قدمه السيد علي البرير رحمه الله للسودان كان انتصاراً ونجاحاً للقدرات السودانية لتتعلم وتلتحق بالجامعات والمدارس الثانوية، إذ إن عدد المتخرجين من الجامعات المصرية ما زال أكثر من المتخرجين من الجامعات السودانية والبريطانية.

هذا الرجل الفذ هو الذي فتح الآفاق للسودانيين وعمل على تقديمهم للدراسات المتخصصة والدراسات الجامعية وقهر الاستعمار البريطاني الذي بخل على السودانيين بالتعليم والتنمية الفكرية والاجتماعية. فكم من طبيب تلقى تعليمه في مصر وكم من متخصص في الزراعة والبيطرة والهندسة والصيدلة تلقى تعليمه في مصر بلد المحامين والمعلمين والقضاة والكتّاب والأدباء والشعراء.

إن دور السيد علي البرير في الفكر السوداني هو دور الفاتح الغازي المنتصر.

السيد علي الميرغني [١٨٧٣ ـ ١٩٦٨]

الدوحة الميرغنية ليست طارئة في الوجود السوداني فالسيد محمد عثمان الختم الكبير اتصل بالسودان في القرن التاسع عشر. فالسودان كان بوتقة الطرق الصوفية وللطرق الصوفية آثار ومؤثرات في تكوين البيئة الإسلامية في السودان. فلولا أشياخ الطرق ومريدوهم لما وجد السودان له مكانة في العالم الإسلامي، وكان السودان أيضاً معبراً لنشر الإسلام في افريقيا. والسيد الحسن الميرغني قد نزح إلى بارا وتزوج منها ورزق بابنه السيد محمد عثمان الميرغني والد السيد علي الميرغني. والسيد محمد عثمان الميرغني تزوج من مساوي وزوجته من قبيلة الانقرياب. فهذه الأسرة استقرت في بادئ الأمر في كسلا وسواكن ووقفت معارضة لحكم المهدية، وتميزت هذه الأسرة بأن أفرادها درسوا العلوم الإسلامية وعنوا بنشر الإسلام. وقد قام بعض أفراد الأسرة باستقطاب أهل السودان الشرقي للطريقة الختمية، وإن كان فرع أسرة المجاذيب في شرقي السودان قد سلك الطريقة الشاذلية وبايع المهدية، وعثمان دقنة كان شاذلياً وكان أنصارياً.

اختار السيد محمد سر الختم أن ينزح إلى مصر، وجعل الإسكندرية مكانه، ولما اشتدت الخصومة بين المهدية وبعض الطرق الصوفية ذهب السيد علي الميرغني إلى عمه السيد محمد سر الختم وانتسب للأزهر. وكان قبل ذلك قد درس في مدرسة سواكن الابتدائية فالتحق بمدرسة الفرير زميلاً لأحمد باشا زيور. وفي مصر تكونت معارضة للمهدية من بعض السودانيين وعلى رأس هذه الطائفة الزبير باشا رحمة وبعض الضباط السودانيين، كما كانت في السودان نواة معارضة من التجار الذين يعملون بين مصر والسودان.

ولما تم الفتح الإنكليزي المصري للسودان رجع السيد علي الميرغني إلى الخرطوم وكان أخوه الأكبر السيد أحمد الميرغني مقيماً في السودان ورأت السلطة في السودان أن محاربة المهدية لا تتم إلا باللجوء للطرق الصوفية التي حاولت المهدية أن تمنعها. ولكن الطريقة السمانية والطريقة القادرية والطريقة الشاذلية لم تكن منتشرة انتشار الطريقة الختمية. فعمدت السلطة للوقوف مع الطريقة الختمية وأتيح للسيد علي الميرغني أن يعبر عن رأيه ويرشد السلطة بما يراه مناسباً للسودانيين. وأنعم عليه ملك بريطانيا بنيشان ممتاز. ولما جاء الملك جورج الخامس في طريقه من الهند إلى بورتسودان في عام ١٩١٢ أنعم عليه بلقب فارس الذي يتيح له أن يحمل لقب سير. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى عارضت طائفة الختمية تركيا وانحازت للحلفاء. وحتى تلك الفترة كان السيد عبد الرحمن المهدي مقيد الحرية يتقاضى معاشاً ضئيلاً قدره خمسة جنيهات ولا يفارق أم درمان إلا تحت ضمان السيد علي الميرغني.

تكوّن وفد الولاء في عام ١٩١٨ برئاسة السيد علي الميرغني وضم هذا الوفد رؤساء العشائر وقادة الطرق الصوفية. ورأس السيد علي الميرغني الوفد الذي سافر إلى لندن لمبايعة وتهنئة الملك جورج الخامس بانتصار بريطانيا العظمى.

وفي العشرينات أحس البريطانيون بمعارضة خفية لحكمهم قد صدرت من الختمية. وكان السيد عبد الرحمن المهدي قد استرد حريته وثقف نفسه وقرأ الفقه واللغة على الشيخ محمد البدوي ولكن إمكاناته المادية لم تكن بالقدر الذي يسمح له أن يجمع حوله المثقفين والمتعلمين. فالناس حتى تلك الفترة لم يكونوا يرون في المهدية ما يجذبهم لها ولمبادئها، فعمدت السلطة أن تحول امتياز جريدة الحضارة من السيد محمد أبو والسيد عثمان صالح عبد الرحمن جميل وتمنحه للسيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي.

نشبت ثورة عام ١٩٢٤ ولما تنكشف بعد الوثائق وصلة السيد علي الميرغني بالقائمين بهذه الثورة. فالبريطانيون قد رصدوا الثورة منذ أن تجمعت جهود المتعلمين السودانيين في عام ١٩١٩ ليطالبوا بحقوقهم في الوظائف والرفاهية. ودست بعض عيونها بينهم. كما أنها في مطلع العشرينات تشربت بعض المبادىء الماركسية بين أفرادها. ولما نشبت ثورة ١٩٢٤ أحس السيد عبد الرحمن أن دعوتها للانضواء تحت التاج المصري تبعده منها، ولكنه رجع فرأى أن محاربة الاستعمار البريطاني لازمة من

لوازم السعي نحو الاستقلال والحرية، فتبرع لصندوقها وانتظم بعض أفراد أسرة المهدي في صفوف المجاهدين وعلى رأسهم السيد محمد المهدي الخليفة ابن أخت السيد عبد الرحمن المهدي. أما السيد علي فكان المجاهدون يستقطبون رأيه ولم نعثر على أي وثيقة في هذا الأمر.. أجهضت ثورة ١٩٢٤، وبدأ السير جوفري أرثر النظر في صياغة السلطة في السودان. وجاء السير جون مافي فطبق التقسيم العشائري في السودان وأكمل ذلك السير جورج سايمس في المؤسسات. وعمد البريطانيون أن يقسموا هذه الأنظمة العشائرية بين الطائفتين: طائفة الأنصار وطائفة الختمية. ومنذ عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٣٥ لم تكن هنالك بوادر سياسية أو تنظيمات، فالمتعلمون اكتفوا بنشاطهم الأدبي والثقافي في المسرح وفي المحاضرات، وأتاحت لهم السلطات البريطانية أن يصدروا مجلة النهضة السودانية ثم مجلة الفجر.

في تلك الأثناء استطاع السيد عبد الرحمن المهدي أن يجمع حوله لفيفاً من المتعلمين كالسيد محمد علي شوقي والشيخ بابكر بدري والسيد محمد صالح الشنقيطي والسيد إبراهيم بدري وبعض الشعراء والفنانين.

وكان السيد عبد الرحمن بارزاً في مجال المثقفين، وتألقت صورته في المجتمع المصري، ورأى فيه المصريون صديقاً والسيد علي الميرغني في صمت. فالذين التفوا حوله هم الشيخ عمر إسحق والشيخ أحمد السيد الفيل والشيخ عبد الرحمن أحمد والسيد الدرديري محمد عثمان والسيد خلف الله حاج خالد والسيد ميرغني حمزة.

ولأول مرة تحركت الطائفية.. وكاد كل المتعلمين أن ينضووا تحت لواء السيد عبد الرحمن المهدي، ونشأ مؤتمر الخريجين فعضده السيد عبد الرحمن المهدي. وفي عام ١٩٤٢ تكونت نواة حزب الأشقاء من عشرة أعضاء هم: يحيى الفضلي ومحمود الفضلي وعلي حامد وحسن عوض الله وأحمد محمد يسين وحسن محمد يسين وإبراهيم جبريل ومحمد عبد الحليم العتباني وعبد الرحيم شداد وإمام المحسن. وبارك السيد عبد الرحمن هذا التكوين والتف الأشقاء حول السيد عبد الرحمن. ولكن السيد محمد الخليفة شريف رأى أن هنالك جماعة عريقة لها صلات بعيدة بالسيد عبد الرحمن وترى هذه الجماعة أن توطيد العلاقة مع مصر يؤذي مصالحها. فرجع إلى مكانه في تلك الجماعة القديمة، فلم ير يحيى الفضلي طريقاً غير اللجوء للسيد علي الميرغني مع

أن يحيى الفضلي كان من المدافعين عن الأنصار ومقاله الشهير في الفجر معروف لمؤرخي الحركة الحزبية في السودان. فأتاح السيد علي للأشقاء مكانة في رحابه. ولكن كان هنالك الاتحاديون وعلى رأسهم ميرغني حمزة فجمع بين الاتجاهين. . يسعى الأشقاء للسيد إسماعيل الأزهري الذي لم يكن له علاقة مع السيد عبد الرحمن المهدي والسيد علي الميرغني فنصبوه رئيساً لحزب الأشقاء إلا أنه كان المنافس للسيد إبراهيم أحمد. . من ثم بدأ الوضوح السياسي للسيد علي الميرغني فتبنى حركة مناوأة البريطانيين فكان الأشقاء يرجعون إليه ويأخذون برأيه.

كان السيد علي القوة المساندة للاتحاديين والأشقاء حتى اختلف السيد إسماعيل الأزهري معه فخرج بعض أعضاء الحزب الوطني الاتحادي وكونوا حزب الشعب الديمقراطي الذي وقف معه السيد علي الميرغني. وتمت المصالحة بين حزب الأمة والختمية فأسقطت وزارة الأزهري في عام ١٩٥٦ وتكونت الحكومة المؤتلفة بين الختمية والأنصار حتى تسلمت حكومة ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨ الحكم العسكري.

كان السيد علي الميرغني يرى أن السودان لا يمكن أن يتوحد إلا بائتلاف الطائفتين، وكان حريصاً جداً في آرائه التي تنقل عنه بطرق غير مباشرة إلا في الضرورة القصوى، فهو يعلن ذلك في خطاب موجز لا يتعدى الثلاثة أسطر. عُرف السيد علي الميرغني باطلاعه الواسع ومتابعته للأحداث، فقد اقتنى مكتبة نادرة كما حرص على الاطلاع على مجريات الأحوال في العالم، فمستشاروه يقدمون له الملخصات التي تنشر في اللغة الإنكليزية. . كما أنه عني بطهارة نفسه والترفع عن الصغائر، فلا يستطيع أحد أن يمسه في سمعته أو في سلوكه أو في سلوك أسرته، فكان منضبطاً حريصاً على الفضائل والمكرمات، كما أنه كان قليل الكلام لا يتبسط في حديثه، بل إنه كان في كثير من الأحيان يتحدث في ما يشبه الحجاب.

عانى السيد علي الميرغني من مرض في كليته فاستأصلت، لذلك جعل لنفسه نظاماً صارماً في الغذاء، وحاسب نفسه براحته وفي نومه وفي يقظته، واهتم بالعلم والثقافة فأنشأ مدرسة الأشراف التي تعلم فيها أبناؤه السيد محمد عثمان والسيد أحمد الميرغني الذي واصل تعليمه في جامعة لندن وتخصص في الاقتصاد.

لم يأبه السيد علي الميرغني بحسب أو نسب أو بجاه بل كان بسيطاً في كل شيء وكانت كل الحكومات تقيم له وزناً واحتراماً. فجريدة «صوت السودان» التي أنشأها كانت ميدان للكفاح والعمل من أجل الحرية. فمقالات محمد أمين حسين ومقالات السيد أحمد السيد حمد ومقالات الشيخ عمر إسحق غير الممهورة كانت شعلة للحرية.

توفي السيد علي الميرغني في عام ١٩٦٨ فسار في جنازته أكثر من مليوني شخص ودفن بالخرطوم بحري في حلة خوجلي.

النحات علي عثمان [١٩٠٧ ـ ١٩٤٥]

النحت فن سوداني أصيل، لكنه لم يمارس كفن متخصص يتفرغ له الناس، وقد نحت السودانيون الأخشاب، والعاج، والابنوس، وأبدعوا أشكالاً مختلفة للزينة كالأواني والحلي، ولكن التماثيل انتشرت في الجنوب، وقد استعان السودانيون بالتماثيل في محاربة السحر، وعلي عثمان فنان من شمال السودان، نشأ في دنقلا، ودنقلا قد تأثرت بالحضارة المصرية القديمة، كما أن المسيحية نقلت لها الفن الكنسي في الأيقونات والصور والرسوم والنقوش، فهذا الميراث الحضاري الذي غمر علي عثمان قد جذبه ليكون مثّالاً . . . إلا أنه لم يدرس هذه الصناعة، بل عمل في عطبرة، علماً أن الكثيرين ممن درسوا في مدارس الصناعة كانت لهم مواهب فنية، فمحمد بشير عتيق شاعر، وسيد عبد العزيز شاعر، وعبيد عبد الرحمن شاعر، وعبيد الطيب فنان مغن، وبين هؤلاء الممثلون والكتاب كهاشم السعيد.

ولما استقر علي عثمان في عطبرة نحت تمثال فتاة أطلق عليها اسم تاجوج. فهذا التمثال نُصب في النادي السوداني الذي أصبح فيما بعد نادي الخريجين، فلندرس هذا التمثال، نجد أن الوجه لفتاة سودانية بارزة الشلوخ، تميز جيدها بلفتة متناسقة مع الأعضاء، ويبرهن أن الوظيفة تخدم العضو، كما أن رأسها اتسق مع توازن كتفيها وبرز صدرها. ولست أدري إن كان هذا التمثال هو بداية علي عثمان في فن النحت أم كان واحداً في سلسلة طويلة؟ وفي تلك الأثناء اهتم المثقفون بعلي عثمان بالأخص إبراهيم حسن المحلاوي ومحمد عمر إدريس ومصطفى محمد حسن أبو شرف، وكتبت عنه الحضارة وجريدة السودان، وحاول علي عثمان أن ينفلت من العمل في ورشة سكة

الحديد، ويلتحق بالمتحف في الخرطوم، وثابر في صنع تماثيل صغيرة. وشد الرحال إلى القاهرة في صيف عام ١٩٣٦، وكان المعرض الزراعي الملكي قد أقام معرضاً تحت رعاية الجمعية الزراعية الملكية. وكان مدير الجمعية الزراعية الملكية حينذاك فؤاد باشا أباظة صديق السودان والسودانيين. فأتاح لعلي عثمان أن يقيم معرضه، وقدم بعض التماثيل وكتب على جناحه الصغير: «علي عثمان فنان علَّم نفسه»، فكتبت عنه مجلة إيماج الفرنسية وقالت: «علي عثمان نحات سوداني من أهل دنقلا، لم يتعلم النحت في مدرسة لكنّه ولد موهوباً»، تماثيله تتلاقى مع الفن الفرعوني في الأسرة المتوسطة، وبروز التعبير في تماثيله يوحي بأنه قد درس الوجوه الإنسانية وتمعن في حركاتها، كما أن مقدرته على ضبط الأبعاد في الجسم الإنساني رائعة، وقد أكد أنه لم يتلق أي درس في علم وظائف الأعضاء تؤكد أن الفن مولود فيه، وهو لم يدخل مدرسة للفنون، ولم يصب أي ثقافة عربية.. لقد كان معرضه ظاهرة من الظواهر المعجزة بين الفنانين الدارسين.

وفي صفحات أخبار المجتمع كتبت عنه مجلة المصور، ونشرت صورة له بين تماثيله.. ولما عاد علي عثمان إلى السودان قُبل كعامل لترميم وتلميع صب التماثيل التي أصابها الخلل والعطب، وكان سعيداً بذلك ليعيش في عالمه المحبوب، وعامله المدير البريطاني معاملة سيئة، ولكنه بالرغم من ذلك حافظ على كثير من التماثيل التي نراها اليوم في متحف السودان، كما أنه تخصص في نقل التماثيل من أماكنها إلى المتحف.

وفي الأربعينات تنبه الشباب السوداني لدراسة الفن وولوج أبوابه فكان الرائدان هما عبد القادر إبراهيم تلودي وعبد الرازق عبد الغفار، وتلقيا دراسات في معهد التربية بالقاهرة، وبعثا للمملكة المتحدة، فواصل عبد الرازق عبد الغفار فن النحت في صمت وإبداع فتماثيله اليوم تباع في أوروبا وفي أمريكا، وقد توقف المرحوم تلودي. وافتتحت مدرسة التصميم في الأربعينات تحت اسم مدرسة الفنون، ودرس فيها المرحوم عبد العزيز أبو عفان وشفيق شوقي وبسطاوي بغدادي وضو البيت والعريفي ولكنهم انصرفوا للرسم والتصميم، ولم يبرز واحد منهم كنحات، فرائد النحت هو علي عثمان، أما مَنْ وهب حياته للنحت وتفرغ له بعد دراسته دراسة أكاديمية فهو الأستاذ عبد الرازق عبد الغفار متعنا الله بحياته.

فالنحت من أرقى الفنون، فهو يحتاج إلى تفرغ تامّ، وإلى سعة في الرزق تـوفر للنحات مؤونة السعي وراء العيش، فعلي عثمان كان يلهث لكسب قوتـه، ومع ذلـك أصر وأبدع في وقت كان الناس يظنون أن النحت هو صناعة الأصنام.

المحتوى التاريخي لفن عـلي عثمان استيقظ ليـوضح الـروح السودانيـة ويخلدها. فتمثال تاجوج هو تخليد للمرأة الـسودانية. وتمثال العامل الـسوداني هو تصوير لما يعـانيه العامل السوداني. فعندما ترى وجه العامـل السوداني في ذلـك التمثال تحس بـالعطف والشفقة على هذا البطل الذي يكافح في صبر لبناء مجتمع لم تتضح معالمه. فعلي عثـمان ظهـر في إبان الأزمـة الاقتصاديـة التي اكتوى بهـا الـسودان من جـراء الاستعـمار وشرد الكثيرين، وفقدوا وظـائفهم من غير ذنب. وقـد التفت علي عثـمان إلى ذلك في تمثاله لـلأم التي جلست عـلى الأرض وهي تـطرق في الأرض وقـد التف حـولهـا أطفـالهـا، وبعضهم جلس على الأرض، وبعضهم أمسك بها. هذا التمثـال تكوّن من عـدد من التـماثيل الصغـيرة أحكم علي عثـمان وضعها وجمعهـا على قـاعـدة واحـدة. . وفي عـام ١٩٤٠ نقلت صحيفة الأهرام في فبراير من تلك الـسـنة تعليقاً لضابط بريـطاني في نشرة في مجلة باريد قال له فيه: «شاهدت بعض التماثيل لشاب سوداني اسمه عـلي عثمان في الخرطوم واشتريت منه بعضها، وقد بهرتني قدرته على تطويع الصخر في إبراز الـوظيفة لـلأعضاء وتعبـير الصخر لأفكـاره، وسألتـه: كيف بدأت النحت فقـال: بدأتـه وأنـا طفل، أصنع الخيـول والجمال والحمـير من الطين عـلى شاطىء النيـل، إنني أتنبأ لهـذا المثال مستقبلاً حسناً إذا ما توفرت له الدراسة».

هـذه تحية لـروح علي عثمان رائد النحت الـسوداني وتذكـرة لشباب هـذا الجيل ليبحثوا ويجددوا في كشف حياتنا الثقافية.

علي نور [١٩٠٣ ـ ١٩٧٢]

بعد رجوع وفد الولاء من بريطانيا عام ١٩١٩ وقيام الثورة المصرية في عام ١٩١٩ تبدل المناخ الفكري والسياسي في السودان وأحس المتعلمون السودانيون أن الالتفاف حول الحكم الاستعماري البريطاني سيطفىء جذوة الحرية ويشيع في السودان روح التكالب على المصالح الفانية. وقد برزت طبقة من التجار السودانيين اكتسبوا ثروات فجائية بعد الحرب العالمية الأولى وهاجروا بدلاهم وحبهم للبريطانيين. ولم يكن البريطانيون في غفلة عن ذلك. فقد مهدوا للعلاقات الموجهة فتكونت جماعة الاتحاد والترقي وجعلت شعارها الاهتمام بمصالح السودانيين واستيعابهم في الوظائف المناسبة وفتح الأبواب للتجار السودانيين لتصدير الماشية والقطن والصمغ والسمسم كما أتيح لبعض التجار الاستيراد من بريطانيا. فكان التاجر السوداني في تلك الفترة، إما تاجر أقمشة، أو تاجر مواشي، أو تاجر محصولات. ووزعت الحكومة كساوى الشرف على الأعيان والتجار وزعماء الطوائف الدينية والعلماء. ولكن التفت نفر من الشباب إلى التطورات التي نجمت عن الحرب العالمية الأولى وانتشار الوعي في الساحة العربية بعد إجهاض الثورة العربية وسقوط الخلافة واستيلاء أتاتورك على الحكم في تركيا، ونشأ علي نور فكرياً في تلك الحقبة وقد التحق بكلية غردون في عام ١٩٢١ فكان الأول في اللجنة الأستاذ علي حسني والثاني الأستاذ أحمد خير والثالث الأستاذ علي نور. وكان رئيس الرؤساء في الكلية الأستاذ علي حسني فهو أول دفعته. أما الأستاذ أحمد خير فقد اختار أن يكون مترجماً، والتحق علي نور بقسم الهندسة والمساحة. والكلية حينذاك عاشت في جو من الاختناق الفكري، فقد حرمت الصحف المصرية وعين من بين الطلبة هيئة بوليسية تراقب الطلبة الذين يقرأون

الصحف المصرية ويقدمونهم للمعاقبة، وقد جعل علي على قائمة بعض أسماء هؤلاء الطلبة. لذلك كانت الحركة الأدبية في كلية غردون محاصرة. فالطلبة يقرأون روايات ارثر كونان دويل وهو كاتب روايات بوليسية وريادر هاجرد وهو كاتب أحاجي ومغامرات ورباعيات الخيام ترجمة فيتزجرالد وروايات ديكنز وولتر اسكوت وكتاب آكل البشر من تسافو، وهي قصة وقعت في الترنسفال. هكذا كان هو الرائد الثقافي. أما الكتب العربية التي سمحت بها مكتبة الكلية فهو كتاب الأغاني والمستطرف في كل فن مستظرف والمعلقات العشر وجمهرة أشعار العرب ومجلة المقتطف. ومنع الطلبة من كتابة الشعر، كما أصدرت الحكومة منشوراً حرمت فيه على الطلبة والموظفين الكتابة في الصحف. تخرج علي نور في عام ١٩٢٥ متمرداً، فالحق بمصلحة المساحة، واتصل في المراكز بحمزة الملك طمبل وتوفيق صالح جبريل. وبدأ يكتب الشعر أولاً في الشكوى والتمرد ووصف الليالي مع الأصدقاء والأحباء. ورويداً رويداً ظهر شعره السياسي فتناقله الناس واحتفلوا به. فعلي نور امتاز بأنه كان رجلاً اجتماعياً يحب الحياة. لذلك شعره يسري في عفوية، فهو لا يفكر في اللفظ ولا يأبه بتنقيحه بل يهتم بالمعنى والفكرة في إطار البحر. لذلك يتجاوز كثيراً في ما يسوغ له في التفصيلات. فعلي نور لا يعمد لتجويد شكل القصيدة. فالجمالية لا تجد عنده من العناية ما يصبو له في قصيدته. فالقصيدة في شعر علي نور لها بُعد خارجي هو مخاطبة الآخرين قبل مخاطبة النفس. من ثمة لو كان لنا أن نصف شعر علي نور لجاز لنا أن نقول إنه شعر اجتماعي. فشعر حافظ هو شعر اجتماعي قصد به متابعة الأحداث وحث المجتمع على النهضة والكفاح. وهكذا كان منطلق علي نور، فأطلق عليه جيله شاعر المؤتمر، فقصائده في النضال الوطني تعتبر قسمة في تاريخنا الفكري.

كان أصدقاء وأتراب علي نور كثيرين ولا شغل لهم منذ تخرجه في عام ١٩٢٥ من كلية غردون حتى مطلع الأربعينات إلا قراءة الأدب والشعر. ففي الدامر عاش مع توفيق صالح جبريل والمجاذيب. وفي الدويم التف حوله المثقفون وتبادلوا معه الآراء، وفي أم درمان في حي بانت كانت بيته عامراً بالمثقفين والأدباء والشعراء، فهو وأخوه أحمد علي طه من أمه رحمهما الله، كانا يتحاوران بالشعر ويتباريان. فالشعر عنده كان تعبيراً عما يدور في المجتمع والمناداة بالإصلاح والحرية. ولم يكن الشعر عنده غاية. فقد تجد قصائد في الفكاهة والمداعبة والرثاء والتهنئة، وكلها أغراض مطلوبة في

الواقع اليومي. ولكنك لا تجد قصائد النفس والوجدان والخصومة لأنه استغنى عن كل ذلك. هندسة القصيدة في شعر علي نور قامت على الفكرة والمناسبة. فإن كانت القصيدة للإلقاء كانت الأبحر، إما من الخفيف والكامل أو البسيط أو الطويل. وإن كانت قصيرة كرسالة أو برقية كانت من المترادف أو الوافر أو مجزوء الكامل. فقد اعتاد علي نور أن يحيي المؤتمرات في كل مناسبة بقصيدة، ويدعو للكفاح والجهاد. وفي مطلع الأربعينات أقيم المهرجان الأدبي في أم درمان. وقد عقد مجلس تأديبي لعلي نور ولم يستطع السفر إلى اجتماعات المؤتمر وحضور المهرجان فاعتذر ببرقية من الشعر.

حقاً لقد كان هناك شعراء كثيرون توفروا على الشعر الاجتماعي منذ مطلع القرن العشرين حتى بداية الأربعينات ولكنهم اهتموا بالفن والصياغة، ولكن علي نور اهتم بالشعر الخالص الذي يتعرى من البهرج والمحسنات. فأسلوبه في الشعر فريد، له طعمه الخاص، يرتفع عن النثرية وعن شعر العلماء، ويستخدم اللغة السهلة والألفاظ المطروقة في الحياة اليومية من غير عناء وبُعد عن الزخرف والزينة. لذلك كان شعره يحفظ ويردد ويستشهد به في كل المناسبات. رحم الله علي نور شاعر المؤتمر.

الشيخ عمر إسحق [١٨٨٧ ـ ١٩٥٧]

لم يخل السودان من العلماء والفقهاء في القرن التاسع عشر الميلادي، فحلقات العلم والفقه جمعت الحواريين والمريدين في الجزيرة، وفي أم درمان وفي الأبيض وفي دنقلا وفي بربر وفي سنجة، كما أن أطراف الخرطوم كانت مشعلاً للنور والمعرفة، فلما اختير عمر إسحق للدراسة في كلية غردون كان حافظاً للقرآن قارئاً لمتون اللغة في النحو والصرف، وملماً بالمذاهب الأربعة، ونبغ عمر إسحق في دروسه وازداد علماً وشغفاً بالمطالعة ودراسة الأدب العربي والتاريخ الإسلامي. وتخرج في عام ١٩٠٦ مدرساً في المدارس الابتدائية، وكان المدرسون الذين يدرسون في المدارس الابتدائية يدرسون كذلك في المدارس التي تعرف اليوم بالمتوسطة، لأن السنوات الثلاث في ذلك النظام المدرسي عرفت بالفترة التحضيرية وبزغ نجم عمر إسحق كأديب وقارئ للشعر وحكم في المباريات الشعرية وبمباراة الإلقاء، واتصل بالحركة الوطنية منذ مطلع شبابه، كما أنه كان نجماً من نجوم المجتمع، يراقب تطوره وازدهاره، وكتب في تلك الفترة بعض المقالات في جريدة الرائد، وشارك في حفلات التحكيم بين شعراء الحقيبة، وقد ذكره الشاعر إبراهيم العبادي أنه اختير ليحكم بينه وبين خليل فرح والخليفة أحمد عثمان في جائزة قدمت لوصف صورة فتاة في عام ١٩١٦ وكان هو رئيس لجنة التحكيم التي ضمت بين أعضائها البكباشي محمد نور.

وتدرج عمر إسحق في وظائف التعليم، وتنقل في البلاد، وعُرف بسداد الرأي والحكمة فعين عضواً في مجلس أم درمان والخرطوم البلديين، وتحدث عن تعمير الخلاوى بالسبورات وإدخال الكتابة وقواعد الهجاء والحساب في الخلاوى. كما أنه

قدم الاقتراح بمنح شيوخ الخلاوى مرتبات شهرية وتدريبهم على تدريس مبادئ العلوم الحديثة ولما حل السودانيون مكان المصريين والسوريين في إدارة مصلحة المعارف حينذاك عين عمر إسحق مفتشاً للمدارس، فكان يزور المدارس الأولية والوسطى، ويفتشها، فيدخل حصص اللغة العربية والدين الإسلامي والحساب والجغرافيا والتاريخ والأشياء والزراعة والبيطرة والصحة، فهذه هي المواد التي كانت تدرس في المدارس السودانية حينذاك ويوجه ويقيم حصص معاينة.

لم يكف عمر إسحق عن نشاطه الاجتماعي، إذ كان عضواً عاملاً في نادي الخريجين بأم درمان يلقي المحاضرات في الجمعية الأدبية ويدير الجلسات في اجتماعها. واهتم بالدعوة لتعليم البنات، وعمل على جذب الفتيات للاشتغال بالتدريس، وعندما أسست المدرسة الأهلية الوسطى بأم درمان، كان راعيها، كما أنه كان رئيس اللجنة الفنية في مجلس الأوصياء وتدرج بتلك المدرسة وجمع لها التبرعات حتى استقر بناؤها القائم اليوم في كررى، وأصبحت مدرسة ثانوية عليا. فأول مدرسة ثانوية أهلية قامت بتأسيسها لجنة من المواطنين كانت هي الأهلية، وقد قامت مدرسة الأحفاد بجهود الشيخ بابكر بدري، ويرجع فضل ذلك للشيخ عمر إسحق الذي وهب حياته لهذه المدرسة، وبجانب ذلك شارك عمر إسحق في تأسيس ملجأ القرش، الذي كان مدرسة لمن لم يقبل في كلية غردون، فقد جلب له الأستاذ حسن رشيد نور الأستاذ المصري المتخرج من جامعة ألمانيا ليدرس طلبته على الصناعات والفنون، وجعل فيه قسماً فوق المرحلة المتوسطة يدرس فيه العلوم الحديثة واللغة الإنكليزية.

عُرف عمر إسحق بوطنيته وجهاده فكان من عيون الخريجين وأعلامهم في مؤتمر الخريجين، وكان المرجع في حل المشكلات وقد كتب مقالات من غير توقيع في جريدة صوت السودان، ولكن أسلوبه المتميز يكشف ذلك وينم عنه، ودعا للوفاق والوئام.

أما في دائرة الرواد، فعمر إسحق هو رائد كتاب التلميذ السوداني في اللغة العربية، وإن كان الشيخ بابكر بدري قد سبقه في هذا المضمار وألف كتاباً في المطالعة، إلا أنه اهتم بالمشكلات اللغوية وتكوين الجمل، إلا أن السلسلة التي أشرف عليها الشيخ عمر إسحق ومعه الشيخ كمال الدين عباس والشيخ محمد الأمين مكي اهتمت بتعريف الطفل السوداني ببلاده وبدينه وبتقاليده، واختار له قصائد في عام ١٩٣٠ تحت اسم «التحفة السودانية للمدارس السودانية» وكانت لغتها سهلة ومبسطة

وصحيحة، كما أنه عرض طرفاً من تاريخ السودان لأول مرة، وتحدثت هذه السلسلة للطفل السوداني عن بيئته وقربت له اللغة العربية الفصحى، فإن كان بابكر بدري هو أول من ألف كتاباً في المطالعة إلا أن عمر إسحق وصحبه الكرام هم الذين فتحوا الطريق لسودنة المناهج السودانية وأتاح الطريق لعبد الرحمن علي طه أن يؤلف كتاباً في الجغرافيا المحلية للسودان.

إن جيل عمر إسحاق هو جيل الأدباء والسدنة والأساس للمجتمع السوداني، فقد كان ذلك الجيل هو المرجع والحكم في كل المشكلات، وقد تختلف وجهات نظرهم ولكنهم لا يختلفون في قولة الحق ونصرة الحق، كما أنهم تميزوا بالنقاء والصفاء لأن المجتمع لم يكن مجتمعاً استهلاكياً، بل كان مجتمع قيم وأخلاق وإكبار وإجلال.. ولما انشق السودانيون إلى طائفتين كان شيوخ الطائفتين هم القدوة في العفة ورباطة الجأش والسعي إلى السلم.. إننا عندما نسترجع تاريخنا لا نجحده، نرى الشيخ سيد أحمد الفيل والشيخ عمر إسحاق والسيد حسين شريف والسيد محمد خليفة شريف والسيد عبد الله الفاضل والدرديري محمد عثمان ومحمد علي شوقي ومحمد صالح الشنقيطي وإبراهيم يوسف بدري، قد يختلفون في وجهات النظر، ولكنهم يرأبون الصدع ويجمعون الشمل. إن بذور الوحدة الوطنية مغروسة ونابتة في أرضنا، ولكن التبصر بتاريخنا ومعرفة رجاله هو الذي يسد أمامنا الطريق.

في حديث للمفكر الفرنسي روجيه جارودي في كتابه الجديد «ما زال ثمة وقت للحياة» قال: حاجة بلاد العالم الثالث للاعتراف والتمسك بثقافتها هي الحرز الحريز لحريتها ونهضتها، فالثقافة الوطنية أولاً والتنمية ثانياً.. لأن التنمية يجب أن يكون لها هدف، هو شعور المواطن بعزته وبالقيم والأخلاق.

لقد كان عمر إسحق أساساً من أسس الثقافة الوطنية في السودان.

عوض ساتي [١٩٠١ ـ ١٩٧٢]

نشأ عوض ساتي في منطقة النيل الأبيض، ووضحت مواهبه منذ الصغر، وتفوق على أقرانه، فشق طريقه للمدرسة الوسطى حتى كلية غردون، وتخصص في التدريس، وقدراته في كل العلوم متكافئة في التفوق والامتياز، لكنه اختار الرياضيات لما بعث إلى جامعة بيروت الأمريكية، وكان من أوائل السودانيين الذين درسوا الفلك كفرع من فروع الرياضيات، ولما نقل ليدرس في كلية غردون كان نداً، ومقارعاً للمدرسين البريطانيين، فكان يدرس الرياضيات العليا ويبسطها. واستطاع عوض ساتي أن يثبت لكل الذين درسوا عليه أن الرياضة علم يستطيع أن يفهمه من يتبع القواعد والخطوات، وكذب اعتقاد الكثيرين أن بعض الناس يفهمون الرياضة ويرجعونها للموهبة أو الذهن الرياضي، ولكن عوض ساتي أوضح أن معرفة القواعد هي طريق لفهم الرياضة، وكان عوض ساتي دائرة معارف، إذا ما دخل فصلاً في حصة غير حصص الرياضة استطاع أن يدرس على الفور الأدب الإنكليزي والتاريخ وعلم الأحياء والأدب العربي، لذلك كان الطلبة في كلية غردون عندما يغيب أحد مدرسيهم يهرعون إليه ليدرسهم المادة التي يدرسها المدرس الغائب.

والذي يراجع مجلة الكلية التي كانت تصدر في الثلاثينات يكتشفون ما كان يكتبه عوض ساتي الأديب العالم، وكم وقف طلبة كلية غردون وكأن على رؤوسهم الطير وهم يستمعون إلى حديث عوض ساتي. واشترك عوض ساتي في جمعية الآداب والمناظرة فبرهن أنه محدث ساحر، يرتجل في ابانة وبلاغة ويحلق في آفاق الفن والعلم صباح يوم السبت، سواء إن كان ذلك الحديث باللغة العربية أو اللغة

الإنكليزية ويقاطعونه بالتصفيق والإعجاب وإبداء استمتاعهم بحديثه عن الفلسفة، وكل ذلك ينبع من نفسه، لا يتعاظم ولا يتعالى بعلمه وثقافته ونادي الخريجين بأم درمان تشهد قاعته له بذلك. ولما تم ميلاد مؤتمر الخريجين تبوأ عوض ساتي مراكز الصدارة فيه وكان في دورة من دوراته أميناً عاماً له، فقد عرف بالحيدة وحب العمل الجماعي دون الالتفاف نحو طائفة أو تجمع قبلي أو حزب، وكتب في جريدة المؤتمر مقالات اجتماعية، وتنقل عوض ساتي في وظائف التدريس وأصبح ناظراً لمدرسة وادي سيدنا وتنقل إلى نهاية وزارة المعارف فكان أول مدير سوداني لوزارة المعارف ولكنه عندما نال السودان استقلاله عين عوض ساتي أول سفير للسودان في المملكة المتحدة، فاهتم بالبعثات التعليمية، وشارك في اختيار المعلمين البريطانيين للعمل في المدارس الثانوية، وتقاعد بعد ذلك عوض ساتي، لكنه رجع إلى مهنته يدرس الرياضيات في مدرسة الأحفاد الثانوية، ولم يطرق باباً غير التدريس. ولا ينسى التاريخ أحاديث عوض ساتي للطلبة عن العلوم والفلك، في الإذاعة السودانية، فكان المستمعون ينصتون إليها كأغنية جديدة لفنان موهوب، وقد نبه المجتمع السوداني لمشكلات العلم وحل هذه المشكلات وليس هذا وحده، فعوض ساتي هو رائد مكتبة الطفل السوداني، فمجلة الصبيان التي يصدرها مكتب النشر هي من إنشائه، وكم تمتع صبيان ذلك العهد بأحاديث عمكم سرور، فعمنا سرور هو عوض ساتي، فقد كان عوض ساتي أول مدير سوداني لمكتب النشر، فجمع الفنانين والخطاطين والأدباء والشعراء، وفتح لهم منافذ للتعبير ومكتب النشر، فقدموا للطفل السوداني ثقافة سودانية أصيلة في الكتب التي أصدرت في تلك الفترة، فالطفل السوداني كان يفتقد هذه المكتبة وليس لديه غير ما كان يقدمه كامل كيلاني، فحطم عوض ساتي كل العوائق وقدم للطفل السوداني أدباً سودانياً، كتب بلغة سهلة جميلة، كما أنه ساعد الكبار الذين استطاعوا في أعمار متقدمة أن يقرأوا ويكتبوا بعدما نجحت حملات محو الأمية في السودان، فأخرج لهم مجلة الكبار، كما أنه خصص لهم مكتبة منفردة بهم، واستكتب المعلمين الأدباء وأتاح لكل من يشارك في هذا العمل أن يقدم كتبه في هذا الميدان لمكتب النشر. فعوض ساتي هو الذي أرسى قواعد ثقافة الطفل السوداني، وذلك راجع لطبيعته التي توفرت عندها القدرة على الحكاية والسرد، وجذب المستمع والقارئ، فهو عندما يتحدث يحكي حكاية وعندما يكتب يقص قصة، لا ترى أثراً للمعادلات

الرياضية أو مصطلحات العلوم، وإن كان أساس كل ذلك هو المعادلات الرياضية والمصطلحات العلمية.

وبجانب ذلك، تجد عوض ساتي من خيرة المترجمين، فهو لا ينقل النص ولكنه يضع روح النص في لغة عربية مبينة سهلة ساحرة، كما أن سرعة بديهته، وحضور خاطره اللماح تضفي على نص الترجمة جمالاً، وكثيراً ما كنا نقارن ما يترجمه من اللغة الإنكليزية، بما هو أمامنا في اللغة العربية فنفضل النص العربي، واشترك عوض ساتي في تعريب بعض مناهج الرياضة، فلا تجد أثراً للغموض في تعريبه، بل إنه أوضح وأجود من الألفاظ الإنكليزية البعيدة عن الفهم، أحب عوض ساتي تلاميذه، وأحبوه لأن العلم عنده نبع من قلبه وصعد إلى عقله، فحبه للعلم والثقافة كان حب المؤمن بالمعرفة، وحب المعلم الذي لم ير في الوجود أحسن من أن يكون معلماً، لم يجر وراء المناصب، بل كثيراً ما كان يستعان به في العمل في الشركات، فيضيق بالمكاتب، فعندما عين في شركة السجائر كأحد المديرين كان يضحك ويقول: علاقتي مع السجائر ـ إنني أدخن السجائر، ولم يستمر طويلاً، كما أنه عين كعضو في مجالس إدارات الشركات لكنه رفض أن يدرس في المدارس، وذات ضحى بينما كان عائداً في سيارته، هجمت عليه نوبة قلبية ففارقت روحه، وبكاه في ذلك اليوم تلاميذه وعارفو فضله، فقد كان ودوداً وعطوفاً وعالماً ومعلماً. رحم الله عوض ساتي أحد أساطين تاريخنا الثقافي، والمعلمين الذين فتحوا أمامنا طريق الثقافة والمعرفة.

فرح عبد الرحمن حامد [١٩٠٧]

هذا اسم لا يعرفه غير الباحثين والمغرمين بحفظ الآثار الفكرية لهذا البلد. إنه فرح عبد الرحمن حامد، ابن الشريف حامد عبد الرحمن البصير، يا ليت لو كان بيننا كاتب كود ضيف الله أو كاتب الشونة، ليؤرخ لحياتنا الروحية والفكرية، جده الأكبر من أشراف دنقلا، كان رجلاً صالحاً حافظاً للقرآن، ويعمل في صناعة المراكب، وقد توفي في سبعينات القرن الماضي، وترك والده عبد الرحمن وأخته زينب. وفي طواف من رحلات محمد أحمد المهدي، حاول المهدي أن يسترد عبد الرحمن وأخته زينب ولكن الشيخ أبو سن الكبير رفض أن يفرط في أمانته، فعاد المهدي وزوج زينب للشيخ الهداية، واستطاع أن يضم أخاها عبد الرحمن له واشترك عبد الرحمن في أول معركة في الجزيرة أبا وكان عمره ثلاث عشرة سنة وعمل كشافاً في الجيش يستطلع أخبار حملة الشلالي باشا، وتزوج عبد الرحمن بنت محمد صالح، ابنة عمته وأخيه عم الإمام المهدي، ولما توفي الإمام المهدي، خلفه الخليفة عبد الله، ولما نشبت الخلافات بين الأشراف وبين الخليفة أرسل عبد الرحمن إلى كسلا، وألحقه بجيش عثمان دقنة، واستمر هنالك عامين. ولما استعرت الحرب ودخل الغزاة إلى السودان لم يلحق عبد الرحمن بالمجاهدين في كرري، وسقطت كرري وقد عاد عبد الرحمن وألزمه الخليفة باصطحاب النساء والأطفال إلى الشكابة وكان معه البشري، والفاضل المهدي وكان له بيت في الخرطوم، هو موقع حديقة الحيوان اليوم، فرفض عبد الرحمن أن يعود إلى بيت غير بيته، وذهب إلى سنجة وكان أطفاله يموتون، فنذرت زوجته أن تسمي ابنها باسم فرح تيمناً بالشيخ فرح ود تكتوك، وعاد عبد الرحمن بعد ذلك إلى الخرطوم في عام ١٩١٨ وكانت لديه أمانة هي سيف الإمام المهدي فرد الأمانة للسيد

عبد الرحمن، وقصة هذا السيف غريبة، فقد أخذ إلى المملكة المتحدة ثم رد للسيد عبد الرحمن، وهو اليوم في متحف السودان.

التحق فرح بالمدرسة في الخرطوم وكان ذكيًا يكتب الإنكليزية والعربية في ابانة، ودخل المدرسة الوسطى، وللمستعمرين خططهم عندما يلاحظون ذكاء الأطفال، فلما أتم المدرسة الوسطى زينوا له أن يلتحق بمدرسة الصنائع، ولكن ذكاءه المفرط، جعلهم يندمون، وقد ذهب مرة المستر يودال ليزور تلك المدرسة فوجد صبياً يتحدث الإنكليزية بطلاقة، فأسرع إلى السير لي استاك حاكم السودان وقال له إنني قد قبلت هذا الصبي في كلية غردون، وفي تلك الأثناء اغتيل لي استاك وخلفه جوفري ارثر، وأغلقت كلية غردون، وبدأ الإنكليز يفكرون في إجراء تغيير جذري، يستعينون بالسودانيين في الإدارة وفي تسيير حكم البلاد، واللجوء إلى الزعماء والأعيان، فألحق فرح عبد الرحمن سكرتيراً خاصًا للسيد عبد الرحمن المهدي لمدة عام، ثم رجع إلى كلية غردون، كتب عنه هليلسون فقال: «عندما كنت أدرس التاريخ الإسلامي والعربي، كنت أخشى طالباً واحداً، هو فرح عبد الرحمن، إذ كان يردني في كثير من النقاط ويشير علي بقراءة المراجع الصحيحة». وكان يقوم بتدريس الترجمة مدرس مسيحي سوداني اسمه سيما بشارة، وفرح كان كثير النقاش والمراجعة معه في أصول الكلمات، حتى إنه شكا منه للمستر يودال، وعكف فرح على مكتبة الكلية يقرأ ما يريد، ولكن الاختيار تم له أن يكون مترجماً، ورأى الإنكليز فيه قدرات وطاقات في الترجمة فتخرج في عام ١٩٢٧، وكان من أبناء دفعة إبراهيم عثمان إسحق. وعين فرح في قوة دفاع السودان فترجم اللائحة العسكرية والقانون العسكري والأوامر إلى اللغة العربية وطبعتها حكومة السودان حينذاك، ولما عين ظن الإنكليز أنهم سيجدون فيه الموالي الحميد فوضعوه في درجة أعلى من زملائه وهي الدرجة السابعة، واشتغل بعد ذلك في المديريات، فترجم قانون الجمارك واستعين به في ترجمة قوانين الشرطة والمرور والرخص والعوائد، ولما تنقل في المديريات كان المديرون والمفتشون يرفضون ترجمة أي عريضة في مراكزهم إلا إذا ترجمها فرح عبد الرحمن. ولما نقل إلى الفاشر بدأ صراعه مع الإنكليز واشتد في نيالا وفي الأبيض. فذهب لحج بيت الله الحرام وتخلى عن الملابس الافرنجية، وأصبح يراجع الترجمات الإنكليزية للقرآن ويصححها، وصمت فهو لا يتحدث مع رؤسائه من البريطانيين إلا كتابة، وقد قال له مرة المستر هكسورث:

كيف تجرؤ يا فرح أن تصححني في لغتي، فرد عليه: لأنني أعلم منك، وفي تلك الفترة الممتدة من الثلاثينات إلى الأربعينات كانت الترجمة فناً نادراً، يستعان بالمعلمين للعمل فيها، كعمر سليمان وعبد القادر شريف وأحمد محمد صالح ومحمد الأزرق وأمين زيدان في أثناء العطلات المدرسية، فالمترجمون الممتازون كانوا قلة، وعلى رأسهم فرح عبد الرحمن وعبد الله وقيع الله وحسن عثمان إسحق، لذلك أبقوا فرح في الخدمة، وقد رفض العمل في القسم السياسي في مكتب السكرتير الإداري وحاول السير هارولد ماكمايكل أن يغريه ولكنه أصر على رأيه فكل المصطلحات التي نعرفها اليوم هي من ترجمة فرح عبد الرحمن وحسين عثمان إسحق. وكان يترجم الصحف وعبد الله وقيع الله يترجم النشرات، والمدرسون يستعان بهم في العمل الصحفي الذي يدون في وقائع المديريات إذ كانت لكل مديرية نشرة شهرية، فلو رجعنا إلى النشرات في عام ١٩٣٠ في الفاشر وفي عام ١٩٣٤ في الأبيض وإلى الأربعينات في الري لوجدنا آثار فرح عبد الرحمن.

كان الإنكليز يهابون فرح عبد الرحمن. وقد سماه المستر بريدن رجل الأسرار والمعجزات، ووصفه الموظفون والذين عملوا معه في الأبيض أن له قوى روحية خارقة، ليس في العمل فقط ولكن في شخصيته وقد عُرف بالتقوى والعبادة، وكتب شعراً صوفياً جميلاً سنقدم طرفاً منه، وأرخ لكثير من مديريات السودان، وأضفى على الترجمة أسلوباً أدبياً رائعاً. فالترجمة كانت توصيلاً للمعاني، لكنه أحالها إلى فن. فالثقة في اختيار الكلمة وذيوع تعريبها كان سراً من أسراره لا ترى أثراً لغيره فيه. وفي آخر عمله في الحكومة كان سكرتيراً للجنة مياه النيل، فترجم مصطلحات الري، فما أحرانا أن نذكر هذا الرائد مع حسن عثمان إسحق وعبد الله وقيع الله ومحمد صفوت ومحمد عامر بشير من المترجمين المبدعين الذين كانت الكلمة عند لمس أصابعهم. إن تاريخنا الثقافي لحافل بالمعجزات، وفرح عبد الرحمن هو واحد من الرواد الذين لا يعرف عنهم أبناء هذا الجيل قليلاً أو كثيراً.

قاسم راسخ [١٨٧٣ _ ١٩٥٥]

عندما سقط السـودان في براثن استعمار الحكم الثنائي لم تكن بـه مدارس، ولم يكن به متعلمون تلقوا العلوم الحديثة والمعرفة ليواجهوا مقتضيات الحياة، ولكن كانت الخلاوى وحلقات العلم، يـدرس فيها الشبـاب القرآن وعلوم الـدين والفقه ويلمـون بـطرف من الحساب. فعينت الحكـومـة بعض المتنـورين ككتبة في القسم العـربي وفي مكاتب الحسابات، وتوفـرت بعد ذلـك الكتب والصحف، من بين هؤلاء كـان قاسم محمد راسخ وهو ابن محمد بك راسخ السـوداني الذي ولـد في حلة جاد الله، ولم يكن تركياً ولكنه تلقى علومه في الأزهر وفي تركيا وفي ألمانيا، وكان قاسم راسخ قـد نشأ في تلك البيئة فاستطاع أن يعلم نفسه ويدرس اللغة العـربية في إقـامته ويتعمق في النحـو والصرف وعلوم البلاغة، وعمـل قاسم راسـخ في الغابـات في مطلع القـرن العشرين واتصـل بكبار العلماء والـوجهاء في تلك الفـترة، فعشق علم الفلك والنجوم، فـأعـد كتـابات في تحـركات النجـوم ومواقـع الأجرام السـماوية، كـما أنـه تعمق في التـاريـخ الإسلامي ورواية الحديث النبوي، واهتم بقراءة الصحف العربية، ورواية الأحـداث المعاصرة، وتقاعد في خلال الأزمة الاقتصادية في الثلاثينات، فاستقـر في بربـر، فكان بيتـه مدرسـة من مدارس العلم والمعـرفة، يصف الأدويـة المستخرجـة من الأعشـاب، ويحل معضلات الرياضيـات ويُسأل في الفتوى والحديث.

لم يتلق قاسم راسخ غير الدروس الأولية في ديوان المديرية في بربر لأنه ألم باللغة التركية واللغـة الفارسيـة. وكان الكتـاب رفيقه وصـديقه فقـد أمضى حياتـه في العبادة والدراسة. وبربر بالرغم من حلقات العلماء التي كان يديرها الشيخ أحمـد حميدة والـد

الشيخ أبشر أحمد حميدة الذي كان من كبار القضاة الشرعيين في السودان والشيخ محمد حسيب عم الدكتور منصور علي حسيب والشيخ ود الريشابي والأستاذ أحمد مختار والشيخ محمد السيد، لم تكن بها حلقات للعلم، بل كان الرجل الوحيد الذي تفرغ للعلم الكوني والعلم الدنيوي هو قاسم راسخ.

كثير من الذين بدأوا الشعر من أبناء بربر هرعوا إليه ليصحح لهم الأوزان ويتلقوا عنه علم العروض، فقد كان يحفظ الآلاف من أبيات الشعر العربي، كما أنه كان رساماً لم يتعلم الرسم في المدارس، فقد رسم صوراً لكثير من الكبار في عصره، وكان من أبرع لاعبي الشطرنج، وقد حفظ القرآن الكريم وتعمق في التفسير.

والذين تفتحت عيونهم على المعرفة والثقافة من أبناء بربر في الثلاثينات لم يجدوا معلماً ينمي مواهبهم غير قاسم راسخ.. إذا احتجت لدراسة أشجار السودان وأنواعها وخصائصها وجدت مرجع ذلك عند قاسم راسخ.. وإذا كنت من المهتمين بمعرفة حيوانات السودان فليس هنالك ما يرشدك إلى ذلك غير قاسم راسخ، وإلمامه التام بالتاريخ الإسلامي وبتاريخ المهدية جلب نحوه الكثيرين. ولكنه كان يلازم بيته أو يسمر مع صديق أو صديقين خارج منزله، وعرف قاسم راسخ بكراهيته البالغة للاستعمار، لذلك لم يتصل بالإنكليز ولم يترق في الوظائف.

في كل بلدة من بلاد السودان البعيدة عن المدن كان هنالك أفراد ممتازون عملوا على إرساء المعرفة، وقد قدمنا كنموذج في بورتسودان إبراهيم محمد حمو ونقدم كنموذج في بربر قاسم راسخ. فالسودان حتى الأربعينات لم ينتظم فيه التعليم، حتى إن المدارس الوسطى كانت تقسم في الشمالية، فحلفا يكون بها نصف مدرسة وعطبرة تكون بها نصف مدرسة وبربر تكون بها نصف مدرسة ومروى تكون بها نصف مدرسة. والمدارس الوسطى كانت عدة لا تتجاوز العشر في السودان.

فالأساتذة الذين نوروا الشبان هم أمثال قاسم راسخ. فلولاهم لما استطاع الشبان في القرى والبلاد أن يعرفوا العالم ويطلعوا على الكتب والصحف. ولم تكن هنالك كتب تقدم المعرفة الجيدة في القرى والبلدان الصغيرة. بل إنك كنت تجد قصص ألف ليلة وليلة وأبي زيد الهلالي وعنترة وبعض المتون في الفقه. فأمثال قاسم راسخ كانوا هم المعلمين والمرشدين. فعندما يشرع المزارعون في حرث أراضيهم كانوا

يلجأون لقاسم راسخ يسألونه عن الوقت المناسب لبذر البذور، لأنهم يريدون معرفة الأوقات التي تتفق مع سير الكواكب وتأثير ذلك على الزرع.

أما شرح تذكرة داود فقد كان قاسم راسخ متخصصاً فيه ومعرفة الأعشاب التي تعالج الأمراض. لذلك يسمي الأدوية بالسموم وينفر منها ويبين للناس أضرارها. كان للأقدمين حكماء في القرية. وحكيم بربر كان قاسم راسخ. فهو العالم الفنان الشاعر المتطبب.

هذا جيل قد انقضى ولن يعود. فنحن عندما نقدم قاسم راسخ في هذه السلسلة نذكر فضله وعلمه. فالسودان اليوم يختلف عن سودان الأمس. والمعرفة كانت مقصورة وحبيسة، فهؤلاء النفر هم الذين فجروها.

وجدير بالذكر أن قاسم راسخ كان من أنصار حركات التحرير والدفاع عن الحريات. فقد اشترك ابنه المرحوم الدكتور عبد الله قاسم في بعثة الهلال الأحمر في الحرب الاثيوبية ـ الإيطالية في عام ١٩٣٥ و ١٩٣٦ وقد تأثر بالغازات السامة وعانى منها حتى توفي فيه في ريعان الشباب في القاهرة في عام ١٩٣٩.

إننا نحتفل ونحيي كل من شارك في بناء حياتنا الثقافية. فقاسم راسخ دوره لم يقتصر على بربر بل استفاد منه الكثيرون في أرجاء السودان.

مبارك زروق [١٩١٥ ـ ١٩٦٥]

هذا علم من أعلام الحياة الثقافية في السودان، الذين نشأوا في الثلاثينات، عاش تلك الفترة الخصبة، من الإعداد الفكري والثقافي للتحرك نحو التحرر والاستقلال، ومحاربة الاستعمار، تعلم في كلية غردون، وكان من زملائه خليفة عباس ومحمد السيد عثمان وحامد أحمد حمداي ومكي السيد علي وحسن عبود ومحمد عثمان محجوب وحسن طه محمد علي، وتوفر على الدراسة والمطالعة، وبرز في جمعية الآداب والمناظرة في الكلية واختير ليعمل في سكة الحديد وصولاً لتبوأ المناصب القيادية، فعمل في المحطات النائية وفي بورتسودان وعطبرة وواد مدني، وكان عزاؤه الكتاب والنقاش الفكري، وتم اختياره لمدرسة الحقوق في عام ١٩٣٩، فكان مميزاً بين أقرانه، فلما تخرج لم ير إلا أن يكون محامياً، فقد كان من الأوائل في التخرج والذين يحصلون على الدرجات العليا يختارون في سلك القضاء ولكنه فضل هو وأحمد خير وزيادة أرباب أن يعملوا في المحاماة، فقد كان عدد المحامين السودانيين فيها قلة أظهرهم الدرديري أحمد إسماعيل وعابدين إسماعيل في ذلك العهد.

اختار المحاماة ليعمل في القضية الوطنية، فقد آمن بمؤتمر الخريجين واشترك في المهرجان الأدبي في أم درمان في عام ١٩٤١ فقدم بحثه الفريد عن أدب الديارات في الشعر العربي، فأعجب له المتخصصون والمثقفون وخطط طريقه ليعمل بالسياسة ويساهم في الحركة الثقافية ويكون طليقاً من غير أن تحده تقاليد القضاء. ولما انشطر المؤتمر كان واضحاً إذ التزم جانب الأشقاء ولكن اختلاف رأيه لم يفسد عليه قضية مع أصدقائه في الاتجاهات الأخرى، فكان محمد أحمد محجوب من أصفى أصدقائه

وعبد الرحيم الأمين ومحمد أحمد عمر وحسن محجوب وعبد الله خليل ومحمد صالح الشنقيطي.

مثل الجنتلمان في السياسة الحزبية في السودان، ولما قامت أول حكومة سودانية عمل فيها وزيراً للمواصلات ولما استقل السودان كان أول وزير خارجية له.

إن الدبلوماسية الذكية التي لم تعتمد على التصريحات بل إنها اعتمدت على الدراسة والتكتم والمحافظة على العلاقات مع الدول المجاورة كانت هي فلسفة مبارك زروق. فقد عمل معه واحد من جيله كوكيل لوزارة الخارجية ألا وهو محمد عثمان يس، فترك لوكيله التفاصيل واهتم بالأسس، فكان كل سفير وكل دبلوماسي يتصرف طبقاً للقاعدة العامة ويترك له حرية التحرك في التفاصيل، لذلك اكتسب ثقة الدبلوماسيين الذين عملوا تحت إمرته، فمبارك نبغ في العمل الجماعي منذ أن انخرط في السياسة، فكل واحد من العاملين معه محترم في رأيه، وكل واحد يستطيع أن يعبر عن رأيه، وبعد ذلك يتم الاتفاق على صياغة وجهات النظر لتكون الفكرة العامة التي يلتزم بها الجميع. . أحبه واحترمه الجميع لإيمانه بحقوق الإنسان في الحياة، وبرز في المجتمعات الدولية كدبلوماسي عالمي، فردهات هيئة الأمم، شهدت له باللباقة والذكاء والقدرة على الإقناع، فقد عرفته خطيباً ساحراً يتحدث الإنكليزية في إبانة وبلاغة، ويكتب المذكرات المقنعة المزودة بالدروس والمعلومات، وعرفته الجامعة العربية كمشارك في اجتماعاتها وصاحب قرار في أعمالها.

تميز مبارك بالتفكير الموضوعي المنظم والدقة في التعبير والابتعاد عن التأثر بالعوامل الشخصية، فقد كان ملء السمع وملء الفكر لا يصطدم مع أحد، وإن كان مريراً قاسياً في نقده للأفكار والآراء، يتخذ المنطق والبرهان سبيلاً له، وذلك لأنه كان مثقفاً لا تطغى عليه الغفلة، يتابع الأفكار والآراء ويردها إلى أسسها ويحللها ولا يعنى بمن يقدمها، فذهنه المتقد وقراءاته الواسعة وإدراكه لما كان حوله جعله قادراً على التطبيق، ففكره لم يقم على نظريات أو طموح شخصي، لأن المجتمع قد أولاه الثقة، وعمله في المحاماة در عليه أكثر من عمله في السياسة، فلم يجزع لكسب، ولم يلهث لمصلحة، فهو والد لإخوانه وقيم عليهم، فأبوته في أسرته هي التي وطدت المسؤولية والمحاسبة عنده، فقد كان له إخوان وأخوات، وهو الذي ينظر في أمرهم ويرعاهم، وعددهم كثر لأن والده تزوج أكثر من زوجة.

كانت عبقرية مبارك في حياته، فهو سياسي، ومحام، وأديب ورجل مجتمع وعضو في مجلس الجامعة، وعضو في لجان كثيرة، وكان فوق ذلك كله يصرف الحياة كما يريد، يستأنس بأصدقائه ويزور أقربائه، ويمد يد العون للمحتاجين ويتمتع بمباهج الحياة، فقد أوقف مبالغ في حياته لتعليم بعض الشبان في المرحلة الثانوية وفي مرحلة الجامعة فلما اعتقل وأرسل إلى جوبا في عام ١٩٤٢ أودع السيد زيادة ارباب وزير التربية حينذاك رسالة طيها شيك بمبلغ كبير لتصرف منه التربية على الذين تولى دفع مصروفاتهم. ولم يكتف مبارك بذلك بل إنه أودع في مكتبه بنداً خاصاً لمن كان يقدم له شهرياً العون والمساعدة.

لم يكن مبارك جماهيرياً وإن كان خطيباً مفوهاً وبرلمانياً متفوقاً، فقد كان زعيم النواب ولكنه كان ظاهرة من ظواهر المودة والثقة في المجتمع السوداني، فمزاجه الأدبي وموهبته في التعبير حببته للناس، فكثيراً ما كانوا يهرعون للمحاكم، ليستمعوا لمرافعاته البليغة، كما أن وفاءه لهذه الأمة والعمل من أجل إسعادها وتقدمها جعله موضع الثقة في كل المحافل والأحزاب، وتمنى الكثيرون لو أنه لم يكن عضواً في حزب لأنه رجل الجميع، الثقافة العالية والكلمة الساحرة الهادئة والعفة في النقاش والأمانة في اليد والفكر والعمل من أجل الوطن كانت هذه صفات مبارك زروق.

قرأ واطلع كثيراً فلم يتبجح بعلمه وثقافته، وبرع في معرفة الأدب العربي، وانعكس ذلك في خطبه ومقالاته، وألم إلماماً واسعاً بتاريخ السودان فعرف كيف يتحرك في محيطه.

ما أن يتولى منصباً إلا كان هو الرجل المناسب، وفي أخريات حياته كان وزيراً للمالية فعمل على إصلاح الوضع الاقتصادي وتعاون معه كل المسؤولين في ذلك فعجبوا لعلمه وكده ومثابرته، ومات وقد خلف ذكرى سوداني محب لوطنه أحبه الجميع لأنه كان رجل الجميع.

محمد أحمد أبو رنات [١٩٠٢ - ١٩٧٧]

محمد أحمد أبو رنات سليل بيت من البيوت الشهيرة في أرض الشايقية والحلفايا والنهود. هاجرت أسرته إلى النهود واشتهد عضدها هنالك ورحلت إلى الصدارة والرئاسة. تعلم محمد أحمد أبو رنات بكلية غردون وتخرج محاسباً في عام ١٩٢٢ وعشق القانون، وعكف على دراسة قانون عقوبات السودان، واهتم بأحكام المحاكم، ثم بدأ يدرس القانون بالمراسلة، فقد سبقه لذلك الأستاذ محمد علي الطيب ونال شهادته من أحد المجمعات بالمملكة المتحدة في عام ١٩١٧ كما أن السير كريت قد درس القانون بالمراسلة وأصبح سكرتيراً قضائياً في السودان، ولكن الظروف لم تخدم محمد أحمد أبو رنات لأنه صرف سنوات في دراسة اللغة الفرنسية واللغة اللاتينية وفلسفة التشريع، وامتحن الجزء الأول منه، والعمل المكتبي لا يرحم، ورأى رؤساؤه شغفه بالقانون، ولكن عمره لم يساعده ليلتحق بوظيفة في القضاء، كما أن طبيعة عمله كمحاسب لا تؤهله ليصبح قاضياً، فالذين استطاعوا في تلك الفترة أن يلتحقوا بالقضاء عملوا إما في قسم التسجيلات أو في الإدارة وأشهرهم الدرديري محمد عثمان الذي انتقل من التدريس إلى الإدارة ثم إلى القضاء المدني، وأحمد عباس من التسجيلات إلى القضاء، وحلمي أبو سمرة من التسجيلات إلى القضاء. فلما افتتحت غرفة القانون بمكتب السكرتير القضائي نقل أبو رنات إلى تلك الغرفة ثم التحق بمدرسة القانون، فظل يتدرج في سلك القضاء حتى أصبح كبير القضاة، ثم اختير للعمل في هيئة الأمم في لجانها القانونية. . محمد أحمد أبو رنات وهب حياته للقانون وللدراسة، فقد اهتم بدراسة المجتمع السوداني وعاداته وتقاليده ليطبق القانون، فجعل القانون في خدمة المجتمع ولم يلجأ للنصوص إذا خالفت طبيعة البيئة، فهو يزن

الظروف التي أدت للجريمة، فالجريمة هي نتيجة وليست سبباً يؤدي للعقوبة، ففي القضية الشهيرة التي حدثت في كوستي عندما قتل القطار عدداً من الأبقار فانقض صاحب الأبقار على سائق القطار فقتله. فالحكم المبدئي صدر على صاحب الأبقار بالإعدام، فلما استؤنف الأمر أمام أبي رنات حكم على القاتل بالسجن لأن الأبقار تشكل عند ذلك الراعي خلاصة حياته، فالذي يعتدي على أبقاره يعتدي على حياته، كما حكم لأهل القتيل بالدية.

إن دراسة ظروف الجريمة ومعرفة طبائع البيئات في السودان جعلت أبو رنات رجلاً موضوعياً يطوع القانون للأوضاع.. فقد مثل أمامه في أول عمله بالقضاء نجار اتهم بسرقة أخشاب ومسامير ووضعت له مادة خيانة الأمانة والسرقة، فسأله أبو رنات: كم عدد أطفالك، فقال له النجار: تسعة ومعهم أمي وشقيقتان وأخ في المدرسة. وسأله عن مرتبه فقال: ثمانية جنيهات، فحكم عليه أبو رنات بأن يستقطع ثمن الخشب والمسامير من مرتبه بالتقسيط وينذر ولا يقدم لمجلس تأديب، واستؤنف الأمر أمام قاض آخر فأيد حكم أبو رنات.

وفي غضون الحركة الوطنية قدم أمامه موظفون اشتركوا في مظاهرة سياسية وخشي الناس أن يحاكمهم بالسجن الذي يؤدي للفصل، فحكم على كل واحد منهم بغرامة قدرها مرتب يومين، وقال في الحيثيات: إن المتهمين شبان في مقتبل أعمارهم فالعقوبة بالسجن تؤدي إلى إفساد نظرتهم للحياة والمجتمع، فقد يحسون بقيمتهم كمواطنين ويزين لهم الناس ذلك، ولكن بعد فترة سينساهم من وقف معهم فينحرفون، فالعقوبة قد تمت على أنهم خرجوا من مكاتبهم وهم ملتزمون بالعمل وهذه مسؤولية، فالذي لا يحافظ على مسؤوليته لا يكون وطنياً ولا مواطناً صالحاً، فالمسؤولية هي أساس الوطنية، ولما لم يسببوا أذى أو يقوموا بأعمال تخريب، بل كانوا يهتفون لذلك أصدرت المحكمة هذا الحكم عليهم على أن يوقعوا تعهداً أن لا يخرجوا من مكاتبهم ويشتركوا في المظاهرات.

لم يُعرف أبو رنات بالتساهل، لكنه اشتهر بالحكمة والرزانة، وبثقته الفائقة في دراسة قضاياه، وبحكمه المدعم بالأسانيد، وبأنه لم يظلم أحداً.

لم يتوقف أبو رنات عن التعلم فقد كنت تراه بعدما تخطى الستين وهو يجلس بين شبان في عمر أحفاده يدرس اللغة الفرنسية في المركز الثقافي الفرنسي وثابر حتى استطاع أن يقرأ الصحف الفرنسية ويتحدث بالفرنسية ويكتب الفرنسية، وكان قد بدأ دراستها في العشرينات.

اهتم أبو رنات بحقوق الإنسان وعمل في لجنة هيئة الأمم لمحاربة الاستعمار ومثل الأمين العام لهيئة الأمم في بعض البلدان الافريقية.

إن القانون كان هبة في روح أبي رنات، فإذا جلست إليه فإنه لا يستشهد بالمواد السوابق، بل إنه يفتي في بساطة، وقد اختير في عام ١٩٧٣ ليكون رئيساً للجنة الاستئنافات بالخدمة المدنية فأشاع روح البحث والإنجاز فكان يدلف إلى مكتبه ويقرأ الشكاوى والالتماسات والعرائض ويصنفها ويناقشها مع أعضاء اللجنة، حتى إن الشبان الذين كانوا يعملون كموظفين في مكتب الاستئنافات عجبوا بنشاطه وجده.

لا شك أن الذين عاشوا قبل فترة الاستقلال وبعد الاستقلال كانت لهم ميول سياسية، ولكن ميول أبي رنات لم تنعكس أبداً في أحكامه كما أن نظرته الخاصة لم تؤثر في أحكامه. إن تعمقه في دراسة البيئة السودانية والعرف السوداني والاهتمام بالإنسان كقيمة هو الذي جعله رائداً من رواد الفكر والحياة في تاريخنا.

محمد أحمد سليمان [١٩٠٨ - ١٩٤٩]

الانتخاب الطبيعي في الأنواع هو الذي يمكن البقاء للأصح، والانتخاب الطبيعي في التعليم هو الذي يحفظ للمجتمع قداسته وقيمه، فالتعليم للأصلح هو القانون الذي يخرّج الأجيال الصالحة القوية، لقد كان محمد أحمد سليمان من العقول التي تحدث الظلام وجاهدت في سبيل التنوير. تخرج في عام ١٩٣١ من كلية غردون في البقعة التي تخرج فيها مكي عباس والهادي أبو بكر ومحمود بلال رزق، وتفوق على أقرانه في اللغة الإنكليزية والتاريخ، وعمل في المدارس الوسطى وعشق القراءة والدرس والبحث، ولم تفكر مصلحة المعارف حينذاك أن تبعثه إلى خارج السودان ليتدرب أو يتلقى دراسة جامعية، فكان يقضي عطلاته المدرسية في زيارة آثار السودان ومشاهدة الأقطار الخارجية، ويكتب عن مشاهداته وانطباعاته بين الفينة والفينة في الصحف المحلية. وعكف على دراسة التاريخ العام والتاريخ الأوروبي وتاريخ وادي النيل، واختير في غضون الحرب العالمية الثانية ليدرس في كلية غردون. ولما فكر السودانيون في إنشاء المدارس الأهلية لأن أعداداً كبيرة من التلاميذ لم يجدوا أماكن لهم في المدارس الوسطى، فقامت مدرسة واد مدني الأهلية، واستقال صالح مصطفى الطاهر ومصطفى محمد حسن أبو شرف، ليشرفا عليها، وتبعتها بعد ذلك مدرسة بورتسودان الوسطى الأهلية التي ضحى من أجلها محمد أحمد سليمان ليديرها، وتعاقبت بعد ذلك المدارس الأهلية.

أنشئت مدرسة بورتسودان الوسطى الأهلية في عام ١٩٤٣ وكان بها قسم خاص للمدرسة الأولية ليتسق التعليم في نظام واحد، فأدخل محمد أحمد سليمان التربية

الوطنية، وحكاية التاريخ الوطني وسير الأبطال، وكوّن محمد أحمد سليمان الجمعيات المختلفة من المرحلة الأولية حتى المرحلة الوسطى، وجعل المدرسة داراً للتلاميذ يعودون في الساعة الرابعة للألعاب الرياضية والجمعيات، ووجه المعلمين إلى أن العمل بالتدريس يختلف عن العمل في المكاتب، فالمعلم طوال حياته معلم، لأن التعليم تضحية وعمل وعلم، فكنت ترى المعلمين يعودون للعمل في الساعة الرابعة حتى الثامنة، وسارت المدرسة في تقدم وازدهار فكلل ذلك بإنشاء القسم الثانوي التجاري الذي تخرج منه الكثيرون من الذين عملوا في المصارف والشركات.

أجهد محمد أحمد سليمان نفسه في هذه الفترة القصيرة، وكان منهجه حديثاً يلائم البيئة السودانية ويجيب مطالب الحياة السودانية. ففاجأته العلة، لكنه لم يسقط الراية وينسحب. وفي خلال تلك الفترة أسس مكتبتين في المدرسة، مكتبة للتلميذ ومكتبة للمدرس. وكثيراً ما كان يعقد حلقات النقاش والبحث، ويكلف أحد المعلمين بإعداد بحث عن موضوع من مواضيع التربية وعلم النفس، وزود المدرسين بالمراجع والمجلات ووسائل الإيضاح، كما أنه أشاع بين التلاميذ روح المنافسة، فكنت تجد لكل فصل جريدة حائط منسقة ومخطوطة، وأتاح للتلاميذ أن يقرأوا الصحف المحلية، وعلق الصحف في اللوحات، كما أنه في اجتماعات يوم السبت كان يتحدث عن الأحداث الوطنية، وضاق الاستعمار به، وكثيراً ما أوعزوا إلى لجنة المدرسة أن تستغني عن خدماته، وقد زاره معتمد بورتسودان في عام ١٩٤٦ وقال له: إن مدرستك تضم كثيراً من المدرسين الذين يثيرون القلق ويزعجون الأمن، فقال له: لو أحسست أنهم يخالفون النظام ويتعدون على القوانين لفصلتهم، ولكنهم مربون يرشدون تلاميذهم إلى جادة الحق.

اهتم محمد أحمد سليمان بتغيير السلم التعليمي، وطبق الكثير من التغييرات في المناهج، فمثلاً مد فترة تاريخ السودان وركز عليه في كل الفصول، وبسط قواعد الحساب وأكثر من التمرينات، كما أنه عني باللغة العربية وبآدابها، ومرن التلاميذ على الحديث باللغة الإنكليزية، وشرع في تكثيف علم الجغرافيا المحلية، وقال إن الذي لا يعرف جغرافية بلاده لا تهمه جغرافية البلدان الأخرى، وكوّن جمعية للرحلات داخل منطقة بورتسودان وفي أنحاء القطر المختلفة، فعرّف التلاميذ بدنقلا وشندي والخرطوم

وواد مدني. وذكرهم أن معرفة بلادنا هي الطريق للوحدة الوطنية، أما الانزواء فهو أعظم أسباب التخلف.

إن محمد أحمد سليمان كان من أعضاء جمعية واد مدني الأدبية، وقد شارك فيها بأبحاثه ومحاضراته، كما أنه أول من نبه للفولوكلور السوداني، وجعل له متحفاً صغيراً في المدرسة، «استعمل كلمة البوش للاجتماع الكبير الموسع».

إن قصة التعليم الأهلي والكفاح لإرساء أسسه هي المدخل للحرية والاستقلال في السودان. فالبلاد تهتم بمدارسها لتضمن الحرية والكرامة لأبنائها، فالتعليم عندما ينصرف للكسب المادي وللتبشير بتعاليم تكون مخالفة لروح الوطنية يكون مؤامرة على حياة الإنسان السوداني، لذلك كان محمد أحمد سليمان يدعو للتعليم في نطاق الذين يقدرون على التعليم، فليس كل فرد يستطيع أن يتلقى التعليم الأكاديمي، وليس التعليم الأكاديمي مفخرة أو زينة، كما أن ليس التعليم الفني والزراعي والصناعي ملجأ للعاجزين، فالتعليم هو الذي يشيد الأخلاق والقيم والاقتصاد ونظام الحكم، لذلك كان محمد أحمد سليمان حريصاً على أن يتيح التعليم لمستحقيه من ناحية الكفاية والقدرة على استثمارها وقد اختلف معه الكثيرون وظنوا أن المدارس الأهلية فتحت لتستوعب كل من رفضته المدارس الحكومية، فكذب ظنهم، فكان تلاميذه من خيرة التلاميذ وقد جذب نخبة المعلمين وجعلهم يستقيلون من مدارس الحكومة ليعملوا في مدرسته، رحم الله محمد أحمد سليمان الذي وهب حياته لإجلاء وتأكيد قيمة العلم والتعليم.

محمد أحمد محجوب [١٩٠٥ ـ ١٩٧٦]

نشأ المحجوب في بيئة ثقافية منذ أن تفتحت عيناه، فقد نشأ في كنف خاله محمد عبد الحليم والد الدكتور عبد الحليم محمد. فقد كان مغرماً بالقراءة والأدب والتاريخ والسياسة، وقد اقتنى مكتبة عامرة وحافلة، وترعرع بين العلماء والفقهاء، واستمع لمجالس الفتوى والأدب في حي الهاشماب، وحفظ الشعر من الأفواه قبل أن يقرأه في الدواوين والكتب، وكانت طفولته سعيدة أشعت فيها المحبة والحنان، ودخل كلية غردون، وتاق ليكون معلماً، ولكن وقفت دونه قيود الاستعمار، فتحول إلى دراسة الهندسة، وكان من زملائه في ذلك القسم محمد عشري الصديق، ويوسف مصطفى التني، وقد اهتمت هذه الدفعة بالأدب والثقافة وأنشأ أفرادها جمعية أدبية في الهاشماب كان من أبرز أعضائها محمد زكي مصطفى، وعبد الحليم محمد، ومعاوية نور، وعوض الله مرسال، ومحمد عشري الصديق، وشقيقه عبد الله عشري الصديق، ومرضي محمد خير، وتنبهت هذه الجمعية للثقافة الحديثة، وتعرفت على المفكرين الغربيين والكتّاب والشعراء، وتابعت في عناية تامّة مسيرة الثقافة الحديثة، فيما كان ينشر في السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي ومجلة الهلال والمقتطف والعصور، كما أنها ركزت على قراءة المجلات الفكرية الإنكليزية، ولما تخرج محجوب من قسم الهندسة عمل في مصلحة الأشغال، وكان الباشكاتب سورياً هو جبرائيل بيطار الذي أصبح فيما بعد من كبار رجال الأعمال في السودان، وكان جبرائيل بيطار أديباً متمكناً في اللغتين الإنكليزية والفرنسية، وكان يطلب كتبه من المملكة المتحدة، فتوثقت علاقته ببيطار، واستطاع أن يقيم أواصر ود مع المثقفين السوريين كأبناء خباز وأبناء كافوري، فهؤلاء النفر قد تلقوا دراسات جامعية، بعضهم في الجامعات الأمريكية

ويعضهم في جامعة أكسفورد، وكان في مصلحة المالية نفر من المثقفين السوريين كألبير أديب الذي أنشأ فيما بعد مجلة الأديب المشهور في العالم العربي، أتيحت لمحجوب هذه السانحة فكان يلعب التنس معهم ويتناقش معهم في قضايا الفكر والسياسة، وتكونت منهم حلقة كان واسطة العقد فيها ادوارد عطية. واختير محجوب بعد ذلك في منتصف الثلاثينات في مدرسة الحقوق، فدخل حياة القانون مترسماً خطى فولتير الذي درس القانون وأصبح محامياً عن حقوق الإنسان، وقبل ذلك لمع محجوب ككاتب في مجلة النهضة وفي حضارة السودان، ولما صدرت مجلة الفجر في عام ١٩٣٤ كان من أسرة تحريرها، وكتب محجوب في السياسة الأسبوعية وفي مجلة أبولو، وحاضر بادئ ذي بدء في أندية الخريجين، واشترك في الندوات الفكرية والنقاش الوطني ولكنه عندما أصبح قاضياً ابتعد عن العمل السياسي المكشوف، وإن شارك في أعمال المؤتمر والمهرجانات الأدبية وإقامة المدارس الأهلية، فلما أحس في منتصف الأربعينات أن واجب الوطن يدعوه للعمل والكفاح أستقال من القضاء، واختار المحاماة، وبدأ يكتب آراءه السياسية في السودان الجديد، ويجاهر بفكرته السياسية عن الاستقلال، وإن لم ينضم لأي حزب، ودخل الجمعية التشريعية، وخرج منها ليكشفها، ووقف بعيداً عن الحزبية حتى أوائل الخمسينات ثم دخلها في أوسع أبوابها، ولكن علاقاته لم تتبدل ولم تتغير، فكان عفاً في كتاباته لا يمس الأشخاص، ولا يثير الضغائن، وأصبح وزيراً للخارجية في عام ١٩٥٦، ورشح نفسه لرئاسة الأمم المتحدة منافساً للدكتور شارل مالك في عام ١٩٥٨. أسقطت ١٧ نوفمبر الحكم المدني، فوقف في المعارضة، واعتقل ونفي إلى جوبا، وعاد أشد مراساً وقوة، واشتعلت ثورة أكتوبر وعادت الحياة السياسية فرجع وزيراً للخارجية بعد الانتخابات، ثم أصبح رئيساً للوزراء. إن محجوب لم يهتم بالوظائف السياسية، بل كان يفخر بأنه كاتب وشاعر، وهكذا هو محجوب من أوائل الرواد الذين وجهوا الأنظار للثقافة الحديثة. كتب عن الحرية، وعن الجمال، وعن الحق، وعن العدل، وكان يختلف مع الناس في آرائهم، ولكنه يدافع عن حقهم في إبداء آرائهم، اجتمعت كل وجهات النظر السياسية في بيته، وهم معارضون له، خصوم لأفكاره، لكنهم موقرون محترمون، وكلهم كان يحترمه ويوقره، هذه هي هيبة الثقافة والفكر، إن أفقه الواسع ووجدانه الحي وإجلاله للقيم كان ملاك حياته وكان نوراً.

لو كانت الأحوال في بلادنا تتسع للأديب أن يحيا من قلمه لما عمل محجوب بالمحاماة ولا ارتضى العمل في السياسة، محجوب هو الذي أرخ للحركة الثقافية في السودان، ومحجوب هو الذي كتب عن الحكومة المحلية، ومحجوب هو الذي كتب عن سودان الغد، محجوب شاعر تفتح قلبه للحياة وللجمال، فكان أبداً شاباً أخضر القلب، محجوب كان يدير القلم بالإنكليزية كما يديره بالعربية، ويرتجل الكلام الجميل المنسق في نبرات موسيقية فيسحر ويخلب، ويتحدث بالإنكليزية حديث المطمئن الواعي، لا ترى لجلجة ولا تعثراً ولا تزحفاً ولا بحثاً عن الكلمة، تنطلق الكلمة منه كالنسمة الهادئة الرخية، يسمع الناس ينتقدونه فيعلو عليهم بتجاوز أخطائهم، كان آخر ما كتبه كتابه بالإنكليزية عن الديمقراطية في السودان، وديوان شعب صغير.

محجوب هو أول رائد للشعر الحر في الأدب السوداني، إن اتساع نفسه للحياة كان اتساعاً للحياة، وكرم روحه كان كرماً للأدب والأدباء وإخلاصه للأدب والفن هو الباقي الخالد، فنحن عندما نتحدث عن رواد الثقافة السودانية نتحدث عن أستاذ ومعلم، فلنراجع كتبه ونقرأ ما تركه ونجمع الشتات من آثاره، سنستيقظ في يوم ونرى هذا التراث الذي خلفه فنسأل أنفسنا أين كنا يوم كان. رحم الله محجوب الأديب الكاتب، الرائد، المعلم.

الدكتور محمد آدم أدهم [١٩١٢]

الاهتمام بالموسيقى لازمة من لوازم الحياة والعيش في كثير من أنحاء السودان، ففي شمال السودان يعزفون على الربابة والطنبور، كما أن آدمات العزف بأنواعها، والنقارة، كلها معروفة ومطروقة في السودان، والجيش السوداني غني بالموسيقى منذ نشأته، وكتبت المارشات بالنوتة، وكان لكل فرقة مارشات خاصة. ومحمد آدم أدهم ابن ضابط سوداني عشق الموسيقى منذ سنيه الأولى وتعلم الماندلين والقيثارة، وحتى إذا تدرج في المدرسة الوسطى كان ناظر المدرسة الشيخ محمد الحسن دياب، وقد رأى أن الانصراف للدروس والمذاكرة أجدى من الاهتمام بالموسيقى، وإن كانت الموسيقى تمارس في فرقة الكشافة وتعزف في الحفلات المدرسية، وأشرف على ذلك الأستاذ عبد القادر شريف.

ونقل محمد آدم أدهم إلى كلية غردون، وقد بدت عليه معالم الذكاء. وأفاد من نشأته في غرب السودان التفاته للغيبيات وشغفه بالموسيقى، ورأى في الكلية جمعية موسيقية سبقه على إقامتها الدكتور محمد حمدي الذي كان يعزف الماندلين، والدكتور لبيب عبد الله الذي غنى بالكمان، ومحمود الفضلي ومنصور علي حسيب والتجاني الماحي. ولما التحق أدهم بكلية الطب نمت في نفسه هذه الهواية وتخرج في عام ١٩٣٨ من كلية الطب وعمل في عطبرة وهناك تعرف الدكتور ماك دونالد الذي قدم له كتاباً في تاريخ وعلم الموسيقى.

لحن أدهم كثيراً من القطع الموسيقية كما عزف قطعاً مصرية وإنكليزية وسودانية. واعتاد الناس ألا يسمعوا القطع الملحنة بأسماء أصحابها ولكن هناك قطع

ما زالت معروفة بالأدهمية وهي ليست الوحيدة التي لحنها أدهم، كما أن غيره لحن كجوزيف كليزي وعبد القادر سليمان وخليل بني وحجازي. والناس لم يلتفتوا لذلك. وترك محمد آدم أدهم العمل في الحكومة في مطلع الأربعينات وافتتح عيادة واتجه في هذه الفترة للعمل الاجتماعي والسياسي. وشرع يكتب عن المشكلات القائمة في حياتنا. ودرس النقوص التي تكتنف تربية الطفل السوداني وتغذية الأم والقواعد الصحية العامة. وأخرج مجلة افريقيا، كما أنه أنشأ حزبَ الوحدة السودانية لما رأى المستعمرين البريطانيين قد سعوا لفصل الجنوب. ودخل الجمعية التشريعية. ولما وقعت الاتفاقية بين الأحزاب السودانية ودولتي الحكم الثنائي في ١٢ فبراير ١٩٥٣، ظهر اتجاه جديد لقيام دولة وادي النيل الكبرى، فتخلى الدكتور أدهم عن مساندة الأحزاب الاستقلالية ووقف مع أحزاب الوحدة وأصدر جريدة القلم، فكانت سياسية عامة. أما افريقيا فكانت ثقافية وكان من كتابها محمد عشري الصديق.

في يونيو عام ١٩٥٤ فكر الدكتور أدهم في استقلال سودنة الوظائف في الجيش والخدمة المدنية والاستغناء عن الموظفين ورجال الجيش البريطاني، فاتصل بالسيد صالح بيومي الذي تبرع على الفور، كما تبرع الدكتور أدهم بمبلغ خمسين جنيهاً. وثار مكتب الحاكم العام لأن السودنة قدر لها ثلاث سنوات. وهذا المشروع يقضي بدفع تعويضات للبريطانيين. ورأى السيد إسماعيل الأزهري أن هذا الأمر سيدخل البلاد في أزمة، لأن دستور البلاد الموقت واتفاقية القاهرة نصت على زمن محدد للسودنة، وسمى المال بمال الفداء. وأصدر السيد إسماعيل الأزهري بياناً بجمع هذا المال. فتضافرت كل الفئات في السودان وتقدمت بالتبرعات العينية والنقدية حتى توفر المال للتعويضات، وأصبح السيد صالح بيومي أميناً للجنة مال الفداء.

رأى الدكتور أدهم بعدما أجاز البرلمان استقلال السودان أنه ليس هناك من سبب لقيام حزب لأن المرحلة تتطلب استعادة الثقة في تسيير نظام الحكم في السودان، وأن هناك مشكلات كثيرة أهمها التخلف في الأقاليم ونقص الخدمات الأساسية في الصحة والتعليم ومرافق المواصلات والزراعة. فالأحزاب في رأيه انتهت مهمتها ووجودها لا يعني غير الاحتفالات والسعي وراء كراسي الحكم. فالمشكلة بعد الاستقلال أعظم وأوضح من المشكلات قبل الاستقلال. ويبدأ يشرح هذه المشكلات في جريدته القلم. فلم يجد من يقف معه وتوقفت جريدة القلم.

اتجه الدكتور أدهم في أخريات الخمسينات لتصنيع أغذية ومشروبات خالية من الكحول ولكنها تغني عن الخمور. فتجاربه جعلته يحارب المشروبات الروحية ويسعى لتوفير الغذاء الأساسي للأطفال. ولم يسر هذا المشروع في طريقه المرسوم له فانتهى في مطلع الستينات.

الدكتور أدهم طبيب، وهو يرى الطب رسالة قبل أن يكون مهنة، لذلك خصص أياماً في الأسبوع للعلاج بالمجان، كما أنه جعل تسعيرة العلاج والكشف ضئيلة ومناسبة وزود عيادته بالمعدات الحديثة، ودعا كل الأطباء السودانيين إلى جانب التضحية في ميدان الطب أن يلقوا تعليمهم بالمجان فلا بد أن يردوا الدين لهذه الأمة. وأثارت هذه المسألة الكثير من الجدل في الستينات عندما أشار الدكتور محمد أحمد علي إلى التفكير في تأميم الطب. لا شك أن الذين عاشوا في مناخ الأربعينات الثقافي عرفوا أن الدكتور أدهم كان كاتباً ومصلحاً وسياسياً، ولكن كتاباته انتهت بانتهاء المرحلة، كما أن عطاءه في عالم الفن والموسيقى توقف منذ مطلع الأربعينات، وهو مع ذلك وبعد ذلك يشكل قسمة في حياتنا الفكرية والفنية، فالتفاتة لدراسة النوتة وتنوع الآلات والتوزيع الأوركستري ووقفة ضد ما يسمى بالسلم الخماسي والسداسي في الموسيقى السودانية تستغل حدود الأبعاد المتاحة لها في الأنغام دون اللجوء للاقتباس من الموسيقى الغربية، لأن طبيعة اللغة الغربية في الكلمات الغنائية تختلف عن الكلمات الغنائية في الموسيقى العربية. فالفنان يقوم على كلمات وعلى لحن ولا بد من تناسق للحن مع الكلمات. وكان الدكتور أدهم أول رئيس لرابطة الفنانين، ذلك بترشيح الأستاذ أحمد المصطفى، ولكن نشاطه توقف بعد ذلك في النقابة. مشكلة الموسيقى في السودان أن الدراسات الأكاديمية لم تزدها جديداً، بل كانت الممارسة هي أعظم من ذلك. فكل جديد وفد مع الدراسة الأكاديمية اصطدم بالواقع المعاش، لذلك توقف الرواد في الموسيقى عن المواصلة والعطاء، وكانت هذه هي نفس المشكلة في الموسيقى المصرية، حتى استطاع رواد، كالدكتور مشرفة، العالم الرياضي، أن يزيلها بإضافة أيدي جديدة في البيانو، والدكتور حسين فوزي بتطويع هارموني للصوت الغنائي، وغيرهما. فلو واصل الدكتور أدهم لأتى من الجديد.

نحن عندما نتحدث عن الدكتور أدهم نتحدث عن رائد له مشاركات في كل نوع، وهو يمثل في جيله المثقف المحيط بمشكلات عصره نبذة وجيزة عن أحد روادنا في حياتنا الفكرية والفنية.

ويرجع الفضل في تأسيس نقابة الفنانين للدكتور أدهم بمشاركة الأستاذ أحمد المصطفى والمرحوم الأستاذ حسن سليمان وكان أول رئيس لها بالإجماع.

محمد الأمين القرشي [١٨٨٦ ـ ١٩٧٦]

السودان بلد شاعر، فهذه الطبيعة الخلابة، وتلكم المناظر البديعة المتعددة المتشتتة كلها تنطق بالشعر، والسودان بلد الحرية، ولا يكون الشعر إلا مع الحرية، فإذا رجعنا إلى القرن السادس عشر الميلادي نجد العلماء السودانيين نظموا الشعر، وأضافوا إلى فنون العلوم الإسلامية فيضاً من الجمال والجلال، كما أننا نجد عالماً اسمه الدنقلاوي قد نظم الأجرومية شعراً، وشرحها، وإذا سرنا في غضون القرن السابع عشر الميلادي، نجد المشاريخ قد اهتموا بالشعر، ولما انتشرت الطرق الصفية كان الشعر هو المعبر عن الأشواق، وفي القرن الثامن عشر اختلط الشعر السوداني بالشعر المغربي والشعر المصري، فكان الشعراء السودانيون إذا ما مدحوا سلاطين سنار تراهم يمدحون ملوك المغرب، والأمراء في مصر.

أما في القرن التاسع عشر فارتد الشعر العربي السوداني إلى نظم العلوم، فالفكي الأمين الضرير قد نظم قصيدة طويلة شرح فيها المذاهب الأربعة.

فأساس الشعر في السودان العقيدة والدين والحب، وشاعرنا محمد الأمين القرشي قد عاش بين ظهرانينا في القرن العشرين، وتلقى تعليمه بكلية غردون وتخرج قاضياً شرعياً، وعمل في كثير من أنحاء السودان، كما أنه نُقل ليدرس علوم الشريعة في قسم القضاء الشرعي بكلية غردون، وتقاعد في المعاش، ولكنه انصرف للتبشير الإسلامي في مناطق جبال النوبة والانقسنا، وعلم القرآن وأصول القراءات للذين دخلوا الدين الإسلامي، ولكنه فمنذ مطلع القرن العشرين اشتهر كشاعر فهو شاعر إسلامي في كل مناسبة له قصيدة يمجد فيها الإسلام ويذكر بعظمته.

القرشي لم يكن شاعر المدائح، وإن كان له ديوان في مدح الرسول، فهو شاعر إسلامي، توفر على شرح فضائل الإسلام، كما أنه وقف ضد الاستعمار، ولم يطأطئ رأسه له، وحسبه أنه من قبيلة الحلاوين التي أنبتت ود حبوبة، وقد أجاد في ملحمة عن ود حبوبة، قسمها بطريقة قصصية، وصف فيها نشأة ود حبوبة، وحالة أهله، وثورته، وبطولته، وإعدامه وشجاعته، فإذا قارنا خاتمة هذه الملحمة بالقصيدة الوطنية في الجنزير في النجوم، التي لا يفهمها غير السودانيين إلا بشرح، نجد وصف إعدام ود حبوبة، ورباطة جأشه من أروع الأجزاء في هذه الملحمة، لمحمد الأمين القرشي، أسلوباً في نظم الشعر، الأسلوب الأول هو خطابي، في قصائد المناسبات، يتوخى فيه فخامة اللفظ ورنين القافية، ومراقصة الألفاظ، وقد تم على أبيات كثيرة حتى تكتمل لك الصورة، وقد يبدأ قصائده بالغزل والتشبب والنسيب، ويعنى عناية خاصة باستخدام الفعل الثلاثي دون الرباعي، والخماسي والسداسي، وقد يعمد في بعض الأحيان في استخدام مصادر قائمة على القياس، ولكنها نادرة الاستعمال.

أما أسلوبه الثاني فهو أسلوب متأمل، ينقح فيه الصور، وينقش العبارات، وهذا في العقائد التي يلقيها في المحافل، والدارس لشعر محمد الأمين القرشي يدرك أنه كان دائم المطالعة لدواوين الفحول من الشعراء، ولكن لا ترى أثراً جاهلياً وشعره، كما أنه لا ينزل إلى تقليد شعراء العصر العباسي الثاني، لذلك تخلص من النثرية، ومن التكلف فوفرة ثروته اللغوية، وجيشان عاطفته مده كل ذلك بعبور مناطق الخطر في النظم، حيث يلجأ الشعراء للحشو والإضافة.

إن قصائد محمد الأمين القرشي طويلة، كما أن كل الأبحر التي نظم فيها هي من الأبحر الطويلة، ولعل قدرته الفائقة في معرفة العروض جعلته يشكل المقاطع والتفعيلات، فتارة تختفي التفعيلة لتكتمل في كلمة أو جزء من كلمة، وفي بعض الأحيان تظهر التفعيلة بحيث تستطيع أن تراها في الكلمات عندما تقطع البيت.

عكف محمد الأمين القرشي على تشطير البردة، كما شطر بعض قصائد البرعي وعارض همزية شوقي وامتاز في معارضته بأنه انتهج الأسلوب القصصي. لم تسرق الكلمات القرشي، لذلك إذا راجعت مائة قصيدة من قصائده لا تجد أنه يعشق كلمات خاصة ولا تستهويه الصور المتكررة.

فقـراءة شعر محمـد الأمين القـرشي لا يقدر عليهـا اليوم إلا المتخصصـون، فهو شاعر فترة زمنية ولكن لا تخلو قصـائده من مختـارات يمكن أن تقطف في الـوصف وفي الغزل وفي الحكمة، فإنك لا تستطيع أن تقرأ كل شعره إلا لدراسة الحقبة التي عـاش فيهـا وتاريـخ المناسبـات أو مقارنتهـا برصفـائه من الشعـراء الـذين شـاركـوه في هـذه المناسبات، فشعره اشتمل عليه وحده ولم يتبعه آخرون، فلو راجعت حضـارة السودان في الثلاثينات وجريدة السودان في الأربعينات لوجدته أنه كان شاعراً مكثراً.

يـظن بعض نقـاد الشعـر السـوداني المعـاصر، أن أمثـال الكـردي لا يمثلون إلا زمـانهم، وأن دواعي شعرهم انتهت بـانتهاء ذلـك الزمن، ولكن لا ننسى أن قصـائد الكردي الوطنية وقصائد القرشي الوطنية وقصائد البوشي الوطنية وقصائـد عبد الـرحمن شـوقي وقصـائـد حافظ الأمـين ووصفي وشفيق مينا، هؤلاء الشعـراء خلدوا حياتنـا، وأيقظوا وجودنا من السبات، وقد التفت لهم الأستاذ محمد محمد علي والدكتـور هدارة والدكتور عز الدين إسماعيل، فشعر الوطنية منذ مـطلع القرن العشرين حتى استقـلال السودان كان هو المحور الرئيـسي للحركـة الفكريـة وحركـة الفن، فنحن عندمـا نقدم محمـد الأمين القـرشي إنما نقـدم شاعـراً شجـاعـاً مكـافحـاً، فمـواقفـه مـع المفتشـين الـبريطانيـين مثبتـة في ملف، ودفاعـه عن الأخلاق والـدين والمثل العليـا معـروفـة في كادوقلي وجـوبا، وعـطبرة، وبورتسـودان، كان لا يخـاف في الحق لومـة لائم، لذلـك كـانت الإدارة البريـطانية تبعـده إلى المناطق القـاصية النـائية، لـذلك كـان يشمر عن ساعديه ليعلم الناس دينهم، أو يبشر بالدين الإسلامي، فقصيدته التي نظمهـا عندمـا أقيم جامع جوبا، وأذن الأذان بكى، وقد أنشد هذه القصيدة الخـالدة وبـدأها بـاسـم الله الله أكبر وترجمت القصيدة ونقلت على الفور من جوبا... كثير من القضـاة كانـوا شعـراء، فالشيـخ عبد الله أحمـد يوسف كـان شـاعـراً مبـدعـاً، والشيـخ أبـو شـامـة عبد المحمود كان شاعراً، له قصائد في الفكاهة وفي مداعبة الأصدقاء، كما كان الشيخ أبو دقن، ولكنهم لم ينشروا شعرهم ولم يطلع عليه إلا الباحثون.

لقد عمَّر الشيخ محمد الأمين القرشي، ولا ينسى النـاس جهاده عنـد قيام مؤتمـر الخـريجـين، وإنشـاء المـدارس الأهليـة، وعمله في يـوم التعليم، كـما أنهم لا ينســون حلقـات العلم والتعليم التي التف حولهـا الكثيرون، ففي هـذه الحلقات كـان يدرس

علوم اللغة العربية، كما يدرس العلوم الإنسانية، ففي حلقته في مدينة عطبرة أفاد منه الكثيرون في دراسة العروض وفقه اللغة، لا ينساه طلبته في الكلية ـ كلية غردون.

آن لنا الآن أن نبحث وننقب في تاريخنا الفكري، ونقيم هؤلاء الرواد بمقاييس العصر الذي عاشوا فيه، والثقافة التي وجهتهم ولا نعتمد على المذاهب الحديثة في النقد، فأسلوب النقد الداخلي أولى من النقد الخارجي في دراسة هؤلاء الرواد.

الشيخ محمد الخاتم عثمان [١٩٠١ ـ ١٩٦٩]

شيخ الأشقاء ومحدثهم اللبق وآخر الظرفاء من الشيوخ، تلقى تعليمه بالمعهد العلمي بأم درمان ونال الشهادة العالية وعمل مدرساً بمدرسة أم درمان الأهلية الوسطى، وكان من أساطين المعلمين الذين بثوا روح الأدب والمطالعة بين الشباب السوداني. تخرج على يديه مبارك زروق السياسي الأديب، والشاعر الوجداني محمد عثمان محجوب.

كان الشيخ الخاتم رحمه الله قارئاً في الأدب القديم وفي الأدب الحديث، توفرت له ملكة الذوق والنقد وبصر بالشعر الجيد فحفظه، وبالنثر البديع فأذاعه بين أصدقائه وتلاميذه. أحب الكتب والحياة كما عشق الجمال والحسن، فكان حديثه حديث الأديب العالم الذي يختار كلماته ويرصع استشهاداته بالشعر النادر البهيج.

لم تتوفر في جيله أسباب المؤانسة والامتاع قدر ما توفرت له. فهو رجل وقور حريص يجذب لسانه البدائع ويذهل السامع بحسن الدنيا، لأنه يسمو على صغائرها، فلا يتطرق للأمر الشائع إلا ويرتفع به إلى مواطن الحكمة والهداية، وإن لم يكن واعظاً، ولكنه كان فناناً يعرف كيف يتناول الأمور. ففي جيله كان المحدثون كثيرين، نذكر منهم السيد محمد صالح الشنقيطي رحمه الله، ولكنه كان سياسياً صاحب رأي ومذهب، فيبرز رأيه وتتضح وجهة نظره. وكان هنالك الشيخ عبد الله أبو سن ولكنه كان مكتفياً بالأدب يفضل من يفضل من الشعراء وينقد من ينقد. وكان كذلك المرحوم السيد إبراهيم بدري. أما الشيخ الخاتم فكان يلمس الأشياء لتتفتح الأذهان.

لم يكن صاحب صالون، بل كان نادي الخريجين بأم درمان هو روضته. . يلتف الناس حوله يتذوقون شهي حديثه ولا يرضون أن ينفض سامره.

اتجه الشيخ الخاتم منذ مطلع حياته نحو الدفاع عن القضايا الوطنية. وحارب الاستعمار، ولما قام المؤتمر انخرط في عضويته مدافعاً ومبشراً، ولما كتب المرحوم الأستاذ خضر حمد نشيد المؤتمر ولحن النشيد، كان الشيخ الخاتم مدرساً حينذاك في مدرسة واد مدني الوسطى فعمل مع ناظر المدرسة الذي كان من أعضاء المؤتمر البارزين ألا وهو المرحوم الأستاذ محمد أحمد عبد القادر ومعه الأستاذ الفنان الخير هاشم رحمهما الله، فيصطف التلاميذ في الصباح وينشدون (إلى العلا وابعثوا مجدنا الآفلا).

إن حب الشيخ الخاتم للأصوات الجميلة والموسيقى كان يستوقف الطلبة إذا خرجوا عن اللحن، كما أنه حبب للتلاميذ أن يلحنوا بعض قصائد الشعر المقررة لهم.

كان الشيخ الخاتم وأمثاله كالأستاذ محمد أحمد عبد القادر نادرين في ميدان التعليم السوداني، لأن التعليم في السودان بني أيام الاستعمار على الإرهاب، وكان تطبيقاً لسياسة إذلال الشعب السوداني. فالنظار يشتمون المدرسين، ويصيحون فيهم أمام التلاميذ. والمدرسون يستخدمون الضرب لأي خطأ، فكانت الدروس تحفظ على ظهر قلب، والتلاميذ كالمساجين. وكثير من النظار كانوا يتوددون للحكام البريطانيين فيخرجوا بعد الحصة الثانية ليقدموا واجبات الولاء والطاعة للسادة ويحدثوهم بما يدور في أوساطهم، ولكن قليلين منهم ارتقوا بأنفسهم وتلاميذهم عن ذلك. وشاء الحظ أن يعمل الشيخ الخاتم مع رجل في واد مدني من المواطنين الأحرار ألا وهو الأستاذ محمد أحمد عبد القادر فنشأ جيل ثائر في واد مدني كما نشأ جيل ثائر في مدرسة أم درمان الأهلية الوسطى.

تفرع المؤتمر بعد ذلك إلى أحزاب ووضحت الرؤية السياسية فانضم الشيخ الخاتم رحمه الله إلى حزب الأشقاء وعمل إلى ضم مبارك زروق لحزب الأشقاء لأن طبيعة مبارك كانت أقرب إلى حزب الاتحاديين وقربة الصداقة بين المرحوم السيد إسماعيل الأزهري والشيخ الخاتم وتلميذه مبارك للشيخ الخاتم جذبت مبارك إلى حزب الأشقاء، فمبارك رحمه الله كان من أصحاب الجباه العالية، ولم يكن العمل بين الجماهير طريقة (سده) ولكن الشيخ الخاتم زين له الانضمام إلى الأشقاء.

إن معرفة الشيخ الخاتم بالحياة السودانية ومداخلها ومخارجها واحترام الناس له، كل ذلك جعله موضع السر والمشورة في حزب الأشقاء لذلك كانت المقالات الناعمة التي يكتبها الشيخ الخاتم تؤلم ولكن لا تخرج من أسس صحافة الأشقاء، فإنه لا يلجأ للغمز واللمز أو الشتائم ولكن يكشف الحقائق بدون مس بالأشخاص أو ذكر لعيوبهم. فلسفته الرصينة وبياناته المشرفة تطبع على مقالاته التي لا يوقعها باسمه.

ففي تلك الفترة كان هنالك كتّاب وراء الكواليس ولكنهم معروفون هم المرحوم السيد أحمد السيد الفيل والمرحوم الشيخ عمر إسحق والشيخ الخاتم.

كان شيوخ الأشقاء وشبابهم يجلون هؤلاء الشيوخ الكبار وكانت آراؤهم مستجاباً لها. فالشيخ الخاتم رحمه الله عمل في ميدانين كفارس وكرائد. الميدان الأول في التعليم والميدان الثاني في السياسة والصحافة.

خلف أوراقاً ومذكرات، ابنه الأديب الناقد عبد القدوس الخاتم قادر على نشرها، فإنه من شيوخنا الأجلاء الذين تركوا بصماتهم في تاريخنا الفكري والسياسي.

الشيخ محمد الطاهر أزرق [١٩٠٦ ـ ١٩٧٢]

عندما لاحت تباشير الاستقلال والحرية فزع بعض السودانيين ورأوا أن إجلاء المستعمر عن بلادهم سيسلم السودان للضياع واعتقدوا أن الإنسان السوداني لم يصل إلى الوعي الذي يجعله يحكم نفسه، وكفروا بالأحزاب السياسية لأنها احتفظت بالوعاء الذي صب فيه المستعمر أفكاره ونظرياته، فانبرى المرحوم الأستاذ محمد أحمد عمر يدعو لضم السودان للدومنيون البريطاني وألف حزب الدومنيون قبل أن تظهر مجموعة الكومونولث البريطانية. وأعلن السيد محمد عبد الرحمن النجومي صرخته في كتابه «وصاية عظمى» يشيد بعمل البريطانيين في السودان.

وكان أكثرهم شجاعة الشيخ محمد الطاهر أزرق وهو رجل تاجر من قبيلة العمراب، فألف حزباً أسماه حزب تقدم السودان، ومبادئ هذا الحزب تدعو أن يحكم البريطانيين السودان لمدة خمسة وعشرين عاماً، محدداً ذلك بالفترة التي بدأ فيها الاستقلال في عام ١٩٥٦، ورأى أن السودانيين لم يصلوا للوعي السياسي ليحكموا أنفسهم، وأن إجلاء المستعمر سيسبب خسائر جمة في الإدارة والاقتصاد والسياسة.

والتقى الشيخ محمد الطاهر أزرق بمراسل صحيفة الديلي تلغراف المستر أنتوني مان وشرح له مبادئ حزبه، ونشرت الصحف البريطانية والأمريكية دعوة هذا الحزب، كما أن المستر أنتوني مان ضمن في كتابه (عندما ضحك القدر) آراء الشيخ محمد الطاهر أزرق في فصل خاص. بالطبع لم يكن الشيخ محمد الطاهر أزرق سياسياً ولا رجل فكر سياسي، ولكن إحساسه كان إحساس البسطاء من السودانيين الذين رأوا في الحكم البريطاني استقراراً، فالمقهورون دائماً ينظرون للمستعمر كأب رؤوف

ويقدسون أفكاره وآراءه لأنهم يفقدون في تكوينهم الروحي حساسية المثل الأعلى. ولكن السودان الذي توفرت له الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي غني عن ذلك، فحتى تلك الفترة لم يكن للإسلام صوت في إدارة الفكر والحياة، فوقع الشيخ محمد الطاهر أزرق ومحمد أحمد عمر ومحمد عبد الرحمن النجومي في هذا المأزق.

وجهلوا أن التاريخ يسير في صيرورة وتغير. فبريطانيا التي ظنوها ستمضي في قوة ونماء هشمتها الأحداث وجعلتها قوة ثالثة ودولة لا تقف في مصاف الدول العظمى، وما ظنوه باقياً في صوره المثالية قد تحطم وتهشم واعترت الروح البريطانية الهزائم وأصابها التمزق.

فنحن عندما نكتب عن الشيخ محمد الطاهر أزرق نصور قسمة من قسمات الفكر السوداني، فالخوف من الحرية هو السبيل لمثل هذه الدعوات.

لم تستمر دعوة الشيخ محمد الطاهر أزرق، بل أصبحت نوعاً من التندر، ولكنه تندر له وجه صحيح لأنه انتقد الوضع السياسي في السودان وأوضح السلبيات التي مر بها السودان في فترتي الحكم الوطني المدني والحكم الوطني العسكري.

والمؤرخون المحققون يرون في دعوة الشيخ محمد الطاهر أزرق جدلاً بالحذف كما يقول علماء المنطق. فظاهر الفكر السياسي لمحمد الطاهر أزرق غير باطنه، وإنه أراد أن يقول أشياء، ولكن لم تسعفه الكلمات.

إن الاستقلال الذي تحقق للسودان كان استقلالاً ناقصاً لأنه فارغ من الحرية. هذا هو السبب الذي جعل لليساريين مكاناً في الساحة السياسية في السودان كما أنه كشف الأحزاب السودانية التي لم تبن وجودها على نظرية سياسية، بل ورثت كل ما كان عليه المستعمرون.

لم تدم فكرة الشيخ محمد الطاهر أزرق ولم تجد لها عندنا نفراً، لكنها كانت صرخة لها مكانتها في التاريخ السياسي للسودان.

محمد أمين حسين [١٩٠٨]

حديقة عتيقة نمت بها الأشجار الباسقة تتغنى فيها الأطيار، بها النسور والبازي والعندليب والغراب والبلبل والزرزور وقد زحفت إليها الرمال لكن النسائم لها روحات وغدوات فيها. فعندما كانت الدنيا فتاة عذراء ضحكت خضرة الأشجار فيها وخب بها الأوز والبط والحمام واليمامات، وعندما جرى الزمن أرسلت فيها الصافنات عرفاً وعصفت فيها عصفاً وفرقت فرقاً ثم نزعت غرقاً ونشطت نشطاً وسبحت سبحاً فسبقت سبقاً لتدبر أمراً.

هذه حياة رجل مجاهد تنظر له الشمس بعين حلوة براقة وتبتسم له شعاعاتها بشفة عطشى ملتاعة، يخطو على هضاب الزمن، يتوكأ على عصاه لا يهش بها على غنمه وليس له فيها مآرب أخرى، وزلقات السحاب تظله وهو ينظر إلى الأفق والأفق قد أسر إليه بكلمته، ذلكم هو محمد أمين حسين طفل الأقدار وشيخ الجهاد.

ولد لوالد ضابط في الجيش المصري وتلقى تعليمه بالمدرسة الأمريكية بالجريف وأنهى دراسته فيها في قسمها الزراعي وتخرج مدرساً فيها، علَّم جيلاً ثم اختار بعد ذلك طريقه، فالتحق بمشروع الجزيرة في الثلاثينات، ولكن طموح الشباب وضيق الوظائف حدا به إلى أن يرحل إلى بلد كان بها الخطيب أميراً لا يكثر حاسديه ولكن يسعد مواطنيه.

أتم دراسته الثانوية من جديد والتحق بكلية الحقوق بجامعة فؤاد في عام ١٩٤٠. ومنذ مطلع مجيئه إلى مصر وهب حياته للكفاح وكان موضع حب زملائه ومواطنيه، فهو لم ينظر إلا لنصرة الحرية وتحقيق استقلال السودان. وانتخب في النادي

السوداني في عام ١٩٤٠ رئيساً للطلبة السودانيين ولم ينافسه أحد، فزملاؤه الكبار كبشير البكري كان حينذاك طالباً بكلية الحقوق وكان أسنهم وأسبقهم في التخرج.

حملت فترة الأربعينات في مصر تيارات واتجاهات جديدة. فالأحزاب المصرية التقليدية تلاشى بريقها وسيطر الإيقاع على أعضائها. ومصر حتى تلك الفترة سيطر عليها الاقتصاد الزراعي واليقظة الصناعية اتصلت بالزراعة، فلم تزدهر غير صناعة النسيج. ولكن الحرب العالمية الثانية حرمت مصر من رخائها واستقرارها المعيشي فبرز السوق الأسود وهددت المجاعات بعض أجزائها ونشطت طبقة جديدة هي طبقة أغنياء الحرب وهم فئة من الناس ليس لهم جذور في الأرض ولا أسس في المجتمع ولا أسر ذات مكانة. فجيوش الحلفاء تمتعت بخيرات مصر والشعب المصري دفع ثمناً لصداقة مغضوب عليها، فالأحزاب الصغيرة التي نبتت بجانب الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين كانت أحزاباً مفتعلة التكوين، ترفدها السراي وترعاها بعض الجهات الأجنبية. الإعجاب الصبياني الذي ينبع مع المراهقة السياسية جذب بعض الشباب نحو الفاشية والنازية. وميلاد حركة الإخوان المسلمين كانت يقظة ضمير وإيمان بالقيم، ولكن لا بد للمؤمنين أن ينظروا في أحوال مجتمعهم. وفجأة هبت الأفكار اليسارية بعد دخول الاتحاد السوفياتي حليفاً وصديقاً لبريطانيا وأمريكا. وانتشرت فئة من الشباب البريطانيين من الذين نزعوا من جامعاتهم ليحاربوا النازية والفاشية. هذه الفئة لم يكن لها عزاء إلا أن تطلع على الأفكار الماركسية. وبدأت هذه الفئة تخالط المتعلمين، ووجدت الكتب اليسارية في مكتبة الانجلو وبعض المكتبات الصغيرة في شوارع القاهرة المضيئة الحديثة وفي مصر الجديدة. وتبادلت مصر العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي، وجاء عبد الرحمن سلطانوف أول وزير مفوض للاتحاد السوفياتي في مصر، ولم يسكت السوفيات فقد وجدوا الأصدقاء والمتحمسين، فولدت الخلايا الشيوعية أولاً بين المتعلمين وطلبة جامعة فؤاد. ولم تصل تلك الفترة الأفكار الماركسية للعمال والصناع والحرفيين لأن الفكر الماركسي كان ترفاً ذهنياً. وفي ديسمبر عام ١٩٤٣ تحول محمد أمين حسين إلى الماركسية وأصبح يقرأ ويجادل في أفكارها. ومرت السنون القصار وأصبح محمد أمين حسين من كبار كتّاب مجلة أم درمان السودانية بالقاهرة ثم رئيساً لتحريرها. وأبعد محمد أمين حسين إلى السودان في عام ١٩٤٥ فتعاون فترة مع حزب الأمة ثم تحول إلى حزب الأشقاء كاتباً

بين كتّاب صوت السودان وارتفع توزيعها، وكان بجانب ذلك يراسل الوكالات والصحف المصرية. كانت مقالات محمد أمين حسين تلهب المشاعر وتحث القراء على الكفاح الوطني. وسجن محمد أمين حسين وخرج من السجن أقوى مما كان عليه شعبية مما قبل.

لم يكن محمد حسين حزبياً صارخاً ولكنه كان كاتباً وطنياً متحرراً. ولما تمت اتفاقية القاهرة عام ١٩٥٣ أوقف محمد أمين حسين قلمه مع الاتحاديين. برزت الحزبية وسيطرت على الكفاح الوطني ولم يطمع محمد أمين حسين في كراسي الوزارة، كما أنه لم ينل الحظوة في أن يكون في الصف الأول في الهيئة التنفيذية للحزب الوطني الاتحادي.

سار محمد أمين حسين في طريق الجهاد وشق طريقه في المحاماة. وتكونت منظمات اشتراكية تحريرية كانت تستنير برأيه، فيما كان قد تخلى عن المظلات الإيديولوجية. ولكن اليساريين الوطنيين لم يسقطوا دوره في الكفاح والعمل فلم يهاجمه الشيوعيون ولم تهاجمه أحزاب الوسط. وعند انقسام الحزب الاتحادي وظهور حزب الشعب الديمقراطي كان المكان الطبيعي لأنصار الوحدة مع مصر حزب الشعب الديمقراطي. ولما كان محمد أمين حسين وحدوياً ولم يكن من المنتظمين في تكوينه وأفكاره لحزب الأشقاء وحزب الاتحاديين كان حزب الشعب الديمقراطي هو الطريق الذي يجمع كل الذين عارضوا المرحوم السيد الرئيس إسماعيل الأزهري. فقد انتهى حزب الاتحاديين، وحتى إن رئيسه المرحوم السيد حماد توفيق انضم لحزب الشعب الديمقراطي وخرج عنه المرحوم السيد عبد الله ميرغني وانضم لحزب الأمة وخرج عنه الدكتور أحمد بخاري وانضم لحزب الأمة.

لم تتغير أفكار محمد أمين حسين بابتعاده عن الحزب الوطني الاتحادي، فلقد كان الحزب الوطني الاتحادي ميداناً كبيراً لكل المناوئين لحزب الأمة، وانتهى دور التجمع الحزبي والمعارضة وأصبح السوداني مستقلاً. من ثمة نشأت مشكلة الأحزاب لأنها فرقت من معانيها وأسبابها وأصبح الالتصاق بها عاطفياً وتشابهت برامجها وأصبح الجمهور لا يحس بها إلا في معارك الانتخابات البرلمانية.

إن دول العالم الثالث لا ينتهي الكفاح فيها بنيلها الاستقلال بل يبدأ الكفاح الأصيل بعد نيلها الاستقلال، لأن المواطنين يرون ويحسون أن للسلطة واجبات لحل هذه المشكلات، كما أنهم يحتاجون لمن ينبههم لواجباتهم قبل أن ينبهوا السلطة لحقوقهم.

إن الفترة التي ظهر فيها محمد أمين حسين أصبحت حقبة تاريخية، ولكن مكان محمد أمين حسين في الفكر السياسي السوداني لا يزول لأنه رائد من رواد الحرية دافع عنها بقلمه وحياته، فهو ليس بالأديب، وليس بالصحفي المحترف، ولكنه كاتب سياسي وطني ذو عقيدة خالفه الناس وخالفهم عندما كان يكتب، ولكنهم لن ينسوا دوره في معركة الحرية والاستقلال.

محمد المجذوب جلال الدين [١٨٩٢ ـ ١٩٧٥]

لم تكن الدامر قرية ولم تكن مدينة، فقد أسميت هذه البلدة بالدامر لأنها كانت بقايا من مدينة قديمة دمرت وقامت على أطلالها هذه البلدة الجديدة، وقد وصفها الشاعر توفيق صالح جبريل في بيت شعر شهير هو:

أيا دامر المجذوب لا أنت قرية   بداوتها تبدو ولا أنت بندر

ورد عليه الشاعر جعفر بشير بقوله:

وما ضر لو فيها من البدو مسحة   ومن حضر البلدان شكل ومنظر

ومن عجب أن تسعد الناس بلدة   بدرتين شتى أن هذا اليؤثر

دامر المجذوب هي دار المجاذيب ومرتعهم عرفوا بها وعرفت بهم، فمدارس العلم والقرآن تنعقد ليل نهار. تعلم العلماء الأجلاء والفقهاء ورجال الدين على شيوخها. وقد زارها الرحالة السويسري بركهارت وكتب عنها في كتابه (رحلات في بلاد النوبة). وأسرة المجاذيب أسرة عربية، يقولون إنها هاجرت من اليمن وبعضهم يقولون إنها هاجرت من الهند. ويقولون إنها هاجرت من المغرب. واسم المجذوب منتشر في المغرب ونادر في سوريا والعراق وكل من سمي بمجذوب سمي تيمناً على الشيخ محمد المجذوب.

وصاحبنا الذي نتحدث عنه هو أحد أحفاد الشيخ محمد المجذوب. تعلم في بيت أسرته ثم التحق بعد ذلك بكلية غردون في قسم القضاة والمعلمين. واختير ليكون معلماً وتدرج حتى تم نقله إلى كلية غردون. إن جيل المشايخ الذين تعلموا في

كلية غردون هو الجيل الذي حفظ اللغة العربية والدين الإسلامي. أقاموا حياتهم على نصرة الدين الإسلامي وتعليم اللغة العربية. وقد حصلوا على ثقافة عربية غزيرة، منهم علماء في النحو والصرف والبلاغة وعلم الكلام والفقه كما أنهم كانوا حفظة وقراء للقرآن الكريم وأفادوا من دراساتهم في كلية غردون التعمق في الأدب العربي. وكان أساتذتهم علماء مصريين شهيرين كالشيخ محمد الخضري والشيخ أحمد ماضي أبي العزائم وغيرهم.

عمل الشيخ محمد المجذوب جلال الدين هو وصحبه على إرقاء اللغة العربية وإرساء قواعدها في المدارس، إذ لم يكن في البدء كتب مقررة، بل كان المعلم يدرس الدرس ويعده ويشرحه كما يريد ويسجل التلاميذ والطلبة ما يسمعونه من المعلمين. ثم أدخل كتاب الدروس النحوية للأستاذ حفني ناصف وزملائه وكان مختصراً. أما دروس المطالعة فكانت أشتاتاً ولم يكن هنالك كتب للأدب، فيستعين المعلم بأي كتاب يختاره. كانت هذه مرحلة صعبة وعرة في تاريخ الفكر السوداني إذ إن اللغة العربية قد أهملت وظن المستعمرون أنها ستزول، فوقف هؤلاء المعلمون حماة لها يدرسون قواعد الإملاء والخط والهجاء ويحفظون التلاميذ والطلبة عيون الشعر. وفي كلية غردون كانت كل الدروس باللغة الإنكليزية. فأصر الشيوخ على تدريس التاريخ الإسلامي باللغة العربية، كما أنهم أدخلوا تدريس القرآن والدين الإسلامي، ولا بد لهؤلاء الشيوخ أن يعملوا بالأدب. فكان الشيخ عبد الله محمد عمر البنا شاعراً والشيخ أحمد عثمان القاضي كاتباً والسيد حسين شريف صحفياً والشيخ عبد الله عبد الرحمن شاعراً والشيخ عمر إسحق كاتباً والشيخ أحمد السيد الفيل كاتباً وخطيباً، وبعضهم تفرغ لفقه اللغة كالشيخ المصري والشيخ محمد مختار وبعضهم أوتي ذوقاً في نقد الشعر كالشيخ البشير الفضل.

أما الشيخ المجذوب جلال الدين فقد كان شاعراً وعالماً في الفقه واللغة، واهتم بالديباجة العربية الخالصة وأبدع في النظم.. فشعره في قياس المعاصرين شعر صنعة. ومدرسة الصنعة في الأدب السوداني لها مكانتها، وتطورت منذ عهد الشيخ الحسن الزهراء والشيخ محمد عمر البنا.

ليس عيباً أن يكون في أدبنا العربي السوداني شعراء صنعة لأن هذا الشعر قد ركز اللغة العربية ونشرها وساعد الشبان على الاطلاع والبحث. والمجاذيب بينهم

شعراء كثيرون منذ جدهم الأول الشيخ محمد المجذوب قد كلفوا بالنظم في المدائح النبوية، وشعرهم في المدائح أفصح من شعراء المدائح الآخرين في الأدب السوداني. فالأستاذ قرشي محمد حسن رائد أدب المدائح قد أثبت ذلك في كتابه الضخم الجامع.

شارك الشيخ محمد المجذوب صديقه الشاعر عبد الله حسن كردي في إخراج كتيب صغير في المدائح النبوية، وكان الشاعر الكردي لا يرضى بحكم على الشعر إلا صديقه الشيخ محمد الشيخ جلال الدين.

أفاد الكثيرون من الدراسة على الشيخ محمد المجذوب فقد وجههم لصحة اللغة وجمالها. فأحمد إسحق شداد هو أحد تلاميذ هذا الرجل الفذ، فإنه كان يدقق ويبحث عن صحة استخدام الألفاظ ويراعي الالتزام بالقواعد. وقد أطل المجذوب على الأدب العربي الحديث ولكنه قد انتهى واختار مذهبه وهو: الإبانة والإبداع والصحة، واهتم بتدريس البلاغة ونهى عن استغلال المحسنات البديعية، ونبه لطبيعة العصر فلم يكن تقليدياً في نثره، ولم يقلد الأقدمين. ولممارسته الكتابة والنقد وضح أسلوبه وخلا من الآثار الفقهية، ولعله الشيخ الوحيد الذي انطلق من هذه القيود. من ثمة أعطى دراسة الإنشاء والنقد جل وقته في تعليمه اللغة العربية. فأغلب الشيوخ كانوا يميلون للتدريس الشفوي، ويشهد له الكثيرون بهذا الفضل.

والشيخ محمد المجذوب هو ابن عم الدكتور عبد الله الطيب المجذوب، ووالد الشاعر العبقري محمد المهدي المجذوب. وقد رعى طريقهما في الشعر وسدد خطاهما. إنه رائد عمل مع صحبه على إسداء الفضل للغة العربية في السودان وتوفر على رفع الجور عنها علماً وعملاً. رحم الله الشيخ العلامة محمد المجذوب جلال الدين.

محمد سعيد العباسي [١٨٨٧ ـ ١٩٦٢]

عبق وعبير، وأصداء وترنيمات، روحه في القلب تهمي لها الدموع، وشرقة في الروح تطمئنها الحياة الأبدية، فهو شاعر صهرته بحار الأشواق، فاستلقى على الشاطىء ينظر إلى الدنيا بعينيه، ويسبح للجمال في قلبه تشوقاً للغيب، ليس بالصوفي المعذب ولا بالدنف المفتون بلذائذ العيش، استقى من فيض أهله، وقد فاضت عليهم الأنوار، لأنوار النور في الخلق أنوار، للسر في سر المسرين أسرار.

هذا هو محمد سعيد العباسي، سليل نور الدائم، وربيب السادة السمانية في السودان، درس على آبائه، وتلقى علومه العربية والإسلامية على الشيوخ في مصر، والتحق فترة بالمدرسة الحربية في مصر، ولكنه تركها ولم يتأثر إلا بأستاذه عثمان زناتي الذي كان يدرس لهم الأدب وعلوم العربية. إن الدارس لشعر العباسي يجب أن يدرسه ككل وليس كشرائح، يصنفها كما يريد، فيرجع بعضها لأثر التراث ومحاكاته، أو التأثر بالشعر الصوفي، ولا يطبق عليه المقاييس المستوردة من النقاد الأوروبيين، بل عليه أن يدرس نصوص الشعر أولاً، ويتأملها ويدرك معانيها وأهدافها، فالعباسي لم يكتب الشعر ليرضي المعاصرين في زمنه، أو يتابع المثقفين في أفكارهم ودراساتهم، ويعمد إلى وحدة القصيدة العضوية كما كان شائعاً بين أهل المذهب الحديث حينذاك، كما أن الدارسين للعباسي عليهم ألا يجعلوه تكأة اعترافاً من التراث، ويجردوه من الشعور والشاعرية، فهو ليس بالشاعر الذي تطبق عليه الأحكام والأقيسة الجاهزة، بل إنه شاعر مستغلق على الناظرين إليه بلا تمعن ودراسة، ولا يفرق الناقد جمال ديباجة الشعر عند العباسي فينظمه في طبقة البحتري، والشريف الرضي، ومهيار

الديلمي، ويقول إنه شاعر صنعة وفن، جاء بعد البارودي ولا يعتقد الناقد أن العباسي ترداد صدى للقديم، فامرؤ القيس شاعر قديم، ولكن يمكن أن ندرسه ونوضح أنه شاعر محدث وحديث في كل لحظة، وكذلك شكسبير وغيره، إن فهم الشعر جنى عليه النقاد المحدثون، وبالأخص مدرسة مجلة شعر وبعض المتعلقين بالمذاهب الأوروبية.

هذه المقدمة تساعدنا على فهم طبيعة شعر العباسي، فالعباسي قد قرأ الشعر القديم والحديث، وأعجب بشوقي وعلي محمود طه المهندس، وبشارة الخوري، ونظر في شعر الزهاوي والرصافي وغيرهما، ولكنه لم يجار أي واحد منهم، فهو شاعر لوحات، وشاعر صورة يستجمع كل الصفات في دفق وإبراز، ولا يستعين بالوصف إلا كظل للمعنى والخاطر ويتسلسل الخط الضوئي عنده لينتظم في رسم محدد للأبعاد، ويقف بين الفينة والفينة يسترد أنفاسه، ويتذكر ذاته بعد أن غاب عنها في الاستغراق والإغراق، إذ إنه يجعل من الموضوع ذاتاً ومن الذات موضوعاً، فهو يختلف عن البنا، فالبنا شاعر العراقة العربية البدوية، ويختلف عن الكردي، فالكردي شاعر الالتقاط البصري، ويختلف عن عبد الله عبد الرحمن، فعبد الله عبد الرحمن شاعر التعبير الفكري الواعي، ويختلف عن أحمد محمد صالح، فأحمد محمد صالح شاعر النشوة الوجدانية. أما العباسي فهو شاعر اللوحة المتأنية والصورة الباقية، لذلك تجد قصيدته متماسكة البناء، وأظنه يحذف منها الكثير حتى تستوي على شكلها الأخير، فهو لا يرتجل المعاني ولا يأخذ الألفاظ عن قرب، فهو أكثر الشعراء السودانيين تجويداً للقافية وأرقهم في استخدام الأبحر، لأنه يقدم موضوعاً في شكل. فالوظيفة العروضية تخفي الجمال العضوي في قصيدة العباسي، ولا تثريب عليه في ذلك، وليست هذه بمجانية كما يقول المحدثون، فالعقل عنده ينتهي بانتهاء الحركة الوجدانية التي دفعته للشعر. ولقد كان العباسي صاحب صوت من أجمل أصوات الإنشاد للشعر العربي، ولعله كان ينشد قصيدته قبل أن يكتبها، لذلك تجد هندسة الكلمات في القصيدة متناسقة، فهو لا يولد الفعل، ولا يزيد على الاسم ويحرص على استخدام الحروف، واللغة العربية هي أغنى اللغات وأقدم اللغات الإنسانية الباقية، فقد ساعدته على ذلك. كما أن حفظه للقرآن أمده بطلاوة وجلال الكلمة، فليس العباسي شاعر صناعة، ولكنه شاعر وحسب، وليس تكراراً للشعر الصوفي، لا تخذله اللغة كما في

شعر ابن الفارض، لأن الصوفيين يغرقون في معميات فتغيب عنهم ارنانات وضـوابط اللفظ، فالذين يظنون أن شعر العباسي هو اقتفاء وهو متأثر بالشعر الصوفي يخطئون.

توفر العباسي لحياة الشعر والجمال، ووهب حياته للعلم والذكر والقرآن، ولم يرض لنفسه أن يقبع في عقر داره، بل إنه سعى في الأرض، وكان كثير التجوال في السودان وله أصدقاء ومحبون، وقد كان محدثاً بارعاً، وأنيساً ساحراً، لكنه آثر حياة الريف على حياة المدينة، وشعره لذلك كان وحياً للطبيعة العذراء، لم تؤثر فيه المدنية ومن ثمة لم تلوثه أدرانها، فهو لم يمدح أهل الجاه والمناصب، ولم يشترك في المحافل والمناسبات، لأن طبيعة نفسه طبيعة سيد، والسيد لا يتزلف، وأصدقاؤه كانوا كلهم في مركز السيادة والعلم والمعرفة، وقد أحب مواطن الغرب في السودان لأن طبيعتها صافية، فهو ليس شاعراً بدوياً، ولكنه يمثل النقاء والصفاء في الطبيعة والناس.

عُرضت عليه المناصب فلم تغره، وكانت أمامه المغانم فلم يمد يده وينتهزها، هذه النفس العالية المعتزة أسبغت على شعره هيبة ووقاراً، حتى في غزله تجده أباً حنوناً لبنت العشرين، طاهر السريرة، لم تسقط عنه عفته، فالدنيا وقد طابت بالعطر والنساء، طابت له في حسه جمالاً عذرياً، وحباً نقياً. وإن نظر النقاد المحدثون لهذا الحس العاطفي وقالوا إنه لا ينجب شعراً لأنه عشق فيخطئون، فأعظم الشعر ما وقف عنده الحرمان حاجزاً ومانعاً ركيزاً للممارسة. عندما ظهرت قصيدة العباسي في صيف عام ١٩٤٢ في مقال الدكتور زكي مبارك (الحديث ذو شجون) في مجلة الرسالة هلل لها الناس وحفظوها، لأن العباسي كان ضنيناً بشعره، كما كان أحمد محمد صالح ضنيناً بشعره، ولما طُبع ديوانه في منتصف الأربعينات، بدأ الناس يعرفون العباسي، ولم يكن عندهم بتلك الصورة، وبعد ذلك تعاقب الناس على دراسة شعر العباسي، وتقدم الأساتذة برسائلهم عنه، ولكنهم وصفوه بين شعراء التقليد والمحاكاة لأنه سار على طريق الأقدمين في النظم، وأهملوا المضمون في شعره، وقد أضاف العباسي الجديد في الشعر السوداني، فحمزة الملك طمبل حاول وصف الطبيعة، ولكنه لم يفتعل بها، بل إنه أقام شعره على مقاييس وقواعد نقدية، والبنا وصف الطبيعة في حياتها، ولم يضمها في وجوده، ولكن العباسي وصفها في وجوده الذي امتزج بوجودها، ووجدانها، ويمكنك أن تترجم أي قصيدة من قصائده في وصف الطبيعة فلا تفقد هذه القصيدة

روعتها، وقد تفوق في الإبانة عن الشنفرى وتأبط شراً، فقصيدة الشنفرى التي مطلعها:

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه لا يطل

قد ترجمت إلى الألمانية وصاغها الشاعر الفيلسوف جوته شعراً وسماها نشيد الانتقام، وترجمت إلى الفرنسية، وترجمها نيكلسون شعراً بالإنكليزية، فلم تفقد طعمها وروحها، بل إن جمالها نافس الترجمة، وكذلك قصائد العباسي، فكيف نعد العباسي مقلداً ومتكئاً مستغرقاً على زاد التراث.

إنه رجل لم يتعلم لغة أجنبية، فهل هذا يعيبه ويمنعه أن يكون شاعراً؟ وهل ثقافة الشاعر هي مجموع حصيلة المعرفة في عصره وإلا لا يكون شاعراً، فإن كان الأمر كذلك فلنكف عن قراءة الشعر الجاهلي وشعر شكسبير ودانتي وغيرهما، ونقول إنهم لا يعبرون عن حياتنا وعن فكرنا.

الشاعر إنسان يعلو على الزمن لأنه يحيا في الأبدية ويعبر عن المعاني السرمدية، فكثير من الشعر الحديث سينتهي بمؤثرات العصر، ويرجع الناس للذين عرفوا معنى الشعر، لذلك نعد العباسي شاعراً أضاف مزيداً من الروعة والجمال على الشعر العربي السوداني، وكان نسيج وحده، فلندرسه في شعره، ولا نفسد هذا الشعر بهذه الاكليشهات المستوردة، ونحذفه من التراث السوداني، ونعده تكملة للتراث العربي القديم، إن العباسي يمثل مدرسة الفن والصورة في تراثنا، لذلك نعده رائداً فريداً في ميدانه لم يقدر على محاكاته شاعر آخر.

السيد محمد صالح الشنقيطي [١٨٩٦ ـ ١٩٦٦]

منذ ظهور الإسلام وأفواج المهاجرين من العرب المسلمين يفدون إلى السودان حتى القرن الثامن عشر إذ بدأت أفواج من أجناس أخرى تصل إلى السودان، وكانت تستقر بطريقة دائمة، وكانت هذه الأجناس، إما من الأرمن أو اليهود، وقلة من المغامرين الأوروبيين، ولكن أغلبية الذين استقروا كانوا من العرب المسلمين، وكان بعضهم من المغاربة، وبعضهم من أهل الشام، ولكن المهاجرين الأساسيين كانوا إما من الحجاز على وجه الخصوص أو من مصر، فالسيد محمد صالح الشنقيطي هاجر أسلافه من شنقيط، ولجده الأكبر الشيخ زين العابدين قبة ومزار في بربر. ووالده ولد بالسودان وجدته لأبيه سودانية.

ونشأ محمد صالح الشنقيطي في أم درمان، وتلقى تعليمه الأولي والأوسط فيها، وكان زميلاً للطيب السراج، والتحق بقسم القضاء الشرعي، ولكنه عندما تخرج ألحق بمكتب السكرتير القضائي في قسم الفتوى في عام ١٩١٨، ولبث فترة قصيرة ثم اختير ليكون نائب مأمور فعمل في مري وبورتسودان وبعض المدن، وبدأ نشاطه الثقافي منذ عمر باكر، فاهتم بتاريخ السودان وتاريخ القبائل العربية فيه، وتوثقت علاقته مع السيد محمد علي شوقي وإبراهيم يوسف بدري وصار يعمل في الحقل الاجتماعي، بدءاً من نادي الخريجين في أم درمان إلى ملجأ القرش إلى الاهتمام بتعليم البنات، وفي الثلاثينات اختير ليعمل قاضياً مدنياً، وكان أغلب القضاة من الإنكليز مع بعض السوريين الذين عملوا في التسجيلات. وعرف الشنقيطي كقاضٍ باللجوء إلى العرف السوداني والتقاليد السودانية من غير استغلال لمواد القانون مع مراعاة الأحوال

والظروف، فلم يكن بالمتشدد ولم يعرف بالتساهل، وقد عمل في بعض مناطق السودان النائية فكتب عنها بعض الدراسات، واهتم بتصنيف الطباع والسلوك وعلاقة ذلك بالقانون والعدالة. ولما رجع إلى العاصمة في الأربعينات اشترك في تشجيع التعليم الأهلي وأشرف على قيام مدرسة حي العرب، واجتمع حوله نفر من الشبان كيحيى الفضلي ومحمود الفضلي وأحمد مختار وعثمان أحمد عمر، وحتى عام ١٩٤٢ لم تكن هنالك فواصل حزبية أو مداخل طائفية، وإن كان الشنقيطي وقف في جانب الاستقلال من غير الانضمام لأي حزب استقلالي، ونقل إلى بورتسودان في عام ١٩٤٤، فهب بالدعوة لتعليم البنات، إذ كانت هنالك مدرسة أولية واحدة، كما شجع تعليم التدريب المنزلي، والأعمال اليدوية، فقام مركز لها في ديم المدينة، وأشرف على الأسواق الخيرية وجمع التبرعات لمدارس البنات.

وفي تلك الفترة كانت حركة الرفض للحكم الثنائي والدعوة للحرية والاستقلال تطغى على كل ما عداه، والشنقيطي يقف في طريق مختلف، فنقل مساعداً للسكرتير القضائي في عام ١٩٤٧.

وقامت الجمعية التشريعية ودستورها، وكان الشنقيطي رئيساً للجمعية التشريعية، ولكن علاقاته مع كل الاتجاهات كانت متبادلة، فكان يغشى دار الثقافة والندوات الفكرية والأدبية ويشارك فيها، ولما تحقق الاستقلال انصرف الشنقيطي إلى الزراعة فترة ثم عاد مرة أخرى وتبوأ مركز رئيس مجلس النواب في عام ١٩٥٧، وانتهى دوره السياسي باستيلاء الحكم العسكري على النظام.

هذا ملخص لحياة الشنقيطي.. ولكن قيمة الشنقيطي في الثقافة السودانية هي مألوفة على الانفتاح على كل الاتجاهات، ولقاءات للمثقفين السودانيين والإنكليز، فقد كان صديقاً لكثير منهم وتميز بالفكر البارد الموضوعي، فهو لا ينفعل ولا يتحمس، بل يخطط خطوة خطوة، ولا يفقد علاقاته الشخصية مع الذين يخالفونه في الرأي، ولا يستعرض معلوماته، مع أنه كان محيطاً بكثير من الأسرار السياسية السودانية، كما أنه كان عف اللسان لا يتصيد مثالب البشر وهفواتهم في الدفاع عن آرائه، وقد توفرت له ثقافة واسعة عن السودان وعن وسائل الحكم فيه، كما أنه كان مرجعاً في كثير من الكتابات الحديثة عن السودان، سواء باللغة الإنكليزية أو العربية،

وكان يتحدث عن موضوعاته حديث الثقة . . . وقد عقد الشنقيطي كثيراً من الصلات الحميمة مع رؤساء القبائل، وقد استفاد من ذلك في علاقاته السياسية.

قد يختلف معاصرو الشنقيطي معه في اتجاهاته السياسية، ولكنهم كانوا يقدرون آراءه الفكرية ونظراته في إصلاح المجتمع، وتعميم التعليم والاهتمام بشؤون المرأة وحرية الرأي. وقد كان الشنقيطي عضواً بارزاً في صالون نيوبولد. وقد عمل منذ الأربعينات على تقديم المذكرات في سودنة الوظائف، وترشيح الشبان السودانيين لملء هذه الوظائف، وقد استُمع لتوصياته، فهذه حسنة من حسنات أعماله غير المعروفة. كما أنه عني باتجاهات الرأي العام بالرغم من أنه وقف مع الحركة الاستقلالية وعمل على إنجاح اتفاقية السودان في عام ١٩٥٣، ونشط على الإسراع بالمناداة بالاستقلال من داخل البرلمان وعدم الاعتماد على استفتاء شعبي.

امتاز الشنقيطي كرئيس لمجلس النواب، بأنه كان يعطي الكلمة لمؤيدي الحكومة ولمعارضيها، بالرغم من أن الحكومة والأغلبية المؤتلفة هي التي بوأته هذا المركز في مجلس النواب حينذاك، لم يكتب الشنقيطي غير مذكرات قصيرة عن العادات والسلوك والعرف عن القبائل، وعلاقة ذلك بالقانون، كما أنه بدأ بعض الدراسات عن التنسيق بين القانون الوضعي والشريعة الإسلامية، ولكنه لم ينجز كثيراً في هذا المجال.

ترك محمد صالح الشنقيطي مكتبة كبيرة أهديت لجامعة الخرطوم، انفردت هذه المكتبة بالمراجع التاريخية الخاصة بالسودان والعالم الإسلامي، والبلدان العربية، ولكن مذكراته وكتاباته لم تُجمع ولم تُنشر.

محمد صالح ضرار [١٨٩٢ - ١٩٧٣]

أغلقت كل المدارس المصرية بعد سقوط الخرطوم، وبقيت مدرسة واحدة في السودان في مدينة سواكن، واستطاعت هذه المدرسة منذ عام ١٨٨٥ أن تواصل سيرها وتهيِّء تلاميذها لنيل الشهادة الابتدائية المصرية، وعنيت نظارة المعارف المصرية حينذاك بأن تهيِّء تلاميذ هذه المدرسة ليعملوا في مصالح الحكومة المصرية في سواكن، ومن ثم لزم التلاميذ أن يجلسوا لامتحان الابتدائيات في أقرب المراكز لسواكن وهو مركز أسوان، وتخرج من هذه المدرسة كثيرون وبينهم مصريون، ولكن السودانيين لم يزد عددهم عن عشرين تلميذاً. من هؤلاء التلاميذ محمد صالح ضرار، وهو من أبناء شيوخ القبائل في مناطق محمد غول، وحلايب وعقيق، والده تصدر بيت بني عامر، لذلك اختير للدراسة في مدرسة سواكن الابتدائية وحصل على الشهادة المصرية في أوائل هذا القرن. ومن زملائه إبراهيم علي مرزوق وإبراهيم محمد حمو وشاذلي مسرور، والتحق أول ما التحق بشركة التلغراف الشرقية الإنكليزية. ومن زملائه في هذه الشركة إبراهيم محمد حمو وإبراهيم علي مرزوق ولكنهما سبقاه في التخرج والتعيين، واعتاد المتعلمون في سواكن حينذاك أن يجتمعوا كل ليلة، يقرأون ويدرسون ويطلعون على الصحف الإنكليزية والعربية ويلمون بأخبار العالم، لأن نشرة رويتر كانت تنقل عبر شركة التلغراف الإنكليزي. وجمع الشمل في ندوة أدبية إبراهيم محمد حمو، فالتفتوا أول ما التفتوا للتاريخ العربي الإسلامي، لذلك ترى في مكتباتهم تاريخ الطبري والكامل لابن الأثير وخطط المقريزي ومقدمة ابن خلدون، وسيرة ابن هشام والسيرة الحلبية والخطط التوفيقية، ومؤلفات رفاعة رافع الطهطاوي والمويلحي الكبير والمويلحي الصغير، بجانب روايات ديكنز وولتر اسكوت، وكونان دويل ورايدر

هاجارد، وكثير من كتّاب الأدب الإنكليزي في القرن التاسع عشر، وبجانب روايات شكسبير وكتب اللغة العربية وديوان المتنبي والأغاني وديوان الحماسة والبيان والتبيين والعقد الفريد. وقد حظوا بوجود مدرسين مصريين شغوفين بالثقافة والعلم، وفتح لهم إبراهيم محمد حمو بيته وخصص حجرة خاصة أطلق عليها الندوة الأدبية، وحضر هذه الندوة الشيخ البشير الفضل، والشيخ أحمد عثمان القاضي، والشيخ سيد أحمد الفيل، الذي كان قاضياً شرعياً لسواكن في أوائل هذا القرن، واتجهوا لدراسة تاريخ المنطقة وقبائلها، فهم عالمون متخصصون في اللغة الهندوية ولغة بني عامر، واختلطوا بالمسنين في هذه القبائل، يتعرفون منهم أخبار وأنساب قبائل البجة، وقد استفاد من هذه المعرفة كل وافد لسواكن ليلم بتاريخها وبتاريخ مناطق البجة، وتنبه الإنكليز لهذه الفئة، فكانوا يحجون لهم، فالمستر ج.م. اسكوت درس على صالح ضرار لغة بني عامر عندما عمل مفتشاً لمركز طوكر، وريتشارد هل استفاد من إبراهيم محمد حمو في دراسة سير الحكام والأتراك في كسلا وسواكن وسنكات. ومما ساعد إبراهيم محمد حمو على ذلك معرفته باللغة التركية واللغة الفارسية، وتفوق إبراهيم علي مرزوق في معرفة أخبار الشوام والمصريين الذين سكنوا في تلك البقاع لأنه سليل أسرة سورية، استوطنت في مناطق بني عامر منذ أوائل القرن التاسع عشر. واتصل هؤلاء النفر بكل ما يمت بصلة لأخبار الانتفاضات العربية في البلاد التي حكمتها تركيا واتجهوا اتجاهاً عربياً مستقلاً، وزارهم علماء من الحجاز والشام واليمن رأوا في ديارهم أحراراً وقفوا ضد الطغيان العثماني، واستمر حالهم هكذا حتى بدا للبريطانيين أن يدمروا سواكن وينقلوا المصالح الحكومية والمنشآت والشركات إلى بورتسودان في عام ١٩٢٥، واجتمعوا مرة أخرى في بورتسودان ولكن تفرقت عصبتهم، فإبراهيم محمد حمو بقي في منزله الذي اشتراه من السيدة علوية الميرغنية، يلتقي بالباحثين والسامرين، وإبراهيم علي مرزوق افتتح مكتبة الثغر بعدما تقاعد عن العمل في الخدمة في شركة التلغراف الإنكليزية، أما محمد صالح ضرار فقد شق طريقه وازداد نهمه للاطلاع على مصادر التاريخ الإسلامي والسوداني، فكان أول من اقتنى تاريخ المؤرخين في العشرينات ودائرة المعارف البريطانية في عام ١٩٣٠ وبدأ ينشر أبحاثه عن تاريخ قبائل البجة في حضارة السودان وفي مرآة السودان، ويرد على الأخطاء التاريخية التي تتعرض لأحداث تاريخ السودان في المقطم والأهرام حتى تنبه لدراسته المستشرقون والمؤرخون.

لقد حقق تاريخ سواكن واستفاد من هذا التحقيق الدكتور بلوس في كتابه عن تاريخ البجة واختاره البريطانيون لتدريسهم لغة بني عامر، كما اختاروا عبد القادر أوكير، لتدريسهم لغة الهدندوه وبرز الاثنان كعلمين ومرجعين في هاتين اللغتين، كما برز السيد إبراهيم أحمد في معرفته الواسعة العميقة بلغة النوبة في شمال السودان.

وتوسعت الحياة الثقافية في بورتسودان في الثلاثينات والأربعينات، فشارك صالح ضرار في الندوات الأدبية والمحاضرات في الأندية الثقافية وامتدت أبحاثه إلى المهرجان الأول والثاني والثالث الذي اعتاد مؤتمر الخريجين أن يعقده. ولما تكونت لجان المؤتمر في السودان كان محمد صالح ضرار أول رئيس لمؤتمر الخريجين، وقابل نهرو في ميناء بورتسودان بوصفه رئيساً للمؤتمر، واشترك في الاحتفال الذي أقامته له الجالية الهندية باسم المؤتمر. وقال في خطابه: «إن الهند مدينة للعرب ولبلاد الشرق بالكثير، فإن أسرتي اسمها مشتق من النهر، ولربما كانت أسرة عربية، وكفاح زغلول في مصر ربط بين حركتنا وحركة الوفد، وعلمنا كيف نتفتح على الحركة الوطنية، فثورة عام ١٩١٩ هي المعلم للمهاتما غاندي، واليوم نرى مؤتمر الخريجين في السودان فندرك أن الأحرار يلتقون في كل مكان، وقد سرني أن أرى هؤلاء الشبان السودانيين يتطلعون إلى أرقى الأماني القومية ويجمعون شتات الشعب في صعيد واحد».

تغيرت الأحوال في السودان وتفرق الخريجون، وبالرغم من أن صالح ضرار قد اختار الجبهة الاستقلالية كواحد من أبرز زعمائها، إلا أنه احتفظ بعلاقاته مع كل المثقفين، ولما نال السودان استقلاله كان في منطقة البحر الأحمر، نزوع نحو الإقليمية، فوقف صالح ضرار ضد ذلك. ومنذ الخمسينات تفرغ للكتابة والتحقيق، فكتابه عن تاجوج والمحلق، هو بحث علمي فريد في نوعه، جمع كل المصادر المتناثرة وربطها في أخبار وروايات لا يستطيع غيره أن يلم سعتها لأنه سافر في تلك الآفاق، وأحدث ظهور هذا الكتاب في الستينات ضجة وكشف اللثام عن خبايا كثيرة، وصحح أخطاء شاعت، وأعقب كتابه هذا بآخر عن تاريخ السودان، والميزة في تاريخه للسودان رجوعه أولاً للمصادر المكتوبة والمنشورة وغير المنشورة مع تبيان أماكنها وحفظها.

راح صالح ضرار يصحح الأحداث، ويقومها على أسس سودانية أصيلة، وتناول وينجت في كتابه عن تاريخ المهدية ورد عليه، وكان صالح ضرار رحمه الله من القلائل الذين احتفظوا بالصحف السودانية والمجلات السودانية التي صدرت منذ

مطلع هذا القرن، كما أنه اهتم بدورية السودان في مذكرات ووثائق وكان لا يعيرها لأحد، ويختلف صالح ضرار في كتابته لتاريخ السودان في أنه يبعث فيه روحاً ويخاصم أعداء السودان ولا يورد نصاً من غير أن يحققه، وقد دافع عن عثمان دقنه وعن سودانيته وفند أقوال الصحفيين كحبيب جاماتي وجورجي زيدان، في أن عثمان دقنه ليس سودانياً، بل إنه فرنسي خطف إلى تركيا ثم جاء إلى سواكن، وسرد نسب عثمان دقنه وأقربائه، وأعجب صالح ضرار بالمهدية لأنها ثورة وطنية أبرزت اسم السودان، وأتاحت له أن يعرف العالم العربي والإسلامي، وكان من جراء ذلك موقفه السياسي مع الحركة الاستقلالية.

أسلوب صالح ضرار في كتابة التاريخ، ليس هو أسلوب الأديب المصور، وإن كانت لغته جميلة وصحيحة، وليس هو أسلوب السرد والنص، بل هو نبع لفكرة، وهذه الفكرة هي وحدة السودان وإبراز شخصية السودان، الأدوات التي استخدمها هي الأحداث والوقائع، فليس عنده من أدوات الثقافة، ما للدكتور جمال حمدان في كتابه عن شخصية مصر، ولا ما للدكتورة نعمات أحمد فؤاد في كتابها عن النيل، وما للدكتور حسين فوزي، في تصويره لمصر في سندباد مصر، فهو أرقى حساً من الجبرتي، فالجبرتي يورد الحادثة ويعلق عليها، إما بالرضى أو بالسخط، ولكن صالح ضرار يورد المواقف ويبين الهدف الذي من أجله هب السودانيون، فالتاريخ السوداني في فلسفته هو أهداف نحو تحقيق الوجود السوداني، فالمكتبة السودانية قد حظيت بطبقات ود ضيف الله وبتاريخ الكردفاني وكاتب الشونة ولكنهم جمعوا أخباراً وأشتاتاً لا يربط بينها منهج وهي تُقرأ فرادى ليستعين بها الباحثون، ولكن صالح ضرار أغنى الباحثين عن ذلك.

فصالح ضرار الذي ولد عام ١٨٩٢ وتوفي عام ١٩٧٣ قد عانى الكثير في سبيل كتابة التاريخ، فقد بصره في نهاية حياته ولزم الفراش طريحاً، وفجع في موت زوجته، ولكنه خلق تراثاً جديراً بالبحث والعناية، وقد أفاد منه ابنه المؤرخ ضرار صالح ضرار الذي سلك طريقاً آخر في التاريخ أعانته عليه دراسته الجامعية الأكاديمية، فتاريخ الثقافة السودانية مدين لهذا المؤرخ الرائد، فإن كان هنالك ما يختلف الناس فيما يكتبه فإنه اختلاف يفتح المنافذ للدراسة والمتابعة وليس اختلافاً في الحقائق والتصحيح.

محمد صديق فريد [١٨٩٥ ـ ١٩٤٩]

نشأ محمد صديق عثمان فريد بين رحاب والده الذي خبر الدنيا، وطاف في كثير من بلدانها، وخاض كثيراً من التجارب، وتعلم صديق في كلية غردون وتخرج مدرساً في المدارس الوسطى وعُرف بتفوقه في الترجمة واللغة الإنكليزية، واشتهر بأنه رياضي برز في لعبة كرة القدم، وكان من أوائل النظار السودانيين الذين رقوا من طبقة الأفندية، ولكن مشاركته في الأحداث والاهتمام بالمسائل الوطنية جعل الاستعمار يتربص به حتى أقصاه عن ميدان التعليم، ووضعه في سلك الكتبة والمترجمين بمصلحة المعارف.

هذه خلاصة الترجمة الرسمية لصديق فريد، ولكن صديق فريد وجه مواهبه بعد أن ابتعد عن التدريس إلى المسرح والتمثيل، وقد كانت الجاليات الأجنبية تهتم بإخراج تمثيليات وروايات في المواسم في المدن الكبرى كالخرطوم وعطبرة وبورتسودان، وأغلب الروايات كانت معربة، والذين يمثلونها من الهواة. أشهر الفرق حينذاك فرقة المكتبة القبطية التي عنيت بتمثيل روايتين هما تاجر البندقية وعطيل، وبزغ اسم ممثليها منذ عام ١٩١٢، والفرقة السورية التي كانت أغلب رواياتها عن استعداء الحكم العثماني، أما الفرقة المصرية فكانت هي الفرقة المكتملة، فيها المونولوجست والمغني والممثل والموسيقار، وشارك في هذه الفرقة سودانيون كثيرون، حتى إن بعضهم كان يغني الأغاني المصرية لعبده الحمولي والشيخ سلامة حجازي، وأشهر الممثلين بهذه الفرقة فؤاد شفيق وشفيقة. والتفتت المدارس وكلية غردون للتمثيل فكان من الممثلين من الطلبة الدرديري محمد عثمان وعوض ساتي وعبد الرحمن علي طه، ولم يكن هنالك

فن أو صلاة غير التمثيل، لذلك ولج صديق فريد باب التمثيل ودرب الشبان على الإلقاء والحركات، كما أنه أشرف على الديكور وتفصيل الملابس وإدارة المسرح مع اشتراك البطل في معظم الروايات التي مثلها، وتلك الروايات كلها كُتبت باللغة الفصحى ومُثلت بالفصحى، مع أنها مترجمة كرواية الفارس الأسود، والذبائح، وأمير الريف، والعباسية أخت الرشيد، بجانب روايات شكسبير.

لم يدرس صديق فريد في معهد لكنه تميز بالإخراج الجيد وبالتمثيل الذي جعله يندمج في دوره، كما جعل محمود منصور يمثل وكأنه يحيا حياته الطبيعية، ولم يكن مسرح صديق فريد مستقراً في أم درمان بل إنه طاف ببورتسودان وعطبرة وواد مدني وجعل نادي الخريجين في أم درمان رئاسة فرقته حتى كاد أن يكون متفرغاً للتمثيل.

لم يكتف فريد بذلك بل استعين به في الترجمة في جريدة الحضارة فأينعت موهبته التي اختفت بعد أن ترك التدريس، فلو قرأت ما كان يترجمه من تقارير فنية وعلمية وزراعية لأيقنت أنه رجل متفرغ متخصص في هذا العمل، وكثير من الناس لم يعرفوا ذلك، فقد ترجم كتب مرشد المعلم لمدرس المدارس الأولية والكتاتيب. فهذه الكتب وضعها البريطانيون في الحساب والزراعة.

لم يكف صديق فريد عن الدرس والمطالعة في اللغتين العربية والإنكليزية، وذلك إما في القصص والروايات الإنكليزية وكتب التاريخ أو في جريدة التايمز اللندنية والمانشستر جارديان الأسبوعية. وقاسى كثيراً في كسب عيشه ومصارعة الأحداث، فكان عمله في نادي الخريجين بأم درمان هو المتنفس الوحيد له، كما أن كثيراً من الخريجين الأعضاء رأوا فيه أستاذهم، فكم طاف في المدن وهو يدعو للجنة جديدة، فانتخابات نادي الخريجين لم تكن وقفاً على المقيمين بأم درمان بل كان النادي يضم كل الخريجين في أنحاء السودان، وكل هؤلاء الخريجين يدفعون اشتراكاتهم ويصوتون في الانتخابات وتفرز الأصوات القادمة من الأقاليم.

رفض صديق فريد كل المسرحيات الهزلية التي ألفت لنقد المجتمع السوداني، فمثلاً مسرحية نكتوت التي كتبها عبد القادر بك مختار مأمور القطينة، سخرت هذه المسرحية من بعض جوانب المجتمع السوداني ومثلت في أماكن غير القطينة، ولكن صديق فريد رفضها لأن المسرح عنده قام على تصوير البطولة والوفاء والحب والحرية،

لذلك استند على الروايات التاريخية، فعندما مثل النسر الصغير ونابليون الثالث خافت المخابرات البريطانية في السودان وحذفت مشهد الملكة فكتوريا، ولكن استعاض عنه صديق فريد بكلمة واحدة: يا صاحبة الجلالة.

ومرت السنون ودخل المذياع إلى المنازل، واستعاض قبل ذلك الناس بحفلات الطرب، وظهر الفنانون، وإن كانت الفرق تستعين بهم في الفترات. ثم غزت السينما الحياة فتوقف دور المسرح وقامت الحرب العالمية الثانية وأنشئت محطة الإذاعة في أم درمان، فكان من المذيعين فيها صديق فريد مع صالح عبد القادر وعبيد عبد النور، فكم سخر من الأخبار والانتصارات والحلفاء المغلوبين على أمرهم.

وبعد انتهاء الحرب انصرف صديق فريد عن الإذاعة ودرس في بعض المدارس الحرة، ولكن هذه الفترة التي طواها من عمره جهاداً وتثقيفاً وكفاحاً في سبيل أسرته وإخوانه قد أنهكته، فهاجمه المرض في بطء ومات ميتة هادئة وهو فخور بأنه أب المسرح السوداني ورائده.

محمد عامر بشير [١٩٠٦ ـ ١٩٧٨]

محمد عامر بشير فوراوي أول مترجم سوداني يمارس الترجمة الفورية في بلادنا، هكذا هو مقدار ذكره عند كثير من المثقفين بيننا، ولكن تاريخه الحافل قد ظل مجهولاً.

تخرج محمد عامر بشير من كلية غردون مهندساً، وعمل فترة مهندساً في مصلحة سكة الحديد ثم انتقل إلى مصلحة المساحة، وكان ذلك من أخريات العشرينات، حتى مطلع الأربعينات، فاستقال بعد ذلك، وافتتح مكتباً هندسياً، وكان من المهتمين بالرياضة والحياة الاجتماعية، ثم تعلق بعد ذلك بالحركة السياسية، وحمل لواء الدعوة لمؤتمر الخريجين، فانضم لجريدة صوت السودان، وكان مديراً لإدارتها وكان أحد كتَّابها في الأربعينات، فمقالاته الوطنية نبهت لكثير من المشكلات، وكان يختم مقاله بهذه العبارة: عاش السودان، وعاش المؤتمر، وكان له مقال بالإنكليزية في صحيفة سودان ستار، وفي تلك الفترة، وفي الأربعينات، كان السوداني الوحيد الذي رحبت بكتاباته جريدة سودان ستار، وقد ذكر رئيس تحرير سودان ستار في تلك الأونة أنه مع الأسف لم يجد عند السودانيين ميلاً للكتابة باللغة الإنكليزية، وفي خلال تعاون محمد عامر بشير مع سودان ستار عمل محجوب محمد صالح، ومحمد إبراهيم خليل في تلك الجريدة.

فقد أحب فوراوي الصحافة فأصدر من منازلهم في عام ١٩٤٤ أخبار فوراوي باللغتين العربية والإنكليزية، كما أنه أشرف على الملحق الرياضي لسودان ستار وكان عنوانه «سكورز» أي كرة القدم، وبعد ذلك غامر بإصدار جريدة الأخبار من منازلهم، وكان يعاونه فيها رحمي محمد سليمان، وينوب عنه أثناء غيبته كرئيس للتحرير، فلما

قامت الجمعية التشريعية اختير محمد عامر بشير كاتباً لها، فقام بالترجمة التحريرية والترجمة الفورية، وكان السوداني الوحيد القادر على ذلك، ولما تألف أول برلمان سوداني أصبح محمد عامر بشير كاتباً لمجلس النواب، كما أصبح أمين زيدان كاتب مجلس الشيوخ، واستمر محمد عامر بشير كاتباً لمجلس النواب منذ عام ١٩٥٤ حتى ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨، وبعد ذلك عين مديراً عاماً لوزارة الاستعلامات والعمل، فكان أول عمل قام به هو مد فترات الإذاعة لتذيع من السادسة صباحاً حتى الثانية عشر لمنتصف الليل، كما أنه أخرج المجلات المتخصصة، كمجلة السودان الشهرية باللغتين العربية والإنكليزية، وافتتح مكاتب للإعلام في عواصم المديريات والمدن الكبرى في السودان، وجعل تلك المكاتب تخرج نشرات تغطي أخبار المديريات وأحداثها. كما أنه أنشأ نشرة غير متداولة باللغتين العربية والإنكليزية تصدر يومياً لتطلع الوزراء والقياديين على دقائق الأخبار المحلية والعالمية، كما أنه مد الصحف المحلية بالنشرات اليومية التي تبصرهم بأعمال الدولة، وإنجازاتها، وبعد ذلك أنشأ جريدة إنكليزية، يومية هي (سودان دايلي) وكانت ذائعة الانتشار، وفي عام ١٩٦١ خرجت جريدة الثورة اليومية وملحقها الأسبوعي الذي كان يصدر كل جمعة، وكانت أول جريدة سودانية تصدر بالحجم الكبير، وفتحت جريدة الثورة صدرها لكل الكتّاب والأدباء ودخلت السوقْ منافسة للصحف اليومية.

ولم يكتف فوراوي بذلك فعمل على إنشاء المسرح القومي والفرق الشعبية التي كانت تقدم فنون السودان المختلفة.

أحب محمد عامر بشير، صناعة القلم والصحافة، فكان يقرأ الصحف الإنكليزية والأمريكية، ويوجه في تطوير الصحافة السودانية والاهتمام بما يحتاج له القارىء في كل مرافق الحياة من سينما وفنون ورياضة وشؤون المرأة وعرض الكتب الجديدة والاكتشافات العلمية، وكان يكتب بعض الأبواب بنفسه في صحيفة سودان دايلي وفي جريدة الثورة. وجه بإلغاء صفحة الجريمة في الصحف لأنه رأى أنها تفسد أكثر مما تصلح، وفي أثناء عمل فوراوي كمدير للاستعلامات اصطدم معه بعض الصحفيين العاملين في الصحف الأخرى، فكان يردد دائماً: إنكم تختلفون معي، ولكنني لن أغلق بابي دونكم، فآراؤكم لن تمنعكم من الحوار والانفتاح، كما أنني لا أرفض الأفكار الصافية، فربما كنت أجهلها، فالطريق بيننا مفتوح، وليست بيننا

خصومة، واستقال فوراوي من الوظيفة في عام ١٩٦٢، ولكنه لم يكف عن العمل بالترجمة والكتابة في بعض الأحيان، ولكن المرض هاجمه، فذهب فترة للعمل في المنظمة الافريقية في أديس أبابا، ولكنه لم يمكث كثيراً.

أسلوب فوراوي هو أسلوب الصحفي وليس أسلوب الأديب، فهو يجري وراء المعلومات والأحداث ويكشف الأسرار والحقائق، ويتوازى أسلوبه العربي مع أسلوبه الإنكليزي، فهو صحيح العبارة، جيد السبك، قوي الحجة لا يجري وراء الألفاظ بل إنه يقدم مادة، اهتم فوراوي بدراسة المشكلات العالمية وأخبار الرياضة، فكان يسافر لمشاهدة المباريات العالمية في كرة القدم ويصف هذه المباريات وصف المحب العاشق لكرة القدم، فكان ناقداً رياضياً ممتازاً، سبق في معالجته للنقد الرياضي كوركين اسكندريان، وعمر حسن، وتتلمذ عليه الكثيرون. كما أنه كان موجهاً في الصحافة له آراؤه القيمة، التي حاول أن يطبقها عندما أصدر جريدة الأخبار، فوجد الفرصة في تطبيق ذلك في الصحف التي نشرتها وزارة الاستعلامات والعمل، كما أنه انفرد بالوصف الصادق في كتابة مذكراته عن رحلاته وراء البحار، فقد قدم لقطات جميلة ومشاهدات في أسلوب طلي يرتفع عن أسلوبه في التعليقات، وخير ما كتبه فيما كتب هو مشاهدات ومذكرات، لكن مكانه في الحياة الثقافية السودانية هو مكان الصدارة في الترجمة، فهو أول سوداني متفرغ للترجمة الفورية والترجمة التحريرية، فوقائع الجمعية التشريعية ووقائع ومداولات مجلس النواب منذ عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٨ تشهد بذلك.

محمد عباس أبو الريش [١٩٠٨ _ ١٩٣٥]

كانت السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي هما الشعلتين اللتين أنارتا الطريق للصحافة المتخصصة في الأدب والثقافة، وامتدت آثارهما إلى الأقطار العربية، وقد عشق الشباب السوداني القراءة والمطالعة والبحث. وإن كانت كلية غردون لم تتح للطلبة منافذ للفكر والتعبير ولكن جهودهم الخاصة وطموحهم هو الذي مهد الطريق للنهضة الفكرية في السودان، ومحمد عباس أبو الريش تخرج من كلية غردون في قسم الكتبة والمحاسبين، ونشأ في بري في بيئة ثقافية اهتمت بالقراءة والكتب، فكان هنالك الحاج مضوي، الذي أسس مكتبة شهيرة في الخرطوم، كما كان في بري شبان يهتمون بالأدب والفن، وعبيد حاج الأمين البطل السوداني كانت له روحات وغدوات في بري، كما أن خليل فرح اعتاد أن يفيء إلى بري ليسمر مع أصدقائه، وقبيلة المحس انتقلت قبل ذلك بتراثها الفكري وتعليمها، فلذلك كله اهتم محمد عباس أبو الريش بالثقافة والأدب، وافتتح مكتبة النهضة السودانية، فتجارة الكتب والمكتبات كانت وقفاً على الأجانب، فالبازار في الخرطوم، ومحمود عزت المفتي، كانت له مكتبة، (المكتبة المصرية في أم درمان)، والمكتبات الأخرى كانت لليونانيين، كمكتبة سنترال، أو مكتبة اسفيكاس ومكتبة فكتوريا التي كتب عنها محمد أحمد محجوب والدكتور عبد الحليم محمد في كتابهما (موت دنيا). كانت الكنيسة الإنكليزية لها مكتبتها التي كانت تسمى (بسودان بوك شوب)، فلما افتتح محمد عباس أبو الريش مكتبة النهضة السودانية هدف أن يحضر كل الكتب التي يحتاج لها المثقف بجانب الكتب الإسلامية، وقامت مجلة النهضة، فكانت فتحاً في حياة السودان، فلأول مرة في تاريخ السودان يجتمع المثقفون السودانيون في منبر فكري، ويكتبون وينتجون فظهر في مجلة النهضة

محمد أحمد محجوب الكاتب الشاعر، ويوسف مصطفى التني، ومرضي محمد خير، ومحمد عشري الصديق، وعبد الله عشري الصديق، وحسن التني، وحسن يس وغيرهم، وكان بعضهم يكتب بلا توقيع كأمين زيدان وعبد الله ميرغني وخضر حمد.

لا شك أن مجلة النهضة كان لها خط فكري وسياسي، فقد رمت إلى إيقاظ الوعي وتنبيه المثقفين السودانيين للاضطلاع بواجباتهم ومخاطبة بعضهم البعض، وقبل ذلك استخدم المثقفون وسائل الخطابات، فكان الواحد منهم يكتب للآخر من دون أن يعرفه شخصياً، ويعالجون في خطاباتهم الموضوعات التي تشغل المجتمع السوداني، كالزواج وغلاء المهور، وتعليم البنات، والمغالاة في الأحزان والأفراح، وقيام المدارس. ولقد جمعنا طرفاً منها وأشهر كتّاب الرسائل في ذلك العهد هم: أحمد كوكو، الشيخ علي الشامي، وعبد الله حمد، وأحمد فوزي، ومحمد طاهر الحسيني، وعبد الرحمن أحمد سعد، وود عيسى زيادة، وأحمد محمد صالح، ومبارك إبراهيم، وحمزة الملك طمبل وغيرهم.

فلما ولدت مجلة النهضة استبشر المثقفون السودانيون بذلك، لأن المقالات التي كانوا يبعثون بها إلى جريدة حضارة السودان يراجعها سليم عطية وابن أخيه ادوارد عطية والمستر بني وبعض الكتبة السودانيين.

نلاحظ في مجلة النهضة أن كثيراً من المقالات غير موقعة، ولا ينسب ذلك لرئيس التحرير، فمحمد عباس أبو الريش أوقف قلمه على الافتتاحية والتعليق على المشكلات الاجتماعية وتبويب المجلة، والاتصال بالأدباء والشعراء، فقد عقد أواصر الصداقة والمودة بين أبناء جيله، وبين الأدباء المعروفين في تلك الفترة. وبالطبع لم يكن هنالك كاتب أو شاعر يتكسب من عمله الأدبي، بل إنهم اعتادوا أن يهرعوا إلى مجلة النهضة ويشاركوا في تصحيح البروفات والوقوف على الطبع، وما من موظف سوداني إلا وكان قد اشترك في مجلة النهضة التي استطاعت أن تطبع ثلاثة آلاف نسخة. والموظفون في الثلاثينات علوا سلم الامتياز الاجتماعي والاحترام، لأن دخولهم فاقت دخول التجار والزراعيين، كما أن الإدارة البريطانية زودتهم بالمنازل، وحياتهم كانت منظمة بين المكتب والنادي، ولا هم لهم إلا تثقيف أنفسهم والمباراة في لعب التنس، والعناية بإقامة حفلات السمر التي درج على الغناء فيها إبراهيم عبد الجليل ومحمد أحمد سرور وكرومة والأمين برهان وعبد القادر رضوان.

فمحمد عباس أبو الريش يُعد من الكتّاب الرواد في ميدان الثقافة، كما أنه هو رائد الصحافة الأدبية المتخصصة، تلمح في أفكاره نزعة الإصلاح والتدرج والدعوة لحب الوطن وجمع شمل الفريقين، والأسلوب الواضح المجرد من المحسنات، ومباشرة مخاطبة القارىء. وتلمح في مقالاته أثر القراءة والمتابعة لما كان يكتبه العمالقة في مصر، وترى أنه قد قرأ في الآداب الغربية وتابع ما كانت تنشره مكتبة الجامعة بأكسفورد وما كانت تختاره دار افري مان وما كانت تنشره مكتبة المفكرين، فمجلة النهضة ولدت مجلة الفجر، فالذين يطلق عليهم اسم مدرسة الفجر نشأوا في مجلة النهضة، وبينهم عرفات الذي أسهم في مجلة النهضة، وحتى الذين أصبحوا صحفيين فيها بعد كإسماعيل العتباني وأحمد يوسف هاشم، وعبد الله ميرغني شاركوا في مجلة النهضة، فإن كان مصطفى غوغول قد ولد القصة الروسية، فمجلة النهضة هي التي ولدت كل المجلات السودانية.

هذا الشاب الذي وهب حياته وشبابه للثقافة ولنشر الثقافة هو رائدنا في هذا المجال. توفي في شرخ الشباب، وخلف وراءه مكتبة النهضة ومجلة النهضة التي طبعت اليوم في مجلد واحد، إننا ننظر إليه ونعجب لجهاده ومبادرته وصبره في تلك الظروف القاسية، والسودان يرزح تحت نير الاستعمار وإرهاق الأزمة الاقتصادية، فنكبره ونضعه في قائمة الخالدين الذين علمونا، وأناروا أمامنا الطريق.

محمد عبد الرحيم [١٨٦٩ ـ ١٩٦١]

كاتب التاريخ، إما أن يكون شغوفاً بتمسك الإنسان باللحظات التي عاشها في الحياة، فيدون الأحداث التي عاصرها أو تناقلها الناس في جيله، ومثل هؤلاء المؤرخين، يستفيد منهم عالم التاريخ وينقح ما كتبوه ويقارنه بما كتبه الآخرين، وليس لهذا الصنف منهج علمي، وفئة يكتبون التاريخ معتمدين على الوثائق والآثار ولا يترجمون الأحداث إلا بما حوته الوثائق، وهؤلاء إما أن يكونوا فلاسفة أو ساسة أو معلمون. وكل هذه الفئات تكمل الفئة الأخرى. محمد عبد الرحيم هو رأس الطبقة الأولى في تاريخنا المعاصر، وكان قبله الكردفاني وكاتب الشونة وبابكر بدري، والطبقة الثانية رأسها الدكتور مكي شبيكة، والطبقة الثالثة رأسها الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم.

تعلم محمد عبد الرحيم في الخلوة وفي حلقات العلماء، وحارب في المهدية، فعمره لم يكن معروفاً حينذاك، ولكنه قدره في الخامسة عشرة، فالصبيان كانوا يحاربون في تلك السن، فهو عندما يكتب عن مواقع الحرب في المهدية تحس أنه اشترك فيها، وعرف المحاربين، لذلك نعده من الشهود الذين حضروا المهدية وعرفوا تاريخها. أما ما كان يكتبه عن فتوحات محمد علي الحاكم التركي في السودان فبعضه مستقى من الكتب والوثائق، وبعضه مستقى من أحاديث الناس، وما كتبه عن الزبير باشا ود رحمة فقد تلقاه عن أهله وعرفه من الزبير نفسه. وما كتبه عن علي دينار، وفتح دارفور فهو يكاد الوحيد من المؤرخين السودانيين الذين عرفوا علي دينار واشتركوا في الحملة إذ كان يعمل كاتباً في حكومة السودان.

كتب عدة رسائل عن تاريخ السودان، ونشر بعض المقالات التاريخية في جريدة الأهرام، كما أن الأمير عمر طوسون استعان به في كتاب الأورطة السودانية في المكسيك وبعض الدراسات التي خرجت باسم الأمير طوسون عن حرب القرم واشتراك السودانيين في هذه الحرب.

جعل محمد عبد الرحيم دراسة التاريخ وكتابته محور حياته، واطلع على المصادر الهامة في ذلك، واستعان بالذين يعرفون اللغات الأجنبية، كالإيطالية والفرنسية ليترجموا له ما كتبه هؤلاء الأجانب عن السودان، فقد اعتاد أن يذهب إلى القاهرة في إجازته ليطلع على هذه المراجع، ويؤجر المترجمين... ولما كان التاريخ ملاك حياته أخرج مجلة أم درمان في عام ١٩٣٦، وهي مجلة متخصصة في التاريخ، وأوكل للتجاني يوسف بشير سكرتارية تحرير هذه المجلة، كما أنه استعان بالمبارك إبراهيم في تحرير المقالات الأدبية، ولم تعمر هذه المجلة طويلاً بل إنها اختفت في عام ١٩٣٧.

وفي غضون إصداره لمجلة أم درمان أصدر كتابه (نفثات اليراع في الأدب والتاريخ والاجتماع) وهذا الكتاب تميز بأسلوب جميل ولغة عربية منمقة مختارة، فأثار هذا الكتاب كثيراً من التساؤل، ونسبه بعضهم لعمل التجاني معه في مجلته ولكن كل المقالات التاريخية هي نابعة من روح محمد عبد الرحيم، كما أن النظرات في الشعر والشعراء هي نظرات محمد عبد الرحيم لأنه كان يحب الشعر ويحفظه ويستشهد به، ويصاحب ديوان المتنبي والبارودي وشوقي.

إننا عندما ندرس محمد عبد الرحيم، نرى أنه يعتبر المصدر السوداني الأساسي لتدوين تاريخ المهدية وتاريخ المديريات الجنوبية وتاريخ فتح دارفور، فلقد كتب هارولد مكمايكل عن تاريخ العرب في السودان، ولكن المعلومات التي حشدها مكمايكل، استقاها من الشيوخ والمعاصرين وخلط بينها الكثير، أما محمد عبد الرحيم فقد شاهد وسأل وسمع ورجح ووزن ثم دوّن.

وإذا قارنا ما كتبه محمد عبد الرحيم عن المهدية وما كتبه نعوم شقير أو وينجت أو اسلاتين أو هولت نجد أنه أكثر توسعاً ومعرفة برجال المهدية، فلو نقح هذا التاريخ لقدم صورة كاملة للمهدية، فإن شبابنا اليوم يعتمدون على مصدرين هما نيوبولد، وهولت، ولكن محمد عبد الرحيم أكثر معرفة من الأجانب الذين دونوا تاريخنا.

وقد يكون ريتشارد هل قد اطلع على وثائق حملة دارفور وكذلك نيوبولد، فهذه قد تعين على دراسة سياسة بريطانيا في السودان، كما أوضح ذلك مكي شبيكة، ولكن دراسة محمد عبد الرحيم هي المقدمة الرئيسية لتاريخ دارفور، فقد استفاد منه موسى مبارك في رسالته.

وهناك كتاب واحد بالإنكليزية عن الزبير باشا ألا وهو The Black Ivory أي العاج الأسود وقد ألفه جاكسون، وهذا الكتاب ما هو إلا سباب، وحتى إن كتاب سعد الدين الزبير عن أبيه لم يفصل تاريخه العسكري وفتوحاته كما فعلها محمد عبد الرحيم في مقالاته عن الزبير باشا. إن كان مكي شبيكة قد وضع الأساس العلمي لكتابة تاريخ السودان الحديث، فمحمد عبد الرحيم هو الذي قدم أغزر مادة في هذا التاريخ، ولكن لم يكن له منهج علمي، بل سرد الأحداث مع الاحتفاظ بذكر مواقيتها وتاريخها، فكل مؤلفات محمد عبد الرحيم جديرة بأن تحرر وتحقق تحقيقاً علمياً، من قبل المثقفين والمهتمين بتاريخ السودان، فإن المعاصرين قد أغفلوه في السودان مع أن المؤرخين المصريين أخذوا عنه ولم يكذبوه، فكتبه اليوم نادرة حتى إنني عجبت لالتفات جلال كشك له في كتابه عن منابع النيل، فإن دل هذا فإنه يدل أن جناح السودان في المكتبات العالمية لم يهمل محمد عبد الرحيم.

إنني عندما أقدم محمد عبد الرحيم إنما أقدمه كرائد لكتابة تاريخ السودان الحديث وأحفظ اسمه بين رواد الفكر السوداني، فهو شيخ المؤرخين السودانيين.

محمد عثمان ميرغني [١٨٩٧ ـ ١٩٤٧]

النظرة الثاقبة، والتطلع للمستقبل، والسعي نحو التحكم في مسار الحياة الاقتصادية، والوعي بما يدور في السوق والحقل، هذه كانت الرسالة التي كرس لها محمد عثمان ميرغني حياته. تخرج محمد عثمان ميرغني من كلية غردون، وبُعث إلى جامعة بيروت الأمريكية فتخصص في المحاسبة والاقتصاد ونال درجة البكالوريوس، وانتدب للعمل في نيجيريا، فكتب كتاباً نادراً بعنوان «أسفار» طبع في مطبعة مكاروكديل بالخرطوم، وصف فيه الحياة في نيجيريا، وإمكانات نيجيريا الاقتصادية ونبه السودانيين إلى ميادين جديدة للعمل في تلك البلاد، وكان معه عدد من السودانيين استعارتهم حكومة نيجيريا للعمل فيها، نذكر منهم الشيخ إبراهيم سوار الذهب، رحمه الله، والأستاذ محمد نور سيد أحمد رحمه الله.

كان هذا الكتاب هو ثاني كتاب يكتبه سوداني عن الرحلات، فأول كتاب ظهر في القرن العشرين في الرحلات، كان كتاب سليمان داود منديل، عن رحلته في أوروبا. وإذا كان سليمان منديل كتب عن مشاهداته وانطباعاته، فإن محمد عثمان ميرغني رحمه الله قدم دراسة عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في موضوعية وتحدث عن الرحلة والأسفار والطرق التي مر بها هو وأصحابه.

لم يكن أسلوب الكتاب جافاً، وإن كان الأسلوب علمياً وتعليمياً، إلا أن محمد عثمان ميرغني تميز بالفكاهة والتهكم والسخرية، وليست هذه مسألة مصطنعة في كتاباته، ولكنها طبيعة في نفسه، فهو لم يتوفر على القراءات الأدبية، وقد كان بإمكانه أن يبرع فيها لأنه نشأ في بيئة أدبية ووسط حافظ للقرآن، مطلع على التراث الإسلامي

العربي، فهو من بيت من بيوت الرباطاب، ولكنـه اختار الأسـلوب العمـلي في كل مـا كان يقوم به، وقد ظنه الناس في بـادئ الأمر هـازلاً عندمـا دعا لصنـاعة الـزجاج في الـسودان، وإقامة مصانع للنسيج، كما دعا لـلاستفادة من المـواد الطبيعيـة الموجـودة في التربة السودانية، كالجردقة والعطرون، كما أنه دعـا إلى استغلال النبـاتات والحشـائش كالسنه مكه والقرض وغيرها.

كان قسم المحاسبة يصرف أموره في كلية غردون مـدرسون سـوريون ومـدرسون مصريون، ويستعان ببعض الموظفين في مكاتب الحكومـة ليمرنـوا الطلبـة على الأعمال المكتبية، فاختط محمد عثمان ميرغني منهجاً لهـذا القسـم، وأدخل مـادة المحاسبـة علمياً وعملياً، ومادة الاقتصـاد ومسك الدفاتـر، ودراسة وإجـراء الميزانيـات والخطط، فـوفر لطلبة هذا القسم ثقافة شاملة، كانت الحافز للذين تخرجوا من هذا القسم أن يـدرسوا فيجلسـوا لشهادات المحاسبة العليا في المملكة المتحدة، فقبل قيـام محمد عثمان ميرغني بالتدريس في هذا القسم، يتخرج الـطلبة ليعملوا طـوال حياتهم مـاسكي دفاتـر ليس غير.

كتب محمد عثمان ميرغني في حضارة السـودان مقالات اقتصادية، كما أنه كتب في مجلة كليـة غردون بعض المقـالات في الشؤون العامـة، وشـارك في مؤتمـر الخـريجين، وعنـدما بـدأت وجهات النـظر تختلف في الوضـع السياسي للسـودان، اتضحت ميول محمد عثمان ميرغني نحو الحركة الاستقلالية.

كان محمد عثمان ميرغني أول ناظر لمدرسة التجارة الثانوية الصغرى، فهو الـذي رسم مناهجها وأشرف على إدارتها، وجعلهـا مدرسـة متخصصة، فقبـل هذه المـدرسة كانت المواد التجارية تدرس في كلية كمبوني، ولا يقدر إلا من تـوفرت لـه الإمكانـات المـالية والكفـايات العقليـة والمؤهلات الخـاصة ليلتحق بكليـة كمبوني، وكـان خريجـو القسم التجـاري في كلية كمبـوني هم الـذين يتبـوأون المـراكز في الشركـات الأجنبيـة والبنوك، فسدت مدرسة التجارة الثانوية الصغرى فراغـاً في كثير من المـرافق، فلذلك يعتبر محمد عثمان ميرغني رائد التعليم التجاري في السودان.

جيـل محمد عثـمان ميرغني هـو جيل الـرواد والمعلمين، إذ لم يكن الـواحد منهم منطوياً على أمر واحد، بل كانوا يشـاركون في كـل ميادين الحيـاة في السودان، لـذلك

كانت تسند لمحمد عثمان ميرغني الاستشارات للقيام بدراسات الجدوى لكثير من البيوت التجارية الوطنية، كما أنه كان يخطط ميزانيات بعض المؤسسات الوطنية ولم يكن ذلك الأمر معروفاً حينذاك، إذ كان وحده هو المتخصص في هذا الأمر.

وفي الثلاثينات قامت دعوة لمقاطعة أقمشة البدل المستوردة، فلبس محمد عثمان ميرغني الدمور السوداني، وكذلك إسماعيل الأزهري وأحمد خير، وقامت الدعوة لاستخدام الأحذية السودانية وتطويرها، ولم يكن هنالك مصانع حديثة في السودان، والحذاء الوحيد هو الحذاء الفاشري، فنبه محمد عثمان ميرغني للاستفادة من كل أنواع الجلود في السودان كجلد النمر وجلد الأصله، وجلود الشياه وجلد التمساح، ففتح الآفاق لذلك، وتطورت الأحذية الوطنية، واستغنى بها السودانيون عن الأحذية المستوردة.

كان رحمه الله دائب النشاط، وكان جاداً يدعو للحرص وللتوفير، ويذكّر السودانيين أنهم سيحتاجون يوماً للمال، لذلك يجب أن يوفروا ليستثمروا ما يوفرونه، ولم تلق تلك الدعوة أذناً صاغية، ولكنه كان يرددها دائماً، كما أنه كتب عن التعاون وإقامة مراكز له، وتحدث عن أسس الحركة التعاونية.

حقاً إن محمد عثمان ميرغني كان رائداً في هذا الميدان، ولم يكن أحد غيره قد وعى هذه المشكلات منذ الثلاثينات حتى وفاته، فهو حقاً أحد رواد الفكر السوداني في هذا المضمار الفريد.

محمد نور الدين [١٨٩٤ ـ ١٩٦٤]

في حلفا حيث يلتئم المجتمع في ترابط منتظم وتبدو الصورة الخفية للوجود الجماعي، نشأ محمد نور الدين في بيت توفر فيه الدين والتقوى. . وتلقى محمد نور الدين تعليمه في مدرسة حلفا الوسطى ولم يعمل في الحكومة بل اختار أن يلتحق بالبنك الأهلي المصري، وعمل في الخرطوم وبورتسودان وواد مدني والأبيض، وعُرف في بورتسودان بوطنيته وصدقه وإخلاصه ووده، فإنه وقف يؤيد الوفاق بين المنشقين من نادي المستخدمين، وذهب إلى المتخاصمين في منازلهم وأقسم عليهم أن يجتمعوا، وقال لهم: ليس في السودان عنصرية وليس هناك سواكنيين أو حلفاويين أو سودانيين منفصلين عن حقيقة هذا البلد، فأكبروه وتصافت النفوس.

وعند تكوين فروع اللواء الأبيض في المدن كان محمد نور الدين هو أمين المال والمدير للصرف على أسر المتكلمين والسجناء وقد أشرف على اللجنة التي كان بها المرحوم عبد الله خليل ومجذوب بركة وحاج الشيخ عمر، والحاج عبد اللطيف. وقد فتح محمد نور الدين بيته لكل المناضلين ووقف مع قضاياهم، كما كان نجماً من نجوم أندية الخريجين في كل الأماكن التي عمل فيها، ولما قام مؤتمر الخريجين كان محمد نور الدين هو وكيل البنك الأهلي المصري بالأبيض فبرز في مؤتمر الخريجين، حتى إن مدير المديرية أنذره، وأخيراً نقله تحت المراقبة إلى الخرطوم.

وفي الخرطوم جمع محمد نور الدين الشبان حوله وانتظم في كل لجان المؤتمر، وإن كان لم يظهر في الهيئات العليا في مؤتمر الخريجين، إلا أنه كان جاداً في جمع المال لبناء المدارس والعمل ليوم التعليم.

وتكوّن حزب الأشقاء، ومحمد نور الدين هو أكبر موظف سوداني في البنك الأهلي المصري في السودان، فجاهر برأيه السياسي وانتظم في الحزب وأصبح نائباً لرئيس الحزب واستقال من عمله في البنك وصرفت له مكافأة نادرة في ذلك الزمن قدرها عشرون ألف جنيه، فأنفق كل ما يملكه على حزب الأشقاء، ولم يبن لنفسه بيتاً، ولم يستغل نفوذه في إقامة العقارات والمزارع.

عارض محمد نور الدين الجمعية التشريعية وسار في المظاهرات وسجن في كوبر، وقبل ذلك كان قد أرسل برقية باسمه إلى الحاكم العام السير روبرت هاو هاجم فيها سياسة الاستعمار والأحزاب التي التقت تحت شعار الاستقلال، وحذر الحاكم العام من سياسة التمزق وصولاً إلى الفتن بين السودانيين، واشترك محمد نور الدين في وفد السودان في عام ١٩٤٦ وسافر مع الوفد إلى القاهرة ولكنه عاد بعد ذلك وبدأ يطوف كل أرجاء السودان.. يدعو للحرية والنضال، ففي كل شهر تجده في بلد أو مديرية وظهر حزب الأشقاء قوة مترابطة جمعت كل المناضلين. وفي عام ١٩٥١ حدثت اختلافات في الحزب فانشق محمد نور الدين ومعه حسن أبو جبل وخضر عمر وانضم له جماعة من الشباب اليساريين وكونوا مؤتمر السودان كما أبقوا اسم الأشقاء على حزبهم، واستطاعت هذه الجماعة أن تضم كل الأحزاب التي قام بها الطلبة والمزارعون والعمال.

ولما نشبت الثورة المصرية في يوليو عام ١٩٥٢ اختلفت المقاييس السياسية، فالدعوة للاتحاد مع مصر تحت التاج المصري لم يعد لها معنى وأحس رجال الثورة في مصر أنه لا بد لهم أن يجمعوا دعاة الوحدة، فتم توحيد الأجنحة والأحزاب الاتحادية في حزب واحد هو الحزب الوطني الاتحادي، وأجريت الانتخابات البرلمانية فتقدم محمد نور الدين ورشح نفسه في دائرة حلفا ونافسه في الدائرة الأستاذ محمد توفيق الذي قصد أن يبعد محمد نور الدين للعمل ضد السيد يحيى الفضلي الذي رشح نفسه في إحدى دوائر الخرطوم، مع أن الأستاذ محمد توفيق كان مقرباً من الأشقاء هو وداود عبد اللطيف وكانا من حزب الأشقاء ونجح يحيى الفضلي، واستطاع محمد نور الدين أن يفوز كما استطاع محمد توفيق أن يسترد تأمينه وتضمين النجاح ليحيى الفضلي.

ودخل محمد نور الدين أول وزارة سودانية وطنية برئاسة السيد إسماعيل الأزهري وعين وزيراً للأشغال. في تلك الأثناء اختلفت الأفكار السياسية والأحزاب كلها اتجهت نحو الاستقلال وأصبحت فكرة الوحدة أو الاتحاد مع مصر غير محبوبة في البرامج السياسية ولكن محمد نور الدين وعلي عبد الرحمن وإبراهيم حسن المحلاوي رأوا أن تكون هنالك صلة مع مصر ولا تقطع هذه الصلة، لأن مكانة مصر في الوجود السوداني غير منكورة، وبعد الاستقلال انضمت الاتجاهات وأسقطت وزارة السيد إسماعيل الأزهري، وتكوّن حزب الشعب الديمقراطي برئاسة السيد علي عبد الرحمن وانتخب محمد نور الدين وكيلاً للحزب وشغل بعض المناصب الوزارية في الوزارة الائتلافية التي ترأسها السيد عبد الله خليل بعد سقوط وزارة السيد إسماعيل الأزهري، وبعد فوز الخريجين في انتخابات عام ١٩٥٧.

استولت الحكومة العسكرية على الحكم في ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨ ومحمد نور الدين لا معاش له ولا مورد للرزق، وهجمت عليه أمراض الشيخوخة وقد ناصب الحكومة العسكرية العداء، فلما لزم سرير المستشفى طُولب بدفع تأمين وطُرد من المستشفى.

ولما عاد إلى الخرطوم ولزم سرير المرض بالخرطوم كان أبناؤه يقومون بتمريضه، واشتدت به العلل وأصيب بالشلل ونقله أبناؤه إلى مسكنه في الأحياء الشعبية بالخرطوم بحري وتوفي في ديسمبر عام ١٩٦٤ بعد نجاح ثورة أكتوبر ١٩٦٤.

كان محمد نور الدين رجلاً أميناً وفياً مخلصاً وطنياً حافظ على أموال الحزب ولم يستغلها لغرض من أغراض حياته وكان سودانياً مخلصاً. يقف مع الكفاح والمناضلين، يذهب إلى السجون ويزورهم ويقدم لهم ولأسرهم المعونة والمال ويلجأ إلى المحامين ليدافعوا عن قضاياهم.. هذا وجه مشرق في الحياة السودانية يمثل التضحية والأمانة والصمود.

محمود أبو بكر عليم [١٨٨٧ ـ ١٩٣٥]

الثقافة العربية متأصلة في السودان، والخلاوى ومجالس العلم والعلماء هي التي تحفظ العلم والدين في المجالس والحلقات. فلما حل الحكم الثنائي ألفى السودان خلاء خواء من المتعلمين والمشورين، فكان لا بد أن يستعين بالذين يقرأون ويكتبون ويعرفون الحساب، فبينهم كتبة ومحاسبون. والتفت إلى حلقات العلم فاستوعب منهم من حفظ القرآن وحفظ الحديث، فألحق بعضهم كتبة في المحاكم الشرعية، وأتاح الفرصة لغيرهم أن ينالوا تعليماً منتظماً في كلية غردون ليتخرجوا معلمين للغة العربية أو قضاة شرعيين، واستعان بأعلام من المدرسين كالشيخ فؤاد الخطيب، الذي أصبح فيما بعد وزيراً في الأردن ونال رتبة الباشاوية، والشيخ أحمد ماضي أبي العزائم، والشيخ محمد بله الخضري صاحب المؤلفات القيمة في تاريخ الإسلام.

وكان من حظ محمد أبو بكر عليم أن تلقى تعليماً منظماً، وعمل في مكاتب الحكومة، وأسرته تنحدر من أصول مصرية، وتوفر محمد أبو بكر عليم على الدراسة والبحث والتحصيل، وراجع شوامخ الأدب العربي، واكتنز الروائع، وعمد على تفسيرها وشرحها ومقارنتها، ولكن ذوقه اختلف عن ذوق اللغوي الباحث، لأنه كان أديباً مطبوعاً، وحافظاً، ونشبت بينه وبين الشيخ الطيب السراج مساجلات في أصول الشعر العربي، والسراج عمد على اتخاذ بيت الشعر كشاهد لغوي، ولكن محمد أبو بكر عليم نظر لبيت الشعر لجماله وروعته، واختلفت السبل بين السراج وبين عليم، ولكنها لم تصل للقطيعة، فالذين اهتموا بالأدب العربي حينذاك هم: الشيخ محمد البشير الفضل، والشيخ المصري، والشيخ عبد الله محمد عمر البنا، ووقف مع عليم

حسين منصور، الذي ألف في تلك الفترة كتابه «بشار بن برد بين الجد والمجون»، واتجه محمد أبو بكر عليم للعصر الأندلسي ودراسة ابن زيدون، فأخرج كتابه «الدر المكنون في شرح قصيدة ابن زيدون».

لم يكتف عليم بذلك بل كان ينشر بعض التصحيحات في جريدة الأهرام، ويكتب في حضارة السودان، ولكن أسلوبه كان مفخماً بالألفاظ الغريبة والفواصل والوقفات، إذ تشبه بأسلوب كتّاب العربية في القرن الرابع الهجري، التف حوله حواريون يقرأون عليه كتب الأدب كالبيان والتبيين، وجمهرة أشعار العرب، والعقد الفريد، وأدب الكاتب واللآلىء لابن علي القالي، ولم يعن في تدريسه هذه الكتب بالنحو والصرف والبلاغة، لأنه أدرك أن هذه الفنون المستحدثة في اللغة العربية لا تنمي ملكة الأديب بل تقف به عند القشور.

عُرف محمد أبو بكر عليم بأنه شاعر ومحقق، إذ حقق بعض رسائل أبي العلاء المعري، ونقد كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين، ولم يجد في الشعراء المحدثين غير شاعرين هما محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، وأنكر الشعر على كثير من الشعراء السودانيين المعاصرين لأنهم لم يلتزموا بسمت الشعر العربي، ونظر في كتاب زكي مبارك ومدامع العشاق، ونقد كثيراً من مختاراته، ولكنه أعجب بكتابين هما عصر المأمون للدكتور أحمد فريد رفاعي، والنثر الفني للدكتور زكي مبارك، كان كاتبه المفضل في الأدب العربي هو أبو حيان التوحيدي؛ وقد نقد الجاحظ لاسترساله واعتراضه، وشك في رسائل ابن المقفع، وأيقن أنها نحلت له، فهو لم يكتبها. وتميز محمد أبو بكر عليم بالوطنية والجهاد، لذلك كان يطالع الصحف المصرية ويعجب بأسلوبي محمد عبد القادر حمزة ومحمد توفيق دياب، وقد استهجن أسلوب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة لما تخلله من عجمة وغموض.

وشعر محمود أبو بكر عليم نبع من الوطنية والحرية، وقد أحكم صوره، ونقح خيالاته، وراجع رويه وأوزانه وحذف من قصائده كل ما كان يراه حشواً.

إن إعجابه وافتتانه باللغة العربية حدا به أن يكون عالماً في فقهها ومتنها، فهو يتلقى المترادفات ويحذف منها ما يراه غير مناسب ومتفق، وكاتب الأستاذ وحيد الأيوبي، ومحمد النشاشيبي والإبراهيمي في الجزائر والألوسي في بغداد، ونقد معجم

فيشر، المستشرق الألماني، وأثار حملة على المستشرق الفرنسي ماسينيون لمقارنته الألفاظ العربية باللغات السامية، وأبان الفروق في ذلك وأوضح أن اللغة الصوفية ليست غريبة عن متن اللغة العربية، بل هي مستمدة من المعجم العربي، فكلمة التوهم، والجذب والوصول، والوجد والبصر والبصيرة لها مدلولاتها ومعانيها المحددة في اللغة العربية، فليست هنالك لغة خاصة منفصلة عن اللغة الأم في اللغة العربية، فتفسير الكلمات من غير مدلولها الواقعي هو المشكلة في فهم اللغة العربية، وميزة اللغة العربية أنها لغة محددة، وإن وجدت فيها المترادفات، فالسيف له أكثر من خمسين اسماً، كل اسم يختلف مع المدلول الذي وصف به، والأسد له مائة اسم، ليس هو الأسد الذي نعرفه، فالحضارة العربية لم تستفد من لغة البداوة، ولم تعرف الفرق بين الأسماء، وله نظرية غريبة في أن الأسماء هي في الأصل مستندة من الأفعال، فالاسم هو أصل الكلمة في اللغة العربية.

أجل لم يكتب عن محمد أبو بكر عليم إلا الأستاذ حسين محمد منصور كتابة موجزة في كتابه «الشاطىء الصخري»، وقد أشار إليه الأستاذ محمد عبد الرحيم في كتابه «نفثات اليراع».

إن المقالات التي كتبها محمد أبو بكر عليم في الرائد والمحاضرات التي ألقاها لجديرة بالنشر، كما أن علاقاته بشباب الأدب في كلية غردون والمعهد العلمي وتوجيهه لهم لن تنسى، وكفاه فخراً أن التجاني يوسف بشير كان يستعين به ويعرض عليه شعره، وكذلك محمد عبد الوهاب القاضي، واعتراف حسين منصور بعلمه وفضله لدلالة الواضحة على قيمة هذا الرجل الفذ الذي حفظ للغة العربية مكانتها في السودان.

رحم الله أبا بكر محمد عليم بقدر ما قدم لهذه البلاد من عطاء وثراء.

محمود الفضلي [١٩١٠]

عمق حساس، وروح شفاف، وفن متراف، معنى جب الصورة، وصورة غابت في المعاني. تعبدت عرائس الشعر في ضميره، واستقرت في سكونه. خُلق ليكون شاعراً، وليس غير، ولكن الحياة القاسية حكمت عليه بالنفي في المكان والزمان، ذلكم هو محمود الفضلي.

محمود الشاعر، محمود الأنيس، محمود المحدث، محمود الفنان طوته أحداث الحياة، فأصبح رواية لم تجد مخرجاً، لذلك لم تحظ بالنظارة والمشاهدين. إخوان لم يطغ أحد منهما على نصيب الآخر من النبوغ والذكاء، فيحيى النابغة انفرد بالصبر واحتمال المعاناة، ومحمود الحالم النابغة طار بجناح الشعر فتحدى الكفاح والنضال.

تعلم محمود بكلية غردون، وتخرج في زمن الأزمات، فطلبة الكلية قد أضربوا، ومرتباتهم قد أبخسها المستعمر، وخرج محمود ليعمل في سكة الحديد بعطبرة. وعطبرة في الثلاثينات، كانت معقل الفكر وواحة الفن، انصبت فيها أوراق أم درمان، وأمطرت فيها سحائب الوعي مطر سوء على المستعمر، ومطر رحمة على البلاد، وهل أحدثكم عن صُحب محمود في عطبرة؟ إنهم لنفر من الرواد في حياتنا الفكرية: مبارك زروق، محمد عثمان محجوب، صالح مصطفى الطاهر، مصطفى محمد حسن أبو شرف، حسن طه، خليفة عباس، مكي السيد علي وغيرهم وغيرهم.

لم يمكث محمود إلا سنوات قلائل، فرجع إلى أم درمان ليعمل مدرساً في المدرسة الأهلية الوسطى، التي كانت قلعة للفكر، وكعبة للكفاح، مدرسوها قادة النهضة، وحداة الحرية والاستقلال، كلهم مميزون، أدباء وشعراء وكتّاب، ووطنيون

ساسة، جاد بهم الزمان ليكونوا تكفيراً لأحداث الزمان، مسؤولون مثقفون، خطوا المناهج بأنفسهم، وغرسوا في نفوسهم الحرية، ونقلوها إلى أرواح تلاميذهم: حسن عمر أبو شمة يفرح بالرائع الجميل في الأدب، فيلقنه في الفصول، حسن حامد بدري يبث همسات الشعر الرائع في باحات الفصول، عفان يحكي عن غاندي ونهرو، ومحمود الفضلي يتحدث عن الثورات، وأحمد عمر الشيخ ينشد الشعر إلهاماً وفناً، وعلي الصلحي يعلمهم الذوق والجمال، وكرف الحرية والانطلاق، وآخرون أدام الله الحياة على من بقي منهم، وأداة الله حياة من توفي منهم علينا.

اختار محمود أن يدرس اللغة الإنكليزية، ويشارك في تدريس الأدب العربي والتاريخ. ويجتمع مدرسو الأهلية بعد المدرسة في المدرسة، وفي نادي الخريجين بأم درمان، يقرأون على بعضهم قصائدهم ويستعرضون الجديد في الأدب. ومحمود قد نشأ في بيئة ثقافية فريدة، فوالده كان يحب العلم والأدب ويقتني الكتب، ومجالس الأدباء والظرفاء، وأخوه يحيى أديب موهوب، كذلك زوج أخته محمد علي شوقي، أما الصحب الذين يلتقون في منازل أهله وهم: محمد صالح الشنقيطي، وإبراهيم بدري، صادق بدري، فدهاقنة وفرسان.

كان محمود ينظم الشعر فيرويه عنه أصدقاؤه، وشعره هو تماثيل منحوتة في دقة، يخاف عليها كما تخاف الأم على وحيدها، ألفاظ منتقاة بها ظلال التقطها كصائد اللؤلؤ من جوف البحار، خيالات أبكار غيد رود، ولآلىء مكنونة، أعراباً أتراباً، ومعاني يغوص لها الغواص ولا يقدر عليها إلا كل بنّاء وغواص.

وولد مؤتمر الخريجين، فلقي الشباب السوداني الصدر الرؤوم، والفكر الوقاد، فلبوا النداء. وكان محمود وصحبه من الرعيل الأول الذي أجاب دعوة الحق، فكان من الحداة، فاشتعلت نفسه حماساً واتقدت بالمراس فأصبح شعره مرتبطاً بالكفاح، ترجماناً لأشجانه وأحزانه. وتكوّن الأشقاء فكان واسطة العقد بين الأوفياء، رفيقاً، رفيقاً، صديقاً. وسافر مع الوفد الأول في عام ١٩٤٦، واشترك في المفاوضات، واستقال وأصبح رئيساً لتحرير جريدة الأشقاء، فكان عف اللسان، قوي البيان، حبيباً، مهيباً بين المعاصرين، رفيقاً بهم قبل أن يكون رفيقاً بأهل حزبه، يحترمون كلمته، ويقدرون لمسته، يختلف معهم فكراً ورأياً، ويلتقي بهم محبة وتعاوناً في سبيل إعلاء كلمة الوطن.

أما مذكراته عن المهدية، فجانب المؤثرات الشخصية يطغى عليها، ولكن التفاصيل والأوصاف، والحواشي، هي التي تساعد المؤرخ ليتبين الحقائق، لأن طبيعة محمود ليست هي طبيعة المؤرخ، ولكنها طبيعة الأديب. فلما أنشئت أول صحيفة سودانية عربية، كان محمود القباني من أوائل المحررين فيها، فقد أوكل إليه تقصي الأخبار المحلية في العاصمة المثلثة. كان يكتب عن الأعراس والمآتم والاحتفالات والتجمعات. وصف كل ذلك في أسلوب صحيح بسيط. لم يلجأ للسجع والمحسنات البديعية مع أنه كان مدمناً على قراءة المؤيد والأهرام والمقطم التي كان أسلوبها محاكاة للأقدمين. إن الدور الذي لعبه محمود القباني هو دور الراصد الاجتماعي. غشي البيوت وعرفها وتعرف على أهلها، ووصفها. واكتشف عشاق القلم فقدمهم وحمل مقالاتهم للصحف، وزكاهم. كم من اسم ظهر كان صاحب الفضل في ظهور محمود القباني! ولعل أول قلم نسائي وجد طريقه في الصحافة السودانية كان يرجع الفضل فيه لمحمود القباني. فقد حمل مقالات فاطمة حبشي، إلى «ملتقى النيلين»، وأثار حواراً خصباً بين المرأة السودانية والرجل السوداني.

في مقالاته تناول الزواج والطلاق وبيت الطاعة وتربية الطفل وتعليم الفتاة واقتصاديات البيت السوداني والحد من البذخ في الأعراس والمآتم.

لم يكن محمود القباني غير محرك لهذه المشكلات لأنه رأى أن يجذب القراء إلى الاهتمام بمطالعة الصحف التي عمل فيها وهي حركة لا تندفع إلا من فكر يقظ.

الآن نعود إلى ما كتبه في كتابه (ماذا في السودان؟) الذي هو محصلة رسائل لصحيفة الأهرام في عام ١٨٩٢. لقد ظهر هذا الكتاب غفلاً من اسم المؤلف خشية أن يصاب بأذى إبان حكم الخليفة عبد الله التعايشي. هذا الكتاب هو صورة للحياة السودانية. قد تكون فيه المبالغة، ويكون فيه النقد المر، إلا أنه صورة حية للحياة آنذاك. وأسلوب هذا الكتاب فصيح ومبين على نقيض كتاب يوسف ميخائيل عن المهدية في الأبيض.

قال محمود القباني والعهدة عليه أنه راسل الصحف العربية في الاستانة، وكتب عن سقوط الخرطوم. كما أنه نشر قصائد الشيخ الأمين الضرير في تلك الصحف. وقد اطلعنا على قصاصات من «الجوائب» لصاحبها أحمد فارس الشدياق، وبعض الأعداد

الكاملة لهذه الصحف. كما أن «الجوائب» حوت «رسائل» من الخرطوم من «مكاتبنا في الخرطوم». ولم يحقق أحد في صحة هذا الأمر. فإن صح هذا فإن محمود القباني كان رجلاً واعياً يتابع الأحداث في عصره.

لقد استفاد نعوم شقير كثيراً من المعلومات التي استقاها من محمود القباني. وشهد بذلك الشيخ أحمد عثمان القاضي. إذ إن أغلب ما سجله نعوم شقير عن الحياة الاجتماعية في السودان، يعود إلى محمود القباني. وسليمان كشه قد رجع إلى محمود القباني في كتابه «تاريخ الخرطوم»، بالأخص وصفه لبناء الكنيسة التي شاركت فيها امبراطورة النمسا والمدرسة التي ألحقت بها.

لقد اتصل محمود القباني بجعفر مظهر باشا وبرفاعة رافع الطهطاوي وكتب عنهما. وهذا يعني أمرين: إما أنه سمع عنهما وإما أنه توفي وعمره فوق المائة.

لا شك أن هذه الشخصية المغمورة لعبت دوراً في تاريخ الحياة الاجتماعية في السودان قبل أن يلجأ المتخصصون لهذه الدراسات. لذلك فقد نعده رائداً للتاريخ الاجتماعي في السودان. ففي الفترة التي عاش فيها لم يهتم غير الإنكليز وبعض السوريين بهذا الضرب من التاريخ. وقد استمعوا كثيراً لمحمود القباني وأخذوا عنه. ولأنه لم يكن ذا عمل محدد الوظيفة في المجتمع، لم يكن له وضع يثبته في دفع معارفه وثقافته لتتبلور في أوساط المثقفين الذين كانوا كلهم من الأفندية. وتنبه له بعض المهتمين بالتاريخ بعد الثلاثينات ولكنهم سمعوا منه ولم يدونوا ما سمعوه. لنرجع إلى جريدة السودان، والرائد، والحضارة، وملتقى النيلين لنجمع تراث محمود القباني الذي كني بالحلبي لأن لونه كان أبيض، وكل أبيض في القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين هو حلبي.. لكنه كان سودانياً أصيلاً. وقد رفضت شقيقته التي تزوجت الإمام المهدي أن تتزوج بعد وفاة الإمام المهدي.

إن المغمورين من الرواد قد آن لهم أن يستيقظوا لأنهم أيقظوا... تماماً كما فعل المؤرخ الاجتماعي والصحفي محمود القباني.

محمود أنيس [١٨٩٧ ـ ١٩٥٦]

عندما تهبط ربة الشعر على البشر وتنزل عليهم ضيفة، هنالك من يحتفل بها، ويضعها في مكان علي، وهناك من ينظر إليها غريبة لا تتصل بطينة الآدميين فينفر منها ويصد عنها. وهناك أناس يكرمونها ويوفرون لأهلها الحظ والأمجاد والتجلة والإكبار. وشاعرنا هذا قد ظهر في زمن يقدس فيه الشعر ويرفع أهله مكاناً علياً، إنه شاعر ترجم لعصره وعبر عنه وعالج مشكلاته وضحى في سبيلها. لقد كان هديراً وكان أذاناً ونذيراً وبشيراً. سمع الناس له وأصغوا وسمعوا به فجعلوه في قرة أعينهم لأنه كان جريئاً وكان محارباً مقاتلاً. ذلكم هو محمود أنيس أحد شعراء الوطنية والقومية السودانية.

تخرج محمود أنيس من المدرسة الوسطى والتحق بالبرق والبريد (مصلحة البرق والبريد). في تلك الفترة كانت مستقر الأدباء والشعراء والكتّاب: صالح عبد القادر وعرفات محمد عبد الله وعبد القادر الأمين وعبيد حاج الأمين وصالح بطرس وسعد ميخائيل وغيرهم.

الشعر حينذاك لم يكن ملكاً للشاعر ولكنه ملك للمجتمع. فالشاعر ينظم في وداع الأصدقاء وفي المحافل وفي عيد الهجرة وفي المولد وفي كل المناسبات العامة والخاصة، وإن نظم في أحواله الخاصة، فإنه ينظم في الشكوى، أدنى عاطفة كامنة. ولكن مثل هذا الشعر الخاص لا يذاع إلا بين الأصدقاء والخلصاء لأن ليس له منفذ في المجتمع.. لذلك كنت تجد الشعراء يهتمون بالتشطير ومجاراة الفحول عندما تغيب المناسبة أو ينظمون شعراً في مدح الرسول أو في الحكمة.

عاش محمود أنيس في ذلك الجيل الذي لم يسمح له أن يعالج شؤونه الخاصة. فلما تفجرت ثورة عام ١٩٢٤ كان محمود أنيس من شعرائها البارزين، وكان حينئذ في بورتسودان ففتش منزله وروقب، لكنه لم يقدم للمحاكمة أو الحبس رهن التحقيق. وقام نادي المستخدمين في بورتسودان فلقي محمود أنيس في الجمعية الأدبية متنفساً، حتى قام الانشقاق بين الموظفين، فانقسموا إلى قسمين: موظفين قادمين من داخل السودان، وموظفين من منطقة بورتسودان وسواكن. ولعب الاستعمار دوره في التفرقة، فاشترك محمود أنيس في الصراع، كما اشترك عبد الله حسن كردي. وقامت ملاحم من الهجاء، فظهر محمود أنيس كشاعر هجاء، والكردي رحمه الله من المجودين في فن الهجاء.

ونقل محمود أنيس، وقد تصافى الإخوان بعد ذلك في الثلاثينات. فزار محمود أنيس الثغر وكتب أجمل قصائده في هذه المناسبة واعتذر في هذه القصيدة وذكر الود القديم بينه وبين أهل بورتسودان وسواكن.

وفي فترة الثلاثينات كاد أن يختفي صوت محمود أنيس، حتى قام مؤتمر الخريجين فكان من المتحمسين له فنظم في الكفاح الوطني وفي الحرية، كما أنه ذهب إلى مصر وتقدم ببعض القصائد التي نشرت في الصحف المصرية اليومية، يذكر فيها الكفاح المشترك والعلاقات الأبدية القائمة بين مصر والسودان. ولما تبلورت الحركة السياسية في أحزاب كان محمود أنيس من الأشقاء، واختلفت الحياة السياسية بالسودانيين فوقف بعضهم ضد بعض، فكان محمود أنيس ينشر قصائد في أبيات قليلة بتوقيع (هدير) يعلق فيها على الأحداث اليومية في دنيا السياسة.

إن فترة الخصوبة في شعر محمود أنيس كانت في العشرينات حتى مطلع الثلاثينات، لأن الدوافع الوطنية والقومية هي التي كانت تحركه. أما بعد ذلك فشعره لم يجد الوحي والدافع إلا في بعض قصائده في مناسبات مؤتمر الخريجين، أما قصائده في الأربعينات فكانت خواطر وتعليقات.

شعر محمود أنيس يتميز بقوة السبك وارتباط المعاني بالألفاظ وسهولة الكلمات. كما أنه شعر خطابي، وقد يختار في كثير من الأحيان الأبحر الكاملة الطويلة ولا يلجأ إلى المجزوءات، فهذا يدل على أنه اطلع على دواوين الشعر العربي، وحفظ الكثير من

الشعـر. فروح المتنبي هي المسيطرة على شعـره، وفي كثير من القصـائد الـوطنية تجـد فحولة منقطعة النظير، لا تكلف ولا اعتماد فيها على النـظم. وإذا قارنـت شعـر محمود أنيس بشعر حافظ إبراهيم تجدهمـا يغترفـان من نفس البحر ويهتـمان بالسـبك. وقد لا تـلاحظ في بعض الأحيـان النـثرية في شعـر محمـود أنيس، لكنهـا لا تـنـزل أبـداً إلى الاسفـاف. حتى في تعليقاتـه السياسيـة تلمح روح الشـاعـر، وهـو لا يستخـدم أبـداً المحسنـات البديعيـة ولا الغزل والتشبيب في مطالـع قصـائـده، ولا تجـد عنـده حسن التخلص. بل إنه يقدم على موضوعه في إبانة ووضوح. فقد كان غـزير الاطـلاع على الصحف والمجـلات الأدبية والسـياسية، كما كان يهتم أيضاً بقراءة الأدب الحـديث في مصر والشام والعراق.

في جيل محمود أنيـس شعراء كثيرون توفروا على الظهور في المناسبـات، كالشيـخ المـرضي وحسيب علي حسيب والشيـخ محمد الأمـين القرشي وصـالح بـطرس وحـافظ الأمين وعبد المجيـد وصفي وعبد الله عبـد الرحمن، إلا أننـا نرى روح الفن الخـالص الأصيل قد زينت شعر محمود أنيس قصداً، فهو فنان في هذا المضمار.

معجمـه اللغـوي هـو المعجم العصري، لـذلـك لم يتكلف أبـداً ولم يستعـرض معرفته اللغوية، بل إنه اجتهد أن يكون ابن عصره.

ديوان محمود أنيس غير مجموع، كما أنه ليـس مطبوعـاً، وابنه المهنـدس الزراعي حسن محمـود أنيس يحتفظ بالكثـير من شعره، فجـدير أن نلتفت لهـذا الشاعـر ونـولي ديوانه ما يستحقه. رحم الله محمود أنيـس شاعر الوطنية وهديرها.

الدكتور محمود حمدي [١٩٠٨ ـ ١٩٦٧]

الأطباء في عالم الثقافة أكثر الناس خصوبة فنية وفكرية فلعل اتصالهم بالإنسان روحاً وجسداً، وجههم ذلك للفن والشعر والفكر، فمنهم الفلاسفة ومنهم الشعراء والكتّاب. والسودان لم يكن استثناء في القاعدة، فنجد الدكتور علي أرباب شاعراً والدكتور منصور علي حسيب شاعراً ومترجماً وكاتباً والدكتور عبد الحليم محمد شاعراً وناقداً والدكتور أدهم موسيقياً والدكتور زين العابدين إبراهيم شاعراً وهذا للمثال وليس للحصر.

فشاعرنا الدكتور محمود علي حمدي طبيب وموسيقي وشاعر عزف على الكمان والمندولين والعود. تخرج حمدي من مدرسة الطب في عام ١٩٢٧ وتنقل في كثير من بلدان السودان، وعرفه المثقفون شاعراً عاطفياً، ولم يكن أبداً من شعراء المناسبات أو شعراء المحافل الوطنية، بل إن شعره كحياته وفنه.

تأثر الدكتور حمدي بتيارات الشعر الحديث الغنائي وأعجب بشعراء المهجر، ولكن لم يجارِهم في أفكارهم وموضوعاتهم، فشعره نبع من مدار حياته، فهو يتحدث عن اللقاء والقطيعة والهجران والسلوى والحزن، كما أنه يصف الطبيعة ويسجل أحداث حياته. ولم يكن أبداً متشائماً وما كان عابساً للحياة، مع أن مصاحبته لشعراء البحيرة في الأدب الإنكليزي، واحتفاله بشعر بايرون وأدب أوسكار وايلد قد يصيبه ببعض الملل واليأس من الحياة، إلا أن طبيعة حمْدي كانت فرحة مبتهجة. فهو قد انصرف على امتلاك الحياة كما يريد ولم يجعل الحياة وظروف العيش تمتلكه. اطلاع حمدي على الأدب العربي كما يتضح في شعره كان اطلاع المختار المنتقي، ولم يكن اختيار الدارس

والمتابع. فلا شك أنه قرأ الشعر الإسلامي والشعر العباسي، ولكنه لم يلتفت إلى صياغة الشعر عند الإسلاميين وعند العباسيين ولم يستعرض خياله وصوره من متن الأدب العربي، سواء كان ذاك الشعر حديثاً وقديماً. إن روحه الموسيقية وجهته لاستخدام الأبحر الرنانة والاستعانة بالمجزوءات وتنويع القافية وتوزيع القصيدة إلى مقاطع، وارتباط العاطفة بالفكرة وانسياقها مع البحر، ولكن نلاحظ في بعض الأحيان أنه لا يلتزم بالعروض العربية، وتتلاقى تفعيلات أبحر مع تفعيلات أبحر أخرى، مع أنه لم يمارس الشعر الحر والشعر المطلق. البيئة التي عاش فيها حمدي، سواء في البيت أو في المجتمع، كانت بيئة الأهل والأصدقاء، لذلك كان توازنه العاطفي محفوظاً وقد هرع إليه محبو الشعر وحفظوا شعره، فشعره المنشور في ديوانه المطبوع لا يمثل إلا ربع ما كتبه من الشعر.

في بعض الأحيان نجد قصائد وطنية في شعر حمدي، فالدافع للشعر الوطني لم يكن وحي ميول سياسية أو فكر حزبي أو اتجاه، بل إنه وحي الطبع والأصالة، وقصائد حمدي الوطنية لا تقل في روحها وقوتها عن شعره الوجداني. ففي منتصف الثلاثينات اشتهرت بعض قصائد حمدي ونشرت في بعض المجلات الأدبية المصرية، كما وأن المبارك إبراهيم كتب عنه مقالاً في منتصف عام ١٩٣٧ في مجلة النهضة العربية في مصر، ولفتت هذه المقالة المهتمين بالشعر العربي الحديث. نقف عند حمدي فنسأل هل هناك شعراء سودانيون اتجهوا للشعر العاطفي وتوفروا عليه كما توفر عليه حمدي؟ نجد مرضي محمد خير، كما نجد محمد أحمد محجوب ويوسف مصطفى التني قد أحاطوا أنفسهم في دائرة الشعر العاطفي؛ لم يهتم مرضي محمد خير بتجويد وتنقيح القصيدة العاطفية، حتى إنه كان لا ينظر فيها وينساها. أما حمدي فإنه ينظر في قصيدته العاطفية ويتغنى بها ويحفظها، وإذا ما انتقدت قصيدته ثار ولكنه يرجع بعد ذلك ويعيد النظر فيها. أما المحجوب فكان يجود قصيدته وينقحها حتى تصبح من الحوليات، والتني شاعر متمكن من موسيقاه، فالقصيدة تنبع من نفسه كانبثاق النجوم في قبة السماء.

روح الدكتور حمدي المرحة جعلته يتجه لشعر الفكاهة والهجاء، فهو يعنى بالكاريكاتير في تفصيل الأشياء وإبراز المفارقات. وكثير من هذا الشعر لا ينشر اليوم، والناظر فيه يكشف هذا الفن المتميز الذي سبق به شعراء الكتيبة وما وراء الخور الذين

هم: إمام دوليب والنور إبراهيم ومحمد المهدي المجذوب وكرف وحسين حمدنا الله وصحبتهم الكرام.

وخمريات حمدي تمتاز بالعمق. فهو ليس نواسياً كما أنه ليس خيامياً لكنه شاعر محدث يصف جلسات الأصدقاء والأحباء ومشاركتهم وأحزانهم.

الخمريات فقد بعضها، لأنه كان يكتبها على صناديق السجائر، ولكنه رحمه الله حفظها وغابت عنه، فلو جمعنا هذه الخمريات لعرفنا أن حمدي تفوق على أبناء جيله في ذلك. فميان الشاعر العربيد له خمريات وذكريات في الليالي، ولكن حمدي يفوق ميان في صراحته وعواطفه الجياشة. فميان يعمد في بعض الأحيان للفلسفة يستعين بها، أما حمدي فالقصيدة الخمرية عنده هي لحم ودم.

أسلوب حمدي في الشعر ارتفع عن أسلوب أحمد رامي لأنه احتفل باللفظة ولم يلقها على عواهنها. كما أنه كان حريصاً على الموسيقى فهو أقرب بأسلوب كامل الشناوي، فكلاهما شاعر نفس وحياة. سكت حمدي منذ الأربعينات عن النشر لأن الحياة الاجتماعية في السودان فتكت بها الصراعات السياسية ولم تترك مجالاً للشعر الخالص. بجانب الشعر لحن حمدي بعض الأغاني بعد فترة الحقيبة وعزف هذه الأغاني، ولكنه لم يعرف كعازف، فسمعة أخيه عبد الكريم طغت على سمعته كموسيقي ملحن، وشقيقه عبد الوهاب كان موسيقياً.

نقف أمام التاريخ ونسأل ما الذي بقي من الدكتور حمدي الشاعر؟ بقي لنا أن الدكتور حمدي كان ثائراً في عالم الشعر، تخطى الحدود المرسومة في رقعة الشعر في السودان، وعبّر عن عواطفه في صراحة وإبانة، ولم يكن ذلك الأمر بمعروف أو بمألوف، فهذه الثورة في دنيا الشعر جديرة بأن تضع الدكتور محمود حمدي بين رواد حياتنا الفكرية والفنية. رحم الله الدكتور محمود حمدي الشاعر الفنان.

محمود فرغلي [١٨٩٨ ـ ١٩٥٤]

لم يكن هنالك من يقف معهم بعدما أرادوا المعركة، وهجم عليهم الغزاة، فسجنوا من سجنوا،وأعدموا من أعدموا، وهاجر من أفلت من العذاب. محمود فرغلي أحد أبطال ثورة عام ١٩٢٤، تربص به الاستعمار فكان في مصر وكان معه عرفات والدرديري وتوفيق وبشير. وقُتل السردار وحاول البوليس السياسي في مصر أن يلصق التهمة بالسودانيين حتى إنهم أصروا على أن القاتل هو عرفات.

أما محمود فرغلي فقد عرف أن ضريبة الجهاد أن تدفع ولا يطلب المجاهدون جزاء لأنهم خرجوا لينقذوا الآخرين.. هنالك في القاهرة اشتهر محمود فرغلي، والجوع والتشرد والفقر والبطالة كانت زاده. بعضهم طرق أبواب الوزراء المصريين ليساعدوهم على الحياة. مفارقات، فالذي فتح قلبه هو الأمير عمر طوسون، والنبيل سليمان داود. سعد زغلول قال للمجاهدين: قد دفعتم الضريبة، ومحمد محمود باشا رفض أن تضم جريدة السياسة أي واحد من حملة الأقلام منهم.

تجمع السودانيون، وعرفوا الحقيقة، لا عون لهم إلا أنفسهم في مصر.. رفعوا علم اللواء الأبيض يرفرف فوقهم: حسين سعيد، سيد شحاتة، عبد العزيز عبد الحي، فرج الله محمد، خضر علي الشلالي، أحمد عقيل، إدريس عبد الحي، محمد خميس، سر الختم جبريل، عبد الله النجومي ومعهم الضباط المصريون الذين عملوا في السودان، كان هؤلاء هم السودان. أكدوا أن ثورة عام ١٩٢٤ باقية خالدة، والثوار لا يموتون ولا يجوعون ولا يتشردون. رفضوا أن يلجأوا للتجار السودانيين الذين كانوا يعملون في مصر لأنهم عرفوا أن مصالحهم مع السلطة في السودان..

كونوا الصندوق وقد تم لهم أن يلتحقوا بالجيش المصري لأنهم رفضوا أن يؤدوا القسم للحاكم العام، وقد أدوه لملك مصر. . حافظوا على الشرف العسكري فليحافظوا على من سار معهم مؤيداً. . استطاعوا أن يجدوا لمحمود فرغلي وظيفة في شركة شل كمترجم ولكن وكالة حكومة السودان في القاهرة تعقبته، مع أنه رحل إلى السويس ليشغل هذه الوظيفة. . وعاد إلى القاهرة فعمل في جريدة الأهرام في قسم الأخبار مترجماً. لم ينس محمود فرغلي أنه مطارد في رزقه، محارب في حياته فبدأ ينشر مذكراته في صحف مغمورة كان يصدرها الحزب الوطني ونشرت هذه المذكرات تحت توقيع يد ثائر والكتاب اسمه «حوادث ٢٤».

أبان محمود فرغلي أن البريطانيين عرفوا بوادر اللواء الأبيض وروعوا أن تكون في السودان حركة تطالب بالحقوق الوطنية. . ودسوا جواسيسهم بين أفراد هذه الحركة، وبعض الجواسيس كانوا معروفين، وبعضهم قد وصلوا إلى الصفوف الأمامية في اللواء الأبيض وقد أوعز قلم المخابرات لبعض التجار أن يتبرعوا لحركة اللواء الأبيض.

أما قتل السردار فقد كان مدبراً. كان حاكماً ضعيفاً وكان لا يميل للضباط المصريين، فقد أرسل أحد السودانيين رسالة قبل مقتل السردار بأيام إلى المرحوم حماد توفيق يقول فيها إن البريطانيين يدبرون مكيدة لإبعاد المصريين عن السودان.

لم يفصِّل محمود فرغلي كيف اغتيل السردار، فقد شده لمقتله، وتعجب كيف توصل البوليس السياسي المصري إلى عرفات وزج كل السودانيين في السجن من أجل التحقيق، وبعد أن أعدم ابنا عنايت ورقى عبد الفتاح عنايت وخرج من السجن كهلاً مثقلاً بالأمراض، ذكر أن الذي اغتال السردار لم يكن مصرياً ولم يكن سودانياً.

بقي فرغلي في القاهرة، وقامت في مصر جمعيات سودانية تحت تصديق وزارة الداخلية المصرية، ولكن كان يشترط أن تكون معبرة عن أبناء الأقاليم الشمالية، حتى قام النادي السوداني في النصف الأول من الثلاثينات، فجمع هذا النادي شمل السودانيين وقام بإحياء ذكرى أبطال عام ١٩٢٤ وازدانت جدران حجراته بصور الدكتور أحمد فؤاد الطبيب المصري الذي كتب (مصر والسودان أمام العلم والعالم). وبدأ الضباط السودانيون يسردون في أحاديثهم أسرار عام ١٩٢٤. . وكان النادي السوداني أول من كرم هؤلاء الأبطال.

محمود فرغلي وفرحات ومحمد طاهر الحسيني وحسين شريف وبايزيد وأحمد فوزي وأحمد مدثر وتوفيق البكري وبشير عبد الرحمن والدرديري أحمد إسماعيل، كهانوا هم الذين يذكُرون الشبان السودانيين بجلال الكفاح وعظمة ثورة عام ١٩٢٤.

لا يهمنا محمود فرغلي كمترجم صحفي ولكن يهمنا أنه نقل بذور ثورة عام ١٩٢٤ في مدونات وكشف أسرارها ولكنه لم يتعرض لكشف العناصر التي خانت الثورة، فالأوراق التي ظهرت في المحاكمات قد كشفت بعضها ولكن ما زال البعض مجهولاً.

فرغلي مكانه مع علي عبد اللطيف والماظ وعبيد جماع الأمين، وكتابه هذا هو خير مقدمة لثورة عام ١٩٢٤.

محمود محمد طه [١٩١٦ ـ ١٩٨٥]

يرجع نسب محمود طه إلى الشيخ محمد الهميم الصوفي السوداني الشهير والعالم الفقيه الذي أبقى على حباله سبع نساء، وجمع على زواج الأختين.. إذ تزوج بنات أبي نزوة في رفاعة، وجمع بين بنات الشيخ بان النقا الضرير كلثوم وخادم الله. فأنكر عليه ذلك قاضي الشرع المعروف بلقب دشين، وأراد فسخ زواجه، وكان الشيخ محمد الهميم واصلاً. فالأختان اللتان تزوجهما لهما قصة كشفها وجدانه فهن لسن شقيقات، والظاهر هو ما تحكم به الشريعة، والباطن ما يعرفه المتصوفة. والوجدان الغيبي قد يورث ولكن ليست هنالك قواعد يستند عليها العلم، ويؤتي الله الحكمة من يشاء، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي شيئاً عظيماً.

نشأ محمود محمد طه ولم يرتكب فاحشة في حياته وعاهد الله أن يلتزم بالخلق الإسلامي. ودرس في كلية غردون وتخصص في الهندسة وخرج للحياة في الثلاثينات فالتحق بسكة الحديد وعمل بعطبرة وكان قارئاً نهماً في اللغتين، العربية والإنكليزية، ودرس مذاهب الفلسفة وكل أنواع المنطق، حتى المنطق الوصفي والمنطق الجدلي وله دراسات عن مدرسة الجدليين منذ الفيلسوف الألماني هيجل حتى ما كتبه ماركس وتفرع منه، ما كتبه منظرو الماركسية، وله دراسات عن المنطق الرياضي واعتراضات على وايتهد وراسل كما له اعتراضات على مدرسة هيجل.

قضى حضانته الفكرية وهو يعمل في عطبرة ثم علق على القرآن غضاً فيما كتبه المفسرون بعد ذلك. وفد إلى الخرطوم بعدما استقال من الحكومة وكون الحزب الجمهوري فلم ينضم لهذا الحزب أكثر من عشرة هم: الشاعر الأستاذ محمد المهدي

المجذوب والشاعر الكاتب الأستاذ منصور عبد الحميد والمرحوم الأستاذ ذو النون بشري والمرحوم السيد أمين التني، وقد فصل بعد ذلك، والمرحوم الأستاذ أمين صديق والأستاذ محمد فضل الله محمد والأستاذ الشاعر الكاتب منير صالح عبد القادر والأستاذ المعلم عبد القادر المرضي والأستاذ جعفر السوري رحمه الله وغيرهم. بدأ الحزب سياسياً واعترض على أفكار حزب الأمة وأفكار حزب الأشقاء والأحزاب الأخرى. وكان الحزب زاهداً في تجنيد المواطنين والتجار، لأن هؤلاء لهم مصلحة في السلطة، من ثم عمد إلى أسلوب المحاضرة في الشوارع والمقاهي وأماكن اجتماع الناس، كما أنه كان يصدر منشورات يوقعها الأستاذ محمود طه باسمه، وكان ذلك في أخريات عام ١٩٤٥.

أزعج هذا الحزب السلطات فحاولت أن تدس عليه من يبلغ عن اجتماعاته وقراراته فلم تنجح، لأن الحزب كان لا يقبل مشتركين ولا يسجل أعضاء، بل يقوم بالدعوة والتبشير بأفكاره. وفي عام ١٩٤٦ دخل شرطي في يوم من أيام الجمع على محمود وأخبره أن قومندان البوليس البريطاني يطلبه، فرفض محمود لأنه كان ذاهباً إلى صلاة الجمعة وأبلغ الشرطي أنه سيقابل القومندان في يوم السبت.

وفي يوم السبت، ذلك اليوم الذي حدده محمود ذهب لمقابلة القومندان فأبرز له القومندان منشوراً بإمضاء محمود، وكان زملاء محمود الشاعر المجذوب ومنصور عبد الحميد ومحمد فضل الله محمد وغيرهم وقد ذهبوا يراقبون المدخل، وناقش القومندان الأستاذ في محتوى المنشور، واشتد النقاش فوضع له مادة كراهية الحكومة وقدمه للقاضي البريطاني الذي لم يطلب شهوداً ولا أدلة لأن تلك المادة التي عرفته بـ ١٠٥ تخول له ذلك، لأنها تقع في قانون الإجراءات والأحكام العرفية. طلب القاضي البريطاني من الأستاذ محمود أن يتعهد ألا يفارق بيته بأم درمان، وكان البيت بقرب دار الرياضة، لمدة سَنتين ولا يعمل بالسياسة، أو تكون العقوبة سنتين سجناً، وحوكم محمود في الحال، أما زملاؤه فقد انتظروا حتى الساعة الواحدة، وأخيراً أخبرهم الشرطي أن الأستاذ محمود حوكم وأرسل إلى سجن كوبر. كان السجين السياسي يعامل معاملة المجرمين، فيرتدي ملابسهم ويعمل في حديقة السجن أو في صناعة النسيج أو يُرسل ليعمل في بيوت كبار الموظفين كخادم، فثار محمود على هذه المعاملة القاسية وأضرب. وكان في السجن السيد الرئيس إسماعيل الأزهري وبعض

صحبه. وارتفع صوت محمود وكتبت الصحف عنه، وذهب زملاؤه إلى السكرتير القضائي الذي أخبرهم أن يستعينوا بمحام فاستعانوا بالمرحوم الأستاذ محمد أحمد محجوب، فلما ذهبوا مع المحامي إلى السجن كانت سلطات السجن قد وضعت محموداً في حجرة خاصة بها سرير ومنضدة ومقعد وزهرية بها ورد، فأعلن محمود الحقيقة وأبان الخدعة.

خرج محمود بعد عامين فاستقبله زملاؤه بالفرحة والترحاب، ولكنه أصبح رجلاً آخر، أطلق لحيته وأرسل شعر رأسه وقد صفت نفسه، وأوضح أن الحزب الجمهوري حزب له رسالة، وهي رسالة الإسلام والحق، وأن محموداً قد كلف بهذه الرسالة، وليس هو رسولاً. فرسالة الرسول هي علاقة بين الله والرسول ليهدي البشر، ولكن رسالة محمود هي علاقة العبد بالعبد، وطلب منهم أن يقسموا ولا يشركوا بالله وأن يؤمنوا به وأن يهتدوا بالإسلام ولا يكذبوا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يشربوا الخمر ولا يرتكبوا فاحشة محبة على ذلك.

علماء سيكولوجية الخوارق يعرفون هذا النمط من البشر، فجان دارك كانت تسمع الهواتف، ورابعة العدوية والقديس أوغسطين والشيخ الجنيد وغيرهم.

جاء الصحفيون يسألون محموداً ويستجوبونه، وكان من بينهم الأستاذ إسماعيل العتباني والأستاذ أحمد مختار ولكنهم رأوا رجلاً غريباً.

قبل محمود أن يذهب إلى بلدته رفاعة ليلتقي بأسرته، وكان متزوجاً من ابنة خاله المرحوم المربي الأستاذ لطفي عبد الله وأقنعه أصدقاؤه أن يسافر لأنه كان يردد أن صلته بأهله قد انقطعت وليست له صلة إلا مع الله. وهنالك في رفاعة استقبل استقبال الأبطال ولكنه حجب نفسه عن الدنيا لعامين وحفظ القرآن. وبعد عامين خرج للناس وقرأ الصحف ورجع إلى الخرطوم فافتتح مكتباً للهندسة في عمارة ابن عوف وأنشأ صحيفة الجمهورية التي أشرف عليها المرحوم الكاتب الأستاذ جعفر السوري. وفي تلك الأثناء أثار المستعمرون قانون الخفاض الفرعوني، وطلبوا من الجار أن يبلغ جاره إذا ما أجرى خفاض فرعوني لأي من البنات، كما وضعت مواد متشددة للمحاكمة. وشاء الحظ أن تسجن امرأة في رفاعة لأنها أجرت لبنتها خفاضاً فرعونياً. فذهب محمود إلى جامع رفاعة وخطب في الناس بعد صلاة الجمعة فاقتحموا

السجن وأخرجوا المرأة، وكان قد حكم عليها المستر هاكسورث مفتش المركز بستة أشهر. وألقي القبض على محمود وسجن سنتين بسجن واد مدني، فواصل كفاحه، وحاولت السلطات الاستعمارية أن تطلق سراحه ولكنه رفض حتى أتم المدة.

يختلف الناس في فكر محمود محمد طه لأنه أسقط عن نفسه الصلاة ولكنه نادى حواريه وأتباعه بإقامة كل قواعد الإسلام، فهو يجتهد في تفسير القرآن ويرى الآيات المكية هي الأساس للشرع وأن النبي ﷺ لم يتمكن في مكة من تعليم المسلمين لأسس هذه الآيات، كما أن محموداً يجتهد في الأحكام ويناقش أصولها ويرى أن الأحكام خاضعة للزمان والمكان، عدا قواعد الإسلام، وأن الدين الإسلامي متطور، وموضع الخلاف بين محمود والإخوان المسلمين، هو يرى أن الإخوان المسلمين يلتزمون بأصول الفقه كما أقامه الفقهاء وينادون بالدولة الإسلامية. وهو يعتقد أن تطهير النفس وصونها هو الأساس للمجتمع الصالح السعيد، أما القوالب والظواهر والنظم في الدولة إذا لم تأت تلقائياً من الإيمان ومن محاسبة الفرد لنفسه وتطهيرها فإنها لا تجدي في نشر الدين الإسلامي. فالدين الإسلامي هو سعادة ورحمة للفرد في حياته الفردية فمتى ما كان الفرد مدركاً واعياً ومؤمناً يكون المجتمع سعيداً وفاضلاً. ويختلف محمود مع كل الأحزاب لأن الناس يسعون للأحزاب من أجل مصالحهم وليس من أجل التقدم والسعادة.

اعتاد محمود أن يخرج في كل مناسبة كتاباً يبين فيه رأيه في أحداث الساعة. وقد التف حوله شبان وفتيات، فهو يرى أن الزواج يجب أن يكون بواحدة ويرفض تعدد الزوجات.

ترى في شوارع الخرطوم فتيات وشباناً يجادلهم الناس ويتقبلون آراءهم في رحابة صدر وهم يعرضون كتب محمود محمد طه.. وأخيراً أعدمه جعفر محمد نميري متهماً إياه بالردة عن الإسلام.

مدثر البوشي [١٩٠٢ ـ ١٩٨٣]

واد مدني الساحرة الطاهرة، ملتقى الذاكرين، ومعبر الأدباء والواصلين، مدينة ساحرة، نارها القرآن وخطط مقامها الدين، فمنذ أن ألقى فيها واد مدني السني عصا تسياره عرفها الناس، وإن كان السائح المؤرخ جيوفاني قد زارها في القرن السابع عشر للميلاد وكتب عنها، إلا أن سنار قد طغت عليها، وإن كانت سنار استمدت من أولياء الجزيرة العون والهداية وبالأخص السادة العركيين.

والتاريخ يحدثنا أن المغاربة هم الذين عمروا واد مدني، والكلمة ليست ود ولكنها واد في لهجة أهل المغرب، وقد تكون ولد، فإن كان أهل المشرق يكنون الناس بأبي، فأهل المغرب يقولون ولد وواد، وشاعرنا الذي نتحدث عنه اليوم، ليس مجهولاً في تاريخنا الفكري، ولكن الأحداث تمر وينسى الناس، ويأتي التاريخ فيقيم الناس ويبرزهم، إنه رجل صبوح الوجه، قليل الكلام، مشرق النفس، ساكن الروح، موصول القلب مع ربه، عالم بالعلوم الكونية والعلوم الدينية، انقطع عن المجتمع منذ أن ترك الوزارة، ألا وهو شيخنا مدثر البوشي.

إن مدثر البوشي هو سليل بيت من بيوت العلم والتقوى، أسرته معروفة، فيها السراة والتجار، وفيها العلماء والأعيان، درس مدثر البوشي بمدرسة واد مدني الوسطى، والتحق بكلية غردون في قسم القضاء الشرعي، وكان من طليعة المجاهدين، اشترك في اللواء الأبيض وجاهر بكراهيته للاستعمار، وذاعت قصائده واعتقل، وواصل مسيرته في الكفاح والجهاد والشعر وتنقل في أرجاء السودان، يُعرف بالعدل والصلاح والفقه، وكانت كل البلاد التي يعمل فيها تأسف إذا ما نُقل منها،

وقد اشتهر قبل الاستقلال بقصائده الموسمية في المولد النبوي وفي الهجرة، وفي الأعياد الإسلامية، فقصائده حوليات يذكر فيها عظمة الإسلام، وعظمة التاريخ العربي، ويستنهض الهمم، ويدعو الناس للحرية، وعند ظهور مؤتمر الخريجين كان مدثر البوشي من أساطينه ودعاته، شارك في أيام التعليم ومهرجانات المؤتمر. وقد توفر مدثر البوشي على دراسة القانون الوضعي بجانب تخصصه في الشريعة الإسلامية، فكثير من المذكرات القانونية التي رفعت في المشاكل القائمة بين أبطال الكفاح الوطني وحكومة المستعمر أعدها مدثر البوشي، ودخل مدثر البوشي في أول انتخابات في تاريخ السودان السياسي وفاز عضواً في مجلس النواب، واختير أول وزير للعدل، وقد كان في أول وزارة سودانية ثلاثة قضاة شرعيون هم: المرحوم علي عبد الرحمن والمرحوم محمد أحمد المرضي ومدثر البوشي، وواصل الاثنان الأولان العمل في السياسة، ولكن مدثر البوشي اختار الابتعاد عن العمل السياسي، ومنذ خروجه من الوزارة استقر بمنزله بواد مدني يتعبد ويدرس، ما عدا أسفاره إلى المغرب، وكرمه ملك المغرب. شعر مدثر البوشي هو خير مثال للشعر الوظيفي، فقد توفر على إحياء الأمجاد، ولم يُنشر له شعره العاطفي أو في الحماسة أو غير ذلك من الأغراض.

وبجانب البوشي الشاعر القاضي كان هنالك القرشي الشاعر القاضي، إذا نظرنا إلى شعر البوشي نجده شعراً مصفى مخدوماً سهر عليه صاحبه، ونظر فيه وحذف وأضاف، ولم يرسله عفو الخاطر ليقال إنه شاعر، خطط البوشي الهدف في قصيدته، ورمى أن تكون قصيدته جميلة في سماعها، وجميلة في قراءتها، ولم نسمعه يلقي شعره، ولكننا قرأنا شعره وسمعنا أنه يلقيه وينشده، فهو شعر عربي اتباعي، لم يقصد الشاعر البوشي أبداً أن يخرج عن دائرة الشعر العربي القديم، وإن كان أثر البارودي وإسماعيل صبري بارزاً. الأول في البناء الجديد للقصيدة العربية، والثاني في العناية بالسبك وسهولة المعنى، ولكن لا شك أن البوشي درس الشعر العربي القديم، كما أنه وقف كثيراً عند البوصيري والبرعي وشعراء مدح الرسول والشريف الرضي، ولكنه لم اخذ عنهم لغتهم وخيالاتهم، كما أنه لم يستعن بشعر المتصوفة كالحلاج وابن عربي، ولكن لا ترى أثراً لشعر المتصوفة في شعره فليس في خيالاته ورؤاه صفحات، وليس هنالك استغلاق، بل إنه واضح وضوح الشريعة التي تهتم بالظاهر، فإن قال بعضهم إنّ الفلسفة طب الأصحاء، والشريعة طب المرضاء، فإنه كان طبيباً في شعره، وإنك

لتعجب للقصيد الذي ينقحه البوشي وتسأل نفسك: لماذا لم ينظم البوشي في الوصف وفي الغزل وفي الطبيعة، لأن كل هذه الأدوات متوفرة عنده، فقصيدته يمكنك أن ترى فيها القدرة في نظم الغزل والوصف والطبيعة، ولكن رجال الدين قد نظموا في الغزل وفي الشكوى وفي الوصف، إلا أن البوشي كان صادقاً مع نفسه وربه لم يتخط بالشعر غير الدعوة للجهاد.

انقطعت أخبار البوشي عن المجتمع، إلا أنهم يتصيدون أخباره، فقد نظم أخيراً شعراً في الحكمة، وفي الرثاء، وقد اطلعنا على بعض قصائده الأخيرة فهو لم يعمد للوعظ، ولكنه أرسل نفسه يستلهم العون من الله، ولن تجد في هذا الشعر الأخير، أي أثر للغموض، ولا للتسطح، بل إنه شعر إنساني فيه وضوح وظهور، يرتفع عن شعر أبي العتاهية، وعن شعر ابن نباتة، وأبي الفتح البسني، ويتصل بالعصر الذي يعيش فيه.

فلننظر في لغة البوشي، نجد أن البوشي عباسي اللغة، أندلسي الموسيقى، ابتعد عن التأثر بالشعر المصري والشعر الشامي في العصر العباسي الثاني واقترب من شعراء نهضة الشعر العربي الحديث، ولكنه لم يجارهم، وإذا قارنت لغته الشعرية بلغة الشاعر المصري أحمد محرم تجد أنهما يسيران في طريق واحد، ولكن أحمد محرم نظم في كل الأغراض العصرية، والبوشي توفر على شعر الجهاد والتذكير.

فلندرس بناء القصيدة عند البوشي، نجد أن البوشي تملك ناصية العروض، وعرف اختيار البحر للغرض، فإنه استطاع أن ينظم في كل الأبحر، ولكنه عني عناية فائقة بالقافية، فلا تجد قلقاً ولا تشتياً في القافية في شعر البوشي، كما أن القافية تتصل بالتفعيلة، ولا يكون هنالك فارق بين ما سبقها وما لحقها، كما أن السبك مصهور في الأبحر التي يستخدمها. تنعدم الفواصل الصوتية ويمتلىء الفراغ، فهو رجل شاعر صناع في ذلك. وقد ينبري أحد نقاد الشعر المحدثين، ويقول إنه شاعر تابع الأقدمين، ولم يضف جديداً، وهذا خطأ، فما من شاعر عربي إلا وأتى بجديد، لذلك يجب على النقاد أن يدرسوا هندسة القصيدة عنده، لا الهدف الذي انطلق منه نظم الشعر، فالمعاصرة والاهتمام بالهندسة الجديدة للبناء الشعري ليست هي الطريق لفهم الشعر، فنحن اليوم نقرأ هوردس وهوميروس وشعراء عرباً أقدمين كالسموأل، وامرئ القيس وأبي العلاء المعري وغيرهم، فهل نطالبهم أن ينظموا كما ينظم عبد الوهاب

البياتي وسان جون بيرس، وابليتس نيبرودا، وأدونيس وبدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور، كلا.. إن الشعر مفتاحه في داخله، فالبوشي شاعر لا تنكر شاعريته، وليس بالشاعر الزائل الذي انتهى دوره، بل هو شاعر ماثل في القصيدة التي كتبها، وشاعر في الهدف الذي سعى له، وشاعر في الرقعة التاريخية التي قدمها لمسار الحرية في بلادنا.. فتقسيم الشعر إلى قديم وجديد فيه ضيق شديد، وظلم غليظ، فنحن ندرك دور هذا الشاعر الرائد في حياتنا، ونود أن ينشر شعره، ويدرس ويقيم لأنه جزء لا ينفصل من حياتنا الفكرية ونهضتنا الثقافية.

مرضي محمد خير [١٩٠٧ ـ ١٩٥٤]

بدأت تيارات التجديد في الفكر السوداني تتلاقى مع رياح النهضة في مصر، والتي تبلورت بعد الثورة المصرية في عام ١٩١٩، وتمازجت مع عقابيل الثورة السودانية في عام ١٩٢٤، فالثورات الشعبية لا تموت، ولا تجهض، وإن حاولت السلطات أن تخمدها، فبعد الثورة المصرية استقام جيل طه حسين، وهيكل، والعقاد، والمازني، ومنصور فهمي، وعلي عبد الرازق، وبعد ثورة ١٩٢٤ نشأ جيل عرفات ومحجوب والعشري ويوسف مصطفى التني ومرضي محمد خير وكل واحد من أبناء جيل عرفات انفرد بخاصية هي شخصيته وفكره، ومن هؤلاء جاء ذاك النسيج الذي أوضح طريق التحديث في الفكر السوداني.

إنه مرضي محمد خير المعروف ببيان، لم يكن شاعراً فقط، وإن كان شعره هو بداية التجديد في الشعر السوداني، نشأ مرضي في أسرة ربها عامل قارىء، ومن أقربائه علي أحمد الأمين الشهير بعلي حاجية، وعلي حاجية هو أول من اتصل بالفكر الماركسي الاشتراكي وتعرف عليه ليكون ترياقاً لصرف المثقفين السودانيين نحو الالتفاف حول حركة اللواء الأبيض، وكان لعلي حاجية صديق يوناني عمل فترة أستاذاً للفلسفة في جامعة أثينا وطورد في بلاده فلجأ إلى السودان. تفتح مرضي على قراءة رأس المال والبيان الاشتراكي، ولما التحق بكلية غردون اختار دراسة الهندسة وتعرف بمحجوب والتني ومعاوية نور، ونظم الشعر على نسق جديد، وأعجب بخليل شيبوب، وكاد أن يستظهر ديوانه «الفجر الأول»، كما أنه درس كل دواوين عبد الرحمن شكري الشاعر المصري الذي انقطع عن الشعر منذ عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٣٣ ولكنه أخرج منذ

شبابه حتى عام ١٩١٩ عدداً من الدواوين، فعندما ظهر شعر مرضي ظهر مختلفاً عن تأثير محجوب والتني وأحمد شوقي والعقاد.

فالشعر عند ميان هو رؤى وظلال ودحض للغة وتسام بالزمن، فالزمن عنده مطلق، وإن كان يستيقظ فيتذكر الأشياء والأحداث، لذلك كان ميان أشبه بتيتوس أمير كروان الذي نفى نفسه من بيته المظلمة ليسوح في العالم، فوجد العالم أكثر غرابة وصعوبة من البيئة التي خرج عنها، هذا التأرجح بين العالم المحسوس والعالم المجهول هو الذي أطلق روح الشعر عند ميان، لذلك تجده في بعض الأحيان يخرج عن الأوزان والبحور في شعره.

لم ير مرضي محمد خير في الحياة أعظم من أن يكون شاعراً ومتأملاً فتراه يدمن القراءة ويطلع على الفلسفة والمذاهب الاقتصادية والأدب والشعر والتاريخ ويدرس كتاب أصل الأنواع لداروين ويتعلق بالنسبية.

لم تكن طبيعة عمله في الحكومة مفرحة، ولم يطب له العيش ولكن بالرغم من ذلك تحدى كل هذه القيود وأبدع وأنتج من غير ألم. وبدأ حياته بمقالاته النقدية في مجلة النهضة يحلل الأدباء ويتحدث عن الأسلوب وعن الجمال والفن، فإذا درسنا مقالاته عند بحر شبابه نقف مأخوذين كيف توصل إلى دراسة تولستوي وشكسبير وهابيني وجوتة وهازليت والجرجاني والسكيت والأمدي، فلا شك أنه اهتدى كذلك بنفسه، لأن هذه لم تكن أسماء معروفة، بل كانت دراسات عميقة يطبقها في معرفة وإدراك، ولم يقتصر على ذلك بل إنه بحث في الشعر العربي القديم بينه وبين المعاصرة، فدراسته لأبي نواس واقتباسات من الشعر العربي، ولا شك أن ذلك قاده لقراءة أمهات التراث العربي كالأغاني والمرتضى والبيان والتبيين، لذلك كان محجوب والتني يعرضان شعرهما عليه.

ففي الفترة التي عاش فيها ميان كان النقد الرومنسي هو السائد، والنقد الرومنسي يتحدى المقاييس، ولكن ميان وطد بين الفرق والقواعد، وقد هداه ذلك اطلاعه على آراء ت.س. اليوت وريتشارد وليفيز، وإن كان هنالك نقد يوجه إليه هو إهماله للغة وتفتيتها وعجنها، لتنقل انطباعاته ومشاعره، من ثمة لم يضعه معاصروه في مكانة محجوب والتني، وإذا سُئل عن رأيه في الشعر وفي معاصريه رد ببيت أبي تمام:

سأجهد حتى أبلغ الشعر شأوه　　وإن كان لي طوعاً ولست بجاهد

لذلك كان ميهان هو شاعر الشاعر، أي أنه ينظم الشعر من أجل الشعر، وقد اخترق الآفاق، فقرأ الشعر الصوفي وافتتن بابن عربي وابن الفارض، بالأخص في قصائده الخمرية ولياليه، فكم ردد في مجالسه ولياليه وهو يقرأ شعر ابن الفارض:

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً　　ومن لم يمت سكراً بها فاته الحزم
على نفسه فليبك من ضاع عمره　　وليس له فيها نصيب ولا سهم

فإذا راجعنا قصيدته التي مطلعها:

حبيبة قلبي ألحاني ونصف ألحاني من قلبي

نرى أنه عاشر جلال الدين الرومي وكان يحمل ترجمة شعره الإنكليزي في جيبه. هذا المطلع وما يليه متأثر بقول جلال الدين الرومي: سخرت وهي تقول نصفي ماء وطين ونصفي روح وقلب ونصفي من ساحل المحيط والباقي هو الجوهر الفرد.

لذلك كان جامع شعر ميهان الصور التي تبعد عن المكان والحوار الذي يشطر النفس إلى جزئين والوجد والصراع وبالأخص في قصيدته السفينة.

استقال ميهان من العمل في الحكومة وولج باب الأعمال الحرة، وذات نهار كان يراقب أحد العمارات فسقط مغشياً عليه ومات، وكثيراً ما سمعناه يردد بيت صالح بن عبد القدوس:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها　　فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى

كان لميهان ديوان مجموع، وقد استلفه أحد أصدقائه، فضاع الديوان ولم يبق غير قصائد متناثرة في الصحف، لأن جل شعره لم يُنشر. رحم الله الشاعر الشاعر فقد أفرد أفراد البعير المعبد، وقد كان كريماً يروي نفسه في حياته فَلْنَرْثِهِ في مماته.

مكاوي يعقوب [١٨٩٥ ـ ١٩٤٣]

اللغة العربية ثقافة وحضارة. فالذين يولدون في البيئة العربية ترضعهم اللغة العربية ثديها، فكم من أديب وشاعر وكاتب ولد في العربية فكان عربياً، إنها لغة لا تعرف التفرقة والتمييز، فمن الخطأ أن ينسب من ولد فيها أن ينسب لغيرها، فخليل فرح أصبح هو الشاعر المغني المعبر بها وعنها، وكذلك مكاوي يعقوب وحسن بدري وتوفيق صالح جبريل.

يرجع نسب مكاوي يعقوب إلى المحس، فقد تعلم في كلية غردون، وتخرج مهندساً وعاش حياته طولاً وعرضاً يزرع الحب ويحصد الجمال، والتف حول دائرة توفيق صالح جبريل وعابدين الخانجي وعبد الرحمن شوقي وأحمد محمد صالح، واشتعلت نفسه حباً ووطنية، فما عرف الجبن ولا خشي المستعمر، لأنه عابد للحرية، عاشق للجمال، كان الشعر هو روح حياته، ولا شيء غير الشعر ينير له الحياة، وجلس في مجالس فوز ينسج أهازيج الوطنية وفرد للحسن والوفاء والصفاء ومعه توفيق وعبد الرحمن شوقي، وقد كتب قصيدته (آمنة) باللغة العربية وغشى صالون أمينة خليل بالخرطوم، وكان خليل يلازمه ويلازم أصحابه، لأن خليل الفنان الشاعر لا يفيء لغير الحسن والجمال والحب. وفي لهب النقاش ووهج الوجد يدندن خليل بقصيدته، تطل في مطلع فيصغي له الإخوان، وينتظم الندامى في خشوع، ولا يعر صفوهم دخيل أو صفيق.

ومكاوي يهب، ينظم حبات قلبه ويستمعون كلهم لبعضهم، ويعود توفيق في اليوم التالي وقد أكمل الصورة في لوحة، ويقرأون ما كتبوه على شيخهم أحمد محمد

صالح فيشير ولا يدير، فيفهمون عنه، فيوضحون ما أراده، هكذا يصقلون أشعارهم، ويعود عبد الرحمن شوقي فيملأ الكأس دهاقاً حتى لا تكون بها ثمالة، لأنه يرى الحياة خالدة لا تتأثر في الزمن، تغور وتنتهي في الأبدية، فإذا قرأتم واحداً فاقرأوا الآخرين، مكاوي وأحمد شوقي وارجعوا إلى ما حكاه عابدين . . ويدلف لهم حمزة الملك طمبل ويزورهم توفيق أحمد البكري وبشير عبد الرحمن، عشر سنوات قضوها في هذا الملكوت حتى هبت عليهم رياح الثورة، ويحارب في رزقه، وكذلك شوقي، وينقل أحمد، ويشتغل عابدين في الآفاق وتوفيق ينسى، كأنه ليس من المرزوقين. . حكى الحكاية عابدين الخانجي وأثبتها نجله.

سجل مكاوي شعره في ديوان ظهر في الثلاثينات وقرأه الشبان، وفهمه من عرفه، ولكن لم يفسر أحد شعر مكاوي.

عندما يغزو الإحباط روح الشاعر لا طريق له إلا نافذتان: أن يحرق روحه كالفراشة في النار، أو يضم روحه في نور النسك والإيمان والصمت، لقد أحرق مكاوي روحه بالسهر والأسى والألم والشوق والحنين . . ظل شاعراً وهو يكافح في سبيل عيشه، والشعراء إما ملوك مرفهون آمنون، وإما غزاة محاربون، فقد كان غازياً فتربص به الاستعمار وزج به في السجن ليقهر روحه، ومرت السنون، فلم يذكره غير عشاق الحياة والحرية ومات مغموراً، وعبد الرحمن شوقي ذهب إلى الرياض وإلى مكة وجدة ثم عاد ليموت في أم درمان.

قال عبد الرحمن شوقي: تعلمت الشعر من أحمد، وقال مكاوي: تعلمت الشعر من حبي للحياة . . موهبة مكاوي ليست في ثقافته ولا في تعلقه بجيد الشعر العربي، موهبته أنه كان يصدر عن ذات نفسه . فاللغة عنده وسيلة لم يستحوذها ليصقل كلماتها ويهتم ببريقها لكنه عبر بها إلى رؤاه ودنياه، فشعره وجداني، وأغراضه الحب والوطن، وذكرى الأصدقاء ورثاؤهم، لم يركب مركب الشعر ليكون مكتفياً بالشعر، ولكنه ركب مركب الشعر ليتنفس به . . لا ترى أثراً للأقدمين والمحدثين في شعره، ففي الفترة التي ظهر فيها كانت مدرسة النقد الإنكليزي وكان شوقي وحافظ ومطران، ولكن كل هؤلاء لم يؤثروا فيه، ولا ندري إن كان يطلع على الشعر الإنكليزي، فأصدقاؤه يذكرون أنه كان يهتم بقراءة الصحف وكتب التاريخ والسياسة، ويراجع كتاب الأغاني والعقد الفريد . . وأصدقاؤه كلهم من شعراء الغناء والمغنين والحسان

والغيد.. اعترف له أبناء جيله بأنه شاعر من شعراء الوطنية، وهكذا عرفوه في المحافل وشيخ الأندية، ولكن أصدقاءه الملتصقين به يقولون إن حياته كانت قصة، وشعره ترجمة لهذه القصة.. فقد عاش قصة حب دامية، والناس حينذاك كتومون لم يصرحوا باسم المحبوبة.

تردد مكاوي في أيامه الأخيرة بين مصر والسودان وهو يعاني من المرض والإعياء، وهنالك نشر بعضاً من شعره في البلاغ ومجلة الصباح لم يتخير عن الفن العاشق القديم.. ويقال إن لمكاوي قصائد غنائية باللغة العامية، بعضها وجداني وبعضها وطني، وهذا يحتاج إلى تحقيق، فإبراهيم العبادي من أصدقائه وحسن بدري كذلك ولم يبق أحد من المغنين الذين عاصروه.

لم يطبع ديوان مكاوي إلا مرة واحدة في حياته، فقد نفد هذا الديوان، وهنالك نسخة واحدة أهداها الأستاذ نجيلة لدار الوثائق، ولم يكتب عن مكاوي إلا عرضاً في كتاب ملامح من المجتمع السوداني، ولكن إذا رجعنا إلى جريدة الحضارة ومرآة السودان وشعراء السودان لسعد ميخائيل نجد قصائد لمكاوي يعقوب.

لا يستطيع الناقد والمؤرخ أن يكتب عن مكاوي، إلا أن بعض الرموز في قصائده باللغة، كما قلت سالفاً هي وسيلة وليست غاية، لذلك فلنكن حذرين عندما نقرأ لمكاوي، ولا نتهمه بالإهمال والإسفاف وننزل شعره من عليائه.. هكذا كان الشعراء يحيون ويوجهون الحياة والفكر في بلادنا.

الدكتور مكي شبيكة [١٩٠٦ ـ ١٩٨٠]

ولد مكي شبيكة في منطقة النيل الأبيض وكان أهله من التجار النازحين من شمال السودان. وقد احتفظت أسرته بعلاقاتها مع أصولها في منطقة الشريق، ومبرات، والرباطاب في أم درمان، وكان بيت أسرته واسطة العقد بين القادمين والمسافرين، فكان يسمع منهم القصص والحكايات، وأول ما اهتم به كان الأنساب العربية في السودان، ولما التحق بكلية غردون، برز في علمين هما: الرياضة والتاريخ، فلما تخرج عمل في الخرطوم الوسطى وفي بربر الوسطى، فكان يحمل معه كتابين هما كتاب الرياضيات للملايين وأجزاء كتاب تاريخ المؤرخين، ويرجع إلى مظان تاريخ السودان، حتى إن نسخته من كتاب السيف والنار كانت مليئة بالتعليقات والحواشي، وكان يسخر من كتاب إبراهيم فوزي، السودان بين يدي غردون وكتشنر، استفاد من اثنين هما: الشيخ بابكر بدري ومن عمه الشيخ محمد علي شبيكة، كما أنه فطن إلى أمر ما زال حتى اليوم هو مشغلة المهتمين بمنشورات المهدي.

هذه المنشورات ليست من السهولة التي يسبر غورها كل متعلق بتاريخ المهدية، فمكي استطاع أن يرجع لمعاصري المهدية ويفك المعميات فيها، ولم يستمر مكي طويلاً في المدارس الوسطى، بل إنه بعث في أوائل الثلاثينات إلى جامعة بيروت الأمريكية، واختار أن يتخصص في التاريخ، ووفد على الجامعة أساتذة زائرون كثيرون، بعضهم أمريكيون وبعضهم بريطانيون وكانت بغيتهم تحقيق ما كان يُعرف حينذاك بالتاريخ الشرقي وهو قسم من التاريخ، واختص بالدولة العثمانية وممتلكاتها، وحكمها للعالم الإسلامي، ولم تتأكد هوية العروبة في دراسة هذا التاريخ، وانفرد

الدكتور أسد رستم بتدريس التاريخ الشرقي، فتنبه أول ما تنبه مكي شبيكة للتاريخ المصري الحديث، فمنذ بداية محمد علي باشا الكبير وصلة ذلك بالسودان، ولم يجد حتى تلك الفترة مراجع تذكر عن تاريخ السودان غير الذي كتبه الغربيون وبعض الرحالة الصحفيين، فلما نال درجته الجامعية نُقل ليدرس في كلية غردون، التاريخ العام والتاريخ الإسلامي، فتاريخ السودان ما كان يدرس في كلية غردون، فالإشراف على تدريس التاريخ كان للمدرسين الإنكليز، وبعض الإنكليز الذين كانوا يدرسون لفترة ثم ينتقلون للعمل في الإدارة، ولما أنشئت المدارس العليا نُقل مكي لها وذهب في بعثة لتحضير الدكتوراه في جامعة لندن فاستطاع أن يحقق أمنيته التي كان يسعى نحوها قبل الذهاب للمملكة المتحدة، إذ كان يقضي عطلته المدرسية في مصر يبحث في محفوظات عابدين، ولم ينس في تلك الفترة في الأربعينات أن يشارك في الكفاح الوطني، فكان عضواً بارزاً في مؤتمر الخريجين، وكان أقرب للاتحاديين وإن لم يتفرغ للعمل السياسي الكامل، ولما عاد في الخمسينات ليواصل مسيرته في كلية الخرطوم الجامعية صفا له الجو، فأبدع وأخرج كتبه في طبعات متعددة، وكان الحجة والمرجع الوحيد في تاريخ السودان الحديث، فمكي مؤرخ يعتمد على الأحداث والوقائع ويقف موقف الحياد التام في تقييم الأمور، ويتجرد عن عواطفه ويقدم الروايات المختلفة، وهذا هو منهجه في كتابة التاريخ، فكل حادثة لها مرجع، وقد يعتمد في بعض الأحيان على الروايات السماعية، ولكنه يقلبها ويردفها بروايات سماعية أخرى، فيترك ميزان التحكيم للباحث.

ولما تقاعد مكي في الستينات، حاول أن يتفرغ للعمل التاريخي بعيداً عن إطار الجامعة، فذهب إلى المناقل، وأقام فترة بنزيل، ولكنه ضاق بذلك، فذهب لفترة ليعمل في جامعة الكويت، فأخرج دراسته عن الاستعمار البريطاني في العالم العربي، فهذه الدراسة تختلف عن الدراسات التي كتبها غيره من العرب، إذ اعتمد على الوثائق والمحفوظات، ولم يذكر حادثة من غير مرجع، فإذا قارنا ما كتبه الدكتور محمد شكري وجورج بشير أنطونيوس وأمين سعيد نجد أن مكي شبيكة كان موضوعياً، وقد عاب عليه النقاد أنه لم يلجأ لتحليل الأحداث، كما قال هو خير طريق لمعرفة الحقائق.

وقد توج عمل مكي شبيكة في مصر بجائزة اعتراف وتقدير، عن كتابه عن تاريخ وادي النيل، فهذا الكتاب يُدرس كمرجع في كل الجامعات العالمية، وقد عمل

فترة في جامعة برنستون في الولايات المتحدة كما أنه أخرج بعض المؤلفات باللغة الإنكليزية عن تاريخ السودان، فمكي هو مؤسس مدرسة التاريخ السوداني وأستاذ المؤرخين الأكاديميين فقد تخرج عليه الدكتور إبراهيم أبو سليم والدكتور جعفر بخيت والدكتور صالح محمد نور والدكتور حسن إبراهيم والدكتور عباس إبراهيم محمد علي والدكتور يوسف فضل والدكتور حسن عابدين وغيرهم.

أتاح مكي شبيكة كأستاذ لكل طلبته أن ينتهجوا الطرق المختلفة في معالجة القضايا التاريخية، ولكنه أودع لديهم حب البحث والاعتماد على الوثائق والمدونات، فهم إن ساروا في وجهاتهم التي اختاروها، فإنهم يرجعون في النهاية بقيمة المصدر المرجع. . وأسلوب مكي شبيكة في كتابة التاريخ لم يعتمد على فخامة اللفظ وسحر الكلمة، ولكنه عني بسهولة التعبير والمعنى.

وقد توجت الدولة جهود مكي شبيكة في مهرجان الثقافة الثاني بجائزة الدولة في عام ١٩٧٨.

إننا لندين بالفضل في كتابة تاريخنا لهذا الرجل، لذلك نذكره بالإجلال والإكبار لأنه من أعظم الرواد في مسيرة نهضتنا الثقافية.

مكي عباس [١٩٠٩ ـ ١٩٧٩]

ينتمي مكي عباس إلى مدرسة خاصة في الفكر السوداني لم تجد الدراسة والانتباه، فهو من أبعد الملتصقين بالحركات الجماهيرية ومن العاملين على تعليم الجماهير وقيادتهم، إذ إنه كان يرى أن التنظيم الإداري والسياسي لا ينضج، ولا تستقر الأحوال إلا إذا تعلمت الجماهير، فالجماهير في حاجة لتوجيه وإرشاد، وشاركه في هذه النظرة إبراهيم يوسف بدري، لذلك لم يجد مكي عباس طريقاً له في عالم السياسة السودانية عند بدء حركات الأحزاب.

تخرج مكي مدرساً في عام ١٩٣١ وكان أول دفعته، ومن زملائه: محمد أحمد سليمان والهادي أبو بكر، وقد تخرج معه في الأقسام الأخرى يحيى الفضلي ومحمد عبد الرحمن النجومي، ولم تكن لمكي أي اتجاهات سياسية إبان دراسته، بل كان رئيس الرؤساء، فلما تخرج عمل فترة في المدارس الوسطى، ثم نقل إلى بخت الرضا فعمل مع المستر جريفث، وعبد الرحمن علي طه، ثم بُعث إلى المملكة المتحدة في فترة تدريبية في بادىء الأمر، فلما رجع بدأ مشروع تعليم الكبار في أم جر، وتفرغ لتدريس التربية الوطنية ووضع أسسها في بخت الرضا، وهي عبارة عن معلومات أساسية عن المذاهب السياسية والمنظمات، واستقال في عام ١٩٤٥ من عمله في مصلحة المعارف وأخرج جريدة الرائد، وقد كانت الرائد لسان حال الحزب الجمهوري الاشتراكي. اعتمد مكي على التقسيم الإداري للقبائل في شمال ووسط وغرب السودان، ورأى في الإدارة الأهلية سنداً لنشر الفكر الجمهوري الاشتراكي، وانضم إلى رأيه بعض نظار القبائل، ولم يستجب لدعوته غير نفر قليل من المثقفين.

فالاشتراكية حينذاك كانت تفهم بأنها ماركسية، حتى الذين تعلقوا في السودان بالاشتراكية الفابية لم يكن لهم أثر في توجيه المسيرة الوطنية، بل إن السياسيين رأوا في الاشتراكية الفابية ترفاً عقلياً ومسلاة، فالحرب العالمية الثانية غيرت المفاهيم.

وقامت جريدة الرائد بدراسة تغيير السلم التعليمي وناقشت فكرة براون، وقدمت دراسة محمد أحمد عبد القادر، وكان المرحوم محمد أحمد سليمان قد قدم رؤيته، ولكن الجريدة قد احتجبت قبل نشرها، وكان أهم الدراسات التي نُشرت في الجريدة المسح الاجتماعي الذي كتبه التجاني عامر عن مديرية النيل الأبيض والرسالة الثقافية التي كان يبعث بها حسب الرسول أحمد عرابي من لندن.

ولما احتجبت الرائد شد مكي عباس الرحال إلى بريطانيا ليكتب كتابه عن قضية السودان بجامعة أكسفورد تحت رعاية المس برهام، وقد كان مكي محافظاً وحريصاً في دراسته التي كتبها، وكان يخشى القفزة في تسيير أحوال البلاد وينادي بالتطور، وفي وقت كانت الثورة مندلعة في البلاد والأصوات تهتف بسقوط المستعمر.. وعاد مكي إلى السودان، واختير عندما سودنت الوظائف ليكون محافظاً للجزيرة، واستمر حتى عام ١٩٥٧ في تلك الوظيفة، وقد ركز على الخدمات الاجتماعية وتخطيط القرى وصحة البيئة. ولكن كانت هنالك مشكلة كبرى يتنازع حولها تجار وسماسرة القطن، وبعض البيوتات التجارية رأت أن تبيع بالسعر المفروض، فرأى مكي إجحافاً في ذلك، ورفض أن يبيع القطن، وقامت بينه وبين السيد عبد السلام أبو العلا رحمهما الله مساجلات في الرأي العام، واستقال مكي وانضم للمنظمة الافريقية، وظل يعمل فيها حتى عام ١٩٦٢، وفي إبان تلك الفترة كتب مكي دراسات عن التخطيط الزراعي وفرص التعليم ونشر الوعي الصحفي في القرية، واتخذ السودان واثيوبيا ونيجيريا ويوغندا وكينيا أمثلة له، كما أنه عني بتعليم الكبار كأسس للوعي الوطني، واستفادت بعض الدول الافريقية من ذلك، ورجع مكي يعمل في المؤسسات العالمية خارج السودان حتى عين رئيساً لمكتب السودان الاقتصادي في جنيف في منتصف الستينات، ثم التحق بمنظمة الزراعة والأغذية العالمية حتى أحيل على المعاش، فعمل خبيراً غير متفرغ في بعض منظمات هيئة الأمم لافريقيا في منتصف السبعينات، واستقر في الخرطوم في عزلة تامة بالرغم من الدراسات التي تحتفل بها المنظمات العالمية وتطبقها في كثير من بلدان العالم الثالث.

إن مكي يمثل مشكلة المثقف الذي وهب حياته للعقل والفكر المحض، فلم يستفد منه غير تلاميذه ومريديه، فإنه قد شخص الأمراض وعرف الأسباب، ولكنه لم يتصل بالجماهير، فقد يأتي الزمن الذي يرجع السودانيون لدراساته وأفكاره، فهو الذي عرف جيل الأربعينات بالمذاهب السياسية، وأوضح المؤسسات الدستورية، وكان رائد تعليم الكبار وأندية الصبيان التي انتشرت في كثير من بلدان السودان، وصاحب فكرة (مكتب النشر) وهو الذي مد حبال الاتصال التعليمي بين الجنوب والشمال، وكان من زملائه ورفقائه: سر الختم الخليفة ومحمد عمر أحمد وحسن أحمد يوسف ومن تلاميذه: عبد الرحمن الشيخ وعمر يحيى عمران. إن فكرة تعليم الكبار قامت في السودان قبل أن تتبناها هيئة اليونسكو وتقيم مراكز في بيروت وسري الليان، وقد يذكر السودانيون هذا الفضل لمكي المعلم. ولكن مكي المفكر المخطط لا يعرف عنه أبناء هذا الجيل شيئاً، فالدراسات المحكمة عن التخطيط التعليمي والاجتماعي التي سجلها مكي، موجودة في سجلات هيئة الأمم المتحدة، فلنرجع لها لنضع هذا الرجل في مكانه المرموق في حياتنا الفكرية.

الدكتور منصور علي حسيب [١٩٠٦ ـ ١٩٧٣]

بيوت العلم والدين في السودان حفظت للناس عقيدتهم ورفدتهم بالمعرفة، وأبقت اللغة العربية حية خالدة في كل العصور، فلا الغزوات ولا الفتوحات استطاعت أن تهز كيان هذه الأمة وما استطاعت أن تقهر روحها. وبيت الشيخ حسيب يلمع في تاريخنا الفكري ويضيء صفحاته. ففي بربر والمكيلاب وعنيبس ودار مالي وكنور وعطبرة حج الناس إلى مجلس الشيخ حسيب يتلقون العلم. وولد الدكتور منصور علي حسيب في هذا البيت المعمور كما ولد أخوه الأكبر الشاعر حسيب علي حسيب وأخوه القاضي مجذوب علي حسيب.

تلقى منصور تعليمه في كلية غردون وكان طالباً مجداً نابغة في كل الدروس وقد قرض الشعر وشارك في المحافل بشعره فرثى حسين شريف وأرسل الشعر في منابر المولد النبوي الشريف ومحافل الهجرة، كما أنه ترجم وهو طالب محاضرات السير هارولد مكمايكل عن دخول العرب في السودان. ولما تخرج من كلية الطب عمل فترة في المستشفيات ثم لزم البحث العلمي في الجراثيم والميكروبات وحقق أول انتصار له بمشاركته في اكتشاف ميكروب السحائي في عام ١٩٣٧، كما أنه أجرى أبحاثه في أنواع الملاريا ومواطنها وعمى الجور، وتفرغ بعد ذلك للطب المعملي في معمل استاك، ولم يمنعه التخصص أبداً أن يشارك في الحركة الوطنية والفكرية في السودان. فقام بإلقاء العديد من المحاضرات في نادي الخريجين بأم درمان شيخ الأندية ودخل في لجنته وانضم لمؤتمر الخريجين، وقد انتخب مرات رئيساً لنادي الخريجين بالخرطوم عندما أقام في الخرطوم.

كان البحث العلمي مقصوراً على البريطانيين، وقد حاوله الدكتور علي أرباب عندما بدأ يدرس أسباب التراخوما والرمد في شمال السودان فأغلق الباب أمامه لأن الطبيب في تلك الفترة قصد له أن يكون ملازماً للمستشفى يعالج المرضى فلا يسمح له بالدراسات المتخصصة ولا يسمح له بفتح عيادة، فالعيادات كانت وقفاً على اليونانيين والأرمن والسوريين وبعض الأجانب. لذلك كان نشاط الأطباء السودانيين نشاطاً ثقافياً وأدبياً، وقد يضيق بعضهم بذلك فتفسد حياته ويصيبه الفتور والهبوط النفسي فيتردى في صراع وعذاب. ولكن الدكتور منصور علي حسيب شق طريقه في صمت وجهاد وكتب أكثر من ثلاثين بحثاً في الطب الوقائي، كما أنه اكتشف كثيراً من ميكروبات الأمراض المستوطنة في السودان. وفي كلية الطب سجل حافل بدراساته ودراسات من جاؤوا بعده. فالدكتور منصور يعد رائداً لأنه شق الحجاب الحاجز بين ممارسة الطب والبحث فيه.

أما عطاء الدكتور منصور علي حسيب الفكري ليس فقط فيما ترجمه ونشره من مقالات، بل مبادرته في تعريب الاصطلاحات الطبية. فقد كان رحمه الله متمكناً من اللغتين العربية والإنكليزية. وكان قارئاً دارساً لكتب الطب العربي وعارفاً بمقابلة الاصطلاحات اللاتينية بالاصطلاحات العربية، والقارىء لأبحاثه، سواء بالإنكليزية أو العربية يجد أنه قدم إضافات كثيرة واكتشافات في ميدانه لم تكن معروفة لدى العالم.

وقد أصبح الدكتور منصور بعد ذلك أستاذاً وعميداً لكلية الطب في السودان، وكتبت عنه الدوريات العلمية في العالم واهتمت به المحافل الدولية. عُرف الدكتور منصور علي حسيب باحترامه لنفسه وللآخرين ودقته وحرصه في سلوكه ومواصلاته مع الناس، وانفرد بالدقة والنظام. فحياته كانت منتظمة قائمة على توقيت وتحديد. ومع أنه كان رجلاً اجتماعياً، إلا أن أماكن لقائه كانت في أندية الخريجين. فكان بذلك مثال العالم الفاضل الذي يضرب المثل لغيره، وكان شجاعاً ومنطقياً في إبانة ومعرفة، لا يعمد للجدل والمهاترة، بل يصدر كل كلمة عن علم. وابتعد عن الحياة الاجتماعية بعد قيام الأحزاب وانفضاض مؤتمر الخريجين. ولم يقف مع حزب من الأحزاب وتفرغ لمزيد من الدراسات والأبحاث مع أنه كان ملء السمع والبصر. ومرت السنون فلم يعرفه غير طلبته، ولكن الباحث في الحضارة وفي جريدة السودان يجد بعض ما كتبه

ونشره كما يجد طرفاً من أخباره، ولكن الباحثين في المجلة البريطانية الطبية يجدون له كثيراً من الأبحاث والاكتشافات. وفي بعض كتب الطب الوقائي وأصول الأمراض إشارات إلى الدكتور حسيب.

إن كان الدكتور منصور علي حسيب، رحمه الله، قد بدأ البحث العلمي في الطب منذ منتصف الثلاثينات في زمن لم تكن فيه الفرص سانحة ولم تكن فيه الإمكانات متاحة فذلك يدل دلالة واضحة على صفاء في الذهن وبصيرة خارقة جعلت المتسلطين يسمحون له بالبحث والمثابرة فهذا فضل من فضائل النفس العالية يؤكد مكانه بين رواد الفكر السوداني.

ميرغني حمزة [١٨٩٥ ـ ١٩٧٣]

نشأ ميرغني حمزة في بيئة مثقفة ميسورة، وكان منزل أسرته في أم درمان، من أبرز البيوتات في أم درمان، فقد أُنشىء فيه ميدان تنس في عام ١٩١٢، كما أنه جمع أقرباءه وأصدقاء أسرته: كالدرديري محمد عثمان، وإبراهيم صالح سوار الذهب، وسيد أحمد الفيل، وخلف الله خالد، وتكونت فيه حلقات للقراءة والدراسة، ونبغ ميرغني حمزة في دروسه منذ مطلع حياته المدرسية وأشاد به الدكتور فيلتي الذي كان يشرف على قسم الهندسة في كلية غردون وعندما تخرج ميرغني حمزة من الكلية في عام ١٩١٤ اختار الهندسة المدنية والتحق بمصلحة الأشغال، وكان عضواً بارزاً في نادي الخريجين، ومنذ أواخر العشرينات أصبح من كبار الموظفين في حكومة السودان، وعُرف في الأوساط الثقافية بأنه مطلع وقارىء وأديب، فلما عمل في الدويم في الأربعينات طاب له العمل بين المدرسين، وفتح بيته وصالونه للدراسة والنقاش، وقد تلقى ميرغني حمزة دراسته بالإنكليزية، لكنه انفرد بخاصية غريبة، وإن لم يكن خطيباً، وهي سر عجيب في إدراكه لأبواب الفعل العربي وهمزة الوصل والقطع والمد والإدغام، وقد استمعت إليه أكثر من عشرين مرة فلم أعرف له خطأ في وزن الفعل العربي ولا حتى الصفات التي على صيغة اسم المفعول.

فقد كان رجلاً منظم الفعل، مُنظم الزمن، للقراءة أوقات وللنزهة أوقات، وللكتابة أوقات، وللعب التنس أوقات، ولم يكن أصدقاؤه كثراً، ولكن صالونه كان مفتوحاً للجميع، فتجده يشارك في الحديث عن الزراعة ووسائل الري مع الأخصائيين: كوديع حبشي، وحسن كافي، وعن صحة البيئة، وعن هندسة

المجمعات المدرسية، فهو أول من نبه لطبيعة أرض الخرطوم فإنها لا تحتمل على المدى البعيد لإقامة عمارات ذات طوابق متعددة، إلا إذا عمق الأساس، وأول من نقد شوارع الخرطوم التي أسست على نظام العلم البريطاني (اليونيون جال) وقال في مذكرة له إنها شوارع مؤقتة وإن تخطيط الخرطوم وأم درمان تخطيط عشوائي، وله مذكرة عن تخطيط بورتسودان في عام ١٩٤٧ قبل الاستعانة بمؤسسة أوروبية في عام ١٩٥٧ فيها أن بورتسودان يجب أن تهدم كثير من المباني فيها، ويعاد تخطيطها، كما أن مباني الأسلكة هي العائق الأول لميناء بورتسودان.

وهو صاحب القول المشهور في بناء حمام سباحة بخت الرضا، فقد أفتى أحد المهندسين الجامعيين من الإنكليز أنه لا يمكن أن يقام حمام سباحة لمعهد بخت الرضا لأن الأرض زراعية تتآكل، فرسم خطة تمكن بها من بناء الحمام، وقال قولته: «ليس هذا في الكتب» وقد وصفه السير دوغلاس نيوبولد هو ومكي عباس فقال: في كل مليون شخص يوجد واحد كميرغني حمزة، وفي كل مليون شخص يوجد واحد كمكي عباس.

اشترك ميرغني حمزة في وزارة الجمعية التشريعية وكانت له ميول اتحادية وصلات مع الختمية، ولما نال السودان استقلاله أصبح ميرغني حمزة وزيراً لثلاث وزارات هي: وزارة التربية والمعارف حينذاك ووزارة الأشغال والري ووزارة الزراعة، واختلف في عام ١٩٥٤ مع حكومة الوطني الاتحادي الذي كان عضواً فيها، وخرج مع خلف الله خالد وأحمد جلي وكونوا حزباً، ثم انضم لحزب الشعب الديمقراطي ودخل الوزارة في عام ١٩٥٧ حتى قيام الحكم العسكري في ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٨، ثم أصبح مديراً لشركة الاسمنت بربك.. واشترك في كثير من التصميمات والإنشاءات الهندسية وعلى رأسها مباني جامعة الخرطوم.

هذا هو ميرغني حمزة المهندس، أما ميرغني حمزة السياسي فقد كان رجلاً واقعياً يفكر في النتائج والعواقب، قبل الشروع في التنفيذ، لذلك لم يكن عمله السياسي طموحاً، بل كان حذراً يسير بالخطوة، وكان ينظر إلى الطاقات والإمكانات الاقتصادية التي ينشأ في إطارها أي إنجاز فيؤجل ويقسط ويخصص، والناس في تلك الفترة كانوا طموحين، فلما كان وزيراً للمعارف تقدم بمشروع يضم كل المدارس الأهلية للوزارة

لكنه أرجأ إضافة المدة السابقة للمعلمين قبل الاستيعاب، فخلف بذلك مشكلة لم تحل إلا في عام ١٩٧٧، ورفض أن يضم المشاريع الزراعية لوزارة الزراعة وقدم الأسباب لذلك.

أما ميرغني حمزة المثقف الأديب فالحديث عنه طلي وشهي، أترى لمهندس أن يتحدث عن شعر الأطلال، وعن امرئ القيس وعن عمر ابن أبي ربيعة في ليلة من الليالي، وفي ليلة أخرى يقدم دراسة عن كتاب السودان من الداخل، إعداد هاملتون، وفي ليلة أخرى يتحدث عن فكر العقاد السياسي، كان متعدداً متنوعاً، لا يتكلف ولا يتحمس في الغاية، فهو بسيط وعميق، واضح ولماح، مهيب ومخيف وودود وقاهر.

التف حوله عدد من الشبان المثقفين، فنظر إليهم نظرة النظير إلى النظير، وفتح لهم مكتبته العامرة بصنوف المؤلفات، فهو من القراء المثقفين، يقرأ في يسر ويراجع ما يقرأه في قياس وإدراك، وهو عندما يتحدث تدرك سعة اطلاعه، ولكنه لم يكن يوماً من الذين يتباهون بذكر الأسماء، وعناوين الكتب إلا إذا اقتضى الرجوع إلى صاحب الفكرة.

وميرغني حمزة أول من دعا لتغيير السلم التعليمي عملياً، كوزير للمعارف، ورتب حضور بعثة دولية من مصر وبريطانيا وأمريكا، وبعض البلدان الأخرى، ولكنه لم يتابع أعمال هذه البعثة لأنه ترك لهم الحكم.

أجل، لميرغني حمزة كتابات كثيرة ومذكرات، والمؤسف أن أبناءه الكبار قد توفوا ولم يبق غير واحد، وقد كان المرحوم حمزة ميرغني يسعى لجمع هذه الكتابات مع مذكرات والده، ولكن المرض قد طال بحمزة رحمه الله وأنهكه فلم يتوفر على ذلك.

فمن حق تاريخ الثقافة السودانية أن تجمع آثار ميرغني حمزة، وتطبع مذكراته وتؤرخ حياته.

يوسف مصطفى التني [١٩٠٧ ـ ١٩٦٩]

وعندما يُذكر يوسف مصطفى التني يتبادر للذهن محمد أحمد محجوب، ومحمد عشري الصديق، ومرضي محمد خير، نخبة النخبة عاشت في جو فكري مشترك، كل واحد منهم مهندس، تقاربت مشاربهم، والتقوا في مناخ فكري واحد، كانوا يقرأون الكتاب الواحد، وينظمون في معنى واحد، ويطرقون بحراً واحداً، ولكن الزمن لا يعرف بنيه، فقد فرق بينهم في الآفاق، محمد أحمد محجوب هجر الهندسة إلى القانون ثم إلى السياسة، التني هجر الهندسة للعمل في الجيش ثم إلى الخدمة المدنية ثم إلى الدبلوماسية، محمد عشري هجر الهندسة للعمل كمترجم ثم صحفي ثم ضابط في الجيش ثم للعمل في السوق، يراجع حسابات التجار، ومرضي محمد خير (ميهان) هو الوحيد الذي لزم الهندسة حتى مماته.

كتبوا جميعاً في النهضة ثم في الفجر، وكان كل واحد منهم يطري عمل الآخر، ويشيد به، لذلك يعتقدون أنهم في مدرسة واحدة.

درس يوسف في كلية غردون، وتخرج مهندساً، وعمل في أماكن مختلفة، ولكن ذلك لم ينعكس في شعره غير قصيدة عن جبيت في ديوانه الأول «صدى الأدب»، أما شعره في ديوانه هذا فيكاد يحكي قصة حب مع إنسان واحد، كما أن أثر العقاد ظاهر جداً، بدرجة أن المعاني والصورة تكاد تكون متشابهة، وبعد ذلك اتخذ التني طريقه المنفرد في الشعر، وتحرر من أثر العقاد وشكري.

تميز شعر التني بأنه غنائي، فقصائده إما سونيات أو سيرنادات، فالقدرة التي يشكل بها التني الألفاظ والمعاني تنبع من شحنات موسيقية لذلك لا تراه يخلط بين

الأبحر العربية، كالبسيط والخفيف والمنسرح، فقد كان جيل الصوت، أنيق الألفاظ والإلقاء. وشعره في مرحلته الثانية بعد ١٩٣٩ ـ ١٩٥٤ نبع من التجربة والمشاهدة والتأمل والقراءة ولكنه لم ينتهج منهج الفلسفة والحكمة، وإن كان قد صاحب المتنبي، والمعري في أثناء عمله في الجيش، وقرأ صالح بن عبد القدوس، فإذا نظرنا إلى ديوان التني في طبعته الثانية، نجد تطوراً وعرراً في كل مرحلة، حتى إنك قد تنكر صاحب المرحلة ولا تنسبه للمرحلة التي تلتها.

شغل يوسف وظيفة رئيس تحرير الأمة في عام ١٩٤٥، ولكن طبيعته الشاعرة وعلاقاته مع أبناء جيله، وشغل الحياة الحزبية جعلته يرفض الصحافة الحزبية التي كانت مهاترات وخصومات وتمزيقاً لوحدة الصف. دعي إلى الوظيفة، فالتحق بمصلحة العمل حتى أصبح مديراً لها، ثم انتقل للعمل سفيراً في وزارة الخارجية، ومنذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٦٥ رأينا شاعراً آخر غير الذي عرفناه في المرحلتين السابقتين، لقد سلك يوسف طريق الصوفية وتأثر بالشعر الصوفي في الأدب السوداني القومي، وحفظ كثيراً من المدائح النبوية، ونسج شعراً صوفياً رائعاً ساحراً مبنياً باللغة العربية الفصحى وباللغة العامية، وهجمت عليه العلة، بعد أن تقاعد وواصل العمل في هيئة الأمم، وهو في طائرة قادمة من اليمن أصابه الفالج، وظل يعاني الداء أكثر من عامين حتى توفي في ابريل ١٩٦٩.

لعل الذين يحفظون الأغاني الوطنية يذكرون قصيدته الشهيرة «في الفؤاد ترعاه العناية»، هذه القصيدة هي التي ألهبت الشعور الوطني، ودعت لتأسيس مدارس وطنية للبنات، وكانت من بشائر اتحاد الخريجين بعد الصراع على رئاسة شيخ الأندية في أم درمان.

إن اتصال يوسف مصطفى التني بالحركة الاستقلالية كان اتصال صداقة ومودة بين صديق مع أصدقائه ولم يكن خطاً سياسياً، لأن الأحزاب عندما قامت، قامت على أنها أسلاب لمؤتمر الخريجين ولم تستند إلا على الصلات لأنها في النهاية وصلت للاستقلال.

يسألونك ماذا قدم يوسف مصطفى التني للحياة الثقافية في السودان؟

إن يوسف عُرف كشاعر ولم يُعرف ككاتب، ولكن يوسف كان كاتباً ناقداً سجل آراءه في الفجر وفي النهضة، وقدم دراسات عن الشعر والجهال والإبانة، لكن الشعر شغله عما عدا ذلك، فالمدرسة الحديثة في الشعر السوداني قامت على جهود يوسف ومحجوب وميان، حدد هؤلاء الثلاثة طريق التجديد في الشعر، ورسموا الطريق نحو الانفتاح على مذاهب الشعر الحديث في الشرق والغرب، لقد كان قبلهم شعراء كأحمد محمد صالح وتوفيق صالح جبريل وعبد الرحمن شوقي ومكاوي يعقوب وعبد القادر تلودي طوروا الشعر السوداني وخرجوا عما بدأه عبد الله عمر البنا وعبد الله عبد الرحمن وعبد الله حسن كردي ومحمد الأمين القرشي، ولكن المدرسة التي تزعمها التني وأكملها محجوب هي مدرسة شعر النفس والطبع، وهي التي مهدت للشعر الذي طوره محمد المهدي مجذوب وصحبه، دفعه تحرير للشعر السوداني الذي كان شعر مناسبات ورثاء ومدح وتقليد لفحول الشعراء، ونحن عندما ندرس التني ندرسه في محتواه التاريخي ولا نطبق عليه المذاهب الحديثة في النقد. في انفصال عن الحقبة التاريخية، شعره يحكي قصة روح في أطواره الثلاثة، ففي الطور الأول يحكي قصة العاشق المفتون بإنسان وفي الطور الثاني يحكي قصة المتثاقل والمتردد، وفي الطور الثالث يحكي قصة الوصول والاستقرار، ولو درسنا الشعراء الثلاثة، محجوباً والتني ومرضياً لرأيناهم يمرون بأطوار ثلاثة ولكن كل طور يختلف عن الآخر.

كثير من الشبان جربوا الشعر وقرأوه في شبابهم، وبقي ما بقي من شعرهم، ولكنه لا يشكل قسمة قسمات الشعر السوداني، وغيرهم اختط طريقاً في الشعر هو طريق الأقدمين، ولعل بعضهم قد أبدع ولكن لم يضف جديداً للشعر السوداني. في نفس الفترة التي تألق فيها التني كان في بلادنا شاعر عملاق هو التجاني يوسف بشير، فالتجاني قد زاد في الدفعة التي قدمها التني ومحجوب ومرضي، وقفز فوقها دفعات، إذ ربط الشعر بموضوع الشعر وخاصة من جزئياته، فالثلاثة الأول طافوا بالشعر حتى نصف الدائرة، والتجاني أكمل الدائرة، ثم جاء المجذوب فملأ الدائرة وولد من الثلاثة كل شعراء اليوم، وكان رأس أسرة الشعر الحديث هو شاعر النفس والروح، يوسف مصطفى التني.

يحيى الفضلي [١٩١١ ـ ١٩٧٤]

دخل للدنيا ثائراً، لم تستقر حياته، بل كانت حركة دائبة ونشاطاً مفرطاً يتحدى الحدود، ومنذ سني دراسته الأولى برز بين أقرانه وأترابه، لم يكن المتفرغ المتفوق في دروسه، بل كان الظاهر والواضح بين رفاقه في الفصل والمدرسة. خلق مميزاً، له صفاته الخاصة به، فهو ملحوظ بين العشرات والمئات يختلف عنهم ولكنه يكملهم ولا يكملونه. وفي كلية غردون كتب في الصحف وجلب الصحف والمجلات إلى أروقة الكلية وهي محرمة ومحظورة ونظم الشعر ونقد الأساتذة والحكومة، وفي أحد الاحتفالات ألقى قصيدة سينية نظمها حسين منصور يهجو فيها النظام الاستعماري ورائده المستر «يودال». وكاد أن يُفصل واستبدل الفصل بالعقوبة البدنية. وخرج يحيى الفضلي إلى الوظيفة فعمل محاسباً في المالية. وقسم حياته بين تجمعات الأدب والأدباء. وكان قد أعد مع صديقيه الهادي أبو بكر وعبد الله قاسم راسخ كتاباً عن الشعر الأندلسي فقدمه هذا البحث إلى محمد أبو بكر عليم صاحب كتاب الدر المصون في شرح رسالة ابن زيدون. وربطه مع حسين منصور وجعله يغشى مجلس أبي الطيب السراج ويتبوأ مكاناً في نادي الخريجين بأم درمان. فحسبه أن نسيبه محمد علي شوقي أحد كبار الخريجين. فصالون محمد علي شوقي قد حفل بأعلام المجتمع ودهاقنته. إذ اعتاد أن يلتقي به محمد صالح الشنقيطي وإبراهيم أحمد ويوسف بدري وكبار رجال الحكومة فيتناقشون ويتدارسون أحوال المجتمع، وكانوا أشبه بمؤسسة لرعاية الفكر.

واستطاع يحيى أن ينفذ إلى صالون السيد محمد الخليفة شريف وهو رجل أديب مطلع فصار يجمع الشعراء والأدباء في ذلك الصالون حتى أوصلهم إلى مجلس السيد

عبد الرحمن المهدي، يقدمون قصائدهم وينشدون أشعارهم ويحكم لهم ويقيمون. وبرزت جريدة النيل فكان يحيى من كتابها والمساجلين على صفحاتها. وأسلوبه نسيج وحده، رصعه بالكلمات الرنانة والأمثلة والشواهد ربطها بأقوال البلغاء الأقدمين. تحس فيه قدرة يحيى على التصوير والتمثيل.. وتثير مجلة الفجر مشكلة الأحزاب والطائفية فيكتب مقالة الشهر (هاؤم اقرأوا كتابيه). فيعقد له مجلس تأديب يقضي بتغريمه مرتب نصف شهر. وينشأ المؤتمر فيكون يحيى من أعظم دعاته وأوضح أعضائه فيصطدم معه من يصطدم. وهو رجل كاسح وخطيب مرتجل مفوه. وتقوم الحركة الوطنية فنرى يحيى يتسنم مكانه في الصدارة. ويتكون حزب الأشقاء فيثبت يحيى فيه من أقوى أعمدته. ويرسل يحيى قلمه، ويصطرع الجدل السياسي بينه وبين معارضيه فيكتب كأنه يبدع قطعاً أدبية قُصد بها التصوير والتعبير الفني قبل أن يوجهها وجهة سياسية فتذكرنا بيوسف بن أحمد، ابن العميد، وابن المقفع في رسائلهم الأدبية. فمحفوظ يحيى من التراث العربي وفير منتقى، ومعرفته بأجياد الكلمات وألوانها وتطعيمها فريد وفنان.. خرج يحيى ليكون أديباً ولكن الأقدار حولت مساره، فالأدب حينذاك لم يكن غير المسلاة والهوانة، فإنه لم يطلب لذاته بل طلب كواسطة بين الأشياء.

يتفرغ يحيى للسياسة ويختلف فيها عما أراده أهله وصحبه وعشيرته لكنه لم يقطع شعرة معاوية. فالاختلاف في الرأي لا يفسد بين الأحبة قضية. يرثي من يموت، ويهنىء من يتسم له الدهر، ويواصل، ويجامل. عقله المتقد الفوار يعرف كيف يوفق بين التباين، ويباين بين التوافيق. لم يكن رياضياً ولا هندسياً لكنه كان مجادلاً، فلو توفر على الجدل لأقام دولة للمناظرين في القرن العشرين. فلقد انتهت المناظرة في الثقافة العربية منذ القرن الرابع الهجري وختمت عند اليونان بمجادلات أفلاطون

هذه المكانة هي سر من أسرار شخصية يحيى الفضلي، غيره لجأ للهجاء السياسي ولكنه عمد للمناظرة السياسية.. ولج باب السياسة فما انغلق في سراديبها وجبَّه هديرها وضوضاءها لكنه فتح الكتاب وأتى أمامه يستظهر الشعر ويرويه، ويحفظ كتاب الله ويستعين بآياته ويقرأ في نهم منوحش. وفي رحاب بيته المؤيدون والمخالفون يكرمهم بأدبه ورفده. كم يلجأون إليه ليزيل الفروق بين أهل الوطن الواحد. لم يكن أبداً في غفلة فتفاجئه الأحداث ولكنه كان يلاقي الأحداث في أول الطريق وليس في

مفترقه. لذلك كان يخاف منه الناس ويخشونه ولا يقدرون أن يبتعدوا عنه خشية أن يقترب منهم ليبعدهم عن أنفسهم.. إنه أشبه بجانوس في الأسطورة.

إن معبد جانوس أو يانوس، إذا أردت، هو بوابة مقوّسة في شكلها. أقيمت في الطرف من الشمال الأقصى من السوق الروماني. والإله الذي أوته إليها له وجهان متعاكسان أحدهما ينظر إلى الشرق والآخر إلى الغرب. يقفل معبد هذا الإله الأسطوري وقت السلم.

إن قدرة يحيى على رؤية الأشياء من أمامه وخلفه هي التي أوضحت شخصيته... كان أديباً وكان خطيباً وكان محدثاً وسامراً. ولكن لم يكن له من مجال في مجتمع نام إلا أن يحط في ميدان السياسة. فقد كانت السياسة في النشاط الإنساني الوحيد لأصحاب الملكات في تلك الفترة؛ فكم صوحت شاعرية فذة في أغوارها، وكم ضاع قلم ممتاز في أحراشها.

عاش يحيى سنوات قليلة بعد ثورة مايو. ويحيى الذي نذر نفسه للقدر تحمل الفقر، غني النفس لم يتبدل مظهره ولم يتغير مأكله.. تمنى الخير للسودان. وبدأ يكتب مذكراته يحسب السلبيات لنفسه كما يحسبها لغيره، ويراجع المواقف فلقد عاش في فترة كانت احتداماً وخصاماً. ولم يكن فيها صفاء. الحركة دأبها والانطلاق مسارها ولا توقف. فمنذ أن قلبت الصفحة عاد يحيى القديم الأديب، الراوية الشاعر الصناع، عاد للشعر والذكريات ونسي كل ما كان بالأمس. ففي هذه الفترة كتب يحيى رسائل بليغة، جمع فيها الحنكة والتجربة وفحولة الفن واكتمال المعرفة باللغة العربية.. انصرف كل أصحابه الأقدمين مات من مات وأعيا المرض من إعياء، وأقعدت الأيام من أقعدت، ولكن حتى الساعات الأخيرة، كان ذهن يحيى يلتمع ويضيء. تجاوز ما هو محسوس إلى ما هو معقول، وما هو واقع إلى ما هو ثابت.. هذا التجرد جعله يحب وطنه ويحب له الخير.

إن الرجل له سماته في تاريخ الفكر السوداني، فهو ليس بيننا ولكنه في حياتنا. فلقد ذهب الفاني وبقي الخالد الواضح.. يحيى كاتب المقالة الجدلية والمناظر والمصور بالقلم والمحكي باللغة العربية المبينة مما جعل للغة العربية مكاناً في قلوب القراء والسامعين.

لقد كان الرجل أسلوباً وكان الأسلوب هو الرجل. فعندما نكتب تاريخ الأدب السوداني يرفع أسلوب يحيى في الكتابة إلى مرتبة البلغاء. وعندما نكتب تاريخ الفكر السوداني نكشف عن قوة الجدل وبراعته ما تميز به ذهن الفضلي. إن وحدتنا في الاعتراف لذوي الفضل علينا. فالسابق يفيد اللاحق والأمة التي ليست لها ماض لن يكون لها حاضر.. وعلماء التاريخ يقولون إن الماضي هو طريق المستقبل، فاعترافنا بروادنا وإن خالفناهم هو اعتراف بأمتنا. فقد ذهب القياصرة والقديسون في قصور موسكو ولكن بقيت صورهم وتماثيلهم، فهذا هو إرثنا وهؤلاء آباؤنا فهل ننكرهم.. رحم الله يحيى الفضلي الكاتب البليغ والخطيب الساحر والمحدث اللبق.. لقد كان أسلوباً في حياتنا الفكرية.

الفهرس